

سلسلة تفسير القرآن الكريم



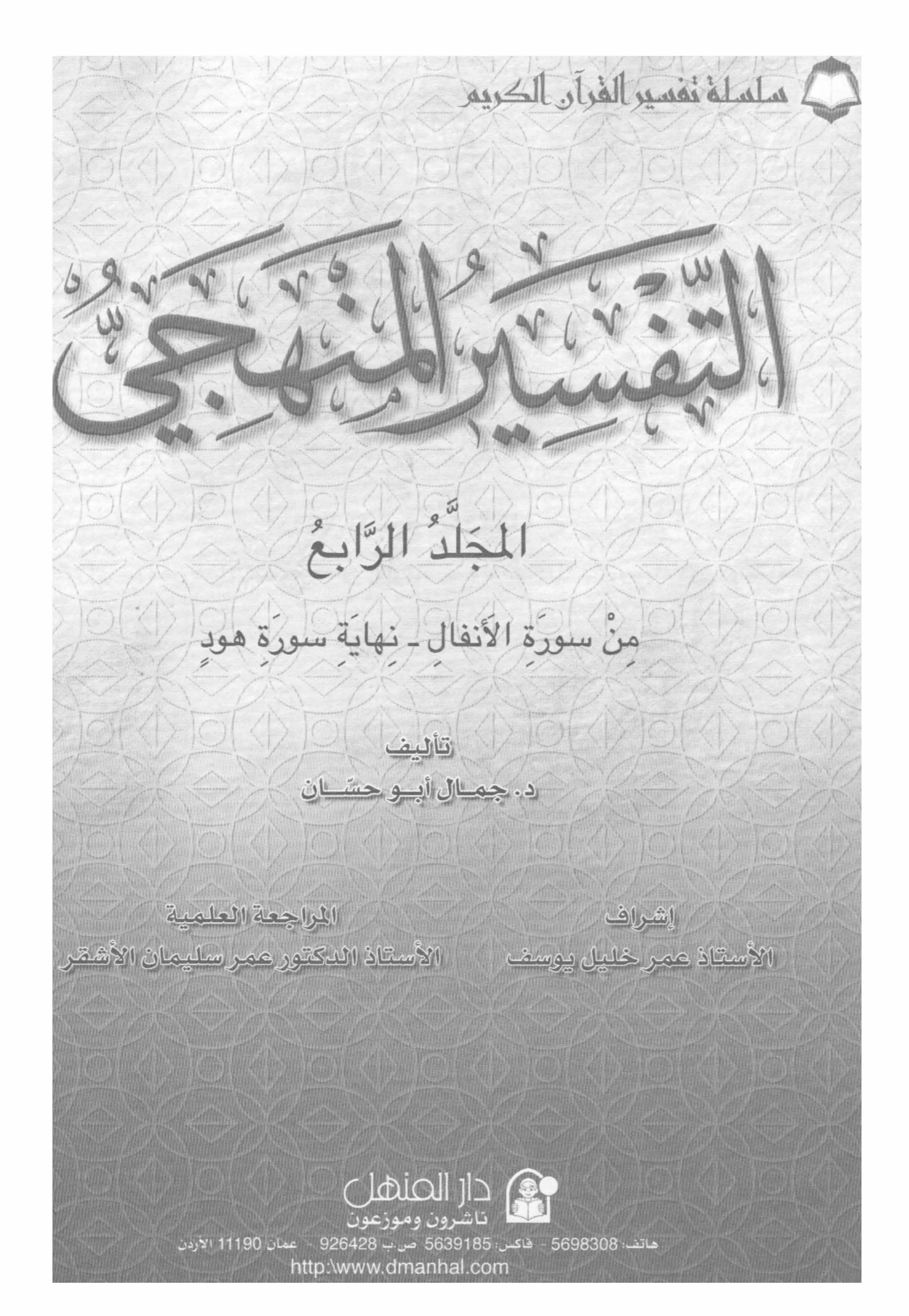
التفسير المنهجي

المجلدُ الرَّابعُ

مِنْ سُورَةِ الأَنفالِ ـ نِهايَةِ سُورَةِ هودٍ



تأليف
د.جمال أبو حسّان



سلسلة تفسير القرآن الكريم
التفسير المنهجي
المجلَّدُ الرَّابعُ
مِنْ سورَةِ الأنفالِ - نِهايَةِ سورَةِ هودٍ
تأليف
د. جمال أبو حسّان
إشراف
الأستاذ عمر خليل يوسف
المراجعة العلمية
الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر
دار المنهل
ناشرون وموزعون
هاتف: 5698308 - فاكس: 5639185 ص.ب 926428 - عمان 11190 الأردن
http:\www.dmanhal.com



الطبعة الأولى

2006

رقم الإجــازة : 1621 / 6 / 2006

رقم الإيــداع : 1501 / 6 / 2006

التصنيف الدولي: 0-522-08-9957



الجُــزْءُ الأَوَّلُ

مِنْ سورَةِ الأَنفالِ - نِهايَةِ سورَةِ التَّوبةِ

مؤلفو السلسلة

- الأستاذ الدكتور فضل عباس
- الدكتـــور أحـــمـــد نوفل
- الدكتـــور صلاح الخـالدي
- الأستاذ الدكتور أحمد شكري
- الدكتـور جـمـال أبو حسّـان

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المُقدِّمَةُ

الحمدُ للهِ رَبِّ العالمينَ ، وَالصَّلاةُ والسّلامُ على نبيِّنا محمَّدٍ خاتمِ الأَنبياءِ والمُرْسَلينَ ، وعلى آلهِ وصَحْبهِ ومن سارَ على دربِهِ إلى يومِ الدينِ ، وبعدُ ،

فإنَّ القرآنَ الكريمَ هُوَ كلامُ اللهِ المُعجزُ ، أنزلَهُ على نبيِّهِ مُحمَّدٍ ﷺ ؛ ليُخْرِجَ به الناسَ من الظُّلُماتِ إلى النّورِ ، ويَهدِيَهُم به إلى كلِّ خيرٍ ورشادٍ ، كما قالَ سبحانَهُ : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ (إبراهيم : ١) ، وقالَ تعالى : ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (المائدة : ١٥-١٦) .

وقد وردَ في عَدَدٍ مِنَ الأَحاديثِ الحثُّ على تعلُّمِ القرآنِ ومُدارَسَتِهِ ، ومِنْ ذَلِكَ قولُهُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ :«خيرُكُمْ مَنْ تعلَّمَ القرآنَ وعلَّمَهُ»[1] ، وَقولُهُ : « وما اجتمعَ قومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللهِ يَتْلُونَ كتابَ اللهِ وَيتدارَسُونَهُ بينَهم إلاَّ نَزلتْ عَلَيْهِم السَّكِينَةُ ، وغَشِيَتْهُم الرَّحمةُ ، وحفَّتْهُم الملائكةُ ، وذَكَرَهُمْ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ »[2] .

وقد بَذلَ المُسْلِمُونَ على مرِّ العُصور جُهوداً كثيرة مُتَوالِيَةً في خِدْمةِ هذا الكِتابِ العزيزِ ، ومِنْ بينِ هذه الجهودِ ما يتعَلَّقُ بتبيينِ مَعاني الآياتِ وتَفْسِيرها ، وكان لكلِّ تفسيرٍ مِيزَتُهُ وخَصائِصُهُ .

ومِيزةُ هذا التفسير أنَّه أُعِدَّ لِيكونَ مِنْهاجاً للتَّدْريس في المَدارِسِ التي تلتزمُ في مِنْهاجِها تدريسَ الطلبةِ تفسيرَ القرآنِ الكريمِ كاملاً ، والتزمَ مُؤَلِّفُوهُ السَّيْرَ على نَمَطٍ مُتقارَبٍ مُتدرِّجٍ ، وفيما يلي أَهمُّ النِّقاطِ التي تمَّ الالتزامُ بها :

* اختيارُ العبارةِ السَّهْلَةِ الواضِحَةِ بمايتناسبُ مَعَ أَعمارِ الطَّلَبَةِ ومستوياتِهم .
* بَدْءُ كلِّ درسٍ بتبيينِ مَعاني المفرداتِ والتراكيبِ التي يحتاجُ الطلبةُ إلى معرفَتِها .
* التَّعْريفُ بالسُّورَةِ بإيجازٍ قبلَ الشروعِ في تفسيرِها .

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، رقم الحديث (٤٦٣٩) .
(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، رقم الحديث (٤٨٦٧) .

* تفسيرُ الآياتِ بصورةٍ معتدلةٍ وبعبارةٍ قريبةٍ مباشرةٍ .

* الرَّبْطُ بينَ آياتِ الدَّرْسِ السَّابقِ والتَّالِي .

* اختيارُ القولِ الرَّاجحِ في معنى الآيةِ ، وعدمُ إشغالِ الطلبةِ بالأقوالِ المتعدِّدةِ أو الضعيفةِ .

* الالتزامُ بمنهَجِ السَّلَفِ في تَفسيرِ آياتِ الصِّفاتِ .

* إغْناءُ كُلِّ درسٍ بعدَدٍ مِنَ الأنشطةِ المناسبةِ ذاتِ الصِّلَةِ بالآياتِ لِحَفْزِ الطالبِ على البحثِ والتفكيرِ وترسيخِ المعلومةِ في ذهنهِ ، ولذا فالمأمولُ من السَّادَةِ المدرسينَ ، ومِنَ الطلبةِ ، الاعتناءُ بهذه الأنشطةِ وعدمُ إهمالِها ، ومُناقشةُ ما يتمُّ التوصُّلُ إليهِ في الفصلِ أَو طابورِ الصباحِ أو تعليقُهُ في مجلَّةِ المدرسةِ .

* إتْباعُ كلِّ دَرْسٍ بعدَدٍ من العِبَرِ والدروسِ المُستنْبَطَةِ من الآياتِ الكريمةِ ، والمأمولُ من المدرِّسِ والطالبِ قراءةُ هذه العِبَرِ والرَّبْطُ بينها وبينَ الآيةِ التي استُنْبِطَتْ منها ، والحرصُ على الإفادةِ منها في تقويمِ السُّلوكِ وتنميةِ التفكيرِ وترسيخِ القِيَمِ الإسلاميةِ التي تضمَّنَتْها .

* خَتْمُ كُلِّ دَرْسٍ بعددٍ من الأسئلةِ المتنوِّعةِ التي تهدِفُ إلى تقويمِ الطالبِ وتبيينِ مقدارِ استيعابِهِ للدَّرسِ وحَفزِهِ على البحثِ عن الإجابةِ لِلأَسئلَةِ في مظانِّها .

* تذييلُ بعضِ الدُّروسِ بفائدةٍ أو رِوَايةٍ أو حادثةٍ أو حديثٍ له صلةٌ بموضوعِ الدَّرْسِ بهدَفِ إمْتاعِ القارىءِ وإفادتِهِ بهذه المَعْلومةِ .

* تخَريجُ الأحاديثِ النَّبويَّةِ ورواياتِ أَسْبابِ النُّزولِ ، والحرصُ على الاقتصارِ على الصَّحيحِ من رواياتِ الأحاديث .

واللهَ تعالى نَسأَلُ أن يَجْعلَ هذا العملَ خالصاً لِوَجْهِهِ الكريمِ ، وأَنْ يَنْفَعَ به ، وأَنْ يتقَّبلَهُ بقَبُولٍ حَسَنٍ ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] .

* * *

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورةُ الأنْفالِ ـ القِسْمُ الأَوَّلُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

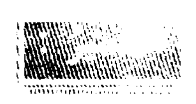
يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورةُ الأَنْفالِ مَدنيَّةٌ ، وآياتُها خمسٌ وسَبْعونَ ، وَقَدْ بيَّنَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى فيها بعضَ أحْكامِ القِتالِ ، والبَواعِثَ عليهِ ، وأسْبابَ النَّصْرِ ، ومقامَ القُوَّةِ المَعنويَّةِ في الانْتِصارِ ، وأَحْكامَ الغَنائمِ ، وذَكَرَ فيها بَعْضَ ما يَتعلَّقُ بغزوةِ بَدْرٍ ، وخَتَمها سُبحانَهُ ببيانِ ولايةِ المُؤْمنينَ بَعْضِهِمْ بَعْضاً .

مَعاني المُفْرَداتِ :

الأَنْفالِ	: جَمْعُ نَفلٍ، وهو المالُ المَأْخوذُ مِنَ الكُفّارِ قَهْراً بِقتالٍ .
ذاتَ بَيْنِكُمْ	: الحالَ الّتي بَيْنَكُمْ .
وَجِلَتْ قُلوبُكُمْ	: خافَتْ مِنْ هَيْبَةِ اللهِ .
يُجادِلونَكَ في الحقِّ	: يُراجِعونَكَ في إيثارِكَ الجِهادَ .
كأنَّما يُساقونَ إلى الموتِ وهُمْ يَنظُرونَ	: تصويرٌ لِحالَتِهِمْ تلكَ في كراهيةِ الخُروجِ وأنَّهُ على غيرِ رَغْبَةٍ مِنْهُمْ .



﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ ﴾ .

سألَ بعضُ الصَّحابَةِ النَّبيَّ ﷺ عَنْ كَيفيَّةِ تَوزيعِ الغَنائِمِ ، وذلكَ بعدَما انتَهتْ معركةُ بدرٍ ، واختلَفَتْ آراؤُهُمْ في كيفيَّةِ التَّوزيعِ ، فَأَوْحى اللهُ تَعالى إلى نَبيِّهِ ﷺ أنَّ هذهِ الغَنائِمَ إنَّما هيَ للهِ تَعالى ولِرسولِهِ ﷺ ، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى بثَلاثةِ أُمورٍ :

الأَوَّلُ : أنْ يَتَّقوا اللهَ تَعالى ، وفي هذا الأمْرِ تَوْجيهٌ لِما يَنفعُهُمْ ، ولِما يَنْبَغي أنْ يَحرِصوا عليْهِ .

الثّاني : أنْ يُصْلِحوا أحوالَهُمْ وما يدورُ بَيْنَهُمْ ، لأنَّ إصْلاحَ ذاتِ البَيْنِ معَ التَّقوى يُقوّي شَوْكَةَ المُسْلِمينَ ، ويَزيدُ الأُلْفَةَ بَيْنَهُمْ ، وهذا ما كانَ النَّبيُّ ﷺ يَحْرِصُ عليْهِ .

الثّالثُ : إطاعةُ اللهِ تَعالى ورَسولِهِ ، وفي هذا كلِّهِ ما يُبيِّنُ وِحْدَةَ الصَّفِّ المُسْلِمِ ورِفْعَةَ شأْنِهِ .

ثُمَّ وصفَ اللهُ تَعالى كاملي الإيمانِ بالصِّفاتِ الخَمْسِ الآتيةِ ، تَرْغيباً للسّائِلينَ وحَضّاً على الاتِّصافِ بها ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ ﴾ .

وهذهِ هي الصِّفاتُ الخَمْسُ :

١ ـ خوفُ قُلوبِهِمْ وفَزَعُها مِنْ هَيْبَةِ اللهِ تَعالى .

٢ ـ ازْدِيادُهُمْ تَصديقاً ويَقيناً كُلّما تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آياتُ اللهِ تَعالى .

٣ ـ لا يَعتمِدونَ إلاّ على ربِّهِمْ ، ويُفوِّضونَ أُمورَهُمْ كُلَّها للهِ تَعالى وحْدَهُ ، فلا يَرْجونَ غَيْرَهُ ، ولا يَسْأَلونَ سِواهُ ، ولا يَرْغبونَ إلاّ إليه .

٤ ـ لا يَفْتُرونَ عنْ إقامةِ الصَّلاةِ والمُحافَظةِ عَلَيْها ، وأدائِها كامِلَةَ الخُشوعِ مُستوفِيَةَ الأرْكانِ .

٥ ـ لا يَتأخَّرونَ عَنِ الإنْفاقِ في سبيلِ اللهِ تَعالى مِمّا رَزَقَهُمُ اللهُ تَعالى .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ ﴾ .

أَخْبَرَ سُبْحانَهُ بأنَّ المُتَّصفينَ بهذهِ الصِّفاتِ ، الجامِعينَ بينَ الإيمانِ والعَمَلِ ، همُ المُؤْمِنونَ إيماناً

حقّاً ، وهذا هو الإيمانُ الكامِلُ ، وهؤلاءِ يَغفِرُ اللهُ تَعالى لهمْ هَفَواتِهِمْ ، ويَرزُقُهُمْ رِزْقاً طيِّباً في الدّنْيا ونَعيماً دائِماً في الآخِرَةِ .

﴿ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴾ .

ثُمَّ أخبرَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى في هذهِ الآيةِ أنَّ حالَ بعضِ أهْلِ بَدْرٍ في الاختلافِ في الغنائِمِ ، مثلُ حالِ بَعْضِهِمْ في كَراهَةِ القِتالِ معَ ما في هذهِ القِسْمَةِ والقِتالِ مِنْ خيرٍ ، فلقدْ خَرَجَ رسولُ الله مِنْ بَيْتِهِ بالحَقِّ ، فما بالُ بعضِ المُؤْمنينَ يَكْرَهونُ لِقاءَ أعدائِهِمْ ؟

﴿ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴾ .

يُبيِّنُ الحَقُّ سُبحانَهُ وتَعالى ما قالَهُ المُؤْمِنونَ للرَّسولِ ﷺ ، فَهُمْ يُحاورونَكَ ويُناقِشونَكَ في أَمْرِ القِتالِ بِقَوْلِهِمْ : ما كانَ خُروجُنا إلاّ للقافِلةِ دونَ تَأَهُّبٍ للقِتالِ ، وذلكَ بعدما تَبيَّنَ لهمُ الحَقُّ بإعْلامِكَ إيّاهُمْ أنَّ اللهَ تَعالى ناصرُهُمْ حيثُ ذَهَبوا . وكانَ الرَّسولُ ﷺ قدْ أخْبَرَهُمْ قبلَ نَجاةِ قافلةِ قُرَيْشٍ بأنَّ اللهَ تَعالى وَعَدَهُ الظَّفَرَ بإحْدى الطّائِفَتينِ : القافلةِ أو القِتالِ ، فلمّا نَجَتِ القافِلةُ عَلِمَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ النَّصْرَ الموعودَ بهِ إنّما هو على كُفّارِ قُريشٍ .

وقدْ كانَ مِنْ أمْرِ كراهيةِ هؤلاءِ الّذينَ جادَلوا رسولَ اللهِ في أمْرِ القتالِ أنَّها بَلَغَتْ في نُفوسِهِمْ مَبْلَغاً عَظيماً ، وكأنَّهُمْ يُساقونَ إلى المَوْتِ وهُمْ يَنظرونَ إلى أسْبابِهِ ويُعاينونَها .

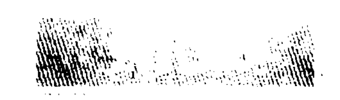
وقَدْ وقَعَتْ في هذهِ الغَزوةِ كَراهتانِ بِحُكْمِ الطَّبيعةِ البَشَريَّةِ ، وأعقبَهُما إذعانٌ وتَسليمٌ ورضىً مِنَ الصَّحابةِ رِضوانُ اللهِ عَليهِمْ :

الأُولى : كَراهَةُ شُبّانِ أهْلِ بَدْرٍ قِسْمةَ الغَنيمةِ بالسَّويَّةِ ، وكانوا يُحبّونَ الاسْتِئْثارَ بها ، لأنَّهمْ هُمُ الّذينَ باشَروا القِتالَ دونَ الشيُّوخِ الّذينَ كانوا مَعَهم في الغَزْوَةِ ، معَ أنَّهُمْ كانوا مَعَهُم في المَعْرَكةِ .

فكانَ في الأمْرِ بالقِسْمةِ السَّويَّةِ خيرٌ للمُؤْمِنينَ ، إذْ أصْلَحَ اللهُ بَيْنَهُمْ ورَدَّهُمْ إلى حالةِ الرِّضا والصَّفاءِ .

الثّانيةُ : كراهَةُ بعضِ أهْلِ بَدْرٍ قتالَ قُرَيْشٍ بعدَ نَجاةِ القافِلَةِ الّتي خَرَجوا لأجْلِها ، وذلكَ أنَّهم خَرَجوا مِنْ غَيْرِ اسْتِعدادٍ للقِتالِ الّذي أُمِروا بِهِ ، عِزَّةً للإسْلام ودَحْراً للكُفْرِ والطُّغيانِ .

وفي هذهِ الآيةِ تنويهٌ وبَيانٌ ، لأنَّ الخَيْرَ فيما قَدَّرَهُ اللهُ تَعالى لا فيما يَظنُّونَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَنبغي لِلمُؤْمِنِ أنْ يَحْرِصَ على السُّؤالِ عمّا يَهُمُّ أمْرَ دينهِ ودُنياهُ .

٢ـ يَنبغي للمُؤْمِنينَ المُسارعةُ إلى الاسْتِجابةِ لأمْرِ اللهِ تَعالى ورَسولِهِ .

٣ـ المُؤْمِنُ الحَقُّ هو الّذي يَجْمَعُ بينَ سَلامةِ العقيدةِ ، وسَلامةِ الحالِ وصَلاحِ العَمَلِ .

٤ـ الخيرُ كلُّهُ فيما يَختارُهُ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ سألَ المُؤْمِنونَ رسولَ اللهِ ﷺ عنِ الأَنْفالِ ، ماذا كانَ الجَوابُ عَنْ سُؤالِهِمْ ؟

٢ـ ما علاماتُ المُؤْمِنِ الصّادِقِ ؟

٣ـ اذْكُرِ الآيةَ الدَّالَّةَ على كلِّ صِفَةٍ مِنْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ الواردةِ في آياتِ الدّرسِ .

نَشاطٌ :

ـ مَتى حَصَلَتْ غَزْوةُ بَدْرٍ ؟ وما سَبَبُها ؟

* * *

الدَّرسُ الثَّاني

سورةُ الأنْفالِ ـ القِسْمُ الثّاني

﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٨ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝١٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- إِحْدى الطّائِفَتينِ : الطّائفةُ الأولى هِيَ القافِلةُ الّتي كانَ يقودُها أبو سُفيانَ ، والثّانيةُ جَيشُ قُريشٍ ورِجالُها بِقيادةِ أبي جَهلٍ .
- ذاتِ الشَّوكَةِ : ذاتِ العُدَّةِ والسِّلاحِ والمُرادُ جَيشُ قُريشٍ .
- يقطعَ دابرَ الكافرينَ : يُهلِكَهُمْ عنَ آخِرِهِم .
- تَستَغيثونَ : تَطلُبونَ الغَوْثَ والعَوْنَ .
- مُمِدُّكُمْ : مُعينُكُم بِقُوّةٍ ومَدَدٍ .
- مُردِفينَ : مُتَتابِعينَ .

التَّفسيرُ :

كانَ قدْ بَلَغَ رَسولَ اللهِ ﷺ أنَّ إبِلاً علَيْها تِجارَةٌ لِقُرَيْشٍ ومَعَها قافِلةٌ مِنَ الشّامِ راجِعَةٌ إلى مَكَّةَ ، وإذا أرادَ اللهُ أمْراً هيّأَ أسْبابَهُ ، فَلَقدْ نَجَتِ القافِلَةُ معَ أبي سُفيانَ ، وجاءَتْ قُرَيْشٌ بِجَيْشِها وقُوَّتِها لِتُلاقِيَ مَصيرَها على يدِ المُسلِمينَ .

فهذهِ الآياتُ والّتي تَليها تَتحدَّثُ عمّا جَرى بَيْنَ المُسلِمينَ والمُشْرِكينَ في هذهِ الواقِعَةِ .

﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ ﴾ .

هذا تذكيرٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِلْمُؤْمِنينَ إذْ يقولُ لَهُمْ : اذْكُروا أيُّها المُؤْمِنونَ وعْدَ اللهِ لكُمْ بأنْ تَنالوا إحْدى الطّائِفتَيْنِ : إمّا قافِلةَ قُريشٍ وإمّا النّصرَ على جَيشِ قُريشٍ ، فَلمّا نَجَتِ القافِلَةُ رَجَعَ الوَعْدُ إلى الجَيْشِ . ومَعَ ذلكَ فَقد كانتْ رَغْبَةُ المُسلِمينَ في القافِلةِ ، وَلكنّ اللهَ تَعالى أَرادَ لَهُم الجَيْشَ ، لِتنْكَسِرَ شَوْكَةُ الكُفْرِ ، وَلِيُعْليَ اللهُ أَمْرَهُ وَيُهلِكَ الكافِرينَ . وَقدْ حَصَلَ والحمدُ للهِ ما أرادَهُ اللهُ تَعالى ، فَأعْلى سُبحانَهُ وتَعالى أمْرَ المُسلِمينَ ، وَخَفضَ شَأنَ الكافِرينَ وَأذلّهُمْ ، لِيَكونَ في ذلكَ عِبْرةٌ أبَدَ الدَّهرِ .

﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ .

أي أنّ اللهَ تَعالى وَعَدَ بما وَعدَ ، وَأرادَ بإحدى الطّائفتينِ جَيشَ قُريشٍ صاحبِ العُدّةِ والعَتادِ لِيُحقَّ الحَقَّ؛ أي يُقرَّهُ ويُثْبتَهُ . والحَقُّ هُنا هُوَ الإسْلامُ ، وَيُبطِلَ الباطلَ أي : يُزيلهُ وَيمحَقَهُ ، وَهوَ الشِّرْكُ .

وهذا الّذي فَعلَهُ اللهُ تَعالى كانَ على غَيرِ رَغبةٍ مِنَ المُعتدينَ والطُّغاةِ مِنَ المُشْركينَ ، وبهذا يَتبيّنُ أنّ إحقاقَ الحقِّ وإبطالَ الباطلِ لا يكونُ باستيلاءِ المُسلِمينَ على القافِلةِ ، وإنّما بِقَتْلِ أَئِمّةِ الكُفرِ من صَناديدِ قُريشٍ المُعاندينَ ، الّذينَ خَرجوا للمُسلِمينَ يُريدونَ القَضاءَ عَليْهِم . وقَد كانَ للهِ تَعالى ما أرادَهُ والحمدُ للهِ ربِّ العالَمينَ .

وَلَقدْ ذُكِرتْ كَلمةُ الحقِّ في الآيَتيْنِ السّابقتيْنِ ، وَليسَ هُما بمعنىً واحدٍ ، إذِ الأولى بمعنى قِتالِ المُشْرِكينَ مَعَ الوَعدِ المحُقَّقِ بالنّصرِ للمُؤمِنينَ ، والثّانيةُ بمعنى الإسلامِ والوعدِ بِظُهورِهِ .

﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ ﴾ .

رَوى مُسلِمُ وَغيرُهُ عَنْ عُمرَ بنِ الخطّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قالَ : لمّا كانَ يومُ بدرٍ نَظرَ النَّبيُّ ﷺ إلى أصحابِهِ وهُمْ ثلاثمايةٍ وَبضعَةَ عَشَرَ رَجُلاً ، وَنظرَ إلى المُشْرِكينَ فإذا هُمْ ألفٌ وزيادَةٌ ، فاستقبلَ نبيُّ اللهِ تَعالى القِبْلَةَ ، ثُمَّ مدَّ يَدَهُ وجعلَ يهتِفُ بربِّهِ : اللّهُمَّ أنْجزْ لي ما وَعَدْتَني ، اللّهُمَّ إنْ تَهلِكْ هذهِ العِصابَةُ مِنْ أهلِ الإسلامِ لا تُعْبَدُ في الأرضِ ، فما زالَ يَهتفُ بَربِّهِ مادّاً يَديهِ مُستقبلَ القِبْلةِ حتى سَقطَ رداؤُهُ ، فأتاهُ أبو بَكرٍ رَضيَ اللهُ عنْهُ فأخذَ رداءَهُ فألقاهُ على مَنكِبيهِ ، ثُمَّ التزَمَهُ مِنْ ورائِهِ وقالَ : يا نبيَّ اللهِ كفاكَ مُناشدتكَ ربّكَ فإنهُ سَيُنْجزُ لكَ ما وَعَدكَ[1] .

---

(١) صحيح مسلم رقم : ١٧٦٣ ، باب الإمداد بالملائكة في غزو بدر (١٨) حديث رقم ٥٨ .

هذهِ صورةُ استغاثَةِ نبيِّ اللهِ ، وَقَدْ فَعلَ أصحابُهُ مِثلَ ما فعلَ ، فإنّ ذلكَ المقامَ الّذي كانوا فيهِ كانَ مقامَ شِدةٍ وَهوْلٍ ، فناسَبهُ هذا الفِعلُ الّذي فيهِ غايَةُ التَّذلُّلِ والتَّخشُّعِ للهِ تَعالى وَطلبِ المَعونَةِ والغَوْثِ مِنهُ وَحدَهُ .

وَقدِ استجابَ اللهُ تَعالى استغاثَةَ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ بأنْ أنزلَ عليهِ ألفاً مِنْ ملائِكَتِهِ مُتتابعينَ لِنُصرةِ جيشِ المُسلِمينَ .

﴿ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وَلَقَدْ بيّنَ اللهُ سُبحانَهُ وتَعالى في هذهِ الآيةِ أنّهُ ما جعلَ الإمدادَ بالملائِكةِ إلاّ لِغَرَضَيْنِ اثْنَيْنِ : الأوّلُ بِشارةٌ لِلمُؤمِنينَ بِنَصْرِهِمْ على أعدائِهِمْ في هذهِ الغَزوةِ . والثّاني : تَسكينٌ لِقُلوبِ المُؤْمِنينَ وإزالةُ الخَوفِ عَنهُم .

وإذ قَد تحقّقَ الغَرضانِ ، فقدْ واجَهَ المُسلِمونَ أعداءَهُمْ بِثباتٍ وَيقينٍ واطمِئْنانٍ بالنَّصرِ ، فَهزموهُمْ بإذنِ اللهِ .

ثُمَّ أخبرَ سُبحانَهُ أنَّ النَّصرَ لا يكونُ لا بالملائِكةِ ولا بِغيرِهِمْ ، وإنّما يكونُ مِن عندِ اللهِ وحْدَهُ . وإنَّ الوسائلَ مَهْما عَظُمتْ والأسبابَ مَهْما كَثُرتْ لا تُؤدّي إلى النَّتيجةِ المَطلوبةِ والغايةِ المَرجُوّةِ ، إلاّ إذا أيّدَتْها إرادةُ اللهِ تَعالى وُقدرتُهُ ورعايتُهُ .

وخُتِمتِ الآيةُ بِوَصْفَيْنِ كَريمَيْنِ للهِ تَعالى ، الأوّلُ : العزيزُ ، ومعناهُ : الّذي لا يَغلِبُهُ غالِبٌ ولا يَفوتُهُ هارِبٌ ، والثّاني : الحكيمُ ، وهوَ الّذي أتقنَ كلَّ شيءٍ خَلَقَهُ . وفي هذا الدّليلُ على أنّ ما حدثَ لِلمُؤْمِنينَ في بدرٍ إنّما هُو بإرادَةِ اللهِ تَعالى وحِكْمَتِه .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لابدّ وأنْ يَطمَئِنَّ قَلْبُ المُؤْمِنِ لِوعْدِ اللهِ تَعالى .

٢ـ إنّ في إعلانِ شَأْنِ الحقِّ إبطالٌ لِشَأْنِ الباطِلِ .

٣ـ لابدّ للمُؤْمِنِ مِنْ إدامةِ التَّوجُّهِ للهِ تَعالى والإخلاصِ لَهُ سُبحانَهُ ودعائِهِ في كلِّ حينٍ .

٤ـ لا يَتحقّقُ شيءٌ إلاّ بإرادَةِ اللهِ تَعالى .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ أثرَ طاعةِ اللهِ تَعالى في تأييدهِ لعبادِهِ .

٢ـ ما أهمُّ الفوائِدِ الّتي نَستفيدُها مِنْ هذهِ الآياتِ ؟

٣ـ بيِّنْ مَوْقِفَ الرَّسولِ الكَريمِ عِندما رأى جَيشَ الكُفرِ .

٤ـ عدّدِ النِّعمَ الّتي أنعَمَها اللهُ تَعالى على المُؤْمِنينَ كما جاءَ في هذهِ الآياتِ .

٥ـ ما الآيةُ الدَّالَّةُ على أنَّ النّصْرَ مِن عندِ اللهِ ؟

٦ـ ماذا نَفهمُ مِن كُلٍّ ممّا يَلي :

أـ وَتَودّونَ أنّ غيرَ ذاتِ الشّوْكَةِ تَكونُ لَكُم .

ب ـ لِيُحِقَّ الحقَّ وَيُبْطِلَ الباطِلَ .

ج ـ فاسْتَجابَ لَكُم أنّي مُمِدُّكُم بألفٍ مِنَ الملائِكَةِ مُرْدِفينَ .

٧ـ جاءَ ذِكْرُ الحقِّ مَرّتينِ في الآياتِ الكَريمةِ ، بيّنْ معنى الحقِّ في كلِّ مَوْطِنٍ .



ـ كم كانَ عددُ كُلٍّ مِنَ المُشْرِكينَ والمُؤْمِنينَ في معركةِ بَدْرٍ ؟ وماذا يعني هذا الفَرْقُ في العَدَدِ بينَ الجَيْشَيْنِ ؟

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ

سورةُ الأنْفالِ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُغَشّيكُمُ النُّعاسَ	يَجعلُهُ غاشِياً لَكُمْ مِثلَ الغِطاءِ ؛ مِن غشّاهُ إذا غطّاه .
أَمَنةً مِنهُ	أمْناً واطْمِئناناً وإزالةً لِخَوْفِكُم .
رِجزَ الشّيطانِ	وَسْوَسَتهُ لَكُم وتخويفَهُ إيّاكُمُ العَطَشَ ونحوَه .
لِيَربِطَ على قُلوبِكُم	يُثبِّتَها ويَشُدَّها .
كلَّ بَنانٍ	البَنانُ جَمعُ بنانةٍ ، وهي طَرَفُ الإصْبَعِ .
شاقّوا اللهَ ورسولَهُ	خالفوا أمْرَ اللهِ تَعالى ورسولَهُ ﷺ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ ﴾ .

ما تزالُ الآياتُ تُبيِّنُ نِعَمَ اللهِ تَعالى على عِبادِهِ يومَ بَدرٍ ، وهُنا يُذكِّرُ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِنِعَمِ

أُخرى مِن نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ، وتَذكُرُ الآيةُ الكَريمةُ هنا نِعْمَتَيْنِ : الأولى : تَغْشِيَتُهُمْ بالنُّعاسِ ، والثّانيةُ : إنْزالُ المَطرِ تطهيراً لهُمْ . فأمّا نِعمةُ النُّعاسِ فكانتْ شأْناً عَجيباً في ذلكَ الوقتِ ، لأنَّ المُسلِمينَ كانوا يَتحدّثونَ في شأنِ جيشِ قُرَيْشٍ وكثرةِ عَددِهِم مُوازنةً بعددِ المُسلِمينَ ، فاضْطَربَتْ بعضُ نُفوسِهِم لهذهِ المُوازنةِ ، وأصابَهُمْ بعضُ الخَوْفِ والفَزَعِ فأمَّنهُمُ اللهُ بالنّعاسِ .

وإنّما كانَ النُّعاسُ أمْناً لَهُم لأنَّهُم لمّا ناموا زالَ أثرُ الخوفِ مِنْ نُفوسِهِم في مُدّةِ النّومِ فتلكَ هي النِّعْمَةُ ، ولمّا استَيْقَظوا وجَدوا نَشاطاً ، ونَشاطُ الأعصابِ يُكسِبُ صاحبَهُ شجاعةً ويُزيلُ شُعورَ الخوفِ الّذي هو فُتورُ الأعصابِ .

وأما النِّعمةُ الثّانيةُ وهي إنزالُ الماءِ عَليْهِم ، فكانَ شأنُها أعجبَ ، إذْ قَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعالى في هذهِ الآيةِ الكَريمةِ أنّهُ قد حَصلَ للمُسلمينَ بها أربَعُ منافعَ : الأولى : تطهيرُهُم بِهِ ، أي تطهيراً حِسِّياً بالنَّظافةِ الّتي تَشرَحُ الصَّدْرَ وتُنشِّطُ الأعضاءَ في كلِّ عملٍ ، وتطهيراً شَرْعياً بالغُسْلِ مِن الجَنابةِ ـ لِمنْ أصابَتْهُ ـ وكذلكَ بالوضوءِ مِنَ الحدَثِ الأصْغَرِ .

الثّانيةُ إذهابُ رِجسِ الشَّيطانِ عَنهُم ، والرِّجسُ هو الشَّيءُ المُستَقذَرُ حِسّاً أو معنىً ، والمُرادُ هُنا وسوَسَةُ الشَّيطانِ كما تَقدَّمَ .

الثّالِثةُ : الربْطُ على القُلوبِ ، ويُعبِّرُ بِهِ عَن تَثبيتِها وتَوطينِها عَلى الصَّبرِ .

الرَّابِعةُ : تَثبيتُ الأقدامِ بهِ ، فإنَّ مَن كانَ يَعْلَمُ أنَّهُ يُقاتِلُ في أرضٍ تسوخُ فيها قَدَمُهُ كُلّما تحرَّكَ وَهوَ قَد يُقاتِلُ فارِساً لا راجِلاً ، لا يكونُ إلاّ خائِفاً مُضْطَرِباً ، ولكنَّ نِعمةَ اللهِ على المُسلِمينَ حالَتْ دونَ ذلكَ .

﴿ إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ (١٢) ﴾ .

وهذا نِعْمَةٌ أُخرى ، فاللهُ تَعالى أخْبَرنا فيما سبقَ أنَّهُ إنَّما أنزَلَ المَلائِكَةَ بُشرى للمُؤْمِنينَ وتَطميناً لِقُلوبِهِمْ ، وَهُنا بيانٌ أنَّ اللهَ تَعالى أوْحى لِلمَلائِكةِ وأمَرَهُمْ أنْ يُثَبِّتوا المُؤْمِنينَ ، وَوَحْيُ اللهِ تَعالى لِملائِكتِه إمَّا بطريقةِ إلقاءِ هذا الأمرِ في نُفوسِهِم ، أو إبلاغِهِمْ إيّاهُ بواسطةٍ ، وبناءً على هذا يكونُ قَولُهُ تَعالى : ﴿ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ ﴾ كلاماً مُبتَدءاً مُوجَّهاً إلى النبيِّ ﷺ والمُؤْمِنينَ تَتِمَّةً للبُشْرى ، ويكونُ قولُهُ تَعالى : (فاضْرِبوا) مُوجَّهاً للمُؤْمنينَ ، فيكونُ المَعنى أنَّ اللهَ تَعالى أمَرَ المُؤْمِنينَ بِضَرْبِ أعناقِ المُشْرِكينَ وَتقطيعِ أيديهِم وأصابِعِهِم ، بَعدَ أنْ ثَبَّتَهُم بالملائِكةِ وألْقى الرُّعْبَ ، وهُوَ الخوفُ الشّديدُ والهَلَعُ في قُلوبِ المُشْرِكينَ .

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ﴾ .

أي ذلكَ الّذي ذكَرَهُ اللهُ تَعالى مِن تأييدِهِ للمُؤْمنينَ وخِذْلانِهِ للمُشركينَ إنَّما كانَ بِسَبَبِ أنَّ المُشْرِكينَ عادوا اللهَ تَعالى ورسولَهُ ، فكانَ اللهُ تَعالى ورسولُهُ ﷺ في شِقٍّ ، والمُشْرِكونَ في شِقٍّ آخَرَ ، فاللهُ تَعالى هُوَ الحَقُّ ورَسولُهُ ﷺ هُو المُبلِّغُ عنهُ الحقَّ ، والمُشْرِكونَ عَلى الباطِلِ وما يَترتَّبُ عليهِ مِنَ الشُّرورِ والخُرافاتِ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبحانَهُ أنَّ أحقَّ النّاسِ بعذابِهِ الشَّديدِ المُشاقّونَ لَهُ باخْتِيارِهِمُ الشِّرْكَ على التَوحيدِ ، وعِبادةَ الطّاغوتِ على عِبادةِ اللهِ تَعالى ، وذهابِهِم إلى الاعتداءِ على أولياءِ اللهِ تَعالى بِمُحاولَةِ رَدِّهِمْ عَنْ دينِهِم بالقُوَّةِ وَالقَهرِ ، وإخراجِهِم مِنْ دِيارِهِم ، ثُمَّ اتِّباعِهِمْ إلى مَهْجَرِهِم يُقاتِلونَهُم فيهِ .

﴿ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ ﴾ .

هذا الخطابُ مُوجَّهٌ للمُشرِكينَ ، أمَّا الّذينَ قُتِلوا فيكونُ هذا الكلامُ ملقىً في نُفوسِهم بأنَّ هذا الّذي حَدثَ لَهمُ هُوَ بِسببِ مُعاداتِهِمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ، وَقَدْ كانوا يَسْمَعونَ الوعيدَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ فيما سَبَقَ .

وأَمَّا الّذينَ بَقوا أحياءً فيكونُ إخباراً لَهُم بأنَّ الّذي حَدَثَ لِمَنْ قُتِلَ مِنهُم سَبَبُهُ مُعاداةُ اللهِ ورسولِهِ . ثُمَّ التفتَ الخِطابُ إلى الإعلانِ بأنَّ ما حَدَثَ في الدُّنيا لَهُ زِيادَةٌ عليْهِ في الآخِرَةِ بأنَّ الكافِرينَ يُعذَّبونَ في النَّارِ بِسبَبِ كُفرِهِم وَعِنادِهِم ، وذلك لِيَتنَبَّهَ مَنْ بَقِيَ حيّاً مِنَ المُشْرِكينَ ، بأنَّ مَنْ أصَرَّ مِنْهُمْ على كُفْرِهِ عُذِّبَ هُنالِكَ في النّارِ وَهُوَ شَرُّ العَذابَيْنِ وأدْوَمُهُما .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنّ إرْسالَ المَلائِكةِ إنَّما كانَ بِشارةً للمُؤْمنينَ وتَثْبيتاً لِقُلوبِهِمْ .

٢ـ مِنْ فوائِدِ النَّومِ إزالةُ أثَرِ الخَوفِ والاضطرابِ .

٣ـ مَنْ يُشاقِقِ اللهَ ورسولَهُ يَسْتحِقُّ عِقاباً شديداً في الدُّنيا والآخِرَةِ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

بَنانٍ ، رِجْزَ الشَّيطانِ ، شاقّوا اللهَ .

٢ـ بَيِّنْ مِنْ خِلالِ الآياتِ الكَريمةِ فائِدةَ كلٍّ مِنْ :

أ ـ النُّعاسُ .

ب ـ إنزالُ الماءِ على جَيْشِ المُسلِمينَ .

٣ـ ما الّذي أَوْحاهُ اللهُ تَعالى إلى الملائِكةِ ؟

٤ـ بِمَ أَمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ في الآياتِ السَّابِقةِ ؟

٥ـ بيِّنْ ماذا يَترتّبُ عَلى مُشاقّةِ اللهِ تعالى ورسولِهِ ﷺ .

٦ـ ماذا نستفيدُ مِمَّا يَلي :

أ ـ يُذهِبَ عَنْكُمْ رِجزَ الشَّيطانِ .

ب ـ يَربِطَ على قُلوبِكُم .

ـ اذكُرْ ثَلاثَةً مِنْ زُعماءِ قُرَيشٍ الّذينَ قُتِلوا يومَ بَدْرٍ .

* * *

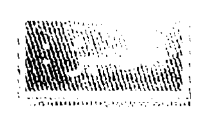
الدَّرسُ الرَّابِعُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الرّابِعُ

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ ۚ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

زَحْفاً	: أي زاحِفينَ نَحوَكُم لِقتالِكُم ، والحالُ مُتعلِّقةٌ بالكافِرينَ ، أيْ : إذا لَقيتُوهُم جاءوكُمْ بِجيشٍ كثيفٍ .
مُتحَرِّفاً لِقتالٍ	: مُنْعَطِفاً في القِتالِ مِنْ مَوقِفٍ إلى آخرَ لِيُصْلِحَ شأنَهُ فيُحْسِنَ قِتالَهُ .
مُتحيِّزاً إلى فِئةٍ	: مُنضمّاً إلى جماعَةٍ أُخرى لِلقتالِ مَعَها .
باءَ بِغَضبٍ مِنَ اللهِ	: رَجعَ مُستحِقّاً لِغَضبِ اللهِ تَعالى .
مأواهُ جَهنَّمُ	: مَلجؤُهُ الّذي يَلجأُ إليهِ في الآخِرَةِ هُو جَهنَّمُ .
يُبليَ المُؤْمنينَ .	: يُعطِيَهُمْ عَطاءً حسناً يَشكرونَهُ عَليْهِ .
موهِنُ كيدِ الكافِرينَ	: مُضعِفُ مَكْرِهِم وتَدبيرِهِم السَّيىء .
إنْ تَستَفتِحوا	: إنْ تَطلُبوا القَضاءَ والفَصْلَ بَيْنَكُم وبَيْنَ المُؤْمِنينَ .



لمّا ذَكّرَ اللهُ المُسْلِمينَ بِما أيَّدهُم يومَ بدرٍ بِالمَلائِكَةِ والنَّصرِ مِنْ عِندهِ ، وأكرَمَهُم بأنْ نَصرَهُمْ على المُشْرِكينَ الّذينَ هُم أكثرُ مِنهُم عدَداً وعُدَّةً ، وبيّنَ للمُسلِمينَ أنَّ اللهَ تَعالى سَوْفَ يُعذِّبُ الكافِرينَ في النَّارِ في الآخِرَةِ بَعْدَما عذَّبَهُم بالهَزيمةِ في الدُّنيا ، حَسُنَ أنْ يُتبعَ ذلكَ نَهْيَ الّذينَ آمنوا عَنِ الفِرارِ مِنَ المُشْرِكينَ ، وتهديدَ مَن يَفِرُّ مِنهُم بَعدَ هذا البيانِ تهديداً شديداً فقالَ تَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ ﴾ .

هذا نداءٌ مِنَ الحقِّ سُبْحانَهُ وتَعالى للّذينَ صدَّقوا بالحقِّ وأذْعَنوا لَهُ . إذا لقيتُم الّذينَ كَفروا في مَيدانِ القِتالِ ، وَهُمْ زاحِفونَ عَليْكُم بِكَثْرَتِهم ، فلا تَفِرُّوا مِنهُم وتَجعلوا ظُهورَكُم أمامَ سُيوفِهِم وتَنْهَزِموا .

﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ .

هذا تحذيرٌ شديدٌ ، ووعيدٌ لِمن يَجعلُ الكافِرينَ وراءَهُ ويولّي مُنهزماً يُريدُ النَّجاةَ بنفسِهِ . لكِنَّ ضَروراتِ القِتالِ تَقتضي أحياناً تَغْييرَ مَوْقعِ المُحارِبِ لِيَكونَ أكثَرَ قُوَّةً ومَنَعَةً ، لِذلكَ اسْتُثْنِيَ مِنْ تهديدِ اللهِ مَنْ يَنسَحِبُ مِنْ أرضِ المَعْرَكَةِ لِيَثْبُتَ في مَكانٍ آخرَ ، أو لِيَلتَحِقَ بِجماعةِ المُسلِمينَ يَتقّوى بِهِم على قِتالِ الأعداءِ ، وإلاَّ فإنَّ المُنهزِمَ يَنهزِمُ وغَضَبُ اللهِ عَليْهِ وَملجؤهُ وَمَصيرُهُ إلى جَهنَّمَ والعِياذُ باللهِ .

وتَتضمَّنُ هذهِ الآيةُ والّتي قَبْلَها مِنَ الأحكامِ ما لابُدَّ مِنَ الإشارةِ إليهِ :

١ـ وُجوبُ مُصابَرَةِ العدوِّ والثَّباتِ في وجْهِهِ عِندَ القِتالِ . وتدلُّ الآيةُ على أنَّ الفِرارَ مِنَ الزَّحفِ مِن كبائِرِ الذُّنوبِ والمَعاصي ، وَقد جاءَ التَّصريحُ بذلكَ فيما رَواهُ الشَّيخانِ وغَيْرُهُما عَنْ أبي هُريرةَ رَضي اللهُ عنهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « اجتَنِبوا السَّبْعَ الموبِقاتِ ، قالوا يا رسولَ اللهِ : وَما هُنَّ ؟ قالَ : الشِّرْكُ باللهِ ، والسِّحْرُ ، وقَتْلُ النَّفسِ الّتي حرَّمَ اللهُ إلاّ بالحَقِّ ، وأَكْلُ الرِّبا ، وأَكْلُ مالِ اليتيمِ ، والتَوَلّي يومَ الزَّحفِ ، وقَذفُ المُحصَناتِ الغافِلاتِ المُؤْمِناتِ » .

٢ـ أنَّ الخِطابَ فيهما خِطابٌ عامٌّ لِجميعِ المُؤْمِنينَ ، وَلَيْسَ خاصّاً بِأَهْلِ بدْرٍ .

٣ـ أنَّ الآيَتيْنِ مُحْكَمَتانِ ولَيْسَ فيهما نَسْخٌ ، وهذا معناهُ أنَّ تحريمَ التولّي يومَ الزَّحفِ عَلى غَيْرِ المُتَحرِّفِ لِلقتالِ أو المُنحازِ لِفِئةٍ أُخرى مِنَ المُؤْمِنينَ هُو حُكمٌ ثابتٌ غيرُ مَنسوخٍ .

﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

ما زالتِ الآياتِ تتحدَّثانِ عَنْ جَوِّ مَعركةِ بَدرٍ ، وَتُذكِّرُ المُسلمينَ بما امتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَيْهم مِنْ فَضلٍ لِيَزْدادوا شُكراً لَهُ وطاعةً لأَمْرِهِ ، فَقالَ تَعالى مُخاطِباً المُؤْمنينَ : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ أي إذا كُنتُم أيُّها المُؤْمنونَ قَدِ انْتَصرْتُمْ على عَدوِّ اللهِ تَعالى وُعدوِّكُم ، وقَتلتُمْ مَنْ قَتلتُم مِنهُم ، فإنّكُم لم تقتُلوهُم بِقُوَّتِكُم ، ولكنَّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي قَتلَهُم ونَصرَكُم عَليْهِمْ ، وذلك بتأييدِهِ لَكُم بالمَلائِكةِ وإلقاءِ الرُّعبِ في قُلوبِهِم ، وما رَميْتَ أيُّها الرَّسولُ إذْ كنتَ تَرمي التُّرابَ وَالْحَصى في وُجوهِهِم إفْزاعاً لَهُم ، ولكنَّ اللهَ تَعالى هُو الّذي رَمى فأفزَعَهُم الرَّمْيُ ، وكانَ ذلكَ لِيُنْعِمَ اللهُ على المُؤْمنينَ نِعَماً حَسَنةً ، مِنها : النَّصرُ وَالغنيمةُ وَالأجرُ ، فَيزدادوا بِهذِهِ النِّعَمِ شُكْراً لِلهِ وثناءً عَليْهِ ، ثمَّ أَخْبَرَهُم سُبحانَهُ وتَعالى بأنَّهُ عَليمٌ بأُمورِهِمْ ، سَميعٌ لأقوالِهِمْ ، وكذلكَ هُوَ عليمٌ بأُمورِ أعدائِهِم وأقوالِهِمْ فلا تَخفى عَليْهِ خافيةٌ .

﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

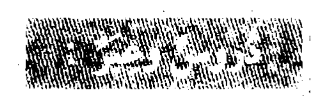
وهذا تقريرُ سُنَّةٍ مِن سُنَنِ اللهِ تَعالى الّتي لا تَتخلَّفُ ، وهي تقويةُ الحَقِّ ، وتَوهينُ الباطِلِ ، لِيزدادَ المُؤْمنونَ إيماناً معَ إيمانِهِمْ وثَباتاً على ثَباتِهِمْ ، ولِيزدادَ الكافِرونَ حَسرةً على حَسْرَتِهِمْ ، فقالَ تَعالى : ﴿ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي : مُضْعِفٌ إضعافاً شديداً كَيْدَ الكافِرينَ ومَكرَهُمْ .

﴿ إِن تَسْتَفْتِحُواْ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾

رُوِيَ أنَّ المُشْرِكينَ حينَ خرجوا مِن مَكَّةَ إلى بَدْرٍ أخَذَوا بِأَسْتارِ الكَعبةِ فاسْتَنصَروا اللهَ تَعالى وقالَوا : اللَّهُمَّ انْصُرْ أهدى الجُندَيْنِ ، وأكرَمَ الفِئَتينِ وخَيْرَ القِبلتيْنِ . وهذا الخِطابُ مَسوقٌ للكافِرينَ على سَبيلِ التهكُّمِ بِهِم والتَّوبيخِ لَهُم ، حيثُ طَلبوا مِنَ اللهِ تَعالى القضاءَ بينَهُم وبينَ المُؤْمِنينَ والنَّصْرَ عَليْهِم ، فكانَ الأمرُ على عَكسِ ما أرادوا ، حيثُ حكَمَ اللهُ تَعالى فيهِم بِحُكمِهِ العادِلِ ، وهُوَ خِذلانُهُم بِسببِ كُفرِهِم وجُحودِهِمْ ، وأعلى بِذلكَ كَلِمةَ المُؤْمنينَ ، لأَنَّهُم على الطَّريقِ المُستقيمِ .

وقولُه تَعالـى : ﴿وَإِن تَنتَهُواْ. . .﴾ أي تَكُفُّوا عَنِ الكُفْرِ وعَداوةِ المُؤْمنينَ يكونُ هذا خيراً لكُم مِن الكُفْرِ ومَحارَبةِ المُؤْمِنينَ . وقولُهُ تعالى : ﴿وَإِن تَعُودُواْ نَعُدْ. . .﴾ . أي إنْ تَعودوا إلى ما أنتُم عليْهِ مِن الكُفْرِ ومَحاربةِ النّبيِّ ﷺ والمُؤْمنينَ وعداوتِهِم ، نَعُدْ عَليْكُم بالهزيمةِ والذِّلَّةِ ، ولَنْ تَستطيعَ جماعَتُكُمْ وَلو كَثُرتْ أنْ تَدْفَعَ عَنكُم شَيئاً مِنْ تِلكَ الهزيمةِ والذلَّةِ .

ثُمَّ يُقرِّرُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى سُنَّةً مِن سُنَنِهِ الّتي لا تُدْفَعُ ، وَهِيَ أنّ مَعيَّتَهُ ونَصْرَهُ وتأييدَهُ إنَّما هُوَ للمُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، لِيكونَ بذلكَ رادِعاً للكافِرينَ عَن كُفْرِهِم ومُحفِّزاً للمُؤْمِنينَ بالدَّوامِ والثَّباتِ على دينِهم .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَحريمُ فِرارِ المُؤْمِنينَ أمامَ الكافِرينَ ، وأنَّ هذا مِنْ كَبائِرِ الذُّنوبِ .

٢ـ حَضُّ المُؤْمِنينَ على الجِهادِ في سبيلِ اللهِ وعدَمِ الخَوْفِ مِنْ أعداءِ اللهِ تَعالى .

٣ـ على المُسْلِمِ أنْ ينحازَ إلى جَماعَةِ المُؤْمِنينَ ، وخُصوصاً إذا أحَسَّ بالخَوْفِ ، فإنَّ يدَ اللهِ تَعالى على الجَماعَة .

٤ـ لا ينالُ عِنايَةَ اللهِ ونَصْرَهُ وتأييدَهُ إلاّ المُؤْمِنونَ المُخْلِصونَ .

٥ـ لابدَّ وأنْ يُفتَحَ المجالُ لِلكافِرينَ لِيَعودوا إلى دينِ اللهِ .

٦ـ كَثْرَةُ الباطِلِ لا تُغني مِنَ الحقِّ شيئاً .

٧ـ الحقُّ مُنتَصِرٌ بأمْرِ اللهِ تَعالى وإنْ ضَعُفَ أصحابُهُ عَنْ تأييدِهِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

إلاّ مُتَحَرِّفاً لِقتالٍ ، باءَ بِغضَبٍ مِنَ اللهِ ، ولكنَّ اللهَ رَمى ، إنْ تَسْتَفتِحوا فَقد جاءَكُمُ الفَتْحُ .

٢ـ ماذا يجبُ على المُؤْمِنينَ إذا زَحفَ عَليْهِمُ الكُفّارُ بِجيشٍ جَرّارٍ ؟

٣ـ ما حُكْمُ الفِرارِ يومَ الزَّحفِ ؟

٤ـ بيِّنِ الآيَةَ الّتي تَدلُّ على أنَّ اللهَ تَعالى أهْلَكَ الكافِرينَ وأيَّدَ المُؤْمِنينَ .

٥ـ ورَدتْ في الآياتِ الكَريمةِ سُنَّتانِ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى ، اذكُرْ هاتَيْنِ السُّنَّتَيْنِ ، ودَليلَ كلٍّ مِنْهُما مِنَ الآياتِ .

نَشاطٌ :

١ـ عِنْدَما رَجَعَ المُسْلِمونَ مِنْ مُؤْتَةَ إلى المدينةِ لاقاهُمُ الصِّبيانُ يقولونَ لهُمْ : يا فُرّارُ ، على ماذا يدلُّ ذلكَ ؟ اكتبِ الإجابةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكتُبْ في دفْتَرِكَ ماذا يُمكِنُكَ أنْ تَستفيدَ مِن قَوْلِهِ تعالى : ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إذ رمَيْتَ وَلَكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ .

* * *

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

ولا تولَّوْا عنهُ	لا تَبتعِدوا عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ وعَنْ أوامِرِهِ في حالٍ مِنَ الأحوالِ .
لا يَسمعونَ	أيْ لا يكونُ سَماعُهُم سَماعَ تدبُّرٍ واتِّعاظٍ .
الدوابِّ	جَمْعُ دابّةٍ ، وتُطلَقُ على كلِّ مَنْ يَدُبُّ على الأرضِ كالإنسانِ والحيوانِ .
الصمُّ	الّذينَ لا يَسمعونَ ، وهُنا مَعناها الّذينَ لا يَسْمَعونَ الحقّ .
البُكْمُ	الّذينَ لا يَنطِقونَ .
استجيبوا لله	لبّوا نداءَ اللهِ تَعالى ، وَأجيبوا دَعوتَهُ بما يُظهِرُ صِدْقَ إيمانِكُم .
يُحييكُم	يَجعلُكُم تَحيَوْنَ حياةً عزيزةً في الدّنيا وحياةً مُنعَّمةً في الآخِرَةِ .
يحولُ بينَ المرءِ وقلبِه	يُميتُهُ ، فتضيعَ عَليْهِ فُرصَةُ الطّاعَةِ ، أو يَترُكَهُ حتّى تَغلِبَ عليْه أهواؤُهُ وشَهواتُهُ فلا يَعقِلُ .
واتّقوا فتنةً	احْذَروا ابتلاءً مِنَ اللهِ تَعالى ومِحنَةً تَنزِلُ بِكُم .
يتخطّفكُم النّاسُ	يَنتزِعونَكُم بِسُرعَةٍ ، فَيَفتِكوا بِكُم .

لمّا كانَ الّذي حَلَّ بالكُفّارِ مِنَ الهزيمةِ والذُّلِّ والهَوانِ بِسببِ عَدمِ سَماعِهِمْ للحَقِّ وتَدبُّرِهِمْ لَهُ وإعْراضِهِمْ عَنهُ ، حذَّرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ مِنْ أَنْ يَصيروا إلى حالِ الكُفّارِ هذه ، فقالَ تَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

يا أيُّها الّذينَ صَدَّقتُمْ بالحَقِّ وأذعنتُم لَهُ ، قدْ عَلِمتُمْ أنَّ النَّصرَ كانَ بتأييدِ اللهِ تَعالى وطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ ، فاستَمِرّوا على طاعَتِكُمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ولا تُعرِضوا عَن دَعوةِ الرّسولِ ﷺ إلى الحَقِّ ، لا سِيَّما وأنتُمْ تَسمَعونَ القرآنَ النّاطِقَ بوُجوبِ طاعَتِهِ ﷺ .

وقدْ قُرِنَتْ طاعَةُ رسولِ اللهِ ﷺ ، بطاعَةِ اللهِ تَعالى لِلدَّلالةِ عَلى أنّهُ لا سَبيلَ لأحدٍ إلى طاعَةِ اللهِ تَعالى إلاّ عَنْ طَريقِ رَسولِهِ ﷺ ، ولأنَّ طاعَةَ رسولِ اللهِ ﷺ هِيَ طاعَةٌ للهِ تَعالى .

﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

هذا نَهيٌ للمُسلِمينَ عَن أنْ يَتَشبَّهوا بالكُفّارِ والمُنافِقينَ الّذينَ زَعموا أنَّهُمُ اعتَبروا بالآياتِ بَعدَ أنْ سَمِعوها ، وإخبارٌ للمُؤْمِنينَ بأنَّ هَؤلاءِ لا يَسمعونَ سَماعَ تدبُّرٍ وإذعانٍ ، فكانوا كَمَنْ لا يَسْمَعُ ، لأنَّ سَماعَهُم لا وَزْنَ لَهُ ، ولا فائِدَةَ لَهُم مِنْ وَرائِهِ ، مَع أنَّهُم لَو فَتحوا آذانَهُم وقُلوبَهُم لِلحَقِّ لأفادوا ، لَكِنَّهُم آثَروا الغيَّ على الرُّشْدِ .

﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

هذا وَصْفٌ للكُفّارِ والمُنافقينَ بما يَحمِلُ المُؤْمِنَ عَلى النُّفورِ مِنهمُ . والمَعنى : إنَّ شَرَّ ما يَدُبُّ عَلى الأرضِ في حُكْمِ اللهِ تَعالى وَقضائِهِ هُمُ الأشرارُ مِنَ البَشَرِ (الصُمُّ) الّذينَ لا يُلقونَ السَّمْعَ لِمَعرِفَةِ الحَقِّ والاعتِبارِ بالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، فَكانوا بِفَقدِ مَنفعَةِ السَّمْعِ كالّذينَ فَقَدوا حاسَّتَهُ ، (البُكْمُ) الّذينَ لا يقولونَ الحَقَّ كأنّهُم فَقَدوا قُوةَ النُطْقِ (الّذينَ لا يَعْقِلونَ) أي فَقدوا فَضيلةَ العَقْلِ الّذي يُمَيِّزُ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ ، ويُفرِّقُ بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ ، إذْ لَو عَقَلوا لَطَلَبوا ، وَلَو طَلَبوا لَسَمِعوا وَمَيَّزوا ، وَلَو سَمِعوا لَنَطقوا وَبيَّنوا وتَذكَّروا وَذَكَروا ، كَما قالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ [ق : ٣٧] .

فَهُم لِفَقدِهِمْ مَنْفَعَةَ العَقلِ والسَّمْعِ والنُّطْقِ ، كالفاقِدينَ لِهذهِ المَشاعِرِ والقُوى . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى سوءَ هؤلاءِ الفِئَةِ مِنَ الدوابِّ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

لَو عَلِمَ اللهُ تَعالى في هؤلاءِ الصُمِّ البُكْمِ (خيراً) أي استِعداداً للإيمانِ ورَغبَةً فيما يُصلِحُ نُفوسَهُم وَقُلوبَهُم (لأسمَعَهُم) سَماعَ تَدبُّرٍ وَتَفهُّمٍ ؛ أي جَعَلَهُم سامِعينَ للحَقِّ وَمُستَجيبينَ لَهُ ، وَلكنَّهُ سُبحانَهُ لَمْ يَعلَمْ فيهم شَيئاً مِنْ ذلكَ ، فَحجبَ عَنهُم خَيْرَهُ بِسببِ سوءِ اسْتِعدادِهِم . وَلِهذا قالَ سُبحانَهُ عَقِبَ هذا القولِ : ﴿ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ .

أي : وَلَو أسمَعَهُم سَماعَ تَفهُّمٍ وتَدبُّرٍ وَهُم عَلى هذهِ الحالَةِ الّتي لَيسَ فيها خَيرٌ ، لَتَوَلَّوْا عَمّا سَمِعوهُ مِنَ الحَقِّ ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عَنْ قَبولِهِ جُحوداً وعِناداً .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

وهذا نِداءٌ ثالِثٌ عَقِبَ ما بَيَّنَ اللهُ تَعالى مِنْ نَكالِ الكافِرينَ بِسببِ عَدَمِ اسْتِجابَتِهِم لِما أَمَرَ اللهُ تَعالى ، وَفيهِ أَمْرٌ لِلمُؤْمِنينَ بالاستِجابَةِ لِما أَمَرَ وَتحذيرٌ لَهُم مِنَ الأقوالِ والأعمالِ الّتي تَكونُ سَبَباً في هلاكِهِمْ وعذابِهِمْ .

يا أَيُّها الّذينَ صَدَّقوا بالحَقِّ وأَذْعَنوا لَهُ أَجيبوا اللهَ تَعالى فيما يَأْمُرُكُمْ بِهِ ، وَأَجيبوا رَسولَهُ ﷺ في تَبليغِهِ ما يَأمُرُ بِهِ اللهُ تَعالى ، وذلكَ إذا دَعاكُمُ الرَّسولُ ﷺ إلى أوامِرِ اللهِ تَعالى بِالأحكامِ الّتي فيها حَياةُ أجسامِكُم وأرواحِكُم وعُقولِكُم وقُلوبِكُم . واعْلَموا عِلْمَ اليَقينِ أَنَّ قُلوبَكُم بِيَدِ اللهِ تَعالى وَطَوْعَ أَمْرِهِ ، يُوجِّهُها كَما يَشاءُ ، فَيَحولُ بَيْنَكُمْ وَبينَ قُلوبِكُم إذا أَقْبَلَ عَلَيْها الهَوى ، فَهُوَ مُنقِذُكُمْ مِنْهُ إذا اتَّجهتُم إلى الطَّريقِ المُستَقيمِ ، وأَنَّكُم جَميعاً سَتُجمَعونَ يَومَ القِيامَةِ فَيكونُ الجَزاءُ .

وفي قَولِهِ تَعالى : ﴿ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ ﴾ قَولانِ ذَكَرنا أحدَهُما ، والثّاني أَنَّهُ سُبْحانَهُ يُميتُ المَرْءَ فَتَفوتُهُ الفُرْصَةُ الّتي هُوَ واجِدُها ، وَهِيَ التَّمَكُّنُ مِنْ إخلاصِ القَلبِ ومُعالجَةِ أدوائِهِ وَعِلَلِهِ ، وَرَدِّهِ سَليماً كَما يُريدُهُ اللهُ تَعالى ، فاغتَنِموا فُرصَةَ وُجودِكُم في الدُّنيا وأَخلِصوا قُلوبَكُم لِطاعَةِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ .

﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

هذا تَرهيبٌ للمُؤْمِنينَ وتَحذيرٌ لَهُم مِنَ التّراخي في تَغييرِ المُنْكَرِ ، أوِ التّمادي في المَعاصي العَظيمَةِ الّتي مِنها : تَرْكُ الجِهادِ ، والشّقاقُ والنِّزاعُ ، فإنَّ أَثَرَ هذهِ الذّنوبِ عَظيمٌ ، والعَذابُ إنْ وَقَعَ بِسبَبِها لا يَقْتَصِرُ على فاعِليها بَلْ يَعُمُّ النَّاسَ جَميعاً . والفِتنَةُ هُنا تَعْني العَذابَ الدُّنيويَّ كالأمراضِ واضْطِرابِ الأحْوالِ ، وَتَسلُّطِ الظَّلَمَةِ وَعدَمِ الأمانِ ، وَغيرِ ذلِك . وفي الآيةِ تَنبيهٌ عَلى أَنَّ اللهَ تَعالى شَديدُ العِقابِ لِمَنْ خالَفَ أمرَهُ . وَقد جاءَ في مَعنى هذهِ الآيَةِ قَولُ النبيِّ ﷺ : « نَعم إذا كَثُرَ

الخَبَثُ »[1] . وهذهِ سُنّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الكَوْنِ .

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ .

بَعدَ أنْ أمرَ اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ بالاسْتَجابَةِ لَهُ ، وَنَهاهُم عَنِ الوُقوعِ في المَعاصي ، أَخَذَ في تَذْكيرِهِم بِجانِبٍ مِنْ فَضْلِهِ عَلَيْهِم ، فقالَ لَهُم : اذكُروا يَومَ أنْ كُنتُم قِلَّةً مُسْتَضعَفينَ ، تَخشى أنْ يأخُذَها أعداؤُها أخْذاً سَريعاً ، فَرفعَ اللهُ تَعالى عَنكُم هذهِ الحالَ بِفَضْلِهِ ، وأبدَلَكُم خَيْراً مِنها بِأنْ آواكُمْ إلى المَدينةِ ، وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِكُمْ يا مَعْشَرَ المُهاجرينَ والأنصارِ ، وأيَّدكُمْ بَنَصْرِهِ في غَزْوةِ بَدْرٍ ، وَقَذفَ في قُلوبِ أعدائِكُم مِنْكُم ، وَرَزَقَكُم مِنَ الغَنائِمِ الّتي أَحَلَّها لَكُم بَعدَ أنْ كانَتْ مُحَرَّمَةً على الّذينَ مِنْ قَبْلِكُم .

كَما رَزَقَكُم بكَثيرٍ مِنَ المَطاعِمِ والمَشارِبِ الطَّيِّبَةِ الّتي لَمْ تَكُنْ مُتَوفِّرَةً لَكُم قَبلَ ذلكَ ، حتَّى تَستَمِرّوا على طاعَةِ اللهِ تَعالى وشُكْرِهِ ، وَلا يَشغَلُكُمْ عَنْ ذلكَ أيُّ شاغِلٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَحذيرُ المُؤْمِنينَ مِنْ عَواقِبِ عَدمِ طاعَةِ اللهِ تَعالى وَالتَولّي عَنْ رَسولِهِ ﷺ .

٢ـ نَهْيُ المُؤْمنينَ عَنِ التَشَبُّهِ بِالكافِرينَ .

٣ـ حَثُّ المُؤْمنينَ على الاسْتِجابَةِ للهِ تَعالى وَرسولِهِ ﷺ .

٤ـ في الاسْتِجابَةِ لِما أمَرَ اللهُ تَعالى وَرَسولُهُ ﷺ الحياةُ الكَريمةُ في الدُّنيا ، وَالحياةُ المُنَعَّمَةُ في الآخِرَةِ .

٥ـ تَحذيرُ المُؤْمِنينَ مِنْ عَدَمِ تَدارُكِ الفُرَصِ في تَحقيقِ العَمَلِ الصَّالِحِ .

٦ـ إذا كَثُرَتِ الذُّنوبُ وانتَشَرَتْ ، عَمَّ العَذابُ المُذْنِبَ وغَيرَ المُذْنِبِ .

---

(١) الحديث رواه البخاري : ٣/ ١٢٢١ حديث رقم : (٣١٦٨) ، ومسلم : ٤/ ٢٢٠٧ حديث رقم : (٢٨٨٠) .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

اسْتَجيبوا للهِ وَلِلرَّسولِ ، دَعاكُم لِما يُحْييكُم ، يَحولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ ، فِتنَةً ، يَتَخطَّفَكُمُ النَّاسُ ، آواكُمْ .

٢ـ في الآياتِ الكَريمةِ أوامِرُ ونواهٍ عِدّةٌ ، اذكُرْ أمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ مِنْها .

٣ـ بيِّنْ مِنْ خِلالِ الآياتِ ماذا يَتَرتَّبُ عَلى طاعَةِ اللهِ تَعالى وَطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ .

٤ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمةُ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى في الكَونِ ، بيِّنْها .

٥ـ ذَكَرتِ الآيةُ الأخيرَةُ بَعضاً مِنْ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى المُؤْمِنينَ ، اذْكُرْها .

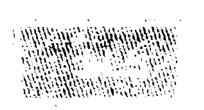
٦ـ ما الدَّرْسُ المُستَفادُ مِنْ كلٍّ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أ ـ ولا تَولَّوْا عنهُ وأنتُمْ تَسْمعونَ

ب ـ ولَوْ عَلِمَ اللهُ فيهِمْ خَيْراً لأَسْمَعَهُمْ

ج ـ واتّقوا فِتنةً لا تُصيبَنَّ الّذينَ ظَلَموا مِنْكُمْ خاصَّةً .

د ـ ورَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيباتِ لَعلَّكُمْ تشْكُرونَ .



١ـ جَمعتِ الآيةُ الكَريمةُ (٢٤) بَيْنَ التَّرغيبِ في العَملِ الصّالحِ بِسرعَةٍ ونَشاطٍ ، وَبينَ التَّرهيبِ مِنَ التَّكاسُلِ والغَفلَةِ عَن طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَضِّحْ ذلكَ ، واكتبْه في دَفْتَرِكَ .

٢ـ جَمَعتِ الآياتُ السَّابِقَةُ صُوَراً عِدَّةً مِنَ التَّرغيبِ والتَّرهيبِ ، اكتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ والصّورَةَ الّتي تَدُلُّ عَلَيْها .

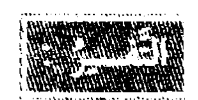
* * *

الدَّرْسُ السَّادِسُ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾

لا تَخونوا اللهَ	: الخِيانَةُ هُنا هِيَ انْتِهاكُ حُرُماتِ اللهِ تَعالى الّتي نَهى عَنِ الاقْتِرابِ مِنْها .
أماناتِكُم	: أسرارَكُم وعُهودَكُم وودائِعَكُمْ وَغَيْرَها .
فُرقاناً	: هِدايةً ونوراً في قُلوبِكُم تُفرِّقونَ بِهِ بَينَ الحَقِّ والباطِلِ .
يمْكُرُ بِكَ المَكْرُ	: هُوَ صَرْفُ الغَيْرِ عَمّا يَقصِدُهُ بِحيلَةٍ ، وَالمَقصودُ الحَديثُ عَن تآمُرِ مُشرِكي مَكّةَ عَلى سَيِّدِنا رَسولِ اللهِ ﷺ .
يُثْبِتوكَ	: يَحْبِسوكَ .
يمْكُرُ اللهُ	: يردُّ مكْرَهُمْ عَلَيْهِمْ ، ويُحْبِطُ كَيْدَهُمْ .



﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ .

لَقَدْ مَرَّتِ الآياتُ السَّابِقَةُ بِنداءاتٍ ثَلاثةٍ ، وَهذا نِداءٌ رابعٌ للمُؤْمِنينَ فيهِ تَصْفِيَةٌ لِنُفوسِهِم ، وَإعلاءٌ

لِشأنِهم إذا ما التَزموا أمْرَ اللهِ تَعالى ، وحافَظوا عَلى شَرْعِهِ .

يَقولُ تَعالى : يا أيُّها الّذينَ صَدَّقوا بالحَقِّ وأذْعَنوا لَهُ ، لا تَخونوا اللهَ تَعالى بأنْ تَملُّوا فَرائِضَهُ وَتَتَعدَّوْا حُدودَهُ ، وَتُوالوا أعداءَهُ ، أو تَقعُدوا عَنِ الجِهادِ في سَبيلِهِ ، ولا تَخونوا رَسولَهُ ﷺ بِتَرْكِ سُنَّتِهِ وَمُخالَفةِ أمْرِهِ وَنَهْيِهِ .

وَلا تَخونوا أماناتِكُمْ بأنْ تُفشوا الأسْرارَ الّتي بَيْنَكُمْ ، وتَنْقُضوا العُهودَ الّتي تَعاهَدْتُم على الوَفاءِ بها ، وَتُنْكِروا الوَدائِعَ الّتي أوْدَعَها لَدَيْكُم غَيْرُكُم ، وَتَسْتَبيحوا ما يَجِبُ حِفْظُهُ مِنْ سائِرِ الحُقوقِ المادِّيَّةِ والمَعنويّةِ . والحالُ أنَّكُم تَعلمونَ سوءَ عاقِبَةِ الخائِنِ للهِ تَعالى ولِرَسولِهِ ﷺ وَللأماناتِ الّتي ائتُمِنَ عَلَيْها ، فَعَلَيْكُمْ أنْ تَتجَنَّبوا الخِيانَةَ في كُلِّ صُورَةٍ لِتَنالوا رِضى اللهِ تَعالى وَمَثوبَتَهُ .

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

ولَمَّا كانَ حُبُّ الأموالِ وَالأولادِ مِنْ أهَمِّ دَواعي الإقْدامِ عَلى الخِيانَةِ ، نَبَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى إلى هذا الأمْرِ لِيَتَيَقَّظَ المُؤْمِنونَ ، فَقالَ لَهُم : اعْلَموا أنَّما أمْوالُكُم وَأولادُكُم فِتنةٌ ؛ أيْ امْتِحانٌ واخْتِبارٌ لَكُم مِنَ اللهِ تَعالى ، لِيَتَبَيَّنَ قَويُّ الإيمانِ مِنْ ضَعيفِهِ ، أمَّا قَويُّ الإيمانِ فلا يَشْغَلُهُ مالُهُ وَوَلَدُهُ عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَأمّا ضَعيفُ الإيمانِ فَيَشغَلُهُ ذلكَ عَنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى ، وَيَجْعلُهُ يَعيشُ حَياتَهُ عَبْداً لِمالِهِ ، وَمُطيعاً لِشَهواتِ أوْلادِهِ ، حَتَّى وَلَوْ كانَتْ هذهِ الطَّاعةُ مُتَنافِيَةً مَعَ تَعاليمِ دينِهِ وَأدَبِهِ ، فَالواجِبُ عَلى المُؤْمِنِ اتِّقاءُ خَطَرِ الفِتْنَةِ الأُولى بِكَسْبِ المالِ مِنْ وُجوهِهِ الحَلالِ ، وإنْفاقِهِ في وُجوهِهِ المَشْروعَةِ ، واتِّقاءُ خَطَرِ المَعاصي والرَّذائِلِ . واعْلَموا أنَّ اللهَ تَعالى عِندَهُ أجرٌ عَظيمٌ لِمَنْ آثَرَ طاعَتَهُ وَرِضاهُ عَلى جَمعِ المالِ وَحُبِّ الأولادِ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

هذا خِتامُ نِداءاتِ اللهِ تَعالى لِلمُؤْمِنينَ في هذا السِّياقِ ، وَهُوَ أعَمُّ هذهِ النِّداءاتِ وَالأصْلُ الجامِعُ لَها جَميعاً ، وَالمعَنى : يا أيُّها الّذينَ آمَنوا إنْ تَتّقوا اللهَ تَعالى بِأنْ تَصونوا أنْفُسَكُم عَنْ كُلِّ ما يُغْضِبُهُ ، وتُطيعوهُ في السِّرِّ وَالعَلَنِ يَجعلْ لَكُم فُرْقاناً ؛ أيْ هِدايةً في قُلوبِكُم تُفرِّقونَ بِها بَيْنَ الحقِّ والباطِلِ ، وَنَصراً تَعلو بِهِ كَلِمتُكُم عَلى كَلِمَةِ أعدائِكُم ، وَمَخْرَجاً مِنَ الشُّبُهاتِ الّتي تُقلِقُ نُفوسَكُم ، وَنَجاةً مِمّا تَخافونَ .

وَفَوقَ هذا فَإنَّهُ سُبحانَه يُكَفِّرُ عَنكُمْ سَيِّئاتِكُم بِأنْ يَسْتُرَها لَكُم في الدُّنيا ، وَيَغْفِرَها لَكُم يَومَ القِيامَةِ .

وَقولُهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ تَعليلٌ لِما قَبْلَهُ ، وَتَنبيهٌ عَلى أنَّ ما وَعَدَ بِهِ سُبْحانَهُ

وتعالى المُؤْمِنينَ على تَقْواهُم إنَّما هُوَ تَفَضُّلٌ مِنْهُ لَهُمْ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ صاحِبُ العَطاءِ الجَزيلِ ، والخَيْرِ العَميمِ لِمَنْ أطاعَهُ واتَّقاهُ وَصانَ نَفْسَهُ عَمَّا يُسْخِطُ اللهَ تَعالى وَيُغْضِبُهُ .

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

في هذهِ الآيةِ تَذْكيرٌ للنَّبيِّ ﷺ وَأصحابِهِ المُؤْمنينَ بِبَعضِ جَرائِمِ أعْدائِهِمْ الّتي مِنْها محاوَلَتُهُمُ المَحمومةُ اليائسَةُ لِلتَّخلُّصِ مِنْ سَيِّدِنا رَسولِ اللهِ ﷺ بِوَسائِلَ مُتَعدّدَةٍ ومُتَنوّعَةٍ . وَتَحكي هذهِ الآيَةُ عَمّا جرى مِنْ قُرَيشٍ لَيلَةً مِنَ اللَّيالي بِمَكَّةَ حينَ اجْتَمعوا لِلتَّشاوُرِ في أمْرِ النَّبيِّ ﷺ وَذلِكَ بَعدَ أنِ اشْتَهرَ أمْرُهُ ، وَصارَ النَّاسُ يَتَوافَدونَ إليْهِ ، فَقالَ بَعضُهُم إذا أصْبَحَ فأثْبِتوهُ بالوَثاقِ . وقالَ بَعضُهُم : بَلِ اقْتُلوهُ ، وقالَ بَعضُهُم : بَلْ أخْرِجوهُ . ثُمَّ اتَّفَقوا على قَتْلِهِ ، فَأطْلَعَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ على ما دبّرَتْهُ قُرَيشٌ ، وَأمَرَهُ أنْ لا يَبيتَ في مَضْجعِهِ تِلكَ اللَّيلَةَ ؛ لَيْلَةَ تَنفيذِ المُؤامَرَةِ ، فَأمَرَ النَّبيُّ ﷺ عَليّاً بنَ أبي طالبٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ أنْ يَبيتَ مَكانَهُ تِلكَ اللَّيلَةَ ، وَخَرَجَ النَّبيُّ ﷺ مع صاحِبِهِ أبي بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، فَنجا هُوَ ﷺ وَصاحِبُهُ أبو بَكْرٍ رَضيَ اللهُ عَنْهُ ، ونجّى اللهُ تَعالى عَليّاً بنَ أبي طالبٍ مِنْ مَكْرِ الكُفّارِ ، ورَجَعَ الكُفّارُ يَجُرّونَ أذْيالَ الخَيْبَةِ وَالقَهْرِ ؛ إذْ فَشِلَ ما كانَ يَتَطَلَّعونَ إليْهِ وَيَرْجونَهُ .

واذْكُر يا مُحَمَّدُ ﷺ وَقْتَ أنْ نَجيَّتُكَ مِنْ مَكْرِ أعدائِكَ حينَ تآمَروا عَلَيْكَ وَأنْتَ بَينَ أظْهُرِهِم في مَكَّةَ لِكَيْ يَحبسوكَ في دارِكَ ، فَلا تَتَمكَّنُ مِنْ لِقاءِ النَّاسِ وَمِنْ دَعْوَتِهِم إلى الدِّينِ الحَقِّ ، أوْ يَقتُلوكَ بِمَجْموعِهِم فَلا تَقوى قَبيلَتُكَ على الأخْذِ بثأرِكَ ، أوْ يُخْرِجوكَ مِنْ مَكَّةَ مَنْفِياً مُطارَداً حتّى يَحولوا بَيْنَكَ وَبَيْنَ لِقاءِ قَوْمِكَ . ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾ .

هذا بيانٌ لِموضوعِ النِّعمةِ والمِنَّةِ ، أيْ والحالُ أنَّ هؤلاءِ المُشْرِكينَ يَمكُرونَ بكَ المَكْرَ السَّيِّءَ ، واللهُ تَعالى يردُّ مَكْرَهُمْ في نُحورِهِمْ ، ويُحْبِطُ كَيْدَهُمْ ، ويُخَيِّبُ سَعْيَهُمْ ، ويُعاقِبُهُمْ عليْهِ بِعقوبةٍ شديدةٍ ، ويُدبّرُ لكَ أمْرَكَ وأمْرَ أتْباعِكَ ، ويَحفظُكُمْ جَميعاً مِنْ شُرورِ أعدائِكُمْ ، فهو سُبحانَهُ أقوى مَنْ يَردُّ كَيْدَ الماكِرينَ إلى نُحورِهِمْ ، ويُدبّرُ ما فيهِ نجاةُ رسولِهِ ﷺ والمُؤْمِنينَ مِنْ شُرورِهِمْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ ـ لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أنْ يَخونَ اللهَ تَعالى أوْ يَخونَ رَسولَهُ ﷺ وَذلكَ بِتَرْكِ ما أمَرَهُ اللهُ تَعالى وَأمَرَهُ بِهِ رَسولُهُ ﷺ .

٢ـ التَّحذيرُ مِنْ فِتْنَةِ الأمْوالِ والأوْلادِ .

٣ـ بَيانُ أثَرِ التَّقوى في مَحْوِ السَّيئاتِ والذُّنوبِ .

٤ـ تَنْبيهُ المُؤْمِنينَ إلى شِدَّةِ مَكْرِ الكافِرينَ ، لِيَحذَروا شَرَّهُم وَمَكْرَهُمْ .

٥ـ بَيانُ مَعِيَّةِ اللهِ تَعالى وَتأييدِهِ وَنَصرِهِ لأوْلِيائِهِ المُتَّقينَ .

٦ـ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى غالِبٌ على أمْرِهِ ، قادِرٌ على نَصْرِ أوْلِيائِهِ وَعبادِهِ الصَّالِحينَ .

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

فُرْقاناً ، يُكَفِّرْ عَنْكُم سَيِّئاتِكُمْ ، يَمْكُرُ بِكَ ، يُثْبِتوكَ ، واللهُ خَيْرُ الماكِرينَ .

٢ـ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى عَنْ خِيانَتِهِ وخيانةِ رَسولِهِ ؟

٣ـ تَتَعدَّدُ صُورُ الخِيانَةِ للهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، هاتِ خَمْساً مِنْ هذهِ الصُّوَرِ .

٤ـ لِماذا كانَتِ الأمْوالُ والأوْلادُ فِتْنَةً ؟

٥ـ ما المَوْقِفُ الّذي يَنبَغي أنْ يَكونَ عَليهِ المُسْلِمُ أمامَ فِتنةِ المالِ وَالوَلدِ ؟

٦ـ ماذا تَسْتَنبِطُ مِنَ الآيةِ الكَريمةِ الأخيرةِ في هذا الدَّرسِ ﴿وإذ يَمْكُرُ بكَ. . . .﴾ ؟

٧ـ هاتِ الدليلَ على كلٍّ ممّا يلي :

أـ حُرْمَةُ خِيانَةِ الأمانَةِ .

ب ـ التَّقوى سَبيلُ النَّجاةِ .

ج ـ اللهُ غالِبٌ عَلى أمْرِه .

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آياتِ النِّداءاتِ الخَمْسَةِ الّتي مَرَّتْ بِكَ في هذهِ السُّورَةِ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ

سورةُ الأَنْفالِ - القِسْمُ السّابعُ

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أساطيرُ الأوّلينَ : جَمْعُ أُسطورَةٍ ، وَالمُرادُ بِها ما كانَ يُحكى عَنِ القُدامى مِنْ قَصَصٍ وحَكاياتٍ ، ويَغلِبُ عَلَيْها طابَعُ الخُرافةِ والتَّخْييلاتِ .

مُكاءً : صَفيراً .

تَصدِيَةً : تَصْفيقاً .

التَّفسيرُ :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَكْرَ الكافِرينَ وتَدبيرَهُمْ لِلخَلاصِ مِنَ النَّبيِّ ﷺ وَأنَّهُ تعالى نَجّى نبيَّهُ ﷺ

وَأصحابَهُ ، وَرَدَّ كَيْدَ الكافِرينَ إلى نُحورِهِم ، ذَكَرَ رَبُّنا تَعالى جانِباً مِنَ الدَّعاوى الكاذِبَةِ الّتي تَفوَّهَ بِها المُشْرِكونَ ، وَبَيَّنَ حالَهُم وَقدْ بَلَغَ بِهِمُ الكَذِبُ والطُّغيانُ مَبْلَغاً عَظيماً ، حتّى أنَّهم كانوا إذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ اللهِ تَعالى قالوا كَذِباً وَزوراً : ﴿قد سَمِعْنا﴾ أيْ : فَهِمْنا ما يَحتَوي عَلَيْهِ ما قَرأتَهُ عَلينا ، وَوَعيناهُ ، لَوْ نشاءُ لَقُلنا مِثْلَ هذا القُرآنِ الّذي تَتلوهُ عَلَيْنا ، ما هُوَ إلاّ مِنْ قِصَصِ الأوَّلينَ وَحِكاياتِهِمُ الّتي سَطَّرها بَعْضُهُم عَنْهُم ، وَلَيْستْ مِنْ عِنْدِ اللهِ تَعالى .

وَمِنْ عَجيبِ بُهتانِ المُشْرِكينَ أنَّ الرَّسولَ تَحدَّاهُم بِمُعارَضَةِ سورةٍ مِنَ القُرآنِ فَعَجِزوا عَنْ ذلكَ وأُفحِموا ، ثُمَّ اعْتَذَروا بِأنَّ ما في القُرآنِ أساطيرُ الأوَّلينَ ، وَأَنَّهُم قادِرونَ على الإتْيانِ بِمِثْلِ ذلكَ .

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾

هذهِ جَريمةٌ أُخرى مِنْ جَرائِمِهِمْ ، وَهذا لَونٌ مِنْ ألوانِ عِنادِهِم ، وَصورَةٌ مِنْ صُوَرِ جُحودِهِم لِلحَقِّ ، وَالمَعنى أنَّ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ قَدْ بَلَغَ بِهِمُ العِنادُ والجُحودُ أنَّهُم لَمْ يَكْتَفوا بإنكارِ أنَّ القُرآنَ مِنْ عِندِ اللهِ تَعالى ، وَأنَّ مُحمَّداً ﷺ قَدْ جاءَهُم بالحَقِّ ، بَلْ أضافوا إلى ذلكَ قَولَهُم : اللَّهُمَّ إنْ كانَ هذا الّذي جاءَنا بِهِ مُحمَّدٌ ﷺ مِنْ قُرآنٍ هُوَ الحَقُّ المُنَزَّلُ مِنْ عِنْدِكَ ، فَعاقِبْنا على إنكارِهِ وَالكُفْرِ بِهِ ، بِأنْ تُنَزِّلَ عَلينا حِجارَةً مِنَ السَّماءِ .

وهَكذا النُّفوسُ عِندَما تَنْغَمِسُ في الأحْقادِ ، وَتَتمادى في الجُحودِ ، وَتَنقادُ لِلأهواءِ والشَّهواتِ ، وَتأْخُذُها العِزَّةُ بِالإثْمِ ، تَرى الباطِلَ حقّاً ، والحَقَّ باطلاً وتُؤْثِرُ العَذابَ ، وَهِيَ ماضِيَةٌ في باطِلِها بَعيداً عَنِ الخُضوعِ لِلحَقِّ وَالمَنْطِقِ والصَّوابِ .

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

هذا تَعقيبٌ مِنَ اللهِ تَعالى على رَذائِلِ المُشْرِكينَ وَقبائِحِهمْ ، وَفيهِ بَيانُ الأَسْبابِ في إمْهالِهِم وَعَدمِ إجابَةِ دُعائِهِمْ في هَلاكِهِمْ ، فَبيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى السَّببَ بِأمْرَيْنِ اثنَيْنِ :

الأوَّلُ : وُجودُ الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ مانِعٌ مِنْ أنْ يَعُمَّهُمُ العَذابُ ، ولا يُهلِكُ اللهُ تَعالى قَريَةً مُكَذِّبَةً وفيها نَبيُّها والمُؤْمِنونَ مَعَهُ ، حتَّى يُخرِجَهُم ثُمَّ يُعذِّبُ الكافِرينَ . وَمِثْلُ هذهِ الآيةِ في بَيانِ هذهِ السُّنَّةِ قَولُهُ تَعالى في سورة الفتح : ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح : ٢٥] .

الثّاني : أنَّ اللهَ تَعالى لا يُعذِّبُ الأقْوامَ وَهُمْ يَتوبونَ عَنِ الشِّرْكِ ، ويؤْمِنونَ باللهِ تَعالى ، وَفي هذهِ الآيةِ وعْدٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِلمُشْرِكينَ بِأنَّ التَّوبَةَ مِنَ الشِّرْكِ تَدفَعُ عَنْهُمُ العَذابَ وَتكونُ أمْناً لَهُم .

وفي الآيةِ الكَريمةِ بَيانُ فضيلَةِ الاسْتِغفارِ وَبَرَكَتِهِ وأنَّهُ مانِعٌ مِنْ عَذابِ اللهِ تَعالى .

﴿ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى الحِكْمَةَ مِنْ عَدَمِ تعذيبِ الكُفّارِ ، بَيَّنَ هَهُنا ما يَجْعَلُ الكافِرينَ مُسْتَحقّينَ لِعذابِ اللهِ تَعالى وَعِقابِهِ . والمَعنى : أَيُّ شَيءٍ يَمْنَعُ مِنْ عَذابِ مُشرِكي قُرَيشٍ بَعدَ خُروجِكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ وَخُروجِ المُؤْمِنينَ المُستَضْعَفينَ مِنْ بَينِ أَظْهُرِهِم ؟ إنَّهُ لا مانِعَ مِنْهُ بَعدَ ذلِكَ خُصوصاً بَعدَ وُجودِ الجَرائِمِ الشَّنيعَةِ المُتَمثِّلَةِ في مَنْعِهِمُ المُؤْمِنينَ مِنَ الطَّوافِ بالمَسجِدِ الحَرام ، وَمِنْ زِيارَتِهِ ، وَمِنْ مُباشَرَةِ عِبادَتِهِمْ عِندَهُ ، إنَّهُم لا بُدَّ وأنْ يُعذَّبوا عَلى هذهِ الجَرائِمِ . وَقَد أَوْقَعَ اللهُ تَعالى بهم بَأسَهُ يَومَ بَدْرٍ فَقُتِلَ صَناديدُهُم ، وَأُسِرَ وُجهاؤُهُم .

﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ﴾ وَهذا رَدٌّ عَلى المُشْرِكينَ الّذينَ يَقولونَ زوراً وبُهتاناً أَنَّهُم وُلاةُ بَيتِ اللهِ الحَرامِ ، فَلَهُم أنْ يَصُدُّوا مَنْ شاءوا عَنْ دُخولِهِ ، وَيُدخِلوا فيهِ مَنْ شاءوا ، فإنَّهُم ما كانوا في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ أَهْلاً لِوِلايَةِ بَيتِ اللهِ الحَرامِ بِسَبَبِ شِرْكِهِم ، وَعَداوَتِهِمْ للهِ تَعالى رَبِّ هذا البيتِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبحانَهُ المُستَحقِّينَ لِوِلايَةِ البَيْتِ الحرامِ ، بعدَ نَفْيِها عَنِ المُشْرِكينَ ، فقالَ :

﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ﴾ أَيْ أَوْلِياءُ البَيتِ الحَرام ﴿إِلاَّ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الّذينَ صانوا أَنْفُسَهُم عَنِ الكُفْرِ والشِّرْكِ ، وَعَنْ كُلِّ ما يُغْضِبُ اللهَ تَعالى . ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أَيْ أكثَرُ المُشْرِكينَ لا يَعلمونَ أحقِيَّةَ المُؤْمِنينَ بِوِلايَةِ بَيتِ اللهِ الحرام ، بِسبَبِ جَهْلِهِمْ وَتَماديهِمْ في الجُحودِ والضَّلالِ . وإنَّما نَفى هذا العِلْمَ عَنْ أَكْثَرِهِم ، لأنَّ قِلةً مِنهُم كانَتْ تَعلَمُ أَنَّهُ لا وِلايَةَ لَها على المَسْجِدِ الحَرامِ ، وَلكِنَّها كانَتْ تَجحدُ ذلِكَ عِناداً وغُروراً أو مُجاراةً للعامَّةِ مِنهُم أَوْ حُبّاً في الرِّياسَةِ أو ذلِكَ كُلِّه .

﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

هذا لَوْنٌ آخَرُ مِنْ أَلوانِ ضَلالِ المُشْرِكينَ ، وجُحودِهِم ، وَعَبَثِهِمْ عِندَ بَيتِ اللهِ الحَرام ، والمَعْنى أنَّ هؤلاءِ المُشْرِكينَ لَمَ تَكُنْ صَلاتُهُم عِندَ البَيتِ الحَرامِ إلاّ تَصفيقاً وتَصْفيراً ، وهَرْجاً وَمَرْجاً لا وَقارَ فيهِ ، ولا اسْتشعارَ لِحُرْمَةِ البَيتِ ولا خُشوعاً لِجلالِ اللهِ تَعالى ، وهذا يؤكِّدُ عَدَمَ اسْتِحقاقِهِمْ لِوِلايَةِ البَيْتِ الحَرام .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴾ إمَّا أنْ يَكونَ وَعيداً لَهُمْ بعذابِ الآخِرَةِ بِسببِ كُفْرِهِم واسْتِهزائِهِم بشَعائِرِ اللهِ ، وإمّا أنْ يَكونَ المُرادُ ما حَصَلَ لَهُم يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ القَتْلِ والأَسْرِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الباطِلُ لا يَتوانى عَنْ مُحارَبَةِ الحَقِّ بِأَيِّ صورَةٍ وَوسيلةٍ .

٢ـ إنَّ وَجودَ المُؤْمِنينَ بِإيمانِهِم في الأَرْضِ هُوَ أمانٌ مِنْ عذابِ اللهِ تَعالى .

٣ـ إذا سَيْطَرَتِ الأَهْواءُ والشَّهَواتُ عَلى الإنْسانِ صارَ يَرى الحَقَّ باطِلاً ، والباطِلَ حَقّاً .

٤ـ المُشْرِكونَ وَالكُفّارُ لا يَتوانَوْنَ عَنْ تَعطيلِ عِباداتِ المُسلِمينَ وَمُحاولَةِ مَنْعِهِمْ مِنْ أدائِها .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

أساطيرُ الأوَّلينَ ، يَصُدّون عَنِ المَسجدِ الحَرامِ ، مُكاءً ، تصدِيَةً .

٢ـ بَيِّنْ مَوْقِفَ المُشْرِكينَ حين تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُ اللهِ تَعالى .

٣ـ بَيِّنْ أثَرَ الاسْتِغفارِ على النّاسِ .

٤ـ ما الأشياءُ الّتي تَحولُ بينَ النّاسِ وعَذابِ اللهِ تَعالى ؟

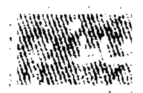
٥ـ صِفْ عِبادَةَ المُشْرِكينَ عِنْدَ المسجدِ الحَرامِ .

٦ـ هاتِ الآياتِ الّتي تَدُلُّ على كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ حَماقَةُ المُشْرِكينَ .

ب ـ دَعواهُمُ الباطِلَةُ وكَذِبُهُمْ .

٧ـ مَنْ هُمْ أولياءُ المَسْجِد الحرامِ ؟ وما الدَّليلُ عَلى ذلكِ ؟



١ـ ماذا تَفْهَمُ مِنْ دُعاءِ الكافِرينَ على أنْفُسِهِمْ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ما أثرُ الاسْتِغْفارِ في ردِّ عذابِ اللهِ تعالى عَنِ النّاسِ ؟ اكْتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

الدَّرْسُ الثَّامِنُ

سورةُ الأنْفالِ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

يصدُّوا عَنْ سَبيلِ اللهِ : يَمْنَعوا النَّاسَ مِنَ الدُّخولِ في الإسْلامِ .

حسْرَةً : نَدامَةً وأسَفاً .

يميزَ الخَبيثَ مِنَ الطَّيبِ : يُفَرِّقَ بَيْنَ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ ، فَلا يَختَلِطُ هؤلاءِ بِهؤلاءِ .

يرْكُمَهُ جَميعاً : يَجْمَعَهُ وَيَضُمَّ بَعْضَهُ إلى بَعْضٍ .

ما قَدْ سَلَفَ : ما قَدْ مَضى .

إنْ يعودوا : أيْ : إلى قِتالِكَ ، وَيَستَمِرُّوا في كُفْرِهِم وَضَلالِهِم وَطُغيانِهِمْ .

مضتْ سُنَّةُ الأوَّلينَ : أيْ : تَجري عَلَيْهِم سُنَّةُ اللهِ تَعالى في أمثالِهِم مِنَ الأوَّلينَ الّذينَ عادَوْا رُسُلَهُم وقاتَلوهُمْ .

حتَّى لا تَكونَ فِتْنَةٌ : حتَّى لا يُوجَدَ مِنْهُم شِرْكٌ ، أوْ لا يُفتَنَ مُؤْمِنٌ عَنْ دينِهِ .

التَّفسيرُ :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

هذا بيانٌ مِنَ اللهِ تَعالى عَمَّا يَفعلهُ الكافِرونَ في أمْوالِهِم ، وَأنَّهُم إنَّما يُنْفِقونَها في الشُّرورِ والآثام ، ثُمَّ ألحَقَ بِهِمْ بَعدَ البَيانِ تَهديداً لَهُم عَلى فِعْلِهِمُ المُنْكَرَ .

إنَّ هؤلاءِ الّذينَ جَحَدوا بالآياتِ ، وأشْرَكوا باللهِ تَعالى يُنفِقونَ أموالَهُمْ ، وَيبذُلونَها لِيَمْنَعوا النَّاسَ عَنِ الإيمانِ الحَقِّ ، وَيُبْعِدوهُمْ عَن رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَهُمْ سيُنفِقونَها لا مَحالَةَ لِرَغبَتِهِمُ الجَامِحَةِ في حَرْبِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ،ثُمَّ تَكونُ هذهِ الأموالُ بِسببِ ضَياعِها عَلَيْهِم مِنْ غَيرِ جَدوى ولا فائِدةٍ وَلا مَنْفَعَةٍ ، موجِبَةً للنَّدَمِ والألَمِ ، وَمَعَ حَسْرَتِهِم عَلى ضَياعِ أمْوالِهِم سَيُغلَبونَ ، ويَنْهَزِمونَ ، وَلا يَتحقَّقُ لَهُم نَصرٌ في مَيدانِ القِتالِ ، وَسَيَجْمَعُ اللهُ تَعالى مِنْهُم مَنْ بَقِيَ عَلى كُفْرِهِ وَيُدْخِلُهُ جَهَنَّمَ ، أعاذَنا اللهُ جَميعاً مِنْها وَمِنْ أهْلِها .

وَيَلحَقُ بِحُكْمِ هذهِ الآيَةِ كُلُّ مَنْ أنْفَقَ مالَهُ يَبْتَغي بهذا الإنْفاقِ حَرْبَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ . فَإنَّ الآيَةَ بِعُمومِها تَشْمَلُهُ وَلَيْسَتْ هِيَ خاصَّةً بِالكافِرينَ فَحَسْبُ ، فَفي هذهِ الآيَةِ وَعيدٌ شَديدٌ لِلكافِرينَ وَلِمَنْ فَعلَ فِعْلَهُم .

﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

أيْ : أنَّ اللهَ تَعالى أذَلَّ الكافِرينَ وَحشَرَهُم إلى جَهَنَّمَ ، لِيَتَميَّزَ الفَريقُ الخَبيثُ وَهُوَ فَريقُ الكافِرينَ ، مِنَ الفَريقِ الطَّيِّبِ وَهُوَ فَريقُ المُؤْمِنينَ الّذينَ أنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم بِرِضوانِهِ ، فَإذا ما تَمايزا جَعلَ سُبْحانَهُ الفريقَ الخَبيثَ مُنْضَمّاً بَعضُهُ إلى بَعضٍ ، ثُمَّ ألقى بِهِ في جَهَنَّمَ جَزاءَ خُبثِهِ وَمَكْرِهِ .

وبَعْدَ هذا التَّهديدِ وَالوَعيدِ وَجَّهَ اللهُ تبارَكَ وتَعالى خِطابَهُ لِلنَّبيِّ ﷺ مُبَيِّناً فيهِ حُكْمَ الّذينَ يَرجِعونَ عَنِ الكُفْرِ ، وَيَدْخُلونَ في الإسْلام ، لأنَّ نُفوسَ النَّاسِ صارَتْ بَعدَ ذلِكَ التَّهديدِ تَسألُ بِلِسانِ الحالِ أوْ المَقالِ عَنْ هذا البَيانِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ يا نَبيَّ الرَّحْمَةِ لِهؤلاءِ الجاحِدينَ : إنَّهُمْ إنْ يَنْتَهوا عَنْ هذا العِنادِ وَالكُفرِ الّذي

هُمْ فِيهِ ، فإنَّ اللهَ تعالى يَغْفِرُ لَهُم ما سَبَقَ مِنْ أعْمالِهِمْ فَلا يُحاسِبُهُم عَلَيْها لأنّ الإسلامَ يَجُبُّ[1] ما قَبْلَهُ ، وإنِ استَمَرُّوا عَلى ضَلالِهِم وَعادوا إلى قِتالِكُم ، فَسوفَ يُصيبُهُم ما أصابَ غَيرَهُم مِنَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنَ العَذابِ الشَّديدِ ، وَسوفَ يُظْهِرُ اللهُ تَعالى الحَقَّ وَأهْلَهُ .

﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ .

هذا أمْرٌ للمُؤْمِنينَ بِقِتالِ الكُفَّارِ إنِ استَمَرّوا عَلى كُفْرِهِم ، لأنَّهُم بِكُفْرِهِم يَفتِنونَ النَّاسَ عَنْ دينِهِمْ ، فَالقِتالُ يُمنَعُهُم مِنْ إفْسادِ عَقائِدِ المُؤْمِنينَ بِالاضْطِهادِ والأذى وَنَحوِهِ ، وَبِذلكَ تَخْتَفي أسْبابُ الفِتْنَةِ ، وَيَبْقى دينُ اللهِ ظاهِراً ، وَيَزدادُ تَمَسُّكُ المُؤْمِنينَ بِدينِهِم ، فَإنِ انْتَهَوْا عَنِ الكُفْرِ وَإيذاءِ المُؤْمِنينَ ، وَخَلَصَ الدِّينُ للهِ تَعالى ، فَإنَّ اللهَ تَعالى بَصيرٌ بِأعْمالِهِم وَمُطَّلِعٌ عَلَيْها ، فَلا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ ، وَهُوَ يُحاسِبُهُم عَلى ما يَراهُ مِنْهُم .

﴿ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴾ .

وإنِ استَمَرّوا عَلى إعْراضِهِم وَإيذائِهِمْ لِلمُؤْمِنينَ ، وَأعْرَضوا عَنْ سَماعِ تَبليغِكُم ، وَلَمْ يَنْتَهوا عَمّا هُمْ فيهِ ، فَأيْقِنوا أيُّها المُؤْمِنونَ أنَّ اللهَ تَعالى هُوَ ناصِرُكُم وَمُتولّي أُمورِكُمْ ، فَلا تُبالوا بِهِمْ ، وَلا تَخافوا ، فإنَّ اللهَ تَعالى نِعْمَ المَوْلَى ، وَنِعْمَ النَّصيرُ ، فَلا يَضيعُ مَنْ تَولاّهُ وَلا يُغْلَبُ مَنْ نَصَرَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أهلُ الكُفرِ لَنْ يَتَوانَوْا أو يَتقاعَسوا عَنْ مُحارَبَةِ هذا الدِّينِ لِعِدائِهِم لَهُ .

٢ـ الخَيْبَةُ وَالحَسْرَةُ تَكونُ لِلكافِرينَ يَومَ القِيامَةِ .

٣ـ إذا أسْلَمَ الكافِرُ فإنَّهُ لا يُخاطَبُ بِما سَبَقَ مِنْ قَضاءِ صَلاةٍ وَزَكاةٍ وَنَحوِها ، لأنَّ الإسْلامَ يَجُبُّ ما قَبْلَهُ .

٤ـ شُرِعَ القِتالُ لأجْلِ إعْلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَكَذلِكَ رَفْعِ الأذى عَنِ المُؤْمِنينَ ومَنْعِ الاعْتِداءِ عَلَيْهِم .

---

(١) يَجُبُّ : يقطع ويمسح .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لِيَميزَ اللهُ الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ، تكونُ عَلَيْهِم حَسْرَةً ، يَرْكُمَهُ .

٢ـ ما الغَرَضُ مِنْ إنْفاقِ الكُفَّارِ أمْوالَهُم ؟ وما نَتيجَةُ هذا الإنْفاقِ ؟

٣ـ إذا أسْلَمَ الكافِرُ ، هَلْ يُطالَبُ بالأحْكامِ الشَّرْعِيَّةِ الّتي تَرَكَها في أثْناءِ كُفْرِهِ ؟

٤ـ لِماذا يُقاتِلُ المُسلِمونَ الكافِرينَ ؟

٥ـ بيِّنِ الآيَةَ الّتي تُشَجِّعُ الكافِرينَ عَلى الدُّخولِ في الإسْلامِ وَتَحُضُّهُمْ عَلَيْهِ .

٦ـ بيِّنِ الآيَةَ الّتي تَدعو المُؤْمِنينَ إلى عَدَمِ المُبالاةِ بِالكافِرينَ .

ـ كَيفَ يَفتِنُ المُشْرِكونَ المُؤْمِنينَ عَنْ دينِهم ؟ اكْتُبْ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

سورةُ الأَنْفالِ - القِسْمُ التّاسِعُ

﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

معاني المُفْرَداتِ :

غَنِمْتُم : ما أَخَذْتُم مِنْ أَمْوالِ الكُفَّارِ قَهْراً بِقتالٍ .

ابنُ السَّبيلِ : المُسافِرُ الّذي نَفِدَ مالُهُ وَهُوَ في الطَّريقِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلى بَلَدِهِ .

يَومَ الفُرقانِ : يَومَ بَدْرٍ ، سُمِّيَ كذلِكَ ، لأَنَّهُ في ذلِكَ اليَومِ فَرَّقَ اللهُ تَعالى بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ .

الجَمْعانِ : جَمْعُ المُؤْمِنينَ ، وَجَمْعُ الكافِرينَ .

اليَتامى : أَطْفالُ المُسْلِمينَ الّذينَ ماتَ آباؤُهُم قَبلَ أَنْ يَبْلُغوا .

المَساكينِ : أَهْلِ الفاقَةِ وَالحاجَةِ مِنَ المُسلِمينَ .

ذوي القُربى : قَرابَةِ النَّبيِّ ﷺ ، وَهُمْ بَنو هاشِمَ وبَنو المُطَّلِبِ .

التَّفسيرُ :

جاءَ في أَوّلِ السُّورةِ الكَريمَةِ قَوْلُهُ تَعالى : ﴿ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ عَلى مَعنَى أَنَّ قِسْمَةَ الأَنْفالِ الأَمْرُ فيها مُفَوَّضٌ للهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ . ثُمَّ جاءَتْ هذهِ الآيَةُ فَفَصَّلَتْ قِسْمةَ الغَنائِمِ حَسبَما أَمَرَ اللهُ تَعالى ، حتَّى لا يَتَطَلَّعَ أَحَدٌ إِلى ما لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ ، فَتَفْسُدَ النُّفوسُ بِهذا التَطَلُّعِ ، وَيَكْثُرَ الخِلافُ .

﴿ وَاعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ ﴾ .

هذا بَيانٌ مُعْلِمٌ وَنِداءٌ مُفْهِمٌ ، يُبَيِّنُ مَعَهُ حُكْمَ هذهِ الغَنائِمِ بَياناً شافِياً تَنْقَطِعُ دونَهُ الأفْكارُ ، فَالغنائِمُ الّتي يَحوزُها المُسْلِمونَ مِنْ أعْدائِهِمْ بَعْدَ المَعارِكِ تُقْسَمُ إلى خَمْسَةِ أَقْسام ، قِسْمٌ فَصَّلَتْهُ الآيَةُ وَبيَّنَتْهُ ، وَأمّا الأقسامُ الأُخرى فَتَرَكَتِ الآيَةُ الحَديثَ عَنها ، وَتُرِكَ الأمْرُ فيها لِرَسولِ اللهِ ﷺ ، فَأمّا الخُمْسُ المُفَصَّلُ فَقَدْ بيَّنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ حُكْمَهُ في قَولِهِ تَعالى : ﴿ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ والمَعنى أنَّ هذا الخُمْسَ يُقَسَّمُ على النَّحْوِ التّالي :

١ـ للهِ تَعالى : فَهِمَ كَثيرٌ مِنَ العُلماءِ أنَّ المُرادَ بِهذا الجانِبِ لَيْسَ القِسْمَةَ الحَقيقيَّةَ ، يَعني أنْ لَيْسَ هُناكَ قِسْمٌ خاصٌّ يوضَعُ عَلَيْهِ عِنْوانٌ أنَّهُ للهِ تَعالى ، وإنَّما المُرادُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى هُنا هُوَ التَّبرُّكُ وَالتَّعظيمُ ، وَالحَضُّ عَلى إخلاصِ النِّيَّةِ عِندَ القِسْمَةِ ، وَعَلى الامْتِثالِ وَالطّاعَةِ لَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَلَيْسَ المَقْصودُ أنْ يُقْسَمَ هذا الخُمْسُ على سِتَّةِ أقسام مِنْها قِسْمٌ للهِ تَعالى ، لأنَّ اللهَ تَعالى غَنِيٌّ عَنْ كُلِّ الأشْياءِ ، وَفَهِمَ آخَرونَ أنَّ الأمْرَ كَذلِكَ يَعني أنَّ هُناك قِسْماً خاصّاً للهِ تَعالى مِنْ هذا الخُمْسِ ، وَأنَّهُ مَتروكٌ لِرسولِ اللهِ ﷺ يَصرِفُهُ حَيثُ شاءَ ، وَجُمْهورُ المُفَسِّرينَ عَلى الأمْرِ الأوَّلِ .

٢ـ لِلرَّسولِ ﷺ : وَهذا السَّهْمُ مُفَوَّضٌ أمْرُهُ إلَيْهِ يَفْعَلُ فيهِ ما يَشاءُ ، يُنْفِقُهُ عَلى أهْلِهِ ، أوْ يَرُدُّهُ عَلى المُسلِمينَ ، وَسَهْمٌ لِرَسولِهِ ﷺ ، هَكَذا كانَ في حياتِهِ ، وَأمّا بَعْدَ وَفاتِهِ فَقيلَ إنَّهُ يَكونُ لِمَنْ يَلي أمْرَ المُسلِمينَ ، وَقيلَ يُصْرَفُ في مَصالِحِ المُسلِمينَ .

٣ـ لِذي القُرْبى : وَالمُرادُ بِهِمْ قَرابَةُ الرَّسولِ ﷺ ، وَخُصَّ مِنْهُمْ بَنو هاشِمٍ وَبنو المُطَّلِبِ ، لِحديثِ النَّبيِّ ﷺ : « إنَّما بَنو المُطَّلِبِ وَبنو هاشِمٍ شيءٌ واحدٌ » . فلا يُصرَفُ هذا السَّهْمُ إلاّ لَهُم في حَياتِهِ ﷺ ، وَأمّا بَعْدَ وَفاتِهِ ﷺ فَيَسْقُطُ ، وَإنَّما يُعطَوْنَ إذا كانوا فُقَراءَ ، وَيُقَدَّمُ فُقراؤُهُم عَلى فُقَراءِ غَيْرِهِم ، وَلا حَقَّ لأغْنِيائِهِم ، لأنَّ الخُلَفاءَ الأرْبَعَةَ قَسموا الخُمْسَ كَذلِكَ ، وَكَفى بِهِم قُدْوَةً . وَقيلَ بَلْ بَقِيَ السَّهْمانِ يُنْفَقانِ على بَقيَّةِ المُقْتَسِمينَ في الخُمْسِ أو يُصْرَفانِ في مَصالِحِ المُسلِمينَ .

٤ـ لِليَتامى : وَاليَتيمُ هُوَ مَنْ ماتَ أبوهُ وَهُوَ صَغيرٌ ، وَلَمْ يَبْلُغِ الحُلُمَ . وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ : لا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلامٍ .

٥ـ لِلمَساكينِ : وَهُمْ مِنْ ذَوي الاحْتياجِ إلى مِثْلِ هذهِ النَّفَقاتِ ، لإقامَةِ شُؤونِ حَياتِهِمْ وَمَعاشِهِم .

٦ـ لابنِ السَّبيلِ : وَهُوَ مَنْ أنْفَدَ السَّفرُ مالَهُ ، فَصارَ مِنْ ذَوي الحاجاتِ إلى المالِ لِيَبْلُغَ مأْرَبَهُ الّذي مِنْ أَجْلِهِ أنْشأَ السَّفَرَ ، أوْ يَعودَ مِنْ حَيثُ أتى .

وَقوْلُهُ تَعالى : ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ شَرْطٌ مُتَحَقِّقُ الوُقوعِ ، لأنَّ المُخاطَبينَ بهذهِ الآيةِ مِنَ المُؤْمنينَ لا مَحالَةَ ، وَإنَّما جيءَ بِهِ عَلى هذا الشَّكْلِ إلهاباً لِمَشاعِرِهِمْ ، لِيَبْعَثَهُم عَلى إظْهارِ تَحقُّقِ الإيمانِ فيهِم ، وَالمَعنى : أنَّكُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ ، والإيمانُ يُرْشِدُ إلى اليَقينِ بِتَمامِ العِلْمِ وَالقُدْرَةِ لَهُ تَعالى ، وَآمَنْتُمْ كَذلِكَ بِما أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى عَلى عَبْدِهِ رَسولِ اللهِ ﷺ حينَ فرَقَ اللهُ تَعالى بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ ، فَرَأيْتُمْ ذلِكَ رَأْيَ العَيْنِ ، وَارْتَقى بِذلِكَ إيمانُكُمْ إلى دَرَجَةٍ عالِيَةٍ ، فَعَلِمْتُمْ أنَّ اللهَ تَعالى أعْلَمُ بِنَفْعِكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ ، فَكانَ ما دَفَعَكُمُ اللهُ تَعالى إليهِ مِنَ اخْتِيارِ القِتالِ يَوْمَ بَدْرٍ أحْفَظَ لِمَصالِحِكُم ، وَأشَدَّ تَثْبيتاً لِقُوَّةِ دينِكُم ، فَالحَرِيُّ بِكُمْ بَعْدَ أنْ رَأيْتُمْ ذلِكَ أنْ تَعْلَموا أنَّ ما شَرَعَ اللهُ تَعالى لَكُمْ مِنْ قِسْمةِ الغَنائِمِ هُوَ المَصْلَحَةُ لَكُمْ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أيْ لا يَتَعاصى عَلى قُدْرَةِ اللهِ تَعالى شَيءٌ ، فإنَّ ما مَنَحَكُم إيَّاهُ يَوْمَ بَدْرٍ لَمْ يَكُنْ جارياً عَلى مُتَعارَفِ الأسْبابِ ، وَلكِنَّ قُدْرَةَ اللهِ تَعالى قَلَبتِ الأحْوالَ وأنشأتِ الأشْياءَ مِنْ غَيْرِ مَجاريها ، فَسُبْحانَ اللهِ تَعالى القَويّ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى المُسْلِمِ أنْ يَكونَ مُطيعاً وراضياً بِما أمَرَ اللهُ تَعالى وَقَضى .

٢ـ في تَقسيمِ الغَنائِمِ نَوْعٌ مِنَ العَدالَةِ الاجْتِماعِيَّةِ ، الّتي تَجْعَلُ لأفْرادِ المُجْتَمَعِ حُظوظاً مُشْتَرَكَةً في كَثيرٍ مِنَ الأُمورِ .

٣ـ في تَذكيرِ المُؤْمِنينَ بِبَعضِ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِم إلْهابٌ لِمَشاعِرِهِم وَتَهييجٌ لِظُهورِ إيمانِهِم .

٤ـ إنَّ اللهَ تَعالى لا يُعْجِزُهُ شَيءٌ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيِّنْ مَعنى : الغَنيمَةِ .

٢ـ حَدَّدَتِ الآيَةُ الكَريمةُ الوُجوهَ الّتي تُصرَفُ إليْها خُمْسُ الغَنائِمِ ، اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كما جاءَ في الآيَةِ .

٣ـ تُقْسَمُ الغَنائِمُ إلى قِسْمَيْنِ . اذْكُرْهُما .

٤ـ ما مَعنى إسْنادِ القِسْمَةِ للهِ تَعالى في قَوْلِهِ : فَإِنَّ للهِ خُمُسَهُ ؟

٥ـ ما مَعنى اليَتيمِ ؟ هاتِ دَليلاً عَلى ما تَقولُ .

٦ـ مَنْ هُمْ أُولو القُربى المَذكورونَ في هذهِ الآيَةِ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ عَلى ما تَقولُ .

٧ـ ماذا تَسْتَفيدُ مِنْ هذهِ القِسْمَةِ المَذكورَةِ في الآيَةِ ؟

٨ـ ما الفَرْقُ بَيْنَ المِسْكينِ وابْنِ السَّبيلِ ؟

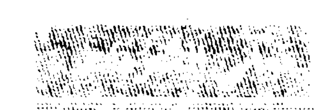
ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ماذا حَقَّقَ اللهُ لِلمُسْلِمينَ يَوْمَ بَدْرٍ .

* * *

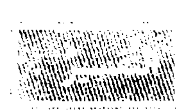
الدَّرْسُ العاشِرُ

سورَةُ الأنْفالِ - القِسْمُ العاشِرُ

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾﴾



ٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنيا	جانِبِ الوادي وَحافَّتِهِ القَريبَةِ إلى جِهَةِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ .
ٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوىٰ	: حافَّةِ الوادي البَعيدةِ عَنْ جِهَةِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ .
ٱلرَّكْبُ	اسمُ جَمْعٍ لِراكِبٍ ، وَالمُرادُ بِهِ القافِلَةُ التِّجارِيَّةُ الّتي يَقودُها أبو سُفيانَ .



﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَـٰدِ ۙ وَلَـٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى كَيْفِيَّةَ قِسْمَةِ الغَنائِمِ ، أَظْهَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضْلِهِ وَحِكَمِهِ في غزوَةِ بَدْرٍ ، فَبَيَّنَ الأماكِنَ الّتي نَزَلَ فيها كُلُّ فريقٍ ، كَما بَيَّنَ الحِكْمَةَ في لِقاءِ المُؤْمِنينَ وَالكافِرينَ على

غَيْرِ ميعادٍ ، وَالحِكْمَةَ في تَقليلِ كُلٍّ مِنهُما في عَيْنِ الآخَرِ فَقالَ : « إذْ أَنتُمْ . . . . الخ» وَالمَعنى : وَاذْكُروا حينَ كُنتُم في الوادي بِأقْرَبِ الجانِبَيْنِ مِنَ المَدينَةِ ، وَهُمْ بِأبْعَدِ الجانِبَين ، وَرَكْبُ التِّجارَةِ الّذي تَطْلُبونَهُ أَصْبَحَ جِهَةَ البَحْرِ في طَريقِ النَّجاةِ ، وَلَوْ تَواعَدْتُمْ مَعَ قُرَيْشٍ عَلى التَّلاقي لِلقِتالِ لَما اتَّفَقْتُمْ عَلَيهِ ، وَلكِنّ اللهَ تَعالى دَبَّرَ تَلاقيكُمْ عَلى غَيْرِ مَوْعِدٍ ، لِيُنْفِذَ أَمْراً أَرادَهُ اللهُ تَعالى ، فَهُوَ واقِعٌ لا مَحالَةَ ، وَهُوَ القِتالُ المُؤَدّي إلى نَصْرِكُم وَهَزيمَتِهِم لِتَنْقَطِعَ الشُّبُهاتُ ، فَيَهْلِكَ الهالِكونَ عَنْ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ بِالمُشاهَدَةِ ، وَهِيَ هَزيمَةُ الكَثْرَةِ الكافِرَةِ . ويحيى المُؤْمِنونَ عَنْ حُجَّةٍ بَيِّنَةٍ ، وَهِيَ نَصْرُ اللهِ تَعالى لِلقِلَّةِ المُؤْمِنَةِ ، إنّ اللهَ تَعالى لَسَميعٌ عَليمٌ ، لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ أَحْوالِ الفَريقَيْنِ وَلا نِيّاتِهِم .

﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

وهذا تَذكيرٌ للنَّبيِّ ﷺ بِبَعضِ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِ في بَدْرٍ ، وَمِنْها هذا التَّدبيرُ الخَفِيُّ مِنهُ تَعالى لِنَصْرِ المُؤْمِنينَ ، يَقولُ سُبْحانَهُ : اذْكُرْ يا مُحَمَّدُ ﷺ فَضْلَ اللهِ تَعالى عَلَيْكَ وَعلى أَصْحابِكَ ، حَيْثُ أَراكَ في مَنامِكَ الكافِرينَ قَليلاً عَدَدُهُم ، ضَئيلاً وَزْنُهُم ، فَأَخْبَرْتَ بِذلِكَ أَتْباعَكَ ، فازدادوا ثَباتاً وَاطْمِئْناناً وَجُرْأَةً عَلى عَدُوِّهِمْ ، وَلَو أَراكَ اللهُ تَعالى الأَعداءَ كَثيراً عَدَدُهُمْ ، لَتَهَيَّبْتُمُ الإقْدامَ عَلَيْهِم ، وَلَخِفْتُمْ لِقاءَهُمْ لِكَثْرَةِ عَدَدِهِم وَعُدَدِهِمْ . وَلَحَصَلَ بَيْنَكُم تَنازُعٌ في أَمْرِ الإقْدامِ عَلَيْهِم لِقِتالِهِم أَوِ الإحْجامِ وَالامْتِناعِ عَنْهُم ، لأَنَّهُ سَيَكونُ مِنْكُم مَنْ يَرى هذا وَمِنكُم مَنْ يَرى ذاكَ ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى بِفَضلِهِ وَإِحْسانِهِ أَنْعَمَ عَلَيْكُمْ بِالسَّلامَةِ مِنَ الفَشَلِ وَالتَّنازُعِ ، وَتَفَرُّقِ الآراءِ في شَأْنِ القِتالِ ، حَيثُ رَبَطَ عَلى قُلوبِكُمْ ، وَرَزَقَكُمُ الجُرْأَةَ عَلى أَعدائِكُمْ وَعَدَمَ المُبالاةِ بِهِم ، بِسَبَبِ رُؤيا نَبِيِّكُم ﷺ . إنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَليمٌ بِكُلِّ ما يَحصُلُ في القُلوبِ وَما يَخْطُرُ بِها مِنْ شَجاعَةٍ وَجُبْنٍ ، وَمِنْ صَبْرٍ وَجَزَعٍ ، وَلِذلِكَ دَبَّرَ ما دَبَّرَ بِحِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ .

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

وَاذْكُروا أَيُّها المُؤْمِنونَ وَقْتَ أَنِ التَقَيْتُمْ مَعْ أَعدائِكُم وَجْهاً لِوَجهٍ في بَدْرٍ ، فَكانَ مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلَيْكُم قَبلَ أَنْ تَلتَحِموا مَعَهُم أَنْ جَعَلَ عَدَدَهُم قَليلاً في أَعْيُنِكُم كَي لا تَخافوهُمْ ، وَجَعَلَ عَدَدَكُمْ قَليلاً في أَعْيُنِهِم ، وَذلِكَ لإغْرائِهِم عَلى خَوْضِ المَعْرَكَةِ ، أَمّا أَنتُم فَتَخوضونَها مِنْ دونِ مُبالاةٍ لِقِلَّتِهِم في أَعْيُنِكُم ، وَلِثِقَتِكُم بِنَصْرِ اللهِ تَعالى إيّاكُم .

وَأَمّا هُم فَيَخوضونَها مُعتَمِدينَ عَلى غُرورِهِم وَبَطَرِهِم وَقِلَّتِكُم في أَعْيُنِهِم ، فَيَتَرَتَّبُ عَلى ذلِكَ أَنْ يَتْرُكوا الاسْتِعدادَ اللّازِمَ لِقِتالِكُم ، فَتَكونَ الدائِرَةُ عَلَيْهِم ، وَقَدْ كانَ هذا التَّقليلُ تَصْديقاً لِرُؤيا النَّبيِّ ﷺ ، وَالأَمْرُ كَذلِكَ مِمّا يَكونُ باعِثاً هِمَّةَ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ .

دروسٌ وعِبرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إذا أرادَ اللهُ سُبْحانَهُ أمْراً هَيّأَ أسْبابَهُ .

٢ـ ثِقَةُ المُؤْمِنينَ بِاللهِ تَعالى مِنْ دَعائِمِ النَّصْرِ ، فَالمُؤْمِنُ واثِقٌ مِنْ نَصْرِ اللهِ لَهُ .

٣ـ غُرورُ الكافِرينَ مِنْ دَواعي الهَزيمَةِ ، فَالكافِرُ مَغرورٌ مُعتَمِدٌ عَلى قُوَّتِهِ وَجَبَروتِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما المُرادُ بِالعُدْوَةِ القُصوى ، وَالعُدْوَةِ الدُّنيا ؟

٢ـ عَدِّدِ النِّعَمَ الإلهِيَّةَ الّتي أنْعَمَ اللهُ تَعالى بِها عَلى المُؤْمِنينَ مِمّا ذُكِرَ في هذهِ الآياتِ .

٣ـ بَيِّنِ الحِكْمَةَ مِنْ :

أـ تَقليلِ عَدَدِ المُؤْمِنينَ في أعْيُنِ الكافِرينَ .

ب ـ تَقليلِ عَدَدِ الكافِرينَ في أعْيُنِ المُؤْمِنينَ .

ج ـ رُؤْيا رَسولِ اللهِ ﷺ .

٤ـ ما المُرادُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿لِيَقْضِيَ اللهُ أمراً كانَ مَفْعولاً﴾ ؟

٥ـ ما العِبرُ المُستَفادَةُ مِنْ هذهِ الآياتِ الكَريمَةِ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى بَعْضِ كُتُبِ التَّفسيرِ واقْرأ فيها ما يَتَعلَّقُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ مِنْ سورَةِ آلِ عِمرانَ ، ثُمَّ دَوِّنْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ ، وَكَيْفَ تُوَفِّقُ بَيْنَ هذهِ الآيَةِ وَما هُوَ مَذكورٌ في الآياتِ مَوْضوعِ الدَّرسِ مِنْ تَقليلِ المُؤْمِنينَ في أعْيُنِ الكافِرينَ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

جَماعَةً .

تَزولَ دَوْلَتُكُمْ .

تَكَبُّراً وَغُروراً .

ناصِرٌ لَكُمْ وَمُعينٌ .

تَقارَبَتا والْتَقَتا وصارَتْ كُلُّ فِئَةٍ تَرى الأُخْرى .

وَلَّى هارِباً .

هُم مَنْ كانوا يُظْهِرونَ الإِسْلامَ وَيُخفونَ الكُفْرَ .

الّذينَ لَمْ يَتَمَكَّنِ الإيمانُ مِنْ قُلوبِهِم .

بَعدَ هذا التَّصويرِ المُؤَثِّرِ البَليغِ لأحداثِ غَزْوَةِ بَدْرٍ ، وَجَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى في هذِهِ الآياتِ النِّداءَ السّادِسَ والأخيرَ للمُؤْمِنينَ ، حَيْثُ أَمَرَهُمْ بِالثَّباتِ في وَجْهِ أعْدائِهِم ، وَبِالمُداوَمَةِ عَلى ذِكْرِهِ وَطاعَتِهِ ، وَنَهاهُم عَنِ التَّنازُعِ والاخْتِلافِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

يا أيُّها الّذينَ آمنوا باللهِ حَقَّ الإيمانِ ، إذا حارَبْتُمْ جَماعَةً مِنْ أعدائِكُم فاثْبُتوا لِقِتالِهِم ، وَأَغْلِظوا عَلَيْهِمْ في النِّزالِ ، وَلا تُوَلّوهُمُ الأدْبارَ ، وَداوِموا عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، لا سِيَّما في مَواطِنِ الحَرْبِ ، فإنَّ ذِكْرَ اللهِ تَعالى مِنْ أعظَمِ وَسائِلِ النَّصْرِ ، لأنَّ المُؤْمِنَ مَتى اسْتَحضَرَ عَظَمَةَ اللهِ تَعالى في قَلْبِهِ لا تُخيفُهُ قُوةُ عَدُوِّهِ ، وَلا كَثْرَتُهُ . والثَّباتُ وَذِكْرُ اللهِ تَعالى مِنْ وَسائِلِ الفَلاحِ والظَّفَرِ ، وأنتُم أيُّها المُؤْمِنونَ مَتى فَعَلتُم ذلكَ عَنْ إخْلاصٍ رَجَوْتُمُ الظَّفَرَ بِمُرادِكُم مِنَ النَّصْرِ وَحُسْنِ الثَّوابِ ، وفي هذا الفَلاحُ المُبينُ .

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾

كونوا أيُّها المُؤمِنونَ ثابتينَ وَمُستَمِرّينَ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى وَطاعَتِهِ عِندَ لِقاءِ الأعْداءِ ، وَلا تَنازَعوا وَتَختَلِفوا وَتَختَصِموا ، فإنَّ ذلِكَ يُؤَدّي بِكُم إلى الفَشَلِ والضَّعْفِ ، وإلى ذَهابِ دَولَتِكُمْ ، وَهُوانِ كَلِمَتِكُمْ وَظُهورِ عَدُوِّكُم عَلَيْكُمْ . وَذَهابُ الرِّيحِ اسْتِعارَةٌ لِذَهابِ الدَّوْلَةِ ، والرِّيحُ اسْتِعارَةٌ لِلدَّولَةِ لِشَبَهِها بِها في نُفوذِ أمْرِها وَتَمشِّيهِ ، وَمِنْ كَلامِ العَرَبِ في هذا : هَبَّتْ رِياحُ فُلانٍ إذا دالتْ لَهُ الدَّولةُ ، وَجَرى أمْرُهُ عَلى ما يُريدُ ، وَرَكَدَتْ رِياحُهُ إذا أدْبَرَ أمْرُهُ وَخَفَتَ .

وَقَوْلُهُ تَعالى : ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أيْ : اصْبَروا عَلى شَدائِدِ الحَربِ وَمُخالَفَةِ أَهْوائِكُم الّتي تَحملُكُم عَلى التَّنازُعِ ، فانَّ اللهَ تَعالى مَعَ الصّابِرينَ بِتأييدِهِ وَمَعونَتِهِ وَنَصْرِهِ .

والمُتأمِّلُ في هاتَينِ الآيَتَيْنِ يَجِدُ أنَّهُما رَسَمَتا لِلمُؤمِنينَ طَريقَ الفَلاحِ والنَّصْرِ ، وَمِنْهُما تَعليمُ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ آدابَ اللِّقاءِ مَعَ العَدُوِّ ، وَطَريقَ الشَّجاعَةِ ، وَفيما يَلي بَيانٌ لِذلكَ :

١ـ الأمْرُ بالثَّباتِ ، لأنَّهُ مِنْ أعْظَمِ وَسائِلِ النَّجاحِ ، ولأنَّ الثَّباتَ يَعني تَرْكَ اليَأْسِ والتَّراجُعِ .

٢ـ الأمْرُ بالمُداوَمَةِ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى ، لأنَّ ذلِكَ يُمَثِّلُ الصِّلَةَ بَيْنَ العَبْدِ وَرَبِّهِ ، وَمَتى كانَ الحَبْلُ مَشدوداً إلى اللهِ تَعالى هانَتْ عِنْدَ العَبْدِ كُلُّ الشَّدائِدِ .

٣ـ الأمْرُ بِطاعَةِ اللهِ وَرَسولِهِ ، لأنَّ ذلِكَ هُوَ الّذي يُمَيِّزُ المُؤْمِنينَ عَنْ غَيْرِهِم .

٤ـ الأمْرُ بِالصَّبْرِ ، والصَّبْرُ أَمَلُ السّائِرينَ عَلى أيِّ دَرْب .

٥ـ الأَمْرُ بِعَدمِ التَنّازُعِ ، لأنَّ التَّنازُعَ أَقْصَرُ الطّرُقِ إلى الفَشَلِ .

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾

هذا نَهْيٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ المُؤْمِنينَ عَنْ التَّشَبُّهِ بِالكافِرينَ ، لأنّ ذلكَ مَدعاةٌ لِسُخْطِ اللهِ تَعالى ، وَلِلهَزيمَةِ والفَشَلِ . يَقولُ تَعالى لَهُم : لا تَكونوا كأولئكَ الّذينَ خَرَجوا مِنْ دِيارِهِم مَغرورينَ بِما لَهُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَنِعمَةٍ ، مُفاخِرينَ وَمُتَظاهِرينَ بِهِما أمامَ النّاسِ ، يُريدونَ الثَّناءَ عَلَيْهِم بِالشَّجاعَةِ والغَلَبَةِ ، وَهُمْ بِذلِكَ يَصُدّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى وَعَنِ الدُّخولِ في الإسْلامِ ، واللهُ تَعالى مُحيطٌ بِأعمالِهِم عِلْماً وَقُدْرَةً ، وَسَوفَ يُجازيهِم عَلَيْها في الدُّنيا والآخِرَةِ .

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وَتَعالى دَوْرَ الشَّيطانِ في إغْواءِ الكافِرينَ واسْتِمرارِهِم عَلى فَسادِ طَريقَتِهِمْ ، مُحَذِّراً المُؤْمِنينَ مِن هذا الإغْواءِ ، يَقولُ تَعالى لِعبادِهِ مُذَكِّراً ومُحَذِّراً : واذكُروا أيُّها المُؤْمِنونَ حينما حَسَّنَ الشَّيْطانُ لِهؤُلاءِ المُشْرِكينَ أعمالَهُمْ وأوهَمَهُمْ بأنَّ النَّصْرَ سَيَكونُ حَليفاً لَهمْ ، قائِلاً لَهُم : إنَّهُ لَنْ يَستَطيعَ أحَدٌ مِنَ النّاسِ أنْ يَغْلِبَكُم ، وَيُؤَكِّدُ لَهُم أنَّهُ ناصِرُهُم وَمُعينُهُم ، فَلَمّا تَقابَلَ الفَريقانِ في الحَربِ بَطُلَ إيهامُهُ وَوَلّى هارِباً ، مُتَبَرِّئاً مِنَ المُشْرِكينَ مُعلِناً فيهِم أنَّهُ يَرى ما لَمْ يَرَوْهُ مِن دَعائِمِ نَصْرِ اللهِ تَعالى لِلمُؤْمِنينَ ، المُتَمَثِّلِ في إمدادِهِم بِالمَلائِكَةِ ، وَمُعْلِناً كذلِكَ خَوْفَهُ مِنَ اللهِ تَعالى ، مُبَيِّناً أنَّ اللهَ تَعالى شَديدُ العِقابِ لِمَن كَفَرَ بِاللهِ وَحارَبَ أَهْلَ دينِهِ .

وَفي أمْرِ هذا التَّزيينِ يَقولُ الشَّهيدُ سَيِّد قُطب رَحِمَهُ اللهُ تَعالى : وَفي هذا الحادِثِ نَصٌ قُرآنِيٌّ يَثْبُتُ مِنهُ أنَّ الشَّيطانَ زَيَّنَ لِلمُشرِكينَ أعمالَهُم ، وَشَجَّعَهُمْ عَلى الخُروجِ بإعلانِ إجارَتِهِ لَهُم وَنُصْرَتِهِ إيّاهُم ، وأنَّهُ بَعدَ أنْ رأى ما رأى هَرَبَ وَخَذَلَ المُشْرِكينَ تارِكاً إيّاهُم يُلاقونَ مَصيرَهُم وَحْدَهُم ، وَلَم يوفِ بِعَهدِهِ مَعَهُم . وَلكِنَّنا لا نَعلَمُ الكَيفِيَّةَ الّتي زَيَّنَ بِها أعمالَهُم ، والّتي قالَ لَهُم بِها : لا غالِبَ لَكُمُ اليَومَ مِنَ النّاسِ وأنّي جارٌ لَكُم ، والّتي نَكَصَ بِها كَذلِكَ ، وَقالَ ما قالَهُ بَعدَ ذلِكَ . الكَيْفِيَّةُ فَقط هِيَ الّتي لا نَجزِمُ بِها ، ذلِكَ أَنَّ أمْرَ الشَّيْطانِ كُلُّهُ غَيبٌ ، وَلا سَبيلَ لَنا إلى الجَزْمِ بِشَيءٍ في أمْرِهِ إلاّ

في حُدودِ النَّصِّ الكَريمِ . والنَّصُّ هُنا لا يَذكُرُ الكَيْفِيَّةَ إنَّما يُثبتُ الحادِثَ[1] .

﴿ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

في هذهِ الآيَةِ تَذكيرٌ للرَّسولِ ﷺ وَلِلمُؤْمِنينَ بِبَعضِ صَنائِعِ المُنافِقينَ وَمَرْضى القُلوبِ ، يَقولُ تَعالى : اذْكُر أيُّها الرَّسولُ حينَما يَقولُ المُنافِقونَ مِنَ الكُفّارِ وَضُعفاءُ الإيمانِ عِندَ رُؤيَتِكُم في إقدامِكُم وَثَباتِكُم : غرَّ هؤُلاءِ المُسلمينَ دينُهُم . ثُمَّ يَلتَفِتُ الخِطابُ مُقَرِّراً حَقيقَةً واضِحةً أنّ مَنْ وَكَّلَ أمرَهُ إلى اللهِ تَعالى مُؤمِناً بِهِ مُعتَمِداً عَلَيْهِ ، فإنَّ اللهَ تَعالى يَكفيهِ ما أهَمَّهُ ، وَينصُرُهُ على أعدائِهِ ، لأنَّ اللهَ تَعالى لا يَغْلِبُهُ غالِبٌ ، ولا يفوتُهُ هارِبٌ ، أحسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِد الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ ذِكْرُ اللهِ تَعالى يُؤَدّي إلى تَثْبيتِ المُؤْمنينَ .

٢ـ الثَّباتُ والصَّبْرُ في القِتالِ مِنْ دَعائِمِ النَّصرِ .

٣ـ التَّحذيرُ مِنَ المُنازَعاتِ والمُخاصَماتِ المُؤَدِّيَةِ لِلفَشَلِ .

٤ـ وِحْدَةُ الصَّفِّ المُسْلِم مِنْ أهَمِّ دَعائِمِ بُنيانِهِ .

٥ـ تحذيرُ المُؤْمنينَ مِنْ مُشابَهَةِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ وَمرضى القُلوبِ والسَّيرِ عَلى طَريقِهِم .

٦ـ بَيانُ ما لِلشَّيطانِ مِن دَوْرٍ في الإفسادِ والتَّغريرِ ، والتحذيرُ مِنهُ .

٧ـ تحذيرُ المُؤْمِنينَ مِن خَلخَلةِ صُفوفِهِمْ بِاختِلاطِهِمْ بِمَنْ يَقودُهُم إلى الفَسادِ والهَلاكِ .

٨ـ ضَرورَةُ الحِفاظِ عَلى نَقاءِ الصَّفِّ المُؤْمِنِ .

---

(١) في ظِلال القرآن الكَريم ، ص ١٥٣١ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

تَذهَبَ ريحُكُم ، جارٌ لَكُم ، نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ ، الّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ .

٢ـ ما هِيَ مُقَوِّماتُ النَّصْرِ ؟ اذْكُرِ الدَّليلَ لِما تَقولُ .

٣ـ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَنْ مُشابَهَةِ الكافِرينَ والمُنافِقينَ والّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ ؟

٤ـ بيِّنْ أثَرَ المُنازَعاتِ والمُخاصَماتِ في إضْعافِ الصَّفِّ المُسْلِمِ .

٥ـ ماذا تَستفيدُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ ﴿وأطيعوا اللهَ وَرَسولَهُ ولا تَنازَعوا﴾ .

ب ـ ﴿واصْبِروا﴾ .

ج ـ ﴿فلمَّا تَراءتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ﴾

٦ـ ماذا تَفهَمُ مِن قَولِهِ تَعالى : ﴿وتذهبَ ريحُكُم﴾ ؟

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى صَحيحِ الإمامِ مُسلِمٍ ، ودَوِّنْ في دَفْتَرِكَ أَوْصافَ المُنافِقينَ المَذكورَةَ في الأحاديثِ .

* * *

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

كَعادَةِ .

هُم شيعَتُهُ وَمُناصِروهُ .

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعضَ أحوالِ المُشْرِكينَ في حَياتِهِمْ ، انتَقَلَ لِبيانِ بَعضِ أحوالِهِمْ عِندَ مَماتِهِم ، لِيَكونَ في بَيانِ كِلا الحالَتينِ رَدْعٌ وَزَجْرٌ لِلسّامِعينَ كيلا يَسلُكوا مَسالِكَهُم ، فَقالَ تَعالى مُخاطِباً رَسولَهُ ﷺ وكلَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلخِطابِ :

وَلَو تَرى أيُّها الرَّسولُ أو المُخاطَبُ ذلِكَ الهَوْلَ الخَطيرَ الّذي يَنزِلُ بِهؤُلاءِ الكُفّارِ حينَ تَتَوفّاهُمُ

المَلائِكَةُ ، فَينزِعونَ أرواحَهُم ، وَهُم يَضرِبونَهُم مِن أمامٍ وَمِنْ خَلْفٍ ، ويَقولونَ لَهُم : ذوقوا عَذابَ الحَريقِ بِسببِ أفعالِكُمُ السَّيِئَةِ . وَجَوابُ الشَّرطِ (لَو) مَحذوفٌ ، لِتذهبَ النَّفسُ في تَقديرِهِ كُلَّ مَذهبٍ ، وَمِمّا يُقدَّرُ جَواباً لـ (لَو) تَرى ذلِكَ لَرَأيتَ هَوْلاً مُفزِعاً وَبَلاءً عَجيباً ، وإنَّما أُسْنِدَ الضَّرْبُ لِلوُجوهِ والأدْبارِ ، لأنَّ ذلِكَ أشَدُّ ما يَكونُ مِنَ الذُّلِّ والخِزْيِ ، عِياذاً باللهِ تَعالى .

﴿ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

هذا بَيانٌ لِلأسبابِ الّتي أدَّتْ بِهِم إلى هذا المَصيرِ السَّيِّءِ ، وأنَّهُمْ هُمُ الّذينَ جَنَوْا عَلى أنفُسِهِم بِفَسادِ صَنيعِهِم ، واتِّباعِهِم لِلهَوى والشَّيطانِ .

ذلِكَ الّذي نَزَلَ بِكُم أيُّها الكافِرونَ مِنَ الضَّرْبِ وَعذابِ الإحراقِ سَبَبُهُ ما قَدَّمَتْهُ أيْديكُم مِن عَمَلٍ سَيِّءٍ ، وَفِعْلٍ قَبيحٍ ، وَقَولٍ مُنكَرٍ ، وَجُحودٍ لِلحَقِّ ، وأنَّ اللهَ تَعالى لَيسَ بِذي ظُلْمٍ لَكُم وَلا لِغَيْرِكُمْ ، لأنَّ حِكْمَتَهُ تَعالى قَدِ اقتَضَتْ أنْ لا يُعذِّبَ أحَداً إلاّ بِسَبَبِ ذَنْبٍ ارتَكَبَهُ .

وَصيغَةُ التَّعبيرِ بِـ (ظَلاّمٍ) مَنفيَّةً ، لا تَعني أنَّهُ نَفى المُبالَغَةَ في الظُّلمِ ، وإنَّما المُرادُ نَفيُ أصلِ الظُّلمِ ، وَصيغَةُ المُبالَغَةِ لِتُناسِبَ كَثْرَةَ المَنفِيِّ عَنهُم ، وَبِهذا يَظهَرُ أنَّ هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ قَد بَيَّنَتا حالَ المُشْرِكينَ عِندَ قَبضِ أرواحِهِم ، بَياناً يَحمِلُ النُّفوسَ عَلى الإيمانِ والطّاعَةِ للهِ تَعالى ، الّذي ما ظَلَمَهُمْ ، ولكِنَّهُمْ هُم الّذينَ أحَلّوا بِأنْفُسِهِم هذا المَصيرَ المُؤلِمَ المُهينَ ، حَيثُ كَفروا بِالحَقِّ ، وَحارَبوا أتباعَهُ ، واستَحَبّوا العَمى عَلى الهُدى .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ حالَ هؤُلاءِ في الكُفْرِ وَعادتَهُم فيهِ كَعادَةِ مَن سَبَقَهُم مِنَ الأُمَمِ الظّالِمَةِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ .

إنَّ عادَةَ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ وَشأنَهُم في الكُفْرِ ، كَشَأْنِ الفَراعِنَةِ وَسائِرِ العُتاةِ مِنْ قَبلِهِم ، جُحوداً مِنهُم بِآياتِ اللهِ تَعالى ، فَعذَّبَهُم اللهُ تَعالى عَلى ذُنوبِهِم ، وَهُوَ غَيرُ ظالِمٍ لَهُم ، إنَّ اللهَ تَعالى قَوِيٌّ في تَنفيذِ حُكْمِهِ شَديدُ المجازاةِ لِمَن يَستَحِقُّ عِقابَهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ سُنَّةً مِن سُنَنِهِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

ذلِكَ الّذي نَزَلَ بِهؤُلاءِ الكُفّارِ مِنَ التَّعذيبِ والخِذلانِ عَدْلٌ إلهِيٌّ ، فَقد جَرتْ سُنَّتُهُ سُبْحانَهُ في خَلْقِهِ ، واقتَضَتْ حِكْمَتُهُ في حُكْمِهِ أنْ لا يُبَدِّلَ نِعمَةً بِنِقمَةٍ إلاّ بِسَبَبِ ارتِكابِ الذُّنوبِ واجتِراحِ

السَّيِّئاتِ ، فإذا لَمْ يَتَلَقَّ النّاسُ نِعمَةَ اللهِ تَعالى بِالشُّكرِ والطّاعَةِ ، وَقابَلوها بِالكُفرِ والعِصيانِ ، بَدَّلَ اللهُ تَعالى نِعْمَتَهُ عَلَيْهِم بِنِقْمَتِهِ مِنهُم جَزاءً وِفاقاً .

﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

هذهِ الآيَةُ يَعدُّها كَثيرٌ مِنَ المُفسِّرينَ تَكراراً للآيَةِ السّابِقَةِ عَلى سَبيلِ التّأْكيدِ والتَّوبيخِ ، والصَّحيحُ ـ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى ـ أَنَّ الآيَتَيْنِ لا تِكرارَ فيهما ، ذلِكَ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ذَكَرَ في الآيَةِ الأولى عُقوبَتَهُ إيّاهُمْ عِندَ المَوتِ في البِشارَةِ الّتي أتَتهُم بِعذابِ الحَريقِ ، وأَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى فَعلَ بِهِم ذلِكَ كَما فَعَلَهُ بِآلِ فِرعَوْنَ وَمَن كانَ قَبْلَهُم مِنَ الكُفّارِ .

ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ وتَعالى في الآيَةِ الثّانِيَةِ ما يَفْعَلُهُ بِهِم مِن شِدَّةِ عِقابِهِ بَعدَ المَوتِ كَما فَعلَهُ بِآلِ فِرعَوْنَ وَمَن كانَ قَبلَهُم مِنَ الكُفّارِ .

وَيُمكِنُ أن يُجابَ عَلى الآيَتَيْنِ بِجوابٍ آخَرَ ، وَهُوَ أَنَّ اللهَ تَعالى أخبَرَ في الآيَةِ الأولى عَمّا عاقَبَهُم بِهِ مِنَ العَذابِ الّذي لَم يَملِكِ النّاسُ إيقاعَهُ . وَلَم يُمَكِّنْ بَعضَهُم أَنْ يَفعلَ بِبَعضٍ مِثلَهُ ، وَهُوَ ضَرْبُ المَلائِكَةِ وُجوهَهُم وأدبارَهُم عِندَ نَزْعِ أرواحِهِم ، وإخبارِهِم إيّاهُم بِمَصيرِهِم في عَذابٍ يَحرِقُهُم .

وَفي الآيَةِ الثّانِيَةِ أخبرَ تَعالى عَمّا أنزَلَهُ بِهِم مِنَ العَذابِ الّذي مَكَّنَ النّاسَ مِنْ فِعْلِ مِثلِهِ وَهُوَ الإهلاكُ والإغراقُ ، لأنَّ ذلِكَ مِمّا أقدَرَ اللهُ تَعالى العِبادَ عَلَيْهِ ، فالعَذابُ الأوَّلُ مِنْ أحكامِ الآخِرَةِ بَعدَ ظُهورِ أشراطِ السّاعَةِ ، وأمّا الثّاني فمِنْ أحكامِ عَذابِ الدُّنيا ، واللهُ تَعالى أعلَمُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ شِدَّةُ ما يُلاقيهِ الكُفّارُ مِنَ العَذابِ سَواءٌ أكانَ في الدُّنيا أم في الآخِرَةِ .

٢ـ مِنَ القواعِدِ الدّينِيَّةِ القاطِعَةِ نَفيُ الظُّلمِ عَنِ اللهِ تَبارَكَ وتَعالى .

٣ـ بَيانُ بَعضِ أحوالِ المُهْلَكينَ مِمَّنْ سَبَقَ هذِهِ الأمَّةَ .

٤ـ الأمَمُ لا تَسقُطُ وَلا تَفنى وَتَهلِكُ ، ولا يُمحى اسمُها مِن لَوحِ الوُجودِ إلاّ بِسبَبِ تَنَكُّبِها صِراطَ اللهِ المُستقيمَ ، واتِّباعِها شَهواتِها ، وَظُهورِ الفَسادِ مِنْها .

٥ـ بقاءُ الأُمَمِ وَنَماؤُها يكونُ في التَّحلِّي بِالفَضائِلِ ، وَجَعْلِ هَلاكِها وَدَمارِها في التَّخلِّي عَنْها .

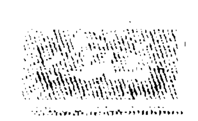
أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ لِماذا خُصَّتِ الوُجوهُ والأَدْبارُ في بَيانِ ضَربِ المَلائِكَةِ لِلكافِرينَ ؟

٢ـ بَيِّنْ سُنَّةَ اللهِ تَعالى الّتي يُمْكِنُ فَهْمُها مِن قَولِهِ تَعالى : ﴿إنَّ اللهَ لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتّى يُغيِّروا ما بأنْفُسِهِمْ﴾ .

٣ـ لِمَ المُبالَغَةُ في نَفيِ الظُّلْمِ عَنِ اللهِ تَعالى في قولِهِ : ﴿وما اللهُ بظلاّمٍ للعبيدِ﴾ ؟

٤ـ ما العِبرَةُ الّتي تَستَنبِطُها مِن بَيانِ اللهِ تَعالى لِمَصارعِ المُهْلَكينَ ؟



ـ ارْجِعْ إلى سورَةِ الفَجرِ ثُمَّ اقرأها بِتَدَبُّرٍ ، وَدَوِّنْ في دَفْتَرِكَ حالاتِ مَصارِعِ تلكَ الأُمَمِ البائِدَةِ الّتي ذُكِرَت في تِلكَ السُّورَةِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سورةُ الأنْفالِ - القِسْمُ الثّالِثَ عَشَرَ

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- الدَّوابّ : ما يَدُبُّ عَلى وَجهِ الأرضِ ، وَقَد غَلَبَ استِعمالُهُ في البَهائِمِ ، وَيُستَعْمَلُ في غَيْرِها على وَجهِ الاسْتِعارَةِ .
- تَثْقَفَنَّهُم : الثَّقْفُ : الحِذْقُ في إدراكِ الشَّيءِ وَفِعْلِهِ ، وَهُوَ هُنا يَدُلُّ عَلى إدْراكِهِم مَعَ التَّمَكُّنِ مِنهُم والظُّهورِ عَلَيْهِمْ .
- فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ : نَكِّلْ بِهِم تَنكيلاً يَكونُ سَبَباً لِفِرارِ مَنْ وَراءَهُم مِنَ الأعداءِ .
- فانبُذْ إلَيْهِم : أَعْلِمْهُم بِأنَّهُ لا عَهدَ لَهُم بَعدَ اليَومِ .

التَّفسيرُ :

بَعدَ أن أوضَحَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ أحوالِ المُهلَكينَ مِنْ شِرارِ الكَفَرةِ ، شَرَعَ في بَيانِ أحوالِ فِئَةٍ أُخرى جَمعَتْ مَعَ الكُفْرِ مَعصيَةً هِيَ الغَدرُ وَنَقضُ العَهدِ . وَآياتُ هذا الدَّرسِ مُقَسَّمَةٌ إلى أقسامٍ ثَلاثَةٍ :

القِسْمُ الأوَّلُ : وَيَشتَمِلُ عَلى ثَلاثِ آياتٍ جاءَتْ بَياناً لِحالِ هذا الفَريقِ المُعَيَّنِ مِنَ الكُفّارِ الّذينَ عادَوْا النَّبيَّ ﷺ وَقاتَلوهُ ، وَهُمُ اليَهودُ .

القِسْمُ الثّاني : وَيَشْتَمِلُ عَلى آيَةٍ واحِدَةٍ ، هِيَ في حُكْمِ أمثالِ هؤُلاءِ الخَوَنَةِ نَقَضَةِ العُهودِ .

القِسْمُ الثّالِثُ : وَيَشْتَمِلُ كَذلِكَ عَلى آيَةٍ واحِدَةٍ جاءَتْ في تَهديدِ هؤُلاءِ الخَوَنَةِ ، وَحِمايَةِ الرَّسولِ ﷺ مِن عاقِبَةِ كَيْدِهِم .

﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ .

إنَّ شَرَّ ما يَدُبُّ على الأرْضِ في حُكْمِ اللهِ تَعالى وقضائِهِ همُ الّذينَ كفروا ؛ أي الّذينَ أصرّوا عَلى الكُفْرِ واستَمَرّوا عَلَيْهِ ، وَقَدْ وَصَفَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هُنا بالدَّوابِّ لِلإشْعارِ بِأنَّهُم لَيْسوا مِنْ شِرارِ البَشَرِ فَقط ، بَل هُم أضَلُّ مِن عَجماواتِ الدَّوابِّ ، لأنَّ لِهذِهِ العَجماواتِ مَنافعُ لِلنّاسِ وَلَيْسَ مِنْ وَراءِ الكُفّارِ إلاّ المَضارُّ والمَفاسِدُ ، وفي هذا مِنَ التَّوبيخِ لِهؤلاءِ ما لَو استَعمَلوا عُقولَهُم معهُ لَرَجَعوا إلى رَبِّهِم ، كَما فيهِ تَحذيرٌ لِلسّامِعينَ أنْ يَصيروا بمثلِ هذِهِ الحالَةِ .

هؤُلاءِ المَوصوفونَ بِهذِهِ الأوصافِ لِغلَبَةِ الكُفْرِ عَلَيْهِم ، وَلِتَغَلْغُلِهِم فيهِ باتوا غَيْرَ مُؤْمِنينَ .

﴿ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴾ .

إنَّ شَرَّ الدّوابِّ هؤُلاءِ الكُفّارُ الّذينَ أخَذْتَ مِنهُم عُهودَهُم وَعاهَدتَهُم ، إلاّ أنَّهُم نَقَضوا عُهودَهُم باسْتِمْرارٍ ، فَلَمْ يَلتَزموا بها وَلَو مَرَّةً واحِدَةً ، فَحالُ هؤُلاءِ أنَّهُم دأبوا عَلى نَقْضِ العُهودِ والمَواثيقِ في كُلِّ وَقتٍ ، وَمَع ذلِكَ فإنَّهُم لا يَشعُرونَ خِلالَ نَقضِهِم لِلعُهودِ والمَواثيقِ بِأيِّ تَحرُّجٍ أو خَجَلٍ ، بَل يَرتَكِبونَ ما يَرتَكِبونَ مِنَ المُنكَراتِ دونَ أن يَتَّقوا عارَها ، أو يَخشَوْا سوءَ عاقِبَتِها .

وهذا البَيانُ الإلهِيُّ فيهِ تَعريفٌ لِلمُؤْمنينَ أوّلِهِمْ وآخِرِهِمْ بِاليَهودِ ، وَكَيفَ يَتعامَلونَ مَعَ المُسلِمينَ ، وأنَّ عَلى المُسْلِمينَ أنْ يَرجِعوا إلى هذا البَيانِ الإلهِيِّ البَليغِ لِيَعرِفوا أينَ يَسيرونَ .

﴿ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ .

إنَّكَ يا مُحَمَّدُ إذا ما أدركتَ هؤلاءِ الكافِرينَ النّاقِضينَ لِعُهودِهِمْ وَظَفِرْتَ بِهِم ، فافعَلْ بِهِم فِعْلاً مِنَ التَّنكيلِ والقَتلِ يَتَفرَّقُ مَعَهُ جَمْعُ كُلِّ ناقِضٍ لِلعَهْدِ ، وَيفزَعُ مِنهُ كُلُّ مَنْ كانَ عَلى شاكِلَتِهِمْ في الكُفرِ وَنَقضِ العُهودِ وَيعتَبِرُ بِهِ كُلُّ مَن سَمِعَهُ .

وَقولُهُ تَعالى : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أيْ لَعلَّ أولئِكَ المُشَرَّدينَ يَتَّعِظونَ بِهذا التَّنكيلِ والقَتْلِ الّذي نَزَلَ بهؤلاءِ النّاقِضينَ لِعُهودِهِمْ في كُلِّ مرَّةٍ ، فَيمنَعُهُمْ ذلكَ عَن نَقضِ العَهْدِ .

وهذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تُرشِدُ المُؤْمِنينَ إلى وُجوبِ أخْذِ المُستَمِرِّينَ عَلى الكُفْرِ والعِنادِ وَنَقْضِ العُهودِ أخْذاً شَديداً رادِعاً ، حَتّى يَبقى لِلمُجْتَمَعِ الإسلامِيِّ أمانُهُ ، واستِقرارُهُ ، وَهَيبَتُهُ أمامَ أعدائِهِ .

إنَّ الآيَةَ الكَريمةَ تَرسُمُ صورةً بَديعةً لِلأَخذِ المُفْزِعِ ، والهَوْلِ المُرعِبِ الّذي يَكفي السَّماعُ بِهِ لِلهَرَبِ والشُّرودِ ، فَما بالُ مَنْ يَحِلُّ بِهِ هذا الأَخْذُ الشَّديدُ ؟ إنَّها الضَّربَةُ المُرَوِّعَةُ الموجِعَةُ ، يَأمُرُ اللهُ

تَعالى رَسولَهُ ﷺ أنْ يُنزِلَها عَلى رأسِ كُلِّ مُستَحِقٍّ لَها بِسبَبِ كُفرِهِ وَتَلاعُبِهِ بِالعُهودِ ، وَبِذلِكَ تَبقى لِدينِ اللهِ هَيْبَتُهُ وَسَطْوَتُهُ .

هذا هُوَ حُكْمُ المُصِرّينَ عَلى كُفرِهِم النّاقِضينَ لِعُهودِهِم ، أمّا الّذينَ تَخشى مِنهُمُ الخِيانَةَ فَقد بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى حُكْمَهُم بِقَولِهِ :

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

وإمّا تَعلَمَنَّ يا مُحَمَّدُ ﷺ مِن قَوم بَينَكَ وَبينَهُم عَهْدٌ أنَّهُم قارَبوا عَلى نَقضِ عَهدِهِم خِيانَةً مِنهُم ، وذلِكَ بِأَماراتٍ وعَلاماتٍ تَلوحُ لَكَ تَدُلُّكَ عَلى غَدْرِهِم وَخِيانَتِهِم ، فاطْرَحْ إلَيهِم عَهدَهُم عَلى طَريقٍ مُستَوٍ ظاهِرٍ ، بِأنْ تُعلِمَهُم بِأنَّكَ قَد قَطَعتَ عَهْدَهُم قَبلَ أنْ تُحارِبَهُمْ ، حتّى تَكونَ أنتَ وَهُم في العِلْمِ بِقَطْعِ العَهدِ سَواءً ، لأنّ اللهَ تَعالى لا يُحبُّ الخائِنينَ ، وأنَّ مِن مَظاهِرِ الخِيانَةِ الّتي يَبْغُضُها اللهُ تَعالى أنْ يُحارِبَ أَحَدُ المُتَعاهِدينَ الآخَرَ دونَ أن يُعلِمَهُ بِإنهاءِ عَهدِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ أنَّ الكافِرينَ لَن يُنجوا مِنْ عِقابِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

ولا يَظُنُّ الّذينَ كَفروا أَنَّهُمْ سَبَقوا وَنَجَوْا مِنْ عاقِبَةِ خِيانَتِهِم وَغَدْرِهِم ، إنَّهُم لا يُعجِزونَ اللهَ تَعالى عَنِ الإحاطَةِ بِهِم ، بَلْ هُوَ القادِرُ وَحْدَهُ ، وَسَيَجزيهِم بِقُوَّتِهِ وَعَدلِهِ . وَفي هذِهِ الآيَةِ قَطْعُ أطماعِ الكافِرينَ في النَّجاةِ ، وإقْناطُهُمْ مِنَ الخَلاصِ ، فَكأَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَقولُ لَهمْ : إنَّ مَنْ لَم يُصِبْهُ عَذابُ الدُّنيا ، فَسَوفَ يُصيبُهُ عَذابُ الآخِرَةِ ، وَلا مَفَرَّ مِنْ ذلِكَ ما دامَ استَحَبَّ الكُفرَ عَلى الإيمانِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ بَيانُ حالِ اليَهودِ المُستَمِرِّ والدّائمِ في خِيانَتِهِم لِلمُسلِمينَ وَنَقضِهِم عُهودَهُم مَعَهُم .

٢ـ التَّحذيرُ مِنْ نَقضِ العُهودِ والمَواثيقِ .

٣ـ يَجِبُ التَّنكيلُ بِمَنْ يَنقُضُ عَهْدَهُ مِنَ الكافِرينَ ، حتَّى يَخافَ غَيرُهُ مِنْ هذا التَّنكيلِ فَلا يَنقُضُ عَهدَهُ .

٤ـ لا بُدَّ مِن إحاطَةِ الدّينِ بِقُوَّةٍ تَمنَعُ عَدُوَّهُ مِنَ انتِقاصِهِ والتَّهوينِ مِن شأنِهِ وشَأْنِ المُؤْمِنينَ .

٥ـ وُجوبُ كَونِ المُؤْمِنينَ عَلى حَذَرٍ دائِمٍ مِن أعدائِهِمْ .

٦ـ خِيانَةُ العَهدِ وَنَقضُهُ مِمّا يَبْغُضُهُ اللهُ تَعالى حتَّى وَلَو كانَ مَعَ الأعداءِ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

الدّوابِّ ، يَنقُضونَ عَهدَهُم ، تَثْقَفَنَّهُم في الحَربِ ، فَشَرِّدْ بِهِم مَنْ خَلْفَهُمْ .

٢ـ اشتَمَلتِ الآياتُ الكَريمةُ عَلى ثَلاثَةِ مَوْضوعاتٍ ، بيِّنْها .

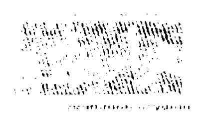
٣ـ بيِّنْ أحوالَ اليَهودِ المَذكورَةَ في هذِهِ الآياتِ .

٤ـ قال تَعالى : ﴿فإمّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْبِ فَشرِّدْ بهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لعلَّهُمْ يَذكَّرونَ﴾ .

أـ ما الغايَةُ المَقْصودَةُ مِن هذا التَّشريدِ ؟

ب ـ علامَ يعودُ الضَّميرُ في قولِهِ ﴿لَعَلَّهُم﴾ ؟

ج ـ ما الحُكْمُ المُسْتَنْبَطُ مِن هذِهِ الآيَةِ ؟



أخرَجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والتِّرمِذيُّ عَن سُلَيمِ بنِ عامِرٍ قالَ : كانَ مُعاويَةُ يَسيرُ في أرضِ الرُّوم ، وَكانَ بَيْنَهُ وَبينَهُم عَهْدٌ ، فأرادَ أنْ يَدنوَ مِنهُم ، فإذا انقَضى أمَدُ العَهدِ غَزاهُم ، فإذا شَيخٌ عَلى دابّةٍ يَقولُ : (مَن كانَ بَينَهُ وَبيْنَ قَومٍ عَهْدٌ فَلا يَحُلَّنَّ عُقدَةً وَلا يَشُدَّها حَتّى يَنقَضِيَ أمَدُها أو يَنبُذَ إلَيهِم عَلى سَواءٍ) قالَ : فَبلغَ ذلِكَ مُعاوِيَةَ فَرجَعَ »[١] .



ـ تَدُلُّ الآيةُ الكَريمَةُ (٥٨) عَلى رَحمَةِ اللهِ تَعالى بِالنّاسِ ، اكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ٤/ ١١١ وأبو داود في الجهاد حديث : ٢٧٥١ عون المعبود : ٣/ ٣٨ طبع الهند والترمذي في باب ما جاء في الغدر حديث رقم : ١٦٢٩ تحفة الأحوذي ٥/ ٢٠٣ طبع دار الفكر .

الدَّرسُ الرَّابِعَ عشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ الرّابِعَ عشَرَ

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ۝٦٠ ۞وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦١ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٦٢ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ۝٦٣﴾

معاني المفردات :

رِباطِ الخَيلِ : الرِّباطُ : الشَّدُّ ، والمَقصودُ الخَيلُ الّتي تُرْبَطُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

آخَرينَ مِنْ دونِهِمْ : أعداءً مِنْ غَيرِ المَعروفينَ لَكُم مِثلَ : المُنافِقينَ .

جَنَحوا لِلسَّلْمِ : مالوا لِلسَّلْمِ .

التفسير :

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أحوالَ الكافِرينَ الّذينَ عادوا اللهَ ورَسولَهُ ، وبَيَّنَ جَزاءَهُم وَمصيرَهُم ، وَجَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى خِطابَهُ لِلمُؤْمِنينَ آمِراً إيّاهُم بإعدادِ وَسائِلِ القُوَّةِ الّتي يَصِلونَ بها إلى النَّصرِ ، وإلى بَثِّ الرُّعبِ في قُلوبِ أعدائِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى:

﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

وأَعِدُّوا يا مَعْشَرَ المُسلِمينَ لِمُواجَهَةِ أعدائِكُمْ ما اسْتَطَعتُمْ مِنْ قُوَّةٍ حَربيَّةٍ شامِلَةٍ لِجَميعِ عَتادِ القِتالِ ، وَمِنَ المُرابِطينَ في الثُّغور وأطرافِ البلادِ بِخَيْلِهِمْ وآلاتِهِم لِتُخيفوا بهذا الأعداءَ ، وَهذا الرِّباطُ يُرهِبُ عَدُوَّ اللهِ تَعالى وَعَدُوَّكُم مِنَ الكُفّارِ المُتَرَبِّصينَ بِكُمُ الدَّوائِرَ وَتُخيفونَ بِهِ آخَرينَ لا تَعلَمونَهمُ الآنَ ، واللهُ تَعالى يَعلَمُهُم ، لأنَّهُ لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ .

وهؤلاءِ الّذينَ يَعلَمُهُمُ اللهُ وَحْدَهُ والمُؤْمِنونَ لا يَعلَمونَهُم ، الأظهَرُ واللهُ أعلَمُ أنَّهُمُ المُنافِقونَ ، لأنَّ مِن عادَتِهِم أن يَتَربَّصوا ظُهورَ الآفاتِ والمِحَنِ ، وَيَحْتالوا بِطرُقٍ خَفِيَّةٍ في إلقاءِ الإفسادِ والتَّفريقِ بَينَ المُسلِمينَ ، فإذا شاهَدوا المُسلِمينَ وَقَد ظَهَرَتْ قُوَّتُهُم خافوهُم وَتَرَكوا الأفعالَ المَذمومَةَ هذِهِ ، وَيشهَدُ لِهذا التَّفسيرِ وأَنَّ المُرادَ بِهِمُ المُنافِقونَ قَولُ اللهِ تَعالى : ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ﴾ [التوبة : ١٠١] .

ثُمَّ حَضَّ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ عَلى الإنفاقِ ، مُخْبِراً إيّاهُمْ أنَّ ما يُنفِقونَهُ مِن شَيءٍ قَلَّ أو كَثُرَ في وُجوهِ الخَيْرِ الّتي مِنْ أعْلاها الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ ، فإنَّ عِوَضَهُ واصِلٌ إليهِمْ في الدُّنيا ، وَكَذا أجْرُهُ في الآخِرَةِ ، وأنَّهُم لا يُنقَصونَ مِن ذاكَ العِوَضِ والأجْرِ شَيئاً .

ومِمّا يُسْتَنْبَطُ مِنْ هذِهِ الآيَةِ مِنَ الأحكامِ :

١ـ وُجوبُ إعدادِ القُوَّةِ الحَربِيَّةِ للدِّفاعِ عَنِ الدِّينِ وَعَنِ الوَطَنِ وَعَنْ كُلِّ ما يَجبُ الدِّفاعُ عَنهُ .

٢ـ وُجوبُ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَخُصوصاً في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

قالَ القاسِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ : دَلَّتْ هذِهِ الآيَةُ عَلى وُجوبِ إعدادِ القُوَّةِ الحَربيَّةِ اتِّقاءَ بَأسِ العَدُوِّ وَهُجومِهِ ، وَلَمّا عَمِلَ الأُمَراءُ بِمُقتَضى هذِهِ الآيَةِ أيّامَ حَضارَةِ الإسلامِ ، كانَ الإسلامُ عَزيزاً عَظيماً ، أمّا اليَومَ فَقَدْ تَرَكَ المُسلِمونَ العَمَلَ بهذِهِ الآيَةِ الكَريمةِ ، ومالوا إلى النَّعيمِ والتَّرَفِ ، فأهْمَلوا فَرْضاً مِنْ فروضِ الكِفايةِ ، فأَصْبَحَ المُسلمونَ جَميعاً آثِمينَ بِتَرْكِ هذا الفَرْضِ .

ولهذا تُعاني الأُمَّةُ مِن غُصَّتِهِ ما تُعاني ، وَكَيفَ لا يَطمَعُ العَدُوُّ في بلادِ الإسلامِ وَهِيَ لا يُرى فيها مَعامِلُ لِلأسلِحَةِ ، وذَخائِرِ الحَربِ ، بَل كُلُّها مِمّا يُشتَرى مِن بلادِ العَدُوِّ ؟ أما آنَ لِهذِهِ الأُمَّةِ أنْ تَتَنَبَّهَ مِنْ غَفلَتِها ، فَتُعِدَّ العُدَّةَ الّتي أمَرَ اللهُ تَعالى بِها لأعدائِها ، وَتَتَلافى ما فَرَّطَتْ بِهِ قَبلَ أنْ يُداهِمَ العَدُوُّ ما بَقِيَ مِنها بِخَيْلِهِ وَرِجالِهِ. . . !![1]

---

(١) تفسير القاسمي الجزء الثامن ، ص ٣٠٢٥ .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ بِقَبولِ السِّلْمِ والمُصالَحَةِ إذا ما رَغِبَ أعداؤُهُ في ذلِكَ ، وكانَت ظواهِرُهُم وأفعالُهُم تَدُلُّ عَلى صِدْقِ نَواياهُم ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

عَلَيْكَ أيُّها النَّبيُّ ﷺ أنْ تُنَكِّلَ في الحَربِ بِأُولئِكَ الكافِرينَ النّاقِضينَ لِعُهودِهِم في كُلِّ مَرَّةٍ ، وأَنْ تُهيِّيءَ ما استَطَعْتَ مِن قُوَّةٍ لإرْهابِهِم ، فإنْ مالوا بَعْدَ ذلِكَ إلى المُسالَمَةِ والمُصالَحَةِ فَوافِقْهُم ، وَمِلْ إلَيْهِمْ ما دامَتْ مَصلَحَتُكَ فيها ، وَفَوِّضْ أمْرَكَ إلى اللهِ تَعالى وَلا تَخشَ مَكْرَهُمْ وَكَيْدَهُمْ وَغَدْرَهُم ، فاللهُ تَعالى سَميعٌ لأقوالِهِم عَليمٌ بِأحوالِهِم ، يُجازيهِم بِما يَستَحِقّونَ وَيَرُدُّ كَيدَهُم إلى نُحورِهِم .

وَيُستَفادُ مِنْ هذِهِ الآيَةِ أمرانِ :

الأوَّلُ : أنَّ البدءَ بِطَلَبِ السِّلْمِ يَنْبَغي أنْ يَكونَ مِنَ الأعداءِ الّذينَ حارَبونا لا مِنّا نَحنُ .

الثّاني : أنَّ الأُمَّةَ لها أنْ تَختارَ خَيارَ السَّلامِ إذا كانَتْ في مَنَعَةٍ وَقُوَّةٍ ، حتّى لا تُملى عَلَيْها شُروطٌ تُصَيِّرُها مِنَ المُسالِمَةِ إلى المُستَسلِمَة ، كَما رَأينا وَشاهَدناهُ مِمّا لا يَرضى عَنهُ اللهُ تَعالى وَلا رَسولُهُ وَلا المُؤْمِنونَ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أمَّنَ رَسولَهُ ﷺ مِنْ خِداعِ أعدائِهِ إنْ هُم أرادوا خِيانَتَهُ ، وبيَّنوا لَهُ الغَدْرَ مِنْ وراءِ الجُنوحِ إلى السَّلامِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وَإنْ يُرِدْ هؤُلاءِ الأعداءُ الّذينَ جَنحوا لِلسِّلْمِ في الظّاهِرِ أنْ يَخدَعوكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ لِتَكُفَّ عَنهُم حَتّى يَستَعِدُّوا لِمُقاتَلَتِكَ ، فَلا تُبالِ بِخِداعِهِم ، بَل صالِحْهُم مَعَ ذلِكَ إذا كانَ في الصُّلحِ مَصلَحَةٌ لِلإسلامِ وَأَهلِهِ ، وَلا تَخشَ مِنهُم ، فإنَّ اللهَ تَعالى كافيكَ بِنَصرِهِ وَمَعونَتِهِ ، فَهُو سُبْحانَهُ الّذي أمَدَّكَ بِوَسائِلِ النَّصرِ ظاهِرِها وَخَفيِّها ، وَهُوَ سُبْحانَهُ الّذي أيَّدَكَ بِالمُؤْمِنينَ الّذينَ هانَتْ عَلَيْهِم أنفُسُهُم وأَموالُهُم في سَبيلِ إعزازِ هذا الدِّينِ وإعْلاءِ كَلِمَتِهِ .

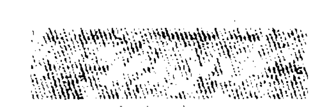
فالآيَةُ الكَريمةُ تَشجيعٌ لِلنَّبيِّ ﷺ عَلى السَّيرِ في طَريقِ الصُّلْحِ ما دامَ فيهِ مَصلَحَةُ الإسلامِ وأَهلِهِ ، وَتَبشيرٌ لَهُ ﷺ بِأنّ النَّصرَ سَيكونُ لَهُ حَتّى وَلَو أرادَ الأعداءُ بِإظهارِ المَيْلِ إلى السِّلْمِ المُخادَعَةَ والمُراوَغَةَ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضلِهِ في كَيفِيَّةِ تأْييدِهِ لِرَسولِ اللهِ ﷺ بِالمُؤْمِنينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

أي : إنَّ مِنْ مَظاهِرِ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلَيْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ أنْ أيَّدَكَ سُبْحانَهُ وتَعالى بِنَصرِهِ ، وأَنْ أيَّدَكَ بِالمُؤْمِنينَ بِأنْ حَبَّبَ إليَهِمُ الإيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلوبِهِم ، وَجَعَلَ مِنهُم قُوَّةً مُوحَّدَةً ، فَساروا بِفَضلِهِ تَعالى كالنَّفْسِ الواحِدَةِ بَعْدَ أنْ كانوا مُتَنازِعينَ مُتَفرِّقينَ ، وأنتَ يا مُحَمَّدُ ﷺ لَو أنفَقتَ ما في الأرضِ جَميعاً مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ وَغيرِهِما ما استَطَعتَ أنْ تُؤَلِّفَ بَينَهُم ، فَصاروا إخواناً مُتَحابّينَ مُتَصافينَ ، إنهُ سُبْحانَهُ غالِبٌ في مُلْكِهِ وسُلطانِهِ ، حَكيمٌ في كُلِّ أفعالِهِ .

وَخَيرُ مِثالٍ يَصْدقُ عَلى هذِهِ الآيَةِ ما كانَ بَيْنَ الأوسِ والخَزْرَجِ ، ثُمَّ بِأيّ حالٍ صاروا بَعْدَ أنْ هَداهُم اللهُ إلى الإيمانِ ، فسُبْحانَ اللهِ تَعالى مُقَلِّبِ القُلوبِ!!!



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ الإنفاقَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى أمْرٌ مُهِمٌّ لِبيانِ أثَرِ الإيمانِ في الأَنْفُسِ ، وَلأنَّهُ صورَةٌ مِن صُوَرِ التَّعاوُنِ والتَّآزُرِ المَحمودَيْنِ .

٢ـ ضَرورَةُ الحَذَرِ مِمَّنْ يَتَربَّصونَ بِنا الدَّوائِرَ .

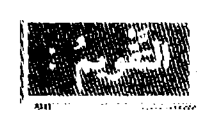
٣ـ إنَّ الحَقَّ لا بُدَّ لَهُ مِن قُوَّةٍ تَحميهِ .

٤ـ لا يَقومُ الدِّينُ قِياماً صَحيحاً ما لَم يَتَوَفَّرِ الأَمْنُ والطُّمَأْنينَةُ لأصحابِهِ .

٥ـ خُطورَةُ التَّواني والتَّكاسُلِ عَن إعدادِ العُدَّةِ لِلجهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٦ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى غايَةٌ عُظمى يَتَطَلَّعُ إلَيْها كُلُّ مُسلِمٍ ، لأنَّ نِهايَتَهُ إمّا الظَّفَرُ بِالمَطلوبِ ، وإمّا الشَّهادَةُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٧ـ لا يَجوزُ السَّلامُ مَعَ العَدُوِّ في حالِ ضَعفِ المُسلِمينَ وانهِزامِهِم ، إلاّ أنْ يُرادَ بِهِ هُدنَةً يَتَقوّى فيها المُسْلِمونَ لِيَكرّوا مَرَّةً ثانيةً .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

رِباطِ الخَيلِ ، آخَرينَ مِن دونِهِمْ ، جَنحوا لِلسَّلْمِ ، أَيَّدَكَ بِنَصرِهِ ، أَلَّفَ بَيْنَ قُلوبِهِم .

٢ـ بَيِّنْ وَجْهَ الرَّبطِ بَيْنَ قَولِهِ تَعالى ﴿وأعدّوا لَهُمْ . . . ﴾ وما سَبَقَهُ .

أـ ما المُرادُ بِقَولِهِ تَعالى : ﴿وإِنْ جَنحوا لِلسَّلْمِ فاجْنَح لها﴾ ؟

ب ـ بَيِّنِ الأَحْكامَ المُسْتَنبَطَةَ مِن هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ ، مُبيِّناً مَتى يَجوزُ السَّلامُ مَعَ العَدُوِّ وَمَتى لا يَجوزُ .

٣ـ بَيِّن بِمِثالٍ تاريخِيٍّ أَثَرَ الإيمانِ في التَّأليفِ بَيْنَ القُلوبِ المُتنازِعَةِ .

١ ـ قارِنْ بَيْنَ حالِ قَبيلتَيْ الأَوْسِ والخَزْرَجِ قَبلَ الإسلامِ وَبَعْدَهُ ، واكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارجِعْ إلى المَعاجِمِ المُفهرسَةِ لألفاظِ القُرآنِ الكَريمِ ، واستَخرِجْ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ ثَلاثَ آياتٍ دالَّةٍ عَلى فَضْلِ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ، ثُمَّ دَوِّنْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرسُ الخامسَ عشرَ

سورةُ الأنفالِ ـ القسمُ الخامسَ عشرَ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

معاني المُفْرَداتِ :

حَسْبُكَ : كافيكَ .

التَّفسيرُ :

وتمضي السُّورَةُ الكَريمَةُ في بَثِّ الطُّمأنينَةِ في قَلبِ النَّبيِّ ﷺ ، وفي قُلوبِ أصحابِهِ ، فَبَيَّنَتْ لَهُم أنَّ اللهَ تَعالى كافيهِم وناصِرُهُم ، وأنَّ القِلَّةَ مِنْهُم تَغلِبُ الكَثْرَةَ مِنْ أعداءِ اللهِ تَعالى ، وأعدائِهِم ، فَقالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

يا أيُّها النَّبيُّ ﷺ كافيكَ اللهُ تَعالى وكافي مُتَّبعيكَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، فَهُو سُبْحانَهُ ناصِرُكُم ومُؤَيِّدُكُم على أعدائِكُم ، وإنْ كَثُرَ عَدَدُهُم وقَلَّ عَدَدُكُم ، وما دامَ الأمرُ كذلِكَ فاعتَمِدوا عَلَيْهِ وَحْدَهُ ، وأطيعوهُ في السِّرِّ والعَلَنِ لِكَي يُديمَ عَلَيْكُم عَوْنَهُ وتأييدَهُ ونَصْرَهُ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴾ .

هذا نداءٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِنبيِّهِ ﷺ يأمُرُهُ فيهِ بحَثِّ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ ، فيَقولُ له : يا أيُّها النَّبيُّ ﷺ بالغْ في حَثِّ المُؤْمِنينَ وإحمائِهم عَلى القِتالِ لإعلاءِ كَلِمةِ اللهِ تَعالى ، وَرَغِّبْهُم فيما وَراءَهُ مِنْ خَيرِ الدُّنيا والآخِرَةِ لِتَقوى بذلكَ نُفوسُهُم ، وأبلِغْهُم أَنَّهُ إنْ يوجَدْ مِنكُم عِشرونَ مُعتَصِمونَ بالإيمانِ والصَّبرِ والطّاعَةِ ، يَغلِبوا مائتَينِ مِنَ الّذينَ كَفروا ، ذلِكَ بِأنَّهُم قَومٌ لا يُدرِكونَ حَقائِقَ الأُمورِ ، فَلَيْسَ لَهُم إيمانٌ وَلا صَبْرٌ ولا مَطْمَعٌ في ثَوابٍ .

والآيَةُ الكَريمَةُ تَدلُّ عَلى أنَّ مِن شَأنِ المُؤْمِنينَ أنْ يَكونوا أعلَمَ مِنَ الكافِرينَ وَأَفْقَهَ مِنهُم بِكُلِّ عِلْمٍ وَفَنٍّ يَتَعلَّقُ بحَياةِ البَشَرِ وارتِقاءِ الأُمَمِ ، وإنَّ حِرمانَ الكُفّارِ مِن هذا العِلْمِ ، هُوَ السَّبَبُ في كَونِ المِائَةِ مِنهُم دونَ العَشرَةِ مِنَ المُؤْمِنينَ الصّابِرينَ .

وَهكذا كانَ المُؤمِنونَ في قُرونِهِمُ الأُولى ، أمّا الآنَ فَقدْ أصْبَحَ المُسلِمونَ غافِلينَ عَنْ هذِهِ المَعانِيَ الجَليلَةِ العَظيمَةِ ، فَزالَ مَجدُهُم وعِزُّهُم ، وَدالَتْ دَولَتُهُمْ .

وَصاروا في ذَيلِ الأُمَمِ ، فإنْ يَرتَفِعوا إلى أمثالِ هذِهِ المَعانيَ والحِكَمِ يَرفَعُهُم اللهُ تَعالى .

ثُمَّ حَكى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضلِهِ عَلى المُؤْمِنينَ وَرَحمَتِهِ بِهِم ، فَقَدْ خَفَّفَ عَنهُم ما وَجَدوهُ مِنْ حَرَجٍ وَمَشَقَّةٍ مِمّا جاءَ في الآيَةِ السّابِقَةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ ٱلۡـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ .

سَبَبُ النُّزولِ :

أَخْرَجَ البُخاريُّ عَن ابنِ عَباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما قالَ : لَمّا نَزَلَت ﴿ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ ﴾ شَقَّ ذلِكَ عَلى المُسلِمينَ حينَ فُرِضَ عَلَيْهِم أنْ لا يَفِرَّ المائَةُ مِنَ الألفِ ، فجاءَ التَّخفيفُ فَقالَ : « الآنَ خفَّفَ اللهُ عنكمُ وعَلِمَ أَنَّ فيكُمْ ضَعْفاً فإنْ يَكُنْ مِنكُمْ مائةٌ صابِرَةٌ يَغلِبوا مائتينِ » فقالَ : فلمّا خَفَّفَ اللهُ عَنْهُم مِنَ العِدَّةِ ، نَقَّصَ مِنَ الصَّبرِ بقَدْرِ ما خَفَّفَ عنهُم[1] .

لَقَدْ فَرَضْنا عَلَيْكُم أيُّها المُؤمِنونَ أوَّلَ الأمرِ أنْ يَثْبُتَ الواحِدُ مِنكُم أمامَ عَشَرَةٍ مِنَ الكافِرينَ ، والآنَ بَعْدَ أن شَقَّ عَلَيْكُمُ الاستِمرارُ عَلى ذلِكَ ، وَلمْ تَبقَ هناكَ ضَرورَةٌ لِدَوام هذا الحُكمِ لِكثْرَةِ عَددِكُمْ ، شَرَعْنا لَكُمُ التَّخفيفَ رَحمةً بكُم ، وَرِعايةً لأَحْوالِكُم ، فأَوْجَبْنا عَلَيْكُم أنْ يَثْبُتَ الواحدُ

(١) صحيح البخاري حديث رقم : ٤٦٥٣ .

مِنكُم أمامَ اثنَينِ مِن أعدائِكُم بَدَلاً مِنْ عَشَرَةٍ ، وَبَشَّرناكُم بِأنَّهُ إنْ يوجَدْ مِنكُم مائَةٌ صابرَةٌ يَغلِبوا مائَتَينِ مِن أعدائِكُم ، وإنْ يوجَدْ مِنكُم ألفٌ يَغلِبوا ألفَيْنِ مِنهُم بِإذنِ اللهِ وَتَيسيرِهِ وَتأييدِهِ ، ذلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى معَ الصّابرينَ بتأييدِهِ وَرعايَتِهِ وَنَصْرِهِ ، فاحْرِصوا عَلى أنْ تَكونوا مِنَ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، لِتَنالوا مِنهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما يُسعِدُكُم في دُنياكُم وآخِرَتِكُم .

وَجُمهورُ المُفَسِّرينَ عَلى أنَّ حُكمَ الآيَةِ الأولى مَنسوخٌ بِما وَرَدَ في الآيَةِ الثّانِيَةِ ، وَمِنَ العُلماءِ مَن يَرى غَيرَ ذلِكَ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أهَمِّيَّةُ العَقيدَةِ الرّاسِخَةِ والإيمانِ الثّابِتِ ، فَلَيسَ المُهِمُّ العُدَّةُ ، وإنَّما القُوَّةُ قُوَّةُ الرّوحِ المُقاتِلةِ وإيمانُ القلبِ .

٢ـ مَكانَةُ القائِدِ في المَعرَكةِ ؛ إذْ مِن واجِباتِهِ تَنظيمُ جُنودِهِ وَتَحريضُهُم عَلى القِتالِ .

٣ـ ضَرورَةُ الأخذِ بِالأَسْبابِ عِندَ مُزاولةِ أيِّ عَمَلٍ .

٤ـ عِنايَةُ اللهِ تَعالى بِرَسولِهِ وَبِالمُؤْمِنينَ مَعَهُ .

٥ـ الصَّبرُ مِن دَواعي النَّصْرِ .



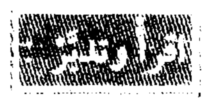
أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما مَعنى : حَسبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنينَ ؟

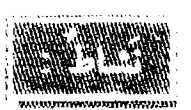
٢ـ بَيِّن سَبَبَ نُزولِ قَولِهِ تَعالى : ﴿الآنَ خفَّفَ اللهُ عَنكُمْ﴾ .

٣ـ اذكُرْ ثَلاثَ عِبَرٍ مُستَفادَةٍ مِنْ هذِهِ الآياتِ .

٤ـ ما العَدَدُ الّذي يَحرُمُ أنْ يَفِرَّ المؤمِنُ مِنهُ ؟ وما دَليلُ ذلِكَ ؟ .



حينَ أقبَلَ المُشْرِكونَ يَومَ بَدْرٍ في عَدَدَهِم وَعُدَدِهِم قامَ النَّبيُّ ﷺ يُحَرِّضُ أَصْحابَهُ عَلى القِتالِ فَقالَ : « قوموا إلى جَنَّةٍ عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ ، فَقالَ عُمَيرُ بنُ الحمام : عَرْضُها السَّمواتُ والأرضُ ؟ فَقالَ رَسولُ الله ﷺ : نعَم ، فقالَ : بَخٍ بَخٍ ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : ما يَحمِلُكَ عَلى قَولِكَ : بَخٍ بَخٍ ؟ قال : رَجاءَ أنْ أكونَ مِنْ أهْلِها ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : فإنَّكَ مِنْ أهْلِها ، فَتَقَدَّمَ الرَّجُلُ فكَسَرَ جَفنَ سَيفِهِ وأخرَجَ تَمراتٍ فَجَعلَ يأكُلُ مِنهُنَّ ، ثُمَّ ألقى بَقيَّتَهُنَّ مِن يَدِهِ وَقالَ : لَئِنْ حَييتُ حَتَّى آكُلَهُنَّ إنَّها لَحَياةٌ طَويلَةٌ ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فقاتلَ حَتّى قُتِلَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ[1] .



ـ اكْتُبْ تَصَوُّرَكَ لِما كانَ عَلَيْهِ المُؤمِنونَ في صَدرِ الإسلامِ، والعِشْرونَ لا يفرّونَ مِنَ المائتَيْن مِنَ الكافِرينَ .

* * *

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة حديث رقم : ١٩٠١ ، باب ثبوت الجنة للشهيد .

الدَّرسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورَةُ الأَنْفالِ ـ القِسْمُ السّادِسَ عَشَرَ

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يُثْخِنَ في الأرضِ : يُبالِغَ في قَتْلِ الأعداءِ .

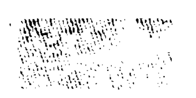
عَرَضَ الدُّنيا : حُطامَها ، وهُوَ هُنا : الفِداءُ الّذي أخَذَهُ المُسلِمونَ مِن أَسْرى بَدْرٍ .

أَمْكَنَ مِنهُمْ : أَقْدَرَكَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِم .

سَبَبُ النُّزولِ :

قالَ ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُما : فَلَمّا أَسَروا الأُسارى قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ لأَبي بَكرٍ وَعُمَرَ : ما تَرَوْنَ في هؤُلاءِ الأُسارى ؟ فَقالَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : يا رَسولَ اللهِ هُم بَنو العَمِّ والعَشيرَةِ ، أرى أنْ تأخُذَ مِنهُم فِديَةً تَكونُ لنا قُوَّةً عَلى الكُفّارِ ، فَعَسى أنْ يَهديَهُم اللهُ إلى الإسلام . فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : ما تَرى يا ابنَ الخَطّابِ ؟ قالَ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : قُلتُ : لا واللهِ يا رَسولَ اللهِ ما أرى الّذي رأى أبو بَكْرٍ ، ولكنْ أرى أنْ تُمَكِّنَنا فَنَضرِبَ أعناقَهُم ، فَتُمَكِّنَ علياً مِن عَقيلٍ فَيَضرِبَ عُنُقَهُ ، وَتُمَكِّنَني مِن فُلانٍ ـ قَريبٌ لِعُمَرَ ـ فأضرِبَ عُنُقَهُ ، حَتّى يَعلَمَ اللهُ أنْ لَيسَ في قُلوبِنا هَوادَةٌ للمُشرِكينَ ،

فإنَّ هؤُلاءِ أئِمَّةُ الكُفْرِ وَصَناديدُهُ ، فَهَوِي رَسولُ اللهِ ﷺ ما قالَهُ أبو بَكْرٍ ، وَلَمْ يَهْوَ ما قُلتُ . فَلَمّا كانَ مِنَ الغَدِ جِئتُ[1] فإذا رَسولُ اللهِ ﷺ وأبو بَكْرٍ يَبكِيانِ ، فَقُلتُ : يا رَسولَ اللهِ ﷺ أخبرْني مِنْ أيِّ شَيءٍ تَبكي أنتَ وَصاحِبُكَ ؟ فإنْ وَجَدتُ بُكاءً بَكَيتُ ، وإنْ لَم أجدْ بُكاءً تَباكَيتُ لِبُكائِكُما ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : أبكي عَلى أصحابِكَ مِنْ أخْذِهِمُ الفِداءَ ، لَقَد عُرِضَ عَلَيَّ عَذابُهُمْ أدنى مِن هذِه الشَّجَرَةِ ـ الشَّجَرَةُ قَريبَةٌ مِنهُ ﷺ ـ وأنزلَ اللهُ تَعالى : ﴿ما كانَ لِنَبيٍّ أنْ يكونَ لهُ أَسْرى حتّى يُثْخِنَ في الأرضِ﴾[2] .



﴿ما كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

لا يَسوغُ لأحَدٍ مِنَ الأنبياءِ أنْ يَكونَ لَهُ أسْرى يَحتَجِزُهُم ، أو يأخُذُ مِنهُم الفِداءَ ، أو يَمُنُّ عَلَيْهِم بِالعَفوِ عَنهُم ، حتّى يَتَغَلَّبَ ، ويَظهَرَ عَلى أعدائِهِ وَيُثقِلَهُم بِالجراحِ ، فلا يَستَطيعونَ قِتالاً في الأرضِ ، وَلكنَّكُم يا جَماعَةَ المُسلِمينَ سارَعْتُمْ في غَزوَةِ بَدْرٍ إلى اتِّخاذِ الأسْرى قَبْلَ التَّمَكُّنِ في الأرضِ ، تُريدونَ مَنافِعَ الدُّنيا واللهُ تَعالى يُريدُ لَكُم الآخِرَةَ بإعلاءِ كَلِمَةِ الحَقِّ ، وَعَدَمِ الالتِفاتِ إلى ما يَشغَلُكُم مِنْ مَتاعِ الدُّنيا ، واللهُ تَعالى قَويٌّ قادِرٌ غالِبٌ يُدَبِّرُ أُمورَكُم عَلى أحْسَنِ تَدبيرٍ .

وهذِهِ الآيةُ الكَريمةُ تَعتِبُ عَلى المُؤمِنينَ لأنَّهُم آثَروا الفِداءَ عَلى القَتْلِ والإثْخانِ في الأرضِ ، وَذلكَ لأنَّ غَزوَةَ بَدْرٍ كانت أوَّلَ مَعرَكَةٍ حاسِمَةٍ بَينَ الشِّرْكِ والإيمانِ ، وَكانَ المُسلِمونَ فيها قِلَّةً ، والمُشْرِكونَ كَثرَةً ، فَلَوْ أنَّ المُسلِمينَ آثَروا المُبالَغَةَ في إذلالِ المُشْرِكينَ أعدائِهِم عَن طَريقِ القَتْلِ لَكانَ ذلكَ أدعى لِكَسرِ شَوكَةِ الشِّرْكِ وأهلِهِ ، وأظهَرَ في إذلالِ قُرَيشٍ وَحُلَفائِها ، وأصْرَحَ في بَيانِ أنَّ العَمَلَ عَلى إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى عِندَ المُؤْمِنينَ فَوقَ مُتَعِ الحَياةِ الدُّنيا وأعْراضِها ، وأنَّهم لا يُوادّونَ مَنْ حارَبَ اللهَ تَعالى وَرَسولَهُ ﷺ مَهما بَلَغَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِ .

﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

لَولا حُكْمٌ مِنَ اللهِ تَعالى سَبَقَ مِنهُ في الأزَلِ أنْ لا يُعَذِّبَ المُخطِئَ عَلى اجتِهادِهِ ، أو أنْ لا يُعذِّبَ قَوماً قَبلَ تَقديمِ البَيانِ إليهِم ، لَولا كُلُّ ذلِكَ لأصابَكُم بِسبَبِ ما أخَذتُمْ مِنَ الفِداءِ قَبلَ أن تُؤْمَروا بِهِ عَذابٌ عَظيمٌ ، لا يُقَدَّرُ قَدرُهُ في شِدَّتِهِ وألمِهِ .

---

(١) القائل : هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) أخرجه مسلم ٣/ ١٣٨٣ حديث رقم : ١٧٦٣ .

ثُمَّ وَجَّهَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ إلى ما يَنبَغي أنْ يَكونَ عَلَيْهِ أمرُهُم في هذا الشَّأْنِ مُستَقبَلاً ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

فاكتَفوا بِما تَغْنَمونَهُ ولا تُفادوا الأَسْرى إلى أنْ تُثخِنوا في الأرضِ . ثُمَّ حَثَّهُم عَلى تَقواهُ الّتي تَحولُ بَينَهُم وَبينَ الاهتِمام بأَعْراضِ الحياةِ الدُّنيا ، فَرَحمَةُ اللهِ تَعالى بابُها أوسَعُ الأبوابِ .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يُخبرَ الأسرى بِأَنَّهُم إذا ما فَتَحوا قُلوبَهُم لِلحَقِّ واستَجابوا لَهُ ، فإنَّهُ سَيُعَوِّضُهُم عَمّا فَقَدوهُ خَيراً مِنهُ .

أمّا إذا استَمَرّوا في كُفرِهِم وَعِنادِهِم فإنّ الدّائِرَةَ سَتَدورُ عَلَيْهِم ، قالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

يا أيُّها النَبيُّ ﷺ قُلْ لِلّذينَ تَحتَ تَصَرُّفِكُم مِنَ الأسرى الّذينَ أخَذتُمْ مِنهُمُ الفِداءَ لِتُطلِقوا سَراحَهُم ؛ إنْ يَعلَمِ اللهُ تَعالى في قُلوبِكُم إيماناً وَتَصديقاً وَعَزْماً عَلى اتِّباعِ الحَقِّ وَنَبذِ الكُفْرِ والعِنادِ ، إنْ يَعْلَمِ اللهُ تَعالى مِنكُم ذلِكَ ؛ يُخلِفْ لَكُم خَيراً مِمّا أخَذَهُ المُؤمِنونَ مِنكُم مِنَ الفِداءِ ، وَيَغفِرْ لَكُم ذُنوبَكُمْ ، فَهُو سُبْحانَهُ يَغفِرُ ذُنوبَ عِبادِهِ ، وَهُو سُبْحانَهُ رَحيمٌ بِهِم .

﴿ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وإن يُرِدْ هؤُلاءِ الأَسْرى نَقْضَ عُهودِهِم مَعَكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ والاستِمرارَ في محارَبَتِكَ وَمُعاداتِكَ ، فَلاَ تَهتَمَّ بِهِمْ وَلا تَجزَعْ مِنْ خِيانَتِهِمْ ، فَهُم قَد خانوا اللهَ تَعالى مِن قَبلِ هذِهِ الغَزوَةِ بِكُفرِهِم وَجُحودِهِم لِنِعَمِهِ ، فَكانَت نَتيجَةُ ذلِكَ أنْ أمكَنَكَ مِنهُم وأَظفَرَكَ بِهِم . وَسَينصُرُكَ عَلَيْهِم بَعْدَ ذلِكَ كَما نَصرَكَ عَلَيْهِم في بَدْرٍ ، واللهُ تَعالى عَليمٌ بِما يُسِرّونَهُ وَما يُعلِنونَهُ ، حَكيمٌ في تَدبيرِهِ وَصُنْعِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى يَجِبُ أنْ يَكونَ خالِصاً لِوَجهِهِ تَعالى ، وَمِنْ أجْلِ إعلاءِ كَلِمَتِهِ وَنُصْرَةِ دينِهِ .

٢ـ اسْتِبقاءُ الأَسْرى في أيدي المُسْلِمينَ لَيسَ لإذلالِهِمْ وَقَهرِهِمْ واسْتِغلالِهِمْ وإِنَّما لإيقاظِ نورِ الحَقِّ في فِطرَتِهِم .

٣ـ لا يَكونُ الإيمانُ صَحيحاً إلاّ إذا صاحَبَهُ التَّصديقُ والإذعانُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

يُثخِنَ في الأرضِ ، عَرَضَ الدُّنيا ، كِتابٌ مِنَ اللهِ ، أَمْكَنَ مِنْهُم .

٢ـ بيِّنْ رأيَ كُلٍّ مِنْ أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما في مَوضوعِ الأَسْرى يَومَ بَدْرٍ .

٣ـ بيِّن كَيفَ يَدُلُّ سَبَبُ النُّزولِ عَلى تَعميقِ الشُّورى بَيْنَ المُسلِمينَ .

٤ـ هاتِ دَليلاً مِنَ الآيات الكَريمةِ عَلى ما يَلي :

أـ لا يَجوزُ الأَسْرُ قَبلَ الإثْخانِ في الأرضِ .

ب ـ حِلُّ الغَنائِمِ لِلْمُسلِمينَ .

ج ـ إذا ظَهَرَ الخَيرُ في قُلوبِ الأَسْرى لَدى المُسْلِمينَ عَوَّضَهُم اللهُ خَيراً في الدُّنيا والآخِرَةِ .

دـ لابُدَّ وأنْ يَكونَ الجِهادُ خالِصاً للهِ تَعالى .

٥ـ بيِّن أثَرَ الإثْخانِ في الأرضِ عَلى كُلٍّ منَ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ .

٦ـ بيِّن سَبَبَ مُعاتَبَةِ اللهِ تَعالى لِلرَّسولِ ﷺ وَلِلمُؤْمنينَ .

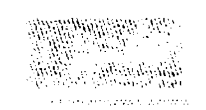
نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيفَ عامَلَ المُسلِمونَ أَسْرى بَدْرٍ .

* * *

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

الَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا	هُم أنصارُ رَسولِ اللهِ ﷺ مِنْ أهلِ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ .
اسْتَنصَرُوكُم	طَلبوا نَصْرَكُم .
تَكُن فِتنَةٌ في الأرضِ	المُرادُ ضَعفُ الإيمانِ وَظُهورُ الكُفرِ .



بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعضَ أحكامِ الأَسْرى ، خَتَم هذِهِ السّورَةَ الكَريمَةَ بِالحديثِ عَنْ عَلاقَةِ المُسلِمينَ بَعضِهِم بِبَعضٍ ، وَعَن عَلاقَتِهِم بِغَيرِهِم مِنَ الكُفّارِ ، وَعَنِ الأحكامِ المُنَظِّمَةِ لهذِهِ العَلاقاتِ .

وَقَد ذَكَرَت الآياتُ الكَريمَةُ التّاليةُ أنَّ المُؤْمِنينَ في العَهدِ النَّبَوِيِّ أقْسامٌ أربَعَةٌ :

القسم الأول : المُهاجِرونَ الأوّلونُ أصحابُ الهِجرَةِ الأولى .

القسم الثاني : الأنصارُ مِنْ أهلِ المَدينَةِ .

القسم الثالث : المُؤمِنونَ الّذينَ لَم يُهاجِروا .

القسم الرابع : المُؤمِنونَ الّذينَ هاجَروا بَعْدَ صُلحِ الحُدَيبيَةِ .

وَقَد فَصّلَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما يَكونُ عَليْهِ المُؤمِنونَ كَما يَلي :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

إنَّ الّذينَ صَدَّقوا بِالحَقِّ وأذْعَنوا لِحُكْمِهِ ، وَهاجَروا مِن مَكَّةَ وَجاهَدوا بِأموالِهِم وأنْفُسِهِم ، والّذينَ آوَوْهُم في غُربَتِهِمْ ، وَنَصروا رَسولَ اللهِ ﷺ يُقاتِلونَ مَنْ قاتَلَهُ ، وَيُعادونَ مَنْ عاداهُ ، بَعضُهُم نُصَراءُ بعضٍ في تأييدِ الحقِّ وإعلاءِ كَلمةِ اللهِ تَعالى ، والّذينَ لَمْ يُهاجِروا لا يَثْبُتُ لَهُمْ شيءٌ مِنْ وِلايةِ المُؤْمِنينِ وَنُصرَتِهِمْ ، إذْ لا سَبيلَ إلى وِلايَتِهِم حَتَّى يُهاجِروا ، وإنْ طَلَبوا مِنكُمُ النَّصرَ عَلى مَن اضْطَهَدوهُم في الدِّينِ فانْصُروهُم ، فإنْ طَلَبوا النَّصْرَ عَلى قَومٍ مُعاهِدينَ لَكُم ، لَم يَنقُضوا الميثاقَ مَعَكُم ، فَلا تُجيبوهُم ، واللهُ بِما تَعملونَ بَصيرٌ ، لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ ، فَقِفوا عِندَ حُدودِ اللهِ لِئلا تَقَعوا في عَذابِهِ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾

والّذينَ كَفروا بَعضُهُم أولياءُ بَعضٍ في النُّصْرَةِ والتَّعاوُنِ عَلى قِتالِكُم وإيذائِكُم أيُّها المُؤْمِنونَ ، فَهُم وإنِ اختَلَفوا فيما بَيْنَهُم إلاّ أنَّهُم يَتَّفِقونَ عَلى عَداوَتِكُم وإنزالِ الأَضْرارِ بِكُم .

ثُمَّ حَذَّرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ تَحذيراً شَديداً مِنْ مُخالَفَةِ أمْرِهِ ، قائِلاً لَهُم : إلاّ تَفْعَلوا أيُّها المُؤْمِنونَ ما أمَرتُكُم بِهِ مِنَ التَّناصُرِ والتَّواصُلِ وَتَولّي بَعْضِكُم بَعضاً ، تَكُنْ مَفسَدَةٌ شَديدَةٌ في الأرضِ ، لأنَّكُم إذا لَم تَصيروا يَداً واحِدَةً عَلى الشِّرْكِ يَضعُفُ شأْنُكُمْ ، وَتَذهَبُ ريحُكُم ، وَتُسفَكُ دِماؤُكُم ، وَيَتطاوَلُ أعداؤُكُم عَلَيْكُم ، وتَصيرونَ عاجِزينَ عنِ الدِّفاعِ عَنْ دينِكُم وَعِرْضِكُم ، وَبِذلكَ تَعُمُّ الفِتنَةُ وَيَنْتَشِرُ الفَسادُ ، وَيَبقى الكُفْرُ مُسَيْطِراً .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾

والّذينَ آمَنوا وَهاجَروا في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، والّذينَ آوَوْهُم وَنَصروا الحَقَّ وأعلَوْا كَلِمَةَ اللهِ

تَعالى ، هُمُ الصّادِقو الإيمانِ ، واللهُ تَعالى يَغفِرُ لَهُم ، ولَهُم رِزقٌ كَبيرٌ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وَهذِهِ صِفَةُ المُهاجِرينَ والأنصارِ ، فازوا بالإيمانِ وَمَغفِرَةِ الذُّنوبِ ، رِضوانُ اللهِ عَلَيْهِم .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

والّذينَ آمَنوا بَعْدَ الأوَّلينَ ؛ أيْ : بَعْدَ صُلحِ الحُدَيْبِيَةِ وَقَبلَ الفَتحِ وَهاجَروا ، وَهِيَ الهِجرَةُ الثّانِيَةُ ، فأُولئِكَ مِنكُم يا جَماعَةَ المُهاجِرينَ والأنصارِ ، لَهُم مِنَ الوِلايَةِ والحُقوقِ ما لِبَعضِكُم عَلى بَعضٍ ، وَذَوو الأرحامِ مِنَ المُؤْمِنينَ لَهُم مِنْ وِلايَةِ الإيمانِ والقَرابَةِ ، فَبَعْضُهُم أولى بِبَعضٍ في المَوَدَّةِ والمالِ والنُّصرَةِ والتّأييدِ ، وَقَدْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى ذلِكَ في كِتابِهِ ، وَهُو العَليمُ بِكُلِّ شَيءٍ .

وَهذِهِ الآياتُ وإنْ تَشابَهَتْ ألفاظُها فَلَيْسَ فيها تَكرارٌ ، ذلِكَ أنَّ الآيَةَ الأولى مِنها جاءَت لِبيانِ أنَّ رابِطَةَ الإسلام أقوى مِنْ رابِطَةِ النَّسَبِ ، وَجاءَتِ الثّانِيَةُ لِبَيانِ مَكانَتِهِم وأنَّهُم هُمُ المُؤْمِنونَ حَقّاً ، وجاءَتِ الثّالِثَةُ لِبيانِ أنَّ الّذينَ جاءوا بَعْدَهُم وآمَنوا بَعْدَ ظُهورِ الإسلامِ فأولئِكَ مِنْكُمْ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ رابِطَةُ العَقيدَةِ والدِّينِ هِيَ أَمْتَنُ الرَّوابِطِ .

٢ـ المُؤْمِنونَ يَتناصَرونَ وَيَتعاوَنونَ فيما بَيْنَهُم .

٣ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى فيهِ رِفعَةٌ لِلمُسْلِمينَ وإذلالٌ لِلمُشْرِكينَ .

٤ـ المُسلِمُ يَجتَهِدُ في إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وإعزازِ دينِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

أوَوْا وَنَصَروا ، أولياءُ بَعْضٍ ، فِتنَةٌ في الأرضِ .

٢ـ قَسَمَتِ الآياتُ الكَريمَةُ المُؤْمِنينَ بِخُصوصِ المُوالاةِ إلى أقسامٍ عِدَّةٍ ، اذْكُرْها .

٣ـ بيِّنْ مِنْ هذِهِ الآياتِ واجبَ المُسلِمِ تِجاهَ أخيهِ المُسلِمِ .

٤ـ هاتِ دَليلاً عَلى كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ وِلايَةُ المُؤْمِنينَ بَعضُهُم لِبَعضٍ .

ب ـ وِلايَةُ الكافِرينَ بَعضُهُم لِبَعضٍ .

ج ـ وُقوعُ الفِتنَةِ بَينَ المُسلِمينَ إذا لَمْ يُوالِ بَعضُهُم بَعضاً وَيُعادوا الكافِرينَ .

دـ لا وِلايَةَ لِمُؤمِنٍ لَم يُهاجِرْ عَلى مُؤْمِنٍ مُهاجِرٍ .

٥ـ في الآياتِ الكَريمَةِ امتِداحٌ لِلمُهاجِرينَ والأنصارِ ، بيِّنْ ذلِكَ .

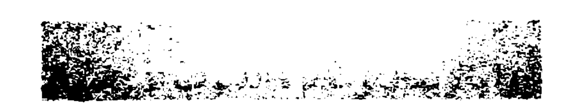
ـاطٌ :

ـ استَنتِج مِنَ الآيَةِ اهتِمامَ الإسلامِ بِالمُعاهِدينَ ، واكْتُبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

كّرْ :

ـ قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « لا هِجرَةَ بَعْدَ الفَتحِ . . . » ، كَيفَ تُوَفِّقُ بَينَ هذا الحَديثِ وما جاءَ في الآياتِ الكَريمَةِ ؟

* * *



سورة التوبة - القسم الأول

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

سورةُ التَّوْبةِ ، سورةٌ مَدَنيَّةٌ ، وَهِيَ مِن آخرِ ما نَزَلَ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، نَزَلَتْ في العامِ التّاسعِ لِلهجرَةِ ، وآياتُها مائةٌ وتسعٌ وعِشرونَ آيَةً .

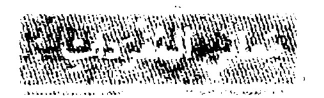
وَقَد اشتَمَلَتْ عَلى مَوضوعاتٍ مُتَنوِّعَةٍ ، تُشكِّلُ مَعَ ما في سورَةِ الأَنْفالِ صورَةً تاريخيَّةً مُجملَةً لِدَعوَةِ النَّبيِّ ﷺ وَجِهادِهِ إلى أنْ أَتَمَّ اللهُ تَعالى نِعمَةَ النَّصرِ .

وَمِن مَوضوعاتِها : إعلانُ القَطيعَةِ بَيْنَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ وَبَيْنَ المُشْرِكينَ ، وَمِنها : بَيانُ بَعضِ العَلاقاتِ المَخصوصَةِ لِمَن كانَتْ لَهُم عُهودٌ مِنَ المُشْرِكينَ مَعَ المُسلِمينَ ، ومِنها : وُجوبُ قِتالِ اليَهودِ والنَّصارى حَتَّى يُعلِنوا الإذعانَ لِلدَّولَةِ الإسلاميَّةِ ، وَمِنها : فَضحُ المُنافِقينَ وَكَشفُ أسرارِهِم وَحَماقاتِهِم ، وَمنها : بَيانُ حُرمَةِ الأشهُرِ الحُرُمِ ، وَمنها : وَصفُ حالَةِ الأعرابِ مِن

مُحْسِنٍ وَمُسيءٍ ، وَمُهاجِرٍ وَمُتَخَلِّفٍ ، وَمنها : التَّوبَةُ عَلى مَن تَخَلَّفوا مِنَ المُؤْمِنينَ عَن غَزوَةِ تَبوك .

وَمِن أسمائِها : بَراءَةٌ والتّوبَةُ .

وحُذِفَتِ البَسمَلَةُ مِن أوّلِها ، وَلَمْ يَثْبُتْ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قِراءَةُ البَسمَلَةِ في أوَّلِها .



بَراءَةٌ	: مَصدَرٌ ، مَعناهُ التَّباعُدُ عَن الشَّيءِ والتَّخَلُّصُ مِنهُ .
سِيحوا في الأرضِ	: سيروا فيها وَتَجَوَّلوا .
أذانٌ	: إعلامٌ وإعلانٌ .
يومَ الحَجِّ الأكبَرِ	: يومَ النَّحرِ ، يَومَ عيدِ الأضْحى .
يُظاهِروا عَلَيْكُم	: يُعينوا عَلَيْكُم .
انسَلَخَ الأشْهُرُ الحُرُمُ	: اسْتِعارَةٌ مَعناها انقِضاءُ تِلكَ الأشْهُرِ .
احْصُروهُم	: مِنَ الحِصارِ ، وَهُوَ المَنْعُ ، والمُرادُ مَنعُهُمْ مِنَ الخُروجِ .
مَرْصَد	: المَرْصَدُ هُوَ المَوْضِعُ الّذي يُقعَدُ فيهِ لِلعَدُوِّ لِمُراقَبَتِهِ .



﴿ بَرَاءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ( ) ﴾

هذا إعلانٌ مِنَ اللهِ تَعالى وإعلامٌ بِأنَّهُ سُبْحانَهُ قَد قَطَعَ هُوَ وَرَسولُهُ ﷺ ما بَينَهُ وَبَيْنَ المُشْرِكينَ مِنْ صِلاتٍ وَعلائِقَ ، فَلا عَهْدَ ولا تَعاهُدَ وَلا سِلْمَ وَلا أمانَ ، تَرَكَهُم تَعملُ فيهم سُيوفُ المُؤْمِنينَ حَتَّى يُقَوِّموهُم أو يُبيدوهُم . فهذِهِ الآيَةُ تُقَرِّرُ حُكْماً تَكليفِيّاً لِلمُسلِمينَ في شَأْنِ مُعامَلَةِ المُشْرِكينَ ، وَضَرورةِ التَّخلّي عَمّا بَيْنَهُم وَبيْنَهُم .

﴿ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ( ) ﴾

لَكُمُ الأمانُ أيُّها المُشْرِكونَ مُدَّةَ أربَعَةِ أشهُرٍ ، مِن حينِ البَراءَةِ ، تَنتَقِلونَ فيها حَيْثُ شِئْتُم ، واعْلَموا أنَّكُم حَيثُما كُنتُمْ خاضِعونَ لِسُلطانِ اللهِ تَعالى ، وأنْتُم لا تُعجِزونَهُ ، وأنَّ اللهَ تَعالى كَتَبَ الخِزْيَ عَلى الّذينَ يَكفُرونَ بِهِ ويَجْحَدونَهُ .

﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) ﴾ .

هذا بَلاغٌ مِنَ اللهِ تعالى وَرَسولِهِ ﷺ إلى النّاسِ عامَّةً ، في مُجتَمَعِهِم يَومَ عيدِ النَّحْرِ ، أنَّ اللهَ تَعالى بَريءٌ وَرَسولَهُ بَريءٌ مِن عُهودِ المُشْرِكينَ الخائِنينَ ، فيا أيُّها المُشْرِكونَ النّاقِضونَ لِلعَهدِ ، إذا رَجَعتُم عَنْ شِرْكِكُم وَآمَنتُم بِاللهِ تَعالى فإنَّ ذلِكَ خَيرٌ لَكُمْ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، أمّا إنْ أعرَضتُم وَبَقيتُم عَلى ما أنتمُ عَلَيْهِ ، فاعلَموا أنَّكُم خاضِعونَ لِسُلطانِ اللهِ تَعالى ، وَيا أيُّها الرَّسولُ أنذِرْ جَميعَ الكافِرينَ بِعذابٍ شَديدٍ .

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (٤) ﴾ .

اعْلَموا أيُّها المُؤمِنونَ أنَّ بَراءَةَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ مِن عُهودِ المُشْرِكينَ إنَّما كانَتْ بِسَبَبِ نَقْضِهِم لَها ، لَكِنَّ الّذينَ عاهَدتُموهُم وَلَمْ يَنقُضوا عُهودَهُم ، وَلَمْ يَنقُصوكُم شَيئاً مِن شُروطِ العَهدِ ، وَلَم يُعاوِنوا عَلَيْكُم أحَداً مِنَ الأعداءِ ، فَهؤُلاءِ أتِمّوا إليهِمْ عَهدَهُمْ إلى مُدَّتِهِم وَلا تُعامِلوهُم مُعامَلَةَ النّاكِثينَ .

فالآيَةُ الكَريمَةُ تَدُلُّ عَلى أنَّ المُرادَ بِالمُشْرِكينَ الّذينَ تَبَرّأَ اللهُ تَعالى وَرَسولُهُ مِنهُم ، وَأُعطوا مُهْلَةَ الأربَعَةِ أشهُرٍ ، هُم أولئِكَ الّذينَ عُرِفوا بِنَقضِ العُهودِ ، أمّا الّذينَ عاهَدوا وَوفّوا بِعُهودِهِم ، فإنَّ هؤُلاءِ يَجِبُ إتمامُ عَهدِهِم إلى مُدَّتِهِم ، وَفاءً بوفاءٍ ، وَكَرامَةً بكرامَةٍ .

﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) ﴾ .

فإذا انقَضَتْ مُدَّةُ الأمانِ الّتي مُنِحَتْ لِلكافِرينَ لِتَصويبِ أوضاعِهِم وَهِيَ أربَعَةُ أشْهُرٍ ، فاقْتُلوا المُشْرِكينَ النّاقِضينَ لِلعَهدِ في كُلِّ مَكانٍ وَخُذوهُم بِالشِّدَّةِ ، وَاضْرِبوا الحِصارَ عَلَيْهِم بِسَدِّ الطُّرُقِ ، واقْعُدوا لَهُم في كُلِّ سَبيلٍ ، فإنْ تابوا عَنِ الكُفْرِ ، والتَزَموا أحكامَ الإسلامِ بإقامَةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، فَلا سَبيلَ لَكُم عَلَيْهِم لِدُخولِهِم في دينِ اللهِ تَعالى ، واللهُ تَعالى عَظيمُ المَغفِرَةِ لِمَن تابَ ، واسِعُ الرَّحمَةِ بِعبادِهِ .

دروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

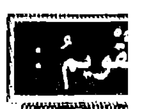
١ـ إعلانُ القَطيعَةِ مَعَ المُشْرِكينَ دَليلُ قُوَّةِ الإسلامِ .

٢ـ في الاسْتِمساكِ بِحَبلِ اللهِ تَعالى غَناءٌ عَنْ كُلِّ أحَدٍ .

٣ـ مَصلَحَةُ الإسلامِ والمُسلِمينَ مُقَدَّمَةٌ عَلى سائرِ العَلائِقِ والمُعاهداتِ .

٤ـ الوَفاءُ بِالعَهدِ مَعَ مَنْ لَم يَنقُضْ عَهدَهُ واجِبٌ شَرْعِيٌّ .

٥ـ منَحَ الإسلامُ الفُرْصَةَ الكامِلَةَ لأعدائِهِ كَي يُفَكِّروا ، فَهُو لا يأخُذُهُم عَلى غِرَّةٍ .



تقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

بَراءَةٌ ، فَسيحوا في الأرضِ ، أَذانٌ مِنَ اللهِ ، لَم يُظاهِروا عَلَيْكُم أحَداً ، انسَلَخَ الأشهُرُ .

٢ـ بيِّنِ المُرادَ بالأشهُرِ الحُرُمِ في هذِهِ الآياتِ .

٣ـ بيِّنْ سَبَبَ إعلانِ القَطيعَةِ بَيْنَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ وبَيْنَ المُشْرِكينَ .

٤ـ ما المُرادُ بِيَومِ الحَجِّ الأكبَرِ ؟

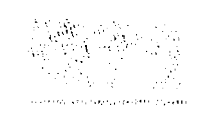
٥ـ ماذا عَلى المُسلِمينَ أنْ يَفعَلوا مَعَ مَنْ نَقَضَ عَهدَهُ مَعَهُم ؟

٦ـ ما السَّبَبُ في تَركِ البَسمَلَةِ أوَّلَ سورَةِ التَوْبَةِ ؟

٧ـ بيِّن ثَلاثَةً مِنَ المَوضوعاتِ الّتي اشتَمَلَتْ عَلَيْها السّورَةُ .

٨ـ هاتِ اسْمَيْنِ لِهذِه السّورَةِ مُبَيِّناً المَعانِيَ الّتي تَدُلُّ عَلَيْها هذِهِ الأسماءُ .

٩ـ ماذا تَفهَمُ مِن قَولِ اللهِ تَعالى : ﴿فإنْ تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ فخلّوا سَبيلَهُم﴾ ؟



١ـ كَيفَ تُوَفِّقُ بَينَ كَوْنِ البِشارَةِ لِما فيهِ خَيرٌ ، وَمَجيئِها في الآياتِ لِما فيهِ شَرٌّ ؟ اكتبْ ذلِكَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارجِعْ إلى كُتُبِ السِّيرَةِ أو التَّفسيرِ وَبَيِّنْ ما يَلي واكْتُبهُ في دَفْتَرِكَ :

أ ـ مَن كانَ أميرَ الحَجِّ عِندَ نُزولَ هذِهِ السُّورَةِ ؟

ب ـ مَن الّذي مَثَّلَ رَسولَ اللهِ في تَبليغِ النّاسِ ما جاءَ في السُّورَةِ ؟

ج ـ ما الأمورُ الّتي بُلِّغَتْ لِلنّاسِ يَومَ الحَجِّ الأكبَرِ في ذلِكَ العامِ ؟

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّاني

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

اسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ حَتّى يَبْلُغَ مأمَنَهُ : حِمايَةُ المُستَجيرِ حَتّى يَجِدَ الأمانَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى حُكْمَ المُصِرِّينَ عَلى الشِّرْكِ ، وَهُوَ قِتالُهُم وأخْذُهُم ، وَحُكْمَ الرّاجعينَ عَنهُ وَهُوَ إخلاءُ سَبيلِهِم ، بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى حُكْمَ المُشْرِكينَ الّذينَ يَطلُبونَ الأمانَ لِمَعرِفَةِ شَرائِعِ الإسلامِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ ﴾ .

وإنِ استأمَنَكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ أحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ وَطَلَبَ جِوارَكَ وَحِمايَتَكَ بَعْدَ انقِضاءِ مُدّةِ الأمانِ المُحَدَّدَةِ لَهُ فأمِّنْهُ وأجِبْهُ إلى طَلَبِهِ ، لِكَي يَسمَعَ كَلامَ اللهِ تَعالى وَيَتَدبَّرَهُ ويَطَّلِعَ عَلى حَقيقَةِ ما تَدعو إليهِ مِن تَعاليمَ مُقنِعَةٍ لِلعُقولِ السَّليمَةِ ، فإنْ آمَنَ بَعْدَ سَماعِهِ ما تُسمِعُهُ إيّاهُ مِنَ القُرآنِ صارَ مِن أتباعِكَ ، وَإنْ بَقِيَ عَلى شِرْكِهِ وأرادَ الرُّجوعَ إلى جَماعتِهِ ، فَعَلَيْكَ أنْ تُحافِظَ عَلَيْهِ حَتّى يَصِلَ إلى مَكانِ أمْنِهِ واسْتِقْرارِهِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ يُصبِحُ حُكْمُهُ حُكْمَ المُصِرِّ عَلى الشِّرْكِ وَيُعامَلُ بِما يُعامَلونَ بِهِ .

وكذلكَ إجارَةُ المُستَجيرِ مِنَ المُشْرِكينَ وإبلاغُهُ مأمَنَهُ إذا لَمْ يُسلِمْ ، ذلِكَ أنَّ هؤُلاءِ قَومٌ

لا يَعلَمونَ الإسلامَ ولا حَقيقةَ ما تَدعوهُم إليهِ .

إنَّ هؤُلاءِ قَومٌ يَحتاجونَ إلى فَترَةٍ مِنَ الوَقتِ يَسْمَعونَ فيها كَلامَ اللهِ تَعالى وَهُم آمِنونَ ، وَبِهذا السَّماعِ مِنكَ وَمِنْ أصحابِكَ لا يَبقى لَهُم عُذرٌ في استِمرارِهِم عَلى الباطِلِ .

وَقَدِ اشتَمَلَتْ هذِهِ الآيَةُ عَلى مَجموعةٍ مِنَ الأحكامِ والآدابِ مِنها :

أوّلاً : إنَّ المُستأمِنَ لا يُؤذى ، بَلْ يَجبُ عَلى المُسلِمينَ حِمايَتُهُ في نَفْسِهِ ومالِهِ وعِرْضِهِ ما دامَ في دارِ الإسلامِ ، وَقَدْ حَذَّرَ الإسلامُ مِنَ الغَدْرِ أشَدَّ تَحذيرٍ ، قالَ عَليْهِ الصّلاة والسلامُ : « مَنْ أمَّنَ رَجُلاً عَلى دَمِهِ فَقَتَلَهُ فأنا بَريءٌ مِنَ القاتِلِ وَإنْ كانَ المَقتولُ كافِراً » .

ثانياً : يَلحَقُ بِالمُستَجيرِ الطّالِبِ لِسماعِ كَلامِ اللهِ تَعالى ، مَنْ كانَ طالباً لِلجَوابِ عَنِ الشُّبُهاتِ الّتي أثارَها أعداءُ الإسلامِ ، لأنَّ هؤُلاءِ وأمثالَهُمْ يَطرُقونَ بابَ الفَهْمِ والمَعرِفَةِ وَيَبحَثونَ عَنِ الحَقِّ ، فَعَلَيْنا أنْ نَحمِيَهُمْ ، وأَنْ نَبْذُلَ أقصى الجُهودِ في تَعليمِهِم وإرشادِهِم وإزالةِ الشُّبُهاتِ عَنهُم .

ثالِثاً : عَلى الإمامِ أو مَن يَقومُ مَقامَهُ أنْ يُعطِيَ المُستأمِنَ المُهلَةَ الّتي يَراها كافِيَةً لِفَهمِهِ حَقائِقَ الإسلامِ ، وأنْ يُبلِغَهُ مَأْمَنَهُ بَعْدَ انقضاءِ حاجَتِهِ .

رابِعاً : وُجوبُ التَّفقُّهِ في الدِّينِ وَعَدمُ الاكتِفاءِ بِالظُّنونِ والتَّقليدِ لِلغَيْرِ .

خامساً : إنَّ حَقَّ إعطاءِ الأمانِ إنَّما هُوَ لِلسُّلطانِ ، وَيلحَقُ بِهِ كُلُّ أمانٍ صَدَرَ مِن مُسلِمٍ حُرٍّ في بِلادِ الإسلامِ .

سادِساً : إنَّ هذِهِ الآيَةَ تَشهَدُ بِسُمُوِّ تَعاليمِ الإسلامِ وَسَماحَتِها وَحِرْصِها عَلى هِدايَةِ النّاسِ إلى الحَقّ ، وَعلى صِيانَةِ دِمائِهِم وأموالِهِم وأعراضِهِم مِنَ العُدوانِ عَليْها ، حَتّى وَلَو كانَ هؤُلاءِ النّاسُ مِن أعداءِ الإسلامِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ سَماحَةُ الإسلامِ وَعَدالَتُهُ وَرأفَتُهُ بِالنّاسِ .

٢ـ بابُ الهِدايَةِ مَفتوحٌ لَم يُغلَقْ دونَ أحَدٍ .

٣ـ الإسلامُ مَنهَجُ هِدايَةٍ لا مَنهَجَ إبادَةٍ .

٤ـ إباحَةُ تأمينِ المُشرِكِ حَتّى يَسمَعَ كَلامَ اللهِ ، وَوَجوبُ حِمايَتِهِ لَعَلَّ في ذلِكَ تَرقيقاً لِقلبِ الإنسانِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

استَجارَكَ ، مَأْمَنَهُ .

٢ـ ما سِرُّ قَبولِ استِجارَةِ المُشْرِكينَ ؟

٣ـ ماذا أوجَبَ اللهُ تَعالى عَلى المُؤْمِنينَ بِقَولِهِ لِنَبيِّهم ﷺ (فَأَجِرْهُ) ؟

٤ـ هاتِ ثَلاثَةً مِنَ الأحكامِ المُستَنبَطَةِ مِن هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ .

* * *

الدرس العشرون

سورةُ التَّوْبةِ ـ القِسْمُ الثّالثُ

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

معاني المفردات

يَظْهَروا عَلَيْكُمْ : تَكونَ الغَلَبَةُ لَهُم عَلَيْكُم .

لا يَرْقُبوا فيكُم : لا يُراعوا في شَأْنِكُم .

إلاًّ : عَهْداً أو حِلْفاً أو قَرابَةً .

ذِمَّةً : كُلَّ أمرٍ تُلزِمُ بِهِ نَفْسَكَ بِحَيثُ إذا ضَيَّعْتَهُ لَزِمَكَ الوَفاءُ بِهِ .

نَكَثوا أَيْمانَهُم : نَقَضوا عُهودَهُم .

التفسير

بَعْدَ أنْ صَرَّحَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بِبَراءَةِ اللهِ تَعالى وَبَراءَةِ رَسولِهِ ﷺ مِن عُهودِ المُشْرِكينَ الخائِنينَ ، وَأمَرَتِ المُؤْمِنينَ بإعْطائِهِم مُهلَةً يَسيحونَ فيها في الأرضِ وَيَتَدبَّرونَ خِلالَها أمْرَهُم ،

وأباحَتْ بَعْدَ ذلِكَ لِلمُؤْمنينَ أنْ يَقتُلوهُم حَيْثُ وَجَدوهُم ، وأنْ يَستَعمِلوا مَعَهُم كُلَّ الوَسائلِ المَشروعةِ لإذلالِهِم ، وَأنْ يُؤَمِّنوا المُشرِكَ الّذي يُريدُ أنْ يَسمَعَ كَلامَ اللهِ تَعالى ، وأنْ يُحافِظَ عَلَيْهِ حتّى يَصِلَ إلى مَكانِ استِقرارِهِ ، بَعْدَ ذلِكَ أخذَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ في بَيانِ الأسبابِ الّتي أوجَبَتِ البَراءَةَ مِن عُهودِ المُشْرِكينَ ، والحِكَمِ الّتي مِن أجْلِها أمَرَ اللهُ تَعالى بِقِتالِهِم والتَّضييقِ عَلَيْهِم ، فقالَ تَعالى :

﴿ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ ﴾

يَنبَغي أنْ لا يَكونَ لِلمُشرِكينَ عَهْدٌ عندَ اللهِ تَعالى وَعِندَ رَسولِهِ ﷺ ، لأنَّ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ لا يَدينونَ للهِ تَعالى بالعُبوديَّةِ وَلا لِرَسولِهِ ﷺ بالطّاعَةِ ؛ قَومٌ دأبُهُم الخِيانَةُ ، وَعادتُهُم الغدرُ ، نَقَضَةُ عُهودٍ ، كَيفَ يَكونُ لِهؤُلاءِ عَهدٌ مُحتَرَمٌ ؟ لا تأخُذوا أيُّها المُؤْمِنونَ بِعُهودِهِم ، لكِنَّ الّذينَ عاهَدتُموهُم مِنْ قَبائِلِ العَرَبِ عِندَ المَسجِدِ الحَرامِ واستَقاموا عَلى عُهودِهِم مَعَكُمْ وَلَم يَنقُضوها ، فاستَقيموا أنتُم عَلى عُهودِكُم مَعَهُم ما داموا كذلِكَ ، إنَّ اللهَ تَعالى يُحِبُّ الطّائِعينَ لَهُ ، المُؤْمِنينَ بِعُهودِهِم .

﴿ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾

بأيَّةِ صِفَةٍ يَكونُ لِهؤُلاءِ المُشْرِكينَ عَهْدٌ عِندَ اللهِ تَعالى وَعِندَ رَسولِهِ ﷺ ، والحالُ أنَّهُم إنْ غَلَبوكُم - أيُّها المُؤْمِنونَ - فَعلوا بِكُمُ الأفاعيلَ وَتفَنَّنوا في إيذائِكُم مِنْ غَيرِ أنْ يُقيموا وَزناً لِما بَيْنَكُم وَبيْنَهُم مِنْ عُهودٍ وَمَواثيقَ وَقَراباتٍ وَصِلاتٍ ، أمّا إذا كانَتِ الغَلَبَةُ لَكُم فإنَّهُم في هذِهِ الحالَةِ يُعطونَكُم مِنَ ألسِنَتِهِم ، فهُم كَما وَصَفَهُم اللهُ تَعالى في مَوضِعٍ آخَرَ : ﴿ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

وَهؤلاءِ أكثَرُهُم خارِجونَ عَن حُدودِ الحَقِّ ، مُنْفَصِلونَ عَن كُلِّ فَضيلَةٍ وَمَكْرُمَةٍ .

﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ ﴾

هذا بَيانُ سَبَبِ كَوْنِ الغدرِ دَيدَنَهُم ، والحِقدِ عَلى المُؤْمِنينَ دأبُهُم ، والمَعنى : إنّ السّبَبَ الّذي حَمَلَ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ عَلى الغَدْرِ وَعلى الطُّغيانِ والفُجورِ عِندَ القُوَّةِ ، والمُداهَنَةِ والمُخادَعَةِ عِندَ الضَّعْفِ ، هُوَ أنَّهُمُ استَبدَلوا بآياتِ اللهِ تَعالى المُتَضَمِّنَةِ لِلسَّعادَةِ في الدُّنيا والآخرَةِ ثَمناً قَليلاً ، وَعَرَضاً باهِتاً حَقيراً مِنْ أعراضِ الدُّنيا وَزَخارِفِها ، وَمَنَعوا النّاسَ عَنِ الدُّخولِ في دينِ اللهِ تَعالى ، إنَّ هؤُلاءِ قَبُحَ ما كانوا يَعمَلونَ ، فَلَيْسَ لَهُم عاقِبَةٌ إلاّ الخُسرانُ .

﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴾ .

هذا بَيانٌ أنَّ هذا العِداءَ بِما يَحمِلُ مِنَ الغَدرِ والخِيانَةِ مِن هؤُلاءِ لَيْسَ مُقتَصِراً على المُؤْمِنينَ الّذينَ يَعيشونَ مَعَهُم ، وَإنَّما هُوَ عِداءٌ وَخِيانَةٌ لِكُلِّ مُؤمِنٍ مَهْما تَباعَدَ عَنهُم ، فهؤُلاءِ المُشْرِكونَ لا يُراعونَ في أيِّ مُؤمِنٍ يَقدِرونَ عَلى الفَتْكِ بِهِ عَهْداً يُحَرِّمُ الغَدْرَ ، ولاَ قَرابَةً تَقْتَضي الوُدَّ وَلا ذِمَّةً توجِبُ الوَفاءَ ، خَشيَةَ الذمِّ ، وإنَّما يُبيِّتونَ الحِقدَ والغَدْرَ والأذى لِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِن غَيرِ أنْ يُقيموا لِلفَضائِلِ وَلِلعُقودِ وَزناً ، إنَّ هؤُلاءِ شأنُهُم الاعتِداءُ ، فَهُو مَرَضٌ مُلازِمٌ لِهُم .

﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ .

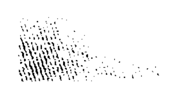
هذا بَيانُ ما يَجبُ أنْ يَفعَلَهُ المُؤْمِنونَ مَع أولئِكَ المُشْرِكينَ في حالتَي إيمانِهِم أو بَقائِهِم عَلى الكُفْرِ ، وَذلِكَ بَعْدَ أنْ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ السّابِقَةُ طَبيعَةَ هؤُلاءِ في تَعامُلِهِم مَعَ المُؤْمِنينَ ، وبَيَّنَتِ الأسَبابَ الّتي جَعَلَتهُم بِمَعزِلٍ عَنِ الحَقِّ والخَيرِ .

فإنْ رَجَعوا عَنِ الكُفْرِ تائِبينَ ، وَتَرَكوا الرَّذائِلَ ، والمُنكَراتِ الّتي كانوا عَليْها والتَزَموا أحكامَ الإسلامِ بإقامةِ الصَّلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ ، فَهُم إخوانُكُم في الدِّينِ ، لَهُم ما لَكُم وَعَلَيْهِمْ ما عَلَيكُم ، وَهذهِ الأُخُوَّةُ تَجُبُّ ما قَبلَها مِنَ عَداواتٍ . ثُمَّ بيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّهُ إنَّما يُبيِّنُ الآياتِ لِقَومٍ يَنتَفِعونَ بِالعِلْمِ .

وفي هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيانٌ لِما يَجبُ على المُؤْمِنينَ نَحوَ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ إنْ تابوا وأقاموا الصَّلاةَ وآتوا الزَّكاةَ ، أمّا إذا لَم يَتوبوا وأصَرُّوا عَلى عُدوانِهِم ، فالواجِبُ عَلى المُؤمِنينَ نَحوَهُم ما هُوَ مَذكورٌ تالِياً ، قالَ تَعالى :

﴿ وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ .

وإنْ نَقَضوا عُهودَهُم مِنْ بَعْدِ أنْ تعاقَدوا مَعَكُم عَلى الوَفاءِ بِها ، واستَمرُّوا عَلى الطَّعْنِ في دينِكُمْ بأنْ عابوهُ وانتَقَصوهُ ، فَقاتِلوا رُؤَساءَ الضَّلالِ وَمَنْ مَعَهُم مِنَ المُشْرِكينَ ، بِعَزيمَةٍ صادِقَةٍ وَقُلوبٍ ثابِتَةٍ ، لأنَّهُم قَومٌ لا عَهدَ لَهُم وَلا ذِمَّةَ ، وَلْيَكُنْ مَقصودُكُم مِنْ مُقاتَلَتِهِم ، بَعْدَ أنْ وُجِدَ مِنهُم ما وُجِدَ مِن إيذائِكُم ، الرَّجاءُ في هِدايَتِهِم ، والانتِهاءُ عَن كُفرِهِم وَخيانَتِهِم ، واحْذَروا أنْ يَكونَ مَقصِدُكُم مِن ذلِكَ العُدوانُ واتِّباعُ الهَوى .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عِداءُ المُشْرِكينَ لِدينِ اللهِ تَعالى وَلِلمُسلِمينَ حَقيقَةٌ واقِعَةٌ وَلَيس خَيالاً مَوهوماً .

٢ـ الأُخُوَّةُ الإسلامِيَّةُ بابٌ مَفتوحٌ لِكُلِّ مَن أقلَعَ عَنِ الشِّركِ وَتَرَكَ المُنكَراتِ وَدَخَلَ في دينِ اللهِ .

٣ـ العَهدُ المُعتَدُّ بِهِ في شَريعَةِ الإسلامِ هُوَ عَهدُ الأوفِياءِ غَيرِ النّاكِثينَ ، فَمَنِ استقامَ عَلى عَهدِهِ عومِلَ بِمُقتَضى استِقامَتِهِ .

٤ـ الغَدرُ مُلازِمٌ لِلكافِرينَ في حالِ ضَعفِهِم وَقُوَّتِهِم .

٥ـ يَجبُ عَلى المُسلِمينَ قِتالُ كُلِّ مَن نَقَضَ عَهدَهُ وَطَعَنَ في دينِ اللهِ تَعالى ، وَقِتالُهُم لا لِسَلبِ أموالِهِم بَل رَجاءَ هِدايَتِهِم .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

يَظهَروا عَلَيْكُم ، إلاًّ ، ذِمَّةً ، نَكَثوا أيْمانَهُم .

٢ـ اربط بَيْنَ آياتِ هذا الدَّرسِ والآياتِ الّتي وردتْ في الدّرسِ السّابقِ .

٣ـ بَيِّنْ بِالأدِلَّةِ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ كَيفَ لا يَنبغي لِلمُشرِكينَ عهدٌ عِندَ اللهِ تَعالى وَعِندَ رَسولِهِ ﷺ وَعِندَ المُؤْمِنينَ .

٤ـ أوضَحتِ الآياتُ الكَريمةُ كَيفَ يَجبُ أنْ يَتعامَلَ المُسلِمونَ مَع عُهودِ الكافِرينَ ، بَيِّنْ ذلكَ .

٥ـ هاتِ الدَّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ على ما يلي :

أ ـ وُجوبُ نَقضِ عُهودِ المُشْرِكينَ .

ب ـ الغَدرُ مُلازِمٌ لِلكافِرينَ .

ج ـ الأُخُوَّةُ الإسلامِيَّةُ بابٌ واسعٌ .

د ـ الالتزامُ بِالعَهدِ مِنَ التَّقوى .

١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ المُمْتَحَنةِ المشابِهَةَ للآيةِ (٩) .

٢ـ ما الفَرقُ بَينَ الآيةِ (١٠) والآيةِ (٩)؟ اكتبْ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .

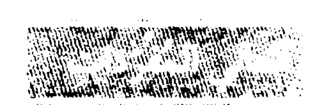
٣ـ ارجعْ إلى كتابِ البدايَةِ والنِّهايةِ لابنِ كَثيرٍ ، وانظُر في حَوادِثِ سنَةِ ٦٥٦هـ لِترى ما فَعَلَ الكُفّارُ بِالمُؤْمنينَ ، أو ارْجِعْ إلى تفسيرِ الظِّلالِ عِندَ تَفسيرِهِ لِهذِهِ الآياتِ لِتَرى ما فَعلَهُ الوَثَنِيّونَ الهُنودُ مَع مُسلمي باكِستانَ ، وَما فَعلهُ الشيُّوعِيّونَ في روسيا والصّينِ ، وغيرِها مَعَ المُسلِمينَ . واكتُب ذلِكَ وَعلِّقْهُ عَلى مَجَلَّةِ الحائِطِ في مَدرَسَتِكَ .

* * *

الدَّرْسُ الثاني والعشرونَ

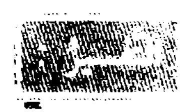
سورَةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الرّابِعُ

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾



غَيْظَ قُلوبِهِم : ما في قُلوبِهِمْ مِنْ هَمٍّ وَغَمٍّ وَكَرْبٍ .

وَليجَةً : بِطانَةً وَصاحِبَ سِرٍّ .



بَعْدَ أنْ بَيَّنَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ الأسْبابَ المُوجِبَةَ لِقِتالِ المُشْرِكينَ ، شَرَعَتْ في تَحريضِ المُؤْمِنينَ عَلى مُهاجَمَتِهِم وَمُقاتَلَتِهِم بِأُسلوبٍ يُثيرُ الحَمِيَّةَ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ ، وَيَحمِلُ عَلى الإقدامِ وَعَدَمِ المُبالاةِ بالمُشْرِكينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

ذَكَرتِ الآيَةُ الكَريمَةُ ثَلاثَةَ أسبابٍ لِحَمْلِ المُؤْمِنينَ عَلى قِتالِ المُشْرِكينَ ، وَهِيَ :

أَوَّلاً : إنَّ المُشْرِكينَ نَقَضوا عُهودَهُم مِراراً .

ثانياً : إنَّ المُشْرِكينَ هَمُّوا بِإخراجِ الرَّسولِ ﷺ مِن مَكَّةَ .

ثالثاً : إنَّ المُشْرِكينَ كانوا البادِئينَ بِقِتالِ المُؤْمِنينَ .

وَالمَعنى : هلاَّ سارَعتُم أيُّها المُؤْمِنونَ إلى قِتالِ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ الّذينَ نَقَضوا عُهودَهُم مِراراً ، وَقدَ سَبَقَ أنْ هَمُّوا بِإخراجِ الرَّسولِ ﷺ مِن مَكَّةَ وَأرادوا قَتْلَهُ ، وَهُمُ الّذينَ بَدَأوكُم بالإيذاءِ وَالعُدوانِ مِن أوّلِ الأمرِ ، أتَخافونَهُم ؟ لا تَخافوهُم ، فاللهُ وَحْدَهُ أحَقُّ أنْ تَخافوهُ إنْ كُنتُم صادِقينَ في إيمانِكُم .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أمْراً صَريحاً قاطِعاً بِمُقاتَلَةِ المُشْرِكينَ ، وَبَيَّنَ أنَّ هذِهِ المُقاتَلَةَ يَتَرَتَّبُ عَلَيها خَمْسٌ مِنَ الفَوائِدِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ .

قاتِلوهُم أيُّها المُؤْمِنونَ ، يُذِقْهُمُ اللهُ العَذابَ عَلى أيْديكُمْ وَيُذِلَّهُمْ ، وَينصُرْكُم عَلَيْهِم ، وَيشْفِ بَهَزيمَتِهِم وَإعلاءِ عِزَّةِ الإسلامِ ما كانَ من ألَمٍ كامِنٍ وَظاهِرٍ في صُدورِ قَومٍ مؤمنين طالَما لَحِقَهُم أذى الكُفّارِ .

وَقَدِ اشتَمَلَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ عَلى أربعِ فَوائِدَ مِن قِتالِ المُشْرِكينَ نُجمِلُها فيما يَلي :

الأولى : إنَّ اللهَ تَعالى يُعذِّبُ المُشْرِكينَ بِقِتالِ المُؤْمِنينَ لَهُم .

الثّانِيَةُ : إنَّ اللهَ تَعالى يُخْزي المُشْرِكينَ بِقِتالِ المُؤْمِنينَ لَهُم .

الثّالِثَةُ : إنَّ اللهَ تَعالى يَنصُرُ المُؤْمِنينَ عَلى المُشْرِكينَ .

الرّابِعَةُ : إنَّ اللهَ تَعالى يَشفي صُدورَ القَومِ المُؤْمِنينَ مِمّا لَحِقَهُم مِنْ أذى المُشْرِكينَ .

وَأما الفائِدَةُ الخامِسَةُ مِن قِتالِ المُؤْمِنينَ لِلمُشرِكينَ فَهِيَ المُبَيَّنَةُ في الآيَةِ التّالِيَةِ :

﴿ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ .

وَيَملأُ اللهُ تَعالى قُلوبَ المُؤْمِنينَ فَرَحاً بِالنَّصرِ بَعدَ الهَمِّ وَالخَوفِ ، وَيُذهِبُ عَنهُمُ الغَيْظَ ، وَيَقْبَلُ اللهُ تَعالى تَوبَةَ مَن يَشاءُ مِنهمُ ، وَاللهُ واسِعُ العِلْمِ بِشُؤونِ عِبادِهِ ، عَظيمُ الحِكمَةِ فيما يُشَرِّعُ لَهُمْ .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ ﴾ كَلامٌ مُستَأنَفٌ لِبيانِ شُمولِ قُدرَتِهِ وواسِعِ رَحمَتِهِ .

وَبَعدَ ذلِكَ خَتَم اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ الّتي حَرَّضَتَ المُؤْمِنينَ عَلى القِتالِ أعظَمَ

تَحريضٍ ، بِبَيانِ ما يُمتَحَنُ بِهِ المُؤْمِنونَ لِيظهَرَ صِدْقُ إيمانِهِم ، وَإخلاصِهِم لِلّهِ رَبِّ العالَمينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

أمْ هُنا لِلاستِفهام الإنكاريِّ ، وَالمَعنى : أَحَسِبتُم أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ تُترَكوا دونَ أنْ تُؤمَروا بِقِتالِ المُشْرِكينَ ، وَالحالُ أنَّ اللهَ تَعالى لَم يُظهِرِ الّذينَ جاهَدوا مِنكُم بإخلاصٍ ، وَلَم يَتَّخِذوا بِطانَةً مِنْ أعدائِكُمْ ، مِمَّنْ جاهَدوا مِنكُم مِنْ دونِ إخلاصٍ ؟ لا أيُّها المُؤْمِنونَ ، إنْ كُنتُم حَسِبتُم ذلِكَ فَهوُ حُسبانٌ باطِلٌ ، لأنَّ سُنَّةَ اللهِ تَعالى قَدِ اقتَضَتْ أنْ يُمَيِّزَ المُخلِصُ في جِهادِهِ مِن غَيرِهِ ، وَأنْ يَجعَلَ مِنْ حِكَمِ مَشروعِيَّةِ الجِهادِ الامتِحانَ والتَّمحيصَ . قالَ بَعضُ العُلماءِ : إنَّ اللهَ تَعالى لَمّا شَرَعَ الجِهادَ لِعبادِهِ ، بَيَّنَ أنَّ لَهُ حِكْمَةً وَهِيَ اختِبارُ عَبيدِهِ ؛ مَنْ يُطيعُهُ مِمَّنْ يَعصيهِ ، وَهُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى العالِمُ بِما كانَ وَما يَكونُ .

وأمّا قَولُهُ تَعالى : ﴿وَاللهُ خَبيرٌ بِمَا تَعمَلُونَ﴾ فَهُوَ بَيانٌ لِشُمولِ عِلْمِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى لِجَميعِ خَلْقِهِ وَشُؤونِهِم ، واللهُ تَعالى خَبيرٌ بِجَميعِ أعمالِكُم ، مُطَّلِعٌ عَلى نِيَّتِكُم ، فَأخْلِصوا لَهُ العَمَلَ وَالطّاعَةَ ، لِتَنالوا ثَوابَهُ وَرِضاهُ وَعَوْنَهُ .

دروس وعبر :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لابُدَّ أنْ يَنتَصِرَ المُسلِمُ لِدينِهِ ، وَيجِبُ ألاّ يُباليَ بِالكُفّارِ ، وَأنْ يَكونَ خَوفُهُ مِنَ اللهِ وَحدَهُ .

٢ـ في الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى تَمييزٌ لِلمُخلِصينَ مِن غَيرِهِم .

٣ـ اتِّخاذُ البِطانَةِ مِن غَيرِ المُؤْمِنينَ دَليلٌ عَلى ضَعفِ الإيمانِ وَرُبَّما فُقدانِهِ .

٤ـ شُمولُ عِلْمِ اللهِ تَعالى لِكُلِّ شُؤونِ خَلْقِهِ ، فَهُوَ سُبْحانَهُ لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ اربط بَينَ آياتِ هذا الدَّرسِ وَآياتِ الدَّرْسِ السَّابِقِ .

٢ـ بيِّنِ الأسبابَ الّتي ذَكَرَتْها الآياتُ الكَريمَةُ لِحَمْلِ المُؤْمِنينَ عَلى قِتالِ المُشْرِكينَ .

٣ـ هاتِ الآياتِ الدَّالّةَ عَلى كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ تَعذيبُ المُشْرِكينَ بِقِتالِ المُؤْمِنينَ .

ب ـ في قِتالِ المُشْرِكينَ شِفاءٌ لِما في صُدورِ المُؤْمِنينَ .

٤ـ بيِّنِ الحِكَمَ الّتي ذَكَرَتْها الآياتُ الكَريمَةُ والّتي مِن أجلِها شُرِعَ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٥ـ ما سِرُّ التَّعبيرِ بقَولِهِ تَعالى : ﴿وَاللهُ خَبيرٌ بِمَا تَعمَلونَ﴾ في خِتامِ هذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ ؟

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والعِشْرونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

مَعاني المُفرداتِ :

يَعمُروا مَساجِدَ اللهِ : عِمارَةُ المَسْجِدِ تَشمَلُ لُزومَهُ وَالإقامَةَ فيهِ ، وَبُنيانَهُ وَترميمَهُ وَخِدْمَتَهُ وَالعِنايَةَ بِهِ .

حَبِطَتْ أعمالُهُمْ : فَسَدَتْ .

سِقايَةَ الحاجِّ : تَقديمَ الماءِ لِلحُجّاجِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بَعضاً مِن أوْجُهِ العَلاقَةِ بَينَ المُؤْمِنينَ وَالكافِرينَ ، تَوَجَّهَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ بِالإعلانِ بِتَبرئَةِ بُيوتِ اللهِ تَعالى مِنْ أنْ يَكونَ لِلمُشرِكينَ بِها عَلاقَةُ بُنيانٍ وَعِمرانٍ ، لأنَّ شَأنَ ذلِكَ إنَّما هُوَ لِلمُؤْمِنينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

لا يَنبَغي وَلا يَصِحُّ لِلمُشركينَ أنْ يَعمُروا مَساجدَ اللهِ تَعالى الّتي بُنِيَتْ لِعبادَتِهِ وَحدَهُ سُبْحانَهُ ، لأنَّ المُشْركينَ قَد شَهِدوا عَلى أنفُسِهِم بالكُفرِ شَهادَةً نَطَقَتْ بِها ألسِنَتُهُمُ ، وَأيّدَتْها جَوارِحُهُم وَأعمالُهُم . هؤُلاءِ المُشْرِكونَ لا يَنطِقونَ بِكَلِمةِ التَّوحيدِ ، وَإنَّما بِالكُفرِ وَالإشراكِ ، وَهُمْ لا يَعمَلونَ أعمالَ المُؤْمنينَ ، وإنَّما الأعمالَ القَبيحَةَ الّتي تَدُلُّ عَلى إصْرارِهِم عَلى باطِلِهِمْ ، كَسُجُودِهِم لِلأصْنامِ عَقِبَ الطَّوافِ بِالكَعبَةِ .

أولئكَ المُشْرِكونَ الشّاهِدونَ عَلى أنفُسِهِم بِالكُفرِ قد فَسَدَتْ أعمالُهُم ، لأنّها مَعَ الكُفْرِ لا قيمَةَ لَها . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ مَصيرَ هؤُلاءِ الخُلودُ في جَهَنَّمَ وَالعِياذُ بِاللهِ بِسَبَبِ إصْرارِهِم عَلى الكُفْرِ وباطِلِ أعمالِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ عِمارَةَ المَساجِدِ إنّما هِيَ لِلمُؤْمنينَ الصّادِقينَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾

وَفي هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيانٌ لِمَن هُم أوْلى النَّاسِ بِعمارَةِ بُيوتِ اللهِ تَعالى حَتَّى يَشِعَّ الإيمانُ مِنها إلى النَّاسِ ، وَهؤُلاءِ المُتَحَدَّثُ عَنهُم بِخُصوصِ هذِهِ العِمارَةِ هُمْ مَنْ يَتَّصِفونَ بِعِدّةِ أوصافٍ ، أجمَلَتها الآيَةُ الكَريمَةُ فيما يَلي :

أوّلاً : هُمُ الّذينَ آمَنوا بِاللهِ تَبارَكَ وتَعالى إيماناً صادِقاً أبعَدَهُم عَنِ الكُفرِ وَالشِّرْكِ وَصاروا مُوَحِّدينَ .

ثانياً : هُمُ الّذينَ أيْقَنوا بِالبَعثِ وَالجَزاءِ ، لأنَّ هذِهِ مِنَ الفَوارِقِ الرَّئيسَةِ بَينَ المُؤْمِنينَ وَالكافِرينَ ، لأنَّ الكافِرَ لَمّا لَمْ يُؤمِنْ بِالبَعثِ وَالجَزاءِ فَسَدَ عَمَلُهُ ، وَلَمّا كانَ المُؤمِنُ يُؤمِنُ بِالبَعثِ وَالجَزاءِ حَرِصَ عَلى صَلاحِ عَمَلِهِ .

ثالثاً : هُمُ الّذينَ أقاموا الصَّلاةَ ، لأنَّ في إقامَةِ الصَّلاةِ مَظهَراً واضِحاً عَلى تَجَنُّبِ السُّلوكِ مَعَ الكُفْرِ ، وَهذا مِن أهَمِّ ما يَتَمَيَّزُ بِهِ المُؤْمِنونَ ، فَصَلاتُهُم هِيَ صِلَتُهُم بِرَبِّهِم ، وَلِذلِكَ يَحرِصونَ عَلى إقامَتِها وَيَتَمَيَّزونَ بِها .

رابِعاً : هُمُ الّذينَ يُؤَدّونَ زَكاةَ أموالِهِم ، وَفي هذا أيضاً مَظْهَرٌ واضِحٌ مِن مَظاهِرِ التّآلُفِ الاجتِماعيِّ بَينَ أفرادِ المَجتَمَعِ المُؤْمِنِ .

خامِساً : هُمُ الّذينَ لا يَخشَوْنَ إلاّ اللهَ تَعالى ، وَهذا عُنوانُ قُوَّتِهم وَسِرُّ وَحدَتِهم ، فَالدَّينونَةُ للهِ تَعالى تَقتَضي أنْ تكونَ الخَشيَةُ للهِ تَعالى ، لأنَّ المُؤمِنَ لا يَنبَغي لَهُ أنْ يَجمَعَ في إيمانِهِ بَيْنَ خَشيَتِهِ للهِ تَعالى وَخَوفِهِ مِمَّن سِواهُ .

وَهذِهِ الصِّفاتُ مُجتَمِعَةً هِيَ صِفاتُ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ الّذينَ حازوا شَرَفَ رضى اللهِ تَعالى عَنهُم ، وَامتِداحِهِم بِإعمارِ بُيوتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَخَتَمتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بِبَيانِ أنَّ أصحابَ هذِهِ الصِّفاتِ الجَليلَةِ هُمُ المُهتَدونَ إلى الخَيرِ دائِماً ، المُستَحِقّونَ عَلى أعمالِهِم عَظيمَ الأَجْرِ ، وَهَل جَزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ ؟ وَفي تَصديرِ جَزائِهِم بِكَلِمَةِ (عَسى) إشارَةٌ إلى قَطْعِ أطماعِ الكُفّارِ ، والمَعنَى : إذا كانَ هؤُلاءِ العامِلونَ المُقَرَّبونَ جَزاؤُهُم بَينَ (لَعَلَّ وَعَسى) فَما بالُ الكُفّارِ ! !

كَما أنَّ في (عَسى) هذِهِ حَثّاً لِلمُؤْمِنينَ عَلى الاستِزادَةِ مِن هذا الاهتِداءِ ، وَتَحذيرٌ مِنَ الغُرورِ وَالاعتِمادِ عَلى بَعضِ العَمَلِ الصّالِحِ باعتِقادِ أنَّ بَعضَ الأَعمالِ يُغني عَن بَقيَّتِها .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّهُ لا يَصْلُحُ أنْ يُسَوَّى بَيْنَ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ لِمُجَرَّدِ سِقايَتِهِم الحُجّاجَ وَعِمارَتِهِمُ المَسجِدَ الحَرامَ ، وَبَيْنَ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ المُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَتِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

الخِطابُ في هذِهِ الآيَةِ لِكُلِّ مَنْ جَعَلَ مُساواةً بَيْنَ ما كانَ المُشْرِكونَ يَفْعَلونَهُ خِدمَةً لِبَيتِ اللهِ الحَرامِ وَأهلِهِ وَضُيوفِهِ ، وجِهادِ المُسلِمينَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَتِهِ .

لا يَنبَغي أنْ تَجعَلوا القائِمينَ بِسقايَةِ الحَجيجِ وَعِمارَةِ المَسجِدِ الحَرامِ مِنَ المُشْرِكينَ في مَنزِلَةِ الّذينَ آمنوا بِاللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وصَدَّقوا بِالبَعثِ وَالجَزاءِ ، وَجاهَدوا في سَبيلِ اللهِ تَعالى . ذلِكَ أنَّهُم لَيسوا بِمَنزِلَةٍ واحِدَةٍ عِندَ اللهِ تَعالى ، وَاللهُ تَعالى لا يَهدي إلى طَريقِ الخَيرِ القَومَ المُستَمِرِّينَ عَلى ظُلمِ أنفُسِهِم بِالكُفْرِ وَظُلمِ غَيرِهِم بِالأذى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ مَراتِبِ فَضْلِ المُؤْمِنينَ ، تأكيداً عَلى عَدَمِ جَوازِ المُساواةِ بَيْنَ أفْعالِ المُؤْمِنينَ وَأفعالِ الكافِرينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴾ .

هؤُلاءِ هُمُ الّذينَ صَدَّقوا بِوحدانِيَّةِ اللهِ تَعالى وَهاجَروا مِن دارِ الكُفْرِ إلى دارِ الإسلامِ ، وَتَحَمّلوا مَشاقَّ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بِأموالِهِم وَأنفُسِهِم ، هؤُلاءِ هُم أصحابُ المَنزِلَةِ العَظيمَةِ عِندَ اللهِ

تَعالى ، وَمَنزِلَتُهُم أعظَمُ مِنْ مَنزلَةِ مَنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِمِثلِ هذِهِ الأوصافِ ، وَهؤُلاءِ هُمُ الظّافِرونَ بِمَثوبَةِ اللهِ تَعالى وَكَرَمِهِ .

ثُمَّ فَصَّلَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذِهِ التَّوبَةَ وَهذا الفوزَ بما يَحفِزُهُم إلى مَزيدٍ مِنَ العَمَلِ وَالإخلاصِ ، وَبِما يَقطَعُ أمَلَ الكافِرينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾

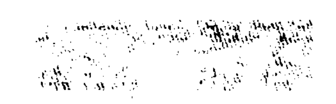
يُبَشِّرُهُم رَبُّهُم تَبارَكَ وتَعالى عَن طَريقِ نَبيِّهِ ﷺ في الدُّنيا ، وَعَلى لِسانِ المَلائِكَةِ عِندَ المَوتِ برحمتِهِ تَعالى الواسعةِ الّتي تشمَلُهُمْ ، وأنّهُ سُبْحانَهُ يخصُّهُمْ بِرضاهُ ، وهو أكبرُ جزاءٍ ، وأنّهُ سُبْحانَهُ سيُدْخِلُهُمْ يومَ القِيامَةِ جَنّاتٍ لَهُم فيها نَعيمٌ قائِمٌ ثابتٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ نَعيمَهُم في الجَنَّةِ دائِمٌ لا يَزولُ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾

إنَّ هؤُلاءِ المَوْصوفينَ بِتِلْكَ الصِّفاتِ ، الّذينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُم ، ماكِثونَ في تِلكَ الجَنّاتِ مُكْثاً أبَدِيّاً . ثُمَّ أخبَرَهُم سُبْحانَهُ أنّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظيمٌ لا يُقَدَّرُ قَدرُهُ ، حَتّى يَطمَعَ العِبادُ في رَحمَتِهِ فَيَزدادوا لَهُ تَعَبُّداً وَتَذَلُّلاً .

وَفي هذِهِ الآياتِ الأخيرَةِ ، كَما هُوَ الظّاهِرُ وَصَفَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِثلاثِ صِفات ، هِيَ : الإيمانُ ، وَالهِجْرَةُ وَالجِهادُ بِالنَّفسِ وَالمالِ ، ثُمَّ قابَلَهُم عَلى ذلِكَ بِالتَّبَشيرِ بِثَلاثِ مُبَشِّراتٍ ، هِيَ : الرَّحمَةُ وَالرِّضوانُ وَالجَنَّةُ ، وَهذا كُلُّهُ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالى وَمِنَّةٌ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

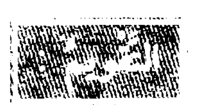
١ـ إنّ أعمالَ البِرِّ الّتي يَقومُ بِها المُشْرِكونَ لا وَزنَ لَها عِندَ اللهِ تَعالى ، لاقتِرانِها بِالكُفْرِ ، تَصديقاً لِقولِهِ تَعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] .

٢ـ إنَّ عِمارَةَ مَساجِدِ اللهِ تَعالى إنَّما هِيَ شَأنٌ لِلمُؤْمِنينَ وَحدَهُم ، وَلا يَصِحُّ ذلِكَ مِنَ الكافِرينَ بِسَبَبِ كُفرِهِم وَنَجاسَتِهِم .

٣ـ التَّنويهُ بِشأنِ المَساجِدِ وَبِنائِها وَالتَّعَبُّدِ فيها وَإصلاحِها وَخِدمَتِها .

٤ـ شُرِعَ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإِعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وهو مِنْ أعظمِ القُرُباتِ عِندَ اللهِ سُبْحانَهُ .

٥ـ لا يَستَوي المُؤْمِنونَ مَعَ الكافِرينَ ، لا في عَقيدَتِهِم وَلا في أفعالِهِم .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

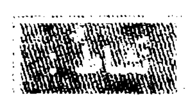
١ـ ذَكَرَ اللهُ تَعالى أوصافَ المُؤْمِنينَ الّذينَ هُم أوْلى النّاسِ بِرِعايَةِ المَساجِدِ ، بَيِّنْ هذِهِ الأوصافَ ذاكِراً الآيَةَ الّتي تَدُلُّ عَلى ذلِكَ .

٢ـ بَيِّن مَعنى (عَسى) في قَولِهِ تَعالى : ﴿فعسى أُولئكَ أنْ يَكونوا مِنَ المُهْتَدينَ﴾ .

٣ـ بَيِّن كَيفَ تَستَدِلُّ عَلى إحْكامِ الرَّوابِطِ الاجتماعِيَّةِ بَيْنَ المُسلِمينَ مِن خِلالِ هذِهِ الآياتِ .

٤ـ ذُكِرَ في الآياتِ الكَريمَةِ ثَلاثُ مُبَشِّراتٍ لِلمُؤْمِنينَ عَقِبَ ذِكرِهِم بِثلاثِ صِفاتٍ ، بَيِّنْ ذلِكَ .

٥ـ ما سَبَبُ عَدَمِ أهْلِيَّةِ الكافِرينَ لِعِمارَةِ المَساجِدِ ؟



١ـ اكتُبْ في دَفْتَرِكَ ما فَعَلَهُ المُشْرِكونَ بِبَيتِ اللهِ الحَرام .

٢ـ اكتُبِ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الكَريمَةَ مِن سُورَةِ الجِنِّ الّتي تُبَيِّنُ كَوْنَ المَساجِدِ للهِ وَحْدَهُ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثُ والعِشرونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ السَّادِسُ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾

معاني المُفرَداتِ :

استَحَبّوا الكُفْرَ : أحَبّوهُ حُبّاً مُتمَكِّناً .

وَعَشيرَتُكُم : أقارِبُكُمْ الأَدْنَوْنَ .

اقتَرَفْتُموها : اكْتَسَبْتُموها .

كَسادَها : بَوارَها وَعَدَم رَواجِها .

فَتَرَبَّصوا : انتَظِروا .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما أعَدَّهُ مِن عَطاءٍ عَظيمٍ لِلمُؤْمِنينَ الصّادِقينَ الّذينَ هاجَروا وَجاهَدوا في سَبيلِهِ بِأموالِهِم وَأنفُسِهِم ، أتبَعَ ذلِكَ بِتَوجيهِ نِداءٍ إلَيْهِمْ ، حَضَّهُمْ فيهِ على أنْ يُجَرِّدوا أنفُسَهُم لِعَقيدَتِهِم ، وَأنْ يُقاطِعوا أعداءَهُم في الدِّينِ ، مَهْما بَلَغَتْ دَرَجةُ قَرابَتِهِم مِنهُم ، وأن يُؤْثِروا حُبَّ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ على كُلِّ شَيءٍ مِن زينَةِ الحَياةِ الدُّنيا ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ .

يا أيُّها الّذين آمنوا إيماناً حقّاً : لا تَتَّخِذوا آباءَكُم وَإخوانَكُمُ المُشْرِكينَ أولِياءَ وأصدِقاءَ تُفشونَ إليهِمْ أسرارَكُمْ ، وَتُطلِعونَهُم عَلى ما لا يَجوزُ إطلاعُهُم عَلَيْهِ مِن شُؤونِكُم ، وَتُلقونَ إليهِم مَوَدَّتَكُم ، فإنَّ ذلِكَ يَتَنافى مَعَ الإيمانِ الحَقِّ ، وَمَعَ الإخلاصِ للعَقيدَةِ ، وَإيثارِها عَلى كُلِّ ما سِواها مِن زينَةِ الحَياةِ .

وَخَصَّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الآباءَ والإخْوَةَ ، إذْ لا قَرابَةَ أقرَبَ مِنهُم فَنَفى المُوالاةَ بينَهُم ، لِيُبَيِّنَ أنَّ القُرْبَ قربُ الأديانِ لا قُربَ الأبدانِ .

وَهذا النَّهيُ مَخصوصٌ في حالَةِ كَونِ هؤُلاءِ الأقرَبينَ عَلى الكُفرِ والشِّركِ ؛ أي لا تَتَّخِذوهُم أولِياءَ إنِ اختاروا الشِّرْكَ وَالكُفْرَ عَلى الإيمان ، وَأصَرّوا عَلى شِرْكِهِم وَباطِلِهِم ، أمّا إذا أقْلَعوا عَنْ ذلِكَ وَدَخَلوا في دينِكُم ، فَلا حَرَجَ عَلَيْكُم مِنَ اتِّخاذِهِم أولياءَ وَأصفِياءَ .

وَفي الآيَةِ الكَريمَةِ تَهديدٌ وَوَعيدٌ لِمَن يَفعَلُ ذلِكَ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ .

أي : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنكُم في حالِ استِحبابِهِمُ الكُفْرَ عَلى الإيمانِ ، فَأولئِكَ المُوالونَ لَهُم هُم الظّالِمونَ لأنفُسِهِم ، لأنَّهُم وَضَعوا المُوالاةَ في غَيرِ مَوضِعِها وَتَجاوَزوا حُدودَ اللهِ الّتي نَهاهُم عَن تَجاوُزِها ، وَسَيُجازيهِم سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى ذلِكَ بِما يَستَحِقّونَ مِنَ العَذابِ .

وبَعدَ ذلِكَ أمَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يُعلِنَ لِلنّاسِ هذِهِ الحَقيقَةَ ، وَهِيَ أنَّ مَحَبَّةَ اللهِ وَرَسولِهِ ﷺ يَجبُ أنَ تَفوقَ كُلَّ مَحَبَّةٍ لِغَيرِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، فَقال تَعالى :

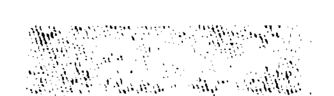
﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

قُلْ يا مُحَمَّدُ ﷺ لِمَنِ اتَّبَعَكَ : مِنَ المُؤْمنين إنْ كانَ آباؤُكُمُ الّذينَ أنتُم بِضعَةٌ منهُم ، وَأبناؤُكُم الّذينَ هُمْ قِطعَةٌ مِنكُم ، وَإخوانُكُمُ الّذينَ تَربِطُكُم بِهِم وَشيجَةُ الرَّحِمِ ، وَأزواجُكُم اللّائي جَعَلَ اللهُ تَعالى بَينَكُم وَبَينَهُنَّ مَوَدَّةً وَرَحمَةً ، وَعَشيرَتُكُم ؛ أي : أقارِبُكُم الأدنَوْنَ الّذينَ تَربِطُكُم بِهِم رابِطَةُ المُعاشَرَةِ وَالعُصبَةِ ، وَأموالٌ اقتَرفتُموها ؛ أي : اكتَسَبْتُموها ، فَهِيَ عَزيزَةٌ عَلَيْكُم ، وَتِجارةٌ تَخشَوْنَ كَسادَها ؛ أي : تَخافونَ بَوارَها وَعَدَم رَواجِها بِسَبَبِ اشتِغالِكُم بِغيرِها مِنْ مُتَطَلَّباتِ الإيمانِ ، وَمَساكِنُ تَرضَوْنَها وَتُعجِبُكُم الإقامةُ فيها ؛ قُل لَهُم يا مُحَمَّدُ ﷺ إنْ كانَ كُلُّ ذلِكَ أحَبَّ إلَيْكُم مِنَ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ وَجهادٍ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَتَربَّصوا حَتّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ ؛ أيْ : إذا كانَت هذِهِ

الأشياءُ أحسَنَ في نُفوسِكُم وَأقرَبَ إلى قُلوبِكُم مِنْ طاعَةِ اللهِ تَعالى وَطاعَةِ رَسولِهِ ﷺ وَمِنَ الجهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لإعلاءِ كَلِمَةِ الحَقِّ ، فانتَظِروا حَتّى يَحكُمَ اللهُ تَعالى بِحُكْمِهِ فيكُم ، وَهُوَ العَذابُ العاجِلُ أو العِقابُ الآجِلُ .

وَفي هذِهِ الجُملَةِ تَهديدٌ وَوَعيدٌ لِمَنْ آثَرَ حُبَّ هذِهِ الأشياءِ عَلى حُبِّ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ، وَالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مِن أجْلِ إعلاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ .

وَقولُهُ تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَـٰسِقِينَ﴾ فيهِ تَتميمٌ لِهذا التَّهديدِ وَهذا الوَعيدِ ، بأنَّ اللهَ تَعالى قَدِ اقتَضَتْ حِكمَتُهُ أنْ لا يُوَفِّقَ القَومَ الخارِجينَ عَن حُدودِ دينِهِ وَشَريعَتِهِ ، لا يُوَفِّقُهُم إلى ما فيه مَثوبَتُهُم وَرِضاهُ .



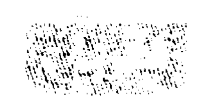
تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَحريمُ مُوالاةِ الكافِرينَ مَهما بَلَغَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِم ، وَاعتِبارُ هذِهِ المُوالاةِ مِن كَبائِرِ الذُّنوبِ .

٢ـ المُؤْمِنُ لا يَتِمُّ إيمانُهُ إلاّ إذا كانَت مَحَبَّتُهُ للهِ تَعالى وَرَسولُهُ ﷺ مُقَدَّمَةً عَلى كُلِّ مَحبوبٍ .

٣ـ إذا تَعارَضَتْ مَصلَحَةٌ مِن مَصالِحِ الدِّينِ مَعَ مُهِمّاتِ الدُّنيا ، وَجَبَ تَرجيحُ جانِبِ الدِّينِ عَلى الدُّنيا لِيَبقى الدِّينُ سَليماً .

٤ـ لَيسَ المَطلوبُ أنْ يَنقَطِعَ المُؤْمِنُ عَن أهلِهِ وَعشيرَتِه وَمالِهِ لِيَبْقى وَحدَهُ ، إنَّما المَطلوبُ أنْ تُسَيْطِرَ عَقيدَتُهُ عَلى أفعالِهِ ، وَتُهَيمِنَ عَلى سُلوكِهِ وَتَكونَ هِيَ الدّافِعَةُ لِكُلِّ ما يَعمَلُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

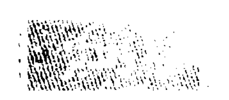
١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

استَحَبّوا الكُفْرَ ، أموالٌ اقتَرَفتُموها ، تِجارَةٌ تَخشَونَ كَسادَها ، فَتَربَّصوا حَتّى يَأتِيَ اللهُ بِأمْرِهِ .

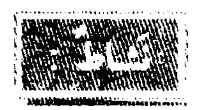
٢ـ بَيِّنْ الدَّليلَ عَلى أنَّ المَطلوبَ في الحَياةِ قُربُ الأديانِ لا قُربَ الأبدانِ .

٣ـ بَيِّنْ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى عَن مُوالاةِ مَن نَهى عَنهُم في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ .

٤ـ إذا تَعارَضَتْ مَصلَحَةٌ دينِيَّةٌ مَعَ مَصلَحَةٍ دُنيَوِيَّةٍ ، بَيِّن ما مَوقِفُ المُسلِمَ مِن ذلِكَ ، مَعَ ذِكرِ الدَّليلِ عَلى ما تَقولُ .



أخرجَ البُخاريُّ عَن أبي عَقيلٍ أنَّهُ سَمِعَ جَدَّهُ عَبدَ اللهِ بنَ هِشامٍ قالَ : كُنّا مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ آخِذٌ بِيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطّابِ ، فَقالَ عُمَرُ : « يا رَسولَ اللهِ ﷺ لأنتَ أَحَبُّ إليَّ مِن كُلِّ شَيءٍ إلاّ مِن نَفْسَينِ فقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : « لا والّذي نفسي بِيَدِهِ حَتّى أكونَ أحَبَّ إلَيكَ مِنْ نَفْسِكَ » ، فقالَ عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عَنهُ : الآنَ أنتَ واللهِ أَحَبُّ إليَّ مِن نفسي ، فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : الآنَ يا عُمَرُ[1].



١ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آخِرَ آيَةٍ مِن سُورَةِ المُمْتَحنَةِ وَبيِّنْ وَجهَ الشَّبَهِ بينَها وَبينَ الآيَةِ (٢٣) مِنْ هذهِ السّورةِ .

٢ـ مَتى يَكونُ حُبُّ الأشياءِ المذكورةِ في الآيةِ (٢٤) مُباحاً لا حَظْرَ فيه ؟ اكتُبِ الإجابَةَ في دَفْتَرِكَ .

* * *

(١) أخرجه البخاري : ٦/ ٢٤٤٥ حديث رقم : (٦٢٥٧) .

الدَّرسُ الرَّابعُ والعِشرونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ السَّابِعُ

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

معاني المفردات

مَواطِنَ : مَواقعَ الحَربِ .

حُنَيْنٍ : وَادٍ بَينَ مَكَّةَ وَالطَّائِفِ .

رَحُبَتْ : وَسِعَتْ .

سَكينَتَهُ : طُمَأْنينَتَهُ ، وَالمُرادُ ما يُسَكِّنُهُم ويُذهِبُ خَوْفَهُم .

نَجَسٌ : قَذِرينَ خُبَثاءُ .

عَيْلَةً : فَقْراً وَفاقَةً .

التفسير

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لِعِبادِهِ المُؤْمِنينَ خُطورَةَ الوِلاءِ لأعداءِ الدِّينِ وَحَثَّهُم عَلى أنْ لا يَكونَ وَلاؤُهُم إلاّ للهِ تَعالى ، نَبَّهَهُمْ في هذهِ الآياتِ إلى بَعضِ نِعَمِ اللهِ تَعالى الّتي أنْعَمَ بِها عَلَيْهِم يَومَ خَذَلَتهُم أنفُسُهُم ، مُبَيِّناً لَهُم أنّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ تَعالى ، فقالَ تَعالى :

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾

اذْكُروا أيُّها المُؤْمنونَ نِعَمَ اللهِ تعالى عَلَيْكُم ، وَحافِظوا عَلَيْها بِالشُّكْرِ ، وَحُسْنِ الطّاعَةِ . وَمِن مَظاهِرَ هذِهِ النِّعمِ أَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى قَدْ نَصَرَكُم عَلى أعدائِكُم في مَواقِفَ وَحروبٍ كثيرَةٍ ، كَغزْوَةِ بَدْرٍ ، وَغَزوةِ بَني قَيْنُقاعَ وَغَيرِها ، كَما نَصَرَكُم سُبْحانَهُ وتَعالى في يَومِ غَزوَةِ حُنَيْنٍ ، وَهُوَ اليَومُ الّذي أَعْجَبَتْكُمْ فيهِ قُوَّتُكُم وَغُرِرْتُم بِها أيَّما غُرورٍ ، وَلكِنَّ هذِهِ الكَثْرَةَ الّتي أعجبَتْكُم وَغَرَّتْكُم لَمْ تَنفَعْكُم بِسَبَبِ شِدَّةِ خَوفِكُم .

وَكانَ مِن أمرِ هذِهِ الغَزوَةِ أَنَّ قَبيلَةَ هَوازِنَ لَمّا بَلَغَها أمرُ فَتحِ مَكَّةَ ، جَمَعَ القَبيلَةَ رَئيسُها وَكانَ يَومَذاكَ مالِكُ بنُ عوفٍ ، وَاجتَمَعَ لَهُ بَنو ثقيفٍ وَنَزلوا بأوطاسَ (وَادٍ في هُوازِنِ) وَبَلَغَ خَبَرُهُم النَّبِيَّ ﷺ ؛ هُنالِكَ عَزَمَ عَلى قِتالِهِم وَأَعَدَّ لِذلِكَ ، فَخَرجَ مَعَهُ ﷺ اثنا عَشَرَ أَلفاً مِنَ المُسلِمينَ ، عَشَرَةُ آلافٍ مِنَ المُهاجرينَ وَالأنصارِ ، وَأَلفانِ مِمّنْ أَسْلَمَ يَومَ الفَتحِ ، لَمّا رَأى المُسلِمونَ قُوَّتَهُم وَكَثْرَتَها اغتَرَّ بَعضُهُم ، فَصاحَ بَعضُهُم لَنْ نُهْزَمَ اليومَ مِنْ قِلَّةٍ ، فَوَكَلَهُمُ اللهُ تَعالى إلى أَنْفُسِهِمْ أَوّلَ أمرِ المعركَةِ ، فكانَتِ هزيمَتُهُمْ المُنْكَرَةُ أَوّلاً ، ثُمَّ صَفَتْ نُفوسُهُم مِن كَدَرِ الغُرورِ وَالتَجَأوا إلى رَبِّهم تَبارَكَ وتَعالى ، فَنَصَرَهُم وَأَظفَرَهُم على عَدُوِّهِم .

ثُمَّ قالَ تَعالى مُبيِّناً فَضلَهُ عَلى عِبادِهِ بَعْدَ أَنْ تابوا إليهِ وَرَجَعوا :

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

إِنَّهُ بَعْدَ أن تَرَكَكُمُ اللهُ تَعالى لأنفُسِكُم أَوَّلَ الأمرِ ، فَلم تَنفَعْكُم كَثرَتُكُمْ شَيئاً وَظَهَرَ عَلَيْكُم عَدُوُّكُمِ ، وَلِشِدَّةِ فَزَعِكُم ضاقَتْ عَلَيْكُمُ الأرضُ بِما رَحُبَتْ فَلَمْ تَجِدوا سَبيلاً لِلقِتالِ أو النَّجاةِ الشَّريفَةِ ، وَلَم يَجِدْ أَكثَرُكُم وَسيلَةً لِلنَّجاةِ غَيرَ الهَرَبِ ، فَفَرَرتُم مُنهَزِمينَ وَتَرَكْتُمْ رَسولَ اللهِ ﷺ مَعَ قِلَّةٍ مِنَ المُؤْمِنينَ ، بَعْدَ ذلِكَ كُلِّهِ أَدْرَكَتْكُمْ عِنايَةُ اللهِ تَعالى ، فأنزَلَ الطُّمأنينَةَ عَلى رَسولِهِ ﷺ ، وَمَلأَ قُلوبَ المُؤْمِنينَ ، وَأَمَدَّكُم بِالمَلائِكَةِ جُنودِهِ ، الّذينَ ثَبَّتوا أقدامَكُم دونَ أَنْ تَرَوْهُم فانتَصَرْتُم ، وأذاقَ اللهُ تَعالى عَدُوَّكُم مَرارَةَ الهَزيمَةِ ، وَذلِكَ جَزاءُ الكافِرينَ في الدُّنيا . وبَعدَ ذلِكَ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَظاهِرَ فَضلِهِ عَلى عِبادِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثُمَّ يَتوبُ اللهُ تَعالى مِنْ بعدِ هذا التَّعذيبِ لِّلذينَ كَفروا في الدُّنيا عَلى مَن يَشاءُ أَنْ يَتوبَ عَلَيْهِ

مِنهُم ، وَذلِكَ بِأَنْ يُوَفِّقَهُ لِلدُّخولِ في الإسلام ، ذلِكَ بِأَنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَاسِعُ المَغفِرَةِ ، عَظيمُ الرَّحمَةِ ، لا يُحاسِبُ الكافِرينَ بَعْدَ إيمانِهِم عَلى ما بَدَرَ مِنهُم وَقتَ أَنْ كانوا كافِرينَ .

وَقدَ تابَ اللهُ تَعالى عَلى بَقِيَّةِ هُوازِنَ فَأَسْلَموا ، وَقَدِموا عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ مُسلِمينَ ، وَلَحِقوهُ وَقَد قارَبَ مَكَّةَ ، وذلِكَ بَعدَ المَعرَكَةِ بِزَمانٍ قَليلٍ يَقرُبُ مِن عِشرينَ يَوماً ، فَعِندَ ذلِكَ خَيَّرَهُم رَسولُ اللهِ ﷺ بَينَ سَبيِهِم وأموالِهِم ، فَاخْتاروا سَبْيَهُم ، وَكانوا سَتَّةَ آلافِ أَسيرٍ ما بَينَ صَبيٍّ وامرَأةٍ ، فَرَدَّهُ رَسولُ اللهِ ﷺ عَلَيْهِم ، وَقَسَمَ الأموالَ بَينَ الغانِمينَ ، وَأَعطى رسولُ اللهِ ﷺ ناساً مِمّنْ أَسلمَ حَديثاً مِنْ أَهلَ مَكَّةَ لِكَي يتأَلَّفَ قلوبَهُمْ على الإسلام ، فأعطاهُمْ مائةً مِنَ الإبلِ ، وكانَ مِنْ جُمْلَةِ مَنْ أُعْطِيَ مالكُ بنُ عوفٍ ، وَاستَعمَلَهُ عَلى قَومِهِ بَعْدَ أَنْ أَسلَمَ وَحَسُنَ إِسلامُهُ .

وبَعدَ هذا التَّوجيهِ وَالتَّذكيرِ مِنَ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ المُؤْمِنينَ وَجَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى لَهُم نِداءً ، أَمَرَهُم فيهِ بِمَنْعِ المُشْرِكينَ مِنْ قُربانِ المَسجِدِ الحَرامِ ، وَوَعَدَهُم بِالعَطاءِ الّذي يُغنيهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى مُخاطِباً عِبادَهُ المُؤْمِنينَ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

يا أيُّها المُؤْمِنونَ ، إنَّما المُشْرِكونَ بِسَبَبِ شِرْكِهِم نَجَسَتْ نُفوسُهُم وَخَبُثَتْ وَهُم ضالّونَ في العَقيدَةِ ، فَلا تُمَكِّنوهُم مِنْ دُخولِ المِسجِدِ الحَرامِ بَعْدَ عامِهِم هذا (التاسع مِنَ الهجرَةِ) ، وَإِنْ خِفتُم فَقْراً بِسَبَبِ انقطاعِ تِجارَتِهِمْ عَنكُم فإنَّ اللهَ تَعالَى سَوفَ يُعَوِّضُكُم خَيراً ، وَيُغنيكُم مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شاءَ ، إنّ اللهُ تَعالى عَليمٌ بِشُؤونِكُمْ حَكيمٌ في تَدبيرِهِ .

وَالتَّقييدُ بِالمَشيئَةِ في قَولِهِ تَعالى : « إنْ شاءَ » لَيْسَ لِلتَّرَدُّدِ ، وَلَكِنَّهُ لِتَعليمِ المُؤْمِنينَ رِعايَةَ الأَدَبِ مَعَ اللهِ تَعالى ، وَلِبيانِ أَنَّ هذا الإغناءَ بِإرادَتِهِ سُبْحانَهُ وَحْدَهُ ، فَعَلَيْهِم أَنْ يَجعَلوا اعتِمادَهُم عَلَيْهِ ، وَتَضَرُّعَهُم إِلَيْهِ لا إلى غَيرِهِ ، وَلِلتَّنبيهِ عَلى أَنَّ عَطاءَهُ سُبْحانَهُ لَهُم هَوَ مِنْ بابِ التَّفَضُّلِ لا الوُجوبِ ، لأَنَّهُ لَو كانَ واجِباً ما قَيَّدَهُ بِالمَشيئَةِ .

وَقَدَ أَنجزَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَعْدَهُ لِلمُؤْمِنينَ ، فَأَرسَلَ السَّماءَ عَلَيْهِم مِدْراراً ، وَفَتَحَ لَهُمُ البِلادَ ، فَكَثُرَتْ بَينَ أَيْديهِمُ الغَنائِمُ ، وَأَلوانُ الخَيراتِ ، وَدَخَلَ في دينِ اللهِ تَعالى مَنْ هُم أَيْسَرُ حالاً ، وَأَغنى مِنْ هؤُلاءِ المُشْرِكينَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اعتمادُ المُؤْمِنِ يَكونُ دائِماً عَلى اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، يَتوكَّلُ عَلَيْهِ مَعَ الأَخْذِ بِالأَسْبابِ .

٢ـ تَحذيرُ المُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَشغَلَهُ أيُّ شَيءٍ عَن اللهِ تَعالى .

٣ـ نَجاسَةُ المُشْرِكينَ راجِعَةٌ إلى أمْرَيْنِ : خُبْثُ بَواطِنِهِم لِعبادَتِهِم غَيرِ اللهِ تَعالى ، وَلِعَدَمِ التِزامِهِم بِالطَّهارَةِ .

٤ـ الاشْتِغالُ بِالأسبابِ في الرِّزْقِ جائِزٌ ولا يُنافي التَّوَكُّلَ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

مَواطِنَ ، حُنَيْنٍ ، رَحُبَتْ ، سَكينَتَهُ ، وَلّيْتُم مُدبِرينَ .

٢ـ ذَكَّرَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ المُؤْمنينَ بِأنَهُ نَصَرَهُم في مَواطِنَ كَثيرَةٍ ، سَمِّ ثَلاثَةً مِن هذِهِ المَواطِنِ .

٣ـ بَيِّنْ بِماذا طَمْأَنَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ المُؤْمِنينَ في هذهِ الآياتِ .

٤ـ بَيِّنْ ماذا تَستَفيدُ مِمّا يَلي :

أـ أعجَبَتكُم كَثْرَتُكُم فَلَم تُغْنِ عَنكُم شَيئاً .

ب ـ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدبِرينَ .

ج ـ أنزَلَ جُنوداً لَم تَرَوْها .

دـ ثُمَّ يَتوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عَلى مَنْ يَشاءُ .

هــ وإنْ خِفتُمْ عَيْلَةً فَسوفَ يُغنيكُمُ اللهُ .

٥ـ بَيِّن لِماذا مَنَعَ اللهُ المُؤْمِنينَ أنْ يَسمَحوا لِلمُشرِكينَ بِدُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ .

٦ـ بَيِّنْ بِالدَّليلِ كَيفَ أنَّ السَّيْرَ في طَريقِ الأسبابِ لا يَتَنافى مَعَ التَّوَكُّلِ .

١ـ اكتُبْ في دَفْتَرِكَ مَوقِفَ الرَّسولِ ﷺ عِندَما انهَزَمَ المُسلِمونَ ، وَعَلى ماذا يَدُلُّ ذلِكَ ؟

٢ـ ارجِع إلى كِتابِ سيرَةِ ابنِ هِشامٍ ، وَلَخِّصْ مِنهُ أحداثَ هذِهِ المَعْرَكَةِ ، وَانقُلْ ذلِكَ إلى دَفتَرِكَ .

* * *

سورة التوبة ـ القسم الخامس

قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

الجزية : مِقْداراً مِنَ المالِ يُفرَضُ عَلى القادِرينَ مِنْ أهلِ الكِتابِ لِدَولَةِ الإسلامِ .

عن يد : عَنْ سَعَةٍ وَقُدرَةٍ .

صاغرون : خاضِعونَ لأحكامِ الإسلامِ وَسِيادَتِهِ .

عزير : عِزرا المَذكورُ في كُتُبِهِم .

يضاهئون : يُشْبِهونَ .

أنى يؤفكون : كَيفَ يُصرَفونَ عَنِ الحَقِّ إلى غَيرِهِ .

أحبارهم : جَمعُ حَبْرٍ ، وَهُوَ لَقَبُ رَجُلِ الدِّينِ عِندَ اليَهودِ .

رهبانهم : جَمعُ راهِبٍ ، وَهُوَ لَقَبُ رَجُلِ الدِّينِ عِندَ النَّصارى .

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لِعبادِه بَعضَ نِعَمِهِ عَلَيْهِم ، وَخُصوصاً نِعمَةَ النَّصرِ مِنْ عِندِهِ سُبْحانَهُ ، وَبَيَّنَ لَهُم كذلِكَ نَجاسَةَ المُشْرِكينَ وَأمَرَهُم بِمَنْعِهِم مِن دُخولِ المَسجِدِ الحَرامِ ، وَجَّهَ سُبْحانَهُ وتَعالى كَلامَهُ لِعبادِهِ المُؤمِنينَ في آياتٍ مُتَعَدِّدَةٍ بَيَّنَ فيها ما يَجِبُ أنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوْقِفُهُم مِنَ المُنحَرِفينَ مِنْ أهلِ الكِتابِ ، وَقَدْ بَدَأها سُبْحانَهُ وتَعالى بِقَولِهِ :

﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾

هذا أمرٌ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى بِقِتالِ مَنْ هذِهِ أوصافُهُ مِنْ أهلِ الكِتابِ ، فَإنَّ مَنِ اجتَمَعَت فيهِ هذِهِ الأوصافُ لا يَكونُ مُؤْمِناً أَلبَتَّةَ . وَهذِهِ الأوصافُ الّتي بِموجِبِها أُمِرَ المُؤْمِنونَ بِقِتالِ أهلِ الكِتابِ هِيَ :

أوّلاً : أنَّهُم لا يُؤمِنونَ باللهِ تَعالى .

ثانياً : أنَّهُم لا يُؤمِنونَ بِاليَوْمِ الآخِرِ .

فَإنْ قيلَ إنَّ أهلَ الكِتابِ مُؤْمِنونَ بِاللهِ وَباليَومِ الآخِرِ ، قيلَ إنَّهُم يُؤمِنونَ إيماناً مُشَوَّشاً فيهِ أخلاطٌ كَثيرَةٌ مِنَ الكُفْرِ ، وَلَمّا كانَ كذلِكَ عُدَّ كَالإيمانِ .

ثالثاً : أنَّهُم لا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَ اللهُ تَعالى وَرَسولُه ﷺ ، أي : لا يُحَرِّمونَ ما حَرَّمَهُ اللهُ تَعالى لا في شَريعَتِهِم وَلا يَتَّبِعونَ شَريعَتَنا .

رابعاً : أنَّهُم لا يَدينونَ بِدينِ الحَقِّ ، أي : لا يَتَّخِذونَ الإسلامَ ديناً لَهُم ، وَإنَّما يَتَّبِعونَ أَحْبارَهُم وَرُهبانَهُم فيما يُحِلّونَهُ لَهُم وَيُحَرِّمونَهُ عَلَيْهِم .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ يَتَمَيَّزُ هذا الصِنفُ مِنَ النّاسِ عَنِ المُشْرِكينَ ، لأنَّ قِتالَ المُشْرِكينَ يَنتَهي بِإسلامِهِم أوِ المَوتِ ، وَأمّا أهلُ الكِتابِ فَإمّا الإسلامُ أو الجِزْيَةُ . وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ مَعناهُ : يُعطونَها عَنْ سِعَةٍ وَقُدْرَةٍ ، وَهُم خاضِعونَ لأحكامِ الإسلامِ وَسِيادَتِهِ .

وَلَيسَ مَعنى هذِهِ الآيَةِ قَهرُ النّاسِ عَلى الإسلامِ ، وإنّما المُرادُ أنّ الإسلامَ كانَ يَكتَفي مِنَ الفَتحِ بِإدخالِ الأرضِ المَفتوحَةِ تَحتَ سُلطانِهِ ثُمَّ يَترُكُ النّاسَ وَما كانوا عَلَيْهِ مِن دينٍ ، ثُمَّ يُكَلِّفُهُم بِجِزيَةٍ يَدفَعونَها لِتَكونَ عَوْناً عَلى حِفْظِ حَياتِهِم وَالمُحافَظَةِ عَلى أمْنِهِم في دِيارِهِم ، وَهُم في عَقائِدِهِم

وَمَعابِدِهِم وَعاداتِهِم بَعْدَ ذلِكَ أحرارٌ ، لا يُضايَقونَ في عَمَلٍ وَلا يُظلَمونَ في مُعامَلَةٍ .

وبَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ رَذائِلِ أهلِ الكِتابِ عَلى سَبيلِ الإجمالِ ، أَتْبَعَ ذلِكَ بَتَفصيلِ هذِهِ الرَّذائلِ ، فَحَكى أقوالَهُمُ الباطِلَةَ ، وَأفعالَهُمُ الذَّميمَةَ ، وَنواياهُمُ السَّيِّئَةَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٣٠) ﴾

تَرَكَ اليَهودُ الوَحدانِيَّةَ في عَقيدَتِهِم ، وَقالوا : عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ ، تَعالى اللهُ عَمّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً ، وَكذلِكَ فَعلَتِ النَّصارى ، فَقالوا : المَسيحُ ابنُ اللهِ ، تَعالى اللهُ عَمّا يَقولونَ عُلُوّاً كَبيراً ، وَقَولُهُم هذا مُبتَدَعٌ ، يُرَدِّدونَهُ بِأفواهِهِم ، وَلَم يأتِهِم بِهِ كِتابٌ وَلا رَسولٌ ، وَلَيسَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ وَلا بُرهانٌ ، وَهُم في هذا القَولِ يُشابِهونَ قَولَ المُشْرِكينَ قَبْلَهُمُ الّذينَ اتَّخَذوا مَعَ اللهِ تَعالى آلِهَةً أُخرى . لَعَنَ اللهُ تَعالى هؤُلاءِ الكُفّارَ جَميعاً وَأهلَكَهُم ، عَجَباً لَهُم كَيفَ يَضِلُّونَ عَنِ الحَقِّ وَهُوَ ظاهِرٌ ، وَيَعدِلونَ إلى الباطِلِ ؟

ثُمَّ حَكى اللهُ تَبارَكَ وتَعالى لَوْناً آخَرَ مِن ألوانِ باطِلِهِمْ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾

جَمَعَ اللهُ تَعالى في هذهِ الآيَةِ بَينَ اليَهودِ وَالنَّصارى في اتِّخاذِهِمْ رِجالَ دينِهِم أرْباباً ، بِأَنْ أَعْطوهُم حَقَّ التَّشريعِ فيهِم ، وَذَكَرَ سُبْحانَهُ بَعْدَ ذلِكَ ما انفَرَدَ بِهِ النَّصارى دونَ اليَهودِ مِنَ اتخاذِهِمُ المَسيحَ رَبّاً وَإلهاً يَعبُدونَهُ ، وَالمَعنى المَقصودُ مِنَ الآيَةِ الكَريمَةِ : اتَّخذوا رِجالَ دينِهِم أرباباً يُشَرِّعونَ لَهُم وَيَكونُ كَلامُهُم ديناً ، وَلَو كانَ يُخالِفُ قَولَ رَسولِهِم ، فاتَّبَعوهُم في باطِلِهِم وَعَبَدوا المَسيحَ ابنَ مَريَمَ ، وَقَدْ أَمَرَهُمُ اللهُ تَعالى في كُتُبِهِ عَلى لِسانِ رُسُلِهِ أنْ لا يَعبُدوا إلاّ إلهاً واحِداً ، لأنَّهُ لا يَستَحِقُّ العِبادَةَ في حُكْمِ الشَّرعِ وَالعَقلِ إلاّ اللهُ الواحِدُ سُبْحانَهُ .

جاءَ عَن عَدِيٍّ بنِ حاتِمٍ حينَ قَدِمَ مُسلِماً عَلى رَسولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ لَمّا جاءَ إلَيهِ كانَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَقرأُ قَوْلَهُ تَعالى : ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قالَ عَدِيٌّ : أما إنّهُم لَم يَكونوا يَعبُدونَهُم ، وَلكِنَّهُم كانوا إذا استَحَلّوا لَهُم شَيئاً استَحَلّوهُ ، وَإذا حَرَّموا عَلَيهِم شَيئاً حَرَّموهُ[1].

---

(١) أخرجه الترمذي : ٥/٢٧٨ حديث رقم : (٣٠٩٥) .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ ما الّذي يُريدُهُ أهلُ الكِتابِ وَيَهدِفونَ إليهِ مِن وَراءِ هذِهِ الأقاويلِ الكاذِبَةِ وَالدَّعاوى الباطِلَةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾

يُريدُ هؤُلاءِ الكافِرونَ مِنْ أهلِ الكِتابِ أنْ يَقضوا عَلى دينِ الإسلامِ ، وَأنْ يَطمِسوا تَعاليمَهُ الّتي جاءَ بها رسولُهُ ﷺ عَنِ طَريقِ أقوالِهِمُ الباطِلَةِ الصّادِرَةِ مِن أفواهِهِم ، مِنْ غَيرِ أنْ يَكونَ لَها تَصديقٌ مِنَ الواقعِ تَنطَبِقُ عَلَيْهِ أو أصْلٍ تَستَنِدُ إليهِ ، وَإنَّما هِيَ لَغْوٌ ساقِطٌ مُهمَلٌ لا وَزنَ لَهُ وَلا قيمَةَ ، وَهُم يُريدونَ ذلِكَ ، وَلكِنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى يُريدُ غَيرَ ما أرادوا ، يُريدُ سُبْحانَهُ إتمامَ نورِهِ بإظهارِ دينِهِ ، وَنَصْرَ رَسولِهِ ﷺ وأتباعِهِ حَتّى يَمضِيَ أهلُهُ قُدُماً على تَنفيذِ ما كَلَّفَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ دونَ إبطاءٍ أو تَثاقُلٍ .

ثُمَّ أكّدَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وَعْدَهُ بإتمامِ نورِهِ ، وَبَيَّنَ كَيفيَّةَ هذا الإتمامِ ، فَقالَ سُبحانَهُ :

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

هُوَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الّذي كَفِلَ إتمامَ نورِهِ بِإرسالِ رَسولِهِ مُحَمَّداً ﷺ بالحُجَجِ البيِّناتِ ، وَدينِ الحَقِّ (الإِسلامُ) ، لِيُعلِيَ هذا الدينَ عَلى جَميعِ الأَديانِ السّابِقَةِ عَلَيْهِ ، وَإنْ كَرِهَهُ المُشْرِكونَ ، فَإنَّ اللهَ تعالى يُظهِرُهُ رَغْماً عَنْهم .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَشروعِيَّةُ الجِزيَةِ في الإسلامِ ، وهِيَ ما يُؤخَذُ مُقابِلَ حِمايَةِ أهْلِ الذِّمَّةِ وَتَوفيرِ الأَمْنِ لَهُم .

٢ـ كُفْرُ اليَهودِ والنَّصارى عَلى الرَّغمِ مِن كَوْنِهِم أهلَ كِتابٍ .

٣ـ تَحذيرُ المُؤْمِنينَ مِن أباطيلِ أهلِ الكِتابِ .

٤ـ لا يُعبَدُ وَلا يُطاعُ إلاّ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى .

٥ـ نَصْرُ اللهِ تَعالى قادِمٌ لِلمُؤْمِنينَ .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

الجِزيَةَ ، صاغِرونَ ، يُضاهِئونَ ، أنّى يُؤفَكونَ .

٢ـ بيِّنِ الأَسْبابَ الّتي بِموجِبِها أُمِرَ المُسلِمونَ بِقِتالِ أهلِ الكِتابِ .

٣ـ هَل تَسْتَلزِمُ الجِزيَةُ قَهرَ النّاسِ عَلى الإسلامِ ؟ بيِّنْ ذلِكَ .

٤ـ بيِّنْ كَيفَ شابَهَ قَولُ اليَهودِ وَالنَّصارى في الكُفرِ قَولَ الكافِرينَ قَبْلَهُمْ .

٥ـ ما مَعنى عِبادَةُ اليَهودِ وَالنَّصارى لأحْبارِهِم وَرُهبانِهِم ؟

٦ـ هاتِ الدّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ على ما يلي :

أـ مَشروعِيَّةُ أخْذِ الجِزيَةِ مِن أهلِ الكِتابِ .

ب ـ كُفْرُ اليَهودِ والنَّصارى .

ج ـ النَّصْرُ قادِمٌ بِإذنِ اللهِ تَعالى .

د ـ الإسلامُ دينُ الحَقِّ .

نشاط :

١ـ اكتبْ في دفترِكَ الآيَةَ المُماثِلَةَ لِلآيَةِ (٣٢) مِن سُورَةِ الصَّفِّ ، وَبيِّنْ وَجهَ الشَّبَهِ بَيْنَهُما .

٢ـ ارجِع إلى تَفسيرِ ابنِ كَثيرٍ وَدوِّن في دَفْتَرِكَ عِندَ تَفسيرِ الآيَةِ (٣٢) الأحاديثَ الّتي ذَكَرَها ، وَالّتي تُرشِدُ إلى بِشارَةِ المُؤْمِنينَ بَنصرِ اللهِ تَعالى ، وَاقرَأها عَلى طُلابِ المَدرَسَةِ في طابورِ الصَّباحِ .

* * *

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

يَجْمَعونَ الأَمْوالَ وَيخْزِنونَها وَيُمسِكونَها عَن الإنفاقِ .

أنذرهُمْ ، وَهِيَ عَلى سَبيلِ التَّهَكُّمِ .

يُلْصَقُ الحارُّ مِنَ الحَديدِ وَالنّارِ بِأجسادِهِم حَتّى تَحتَرِقَ .

بَعْدَ أن بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضَ أَقْوالِ أهلِ الكِتابِ القَبيحَةِ ، وَبَعضَ أَفْعالِهِمُ الذَّميمَةِ ، تَوَجَّهَ بِالخِطابِ إلى المُؤْمِنينَ مُبَيِّناً لَهُم سِيَرَ كَثيرٍ مِنَ الأحبارِ وَالرُّهبانِ العَمَلِيَّةَ ، وكاشِفاً نَفسِيَّتَهُم تِجاهَ المالِ ، حَتّى يَقِفَ أهلُ الكِتابِ عَلى خَطَئِهِمْ في اتّخاذِ الأحبارِ والرُّهبانِ أَرْباباً مِنْ دونِ اللهِ تَعالى والإقتداءِ بِهِم ، وَلِيعلَمَ المُسلِمونَ السِّرَّ في عِنادِهِم وَكُفرِهِم ، وَأَنَّهُم يُريدونَ إطفاءَ هذا النُّورِ لأنَّهُم أَلِفوا الضَّلالَ ، ألا ساءَ ما كانوا يَعمَلونَ ، وَلْيَحذَرِ المُسلِمونَ مِنَ الوقوعِ فيما وَقَعوا فيهِ ، قالَ تَعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) ﴾

في هذِهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيانٌ لِجَريمَتَيْنِ أخلاقيَّتَيْنِ مِنْ جَرائِمِ هؤُلاءِ الأحبارِ وَالرُّهبانِ وَهُما : أَكْلُ أموالِ النّاسِ بِالباطِلِ ، وَالثّانِيَةُ : الصَّدُّ عَن سبيلِ اللهِ تَعالى . وَتَستَتبعُ هاتَيْنِ الجَريمَتَيْنِ جَريمَةٌ أخرى هِيَ لَهُما تَبَعٌ ، وَهِيَ عَدَمُ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا بِاللهِ تَعالى وَرُسُلِهِ : اعْلَموا أنَّ كَثيراً مِنَ الأحبارِ وَالرُّهبانِ لَيَأكُلونَ أموالَ النّاسِ بِالباطِلِ لا بِالحَقِّ . وَإنَّما نَسَبَ هذا الفِعْلَ لِكَثيرٍ مِنهُم لا لَهُم جَميعاً ، إحقاقاً لِلحَقِّ ، فإنّ أكثَرَهُم فاسِقونَ ، وَالقَليلَ النّادِرَ مِنهُم صالِحونَ .

وَعَبَّرَ القُرآنُ الكَريمُ عَنْ هذِهِ الأفعالِ الذَّميمَةِ بِالأَكْلِ ، لأنَّ الأَكْلَ هُوَ المَقصودُ المُهِمُّ مِنْ أخذِ الأموالِ وَالتَّصَرُّفِ فيها هذِهِ التَّصَرُّفاتِ الباطِلَةَ .

وَأمّا صَدُّهُم عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى فبما يَختَلِقونَ عَلى اللهِ تَعالى مِنَ الكَذِبِ وَيَصِفونَ النَبيَّ ﷺ بأحقرِ الأوصافِ الّتي لا تَليقُ يَكتُمونَ صِفَتَهُ وبِشارَتَهُ الّتي هِيَ عِندَهُم ، وَالنَّصارى انفَرَدوا في هذِهِ الأيّامِ بِالمُبالَغَةِ في الصَّدِّ عَنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى بِالتَّبشيرِ في البِلادِ الإسلاميَّةِ عَنْ طَريقِ المَدارِسِ وَالمُستَشفَياتِ وَالجَمعيّاتِ .

وَأمّا قَولُهُ تَعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ . فَالمُرادُ مِنهُ : إمّا الأَحْبارُ وَالرُّهبانُ ، أوْ يُؤخَذُ عَلى عُمومِهِ فَيَشمَلُ هؤُلاءِ وَغَيْرَهُم مِمّنْ يَفعَلونَ هذا الفِعْلَ ، وَالمَعنى : والّذينَ يَجْمَعونَ المالَ وَيَحبِسونَهُ عَنِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى فَبَشِّرهُم ، أيْ أنذِرهُم إنذاراً بِأنَّ اللهَ تَعالى سَيُعَذِّبُهُمْ عَذاباً أليماً بِسَبَبِ حَبْسِهِمُ المالَ عَنِ الإنفاقِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

وَكَنْزُ المالِ لا يَكونُ خَطِراً إلاّ إذا مُنِعَتْ فيهِ حُقوقُ اللهِ تَعالى ، أمّا إذا أُدِّيَتِ الحُقوقُ الواجِبَةُ في هذا المالِ فَلا ضَيْرَ في جَمْعِهِ .

وَالعذابُ الّذي تَوَعَّدَ بِهِ هؤُلاءِ الكافِرينَ عَذابٌ أليمٌ جِدّاً جاءَ تَفصيلُهُ في قَولِهِ تَعالى :

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) ﴾

يُجاءُ بَهذا الذَّهَبِ وَهذِهِ الفِضَّةِ الّتي كَنَزوها ، فَيوقَدُ عَلَيْها في النّارِ حَتّى تَحمى فَتُكوى بِها جباهُهُمْ الّتي طالَما اغتَرَّتْ بِكَثْرَةِ المالِ ، وَتُكوى جُنوبُهُمُ الّتي طالَما تَمَتَّعَتْ بِالحَريرِ وَالدِّيباجِ ، وَتُكوى ظُهورُهُمُ الّتي طالَما استَنَدَت لِلمالِ ، عَلى أنّ الكَيَّ عَلى الوَجْهِ أَشهَرُ وأشْنَعُ ، وَالكَيُّ عَلى

الجَنبِ وَالظَّهرِ أوْجَعُ وآلَمُ ، ويُقالُ لَهُم : هذا جَزاءُ ما كنَزتُم لأنفُسِكُمْ فَذوقوا ما كُنتُمْ تَكنِزونَ .

وَمن صُوَرِ تَعذيبِ الكافِرينَ بِأموالِهِم ما ذَكَرَهُ الإمامُ البُخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى في صَحيحهِ ، قالَ : قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ : مَنْ آتاهُ اللهُ مالاً فَلَم يُؤَدِّ زَكاتَهُ مَثُلَ لَهُ يومَ القِيامَةِ شُجاعاً أقرَعَ لَهُ زَبيبَتانِ ، يُطَوَّقُهُ يومَ القِيامَةِ ثُمَّ يَأخُذُ بِلِهزِمَتَيهِ ـ يَعني شِدقَيهِ ـ ثُمَّ يَقولُ : أنا مالُكَ ، أنا كَنزُكَ ، ثُمَّ تلا قولَهُ تَعالى : ﴿ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾[1] [آل عمران : ١٨٠] .

دروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّحذيرُ مِنَ الانقيادِ لِدُعاةِ السُّوءِ ، وَمِن تَقليدِهِم في رَذائِلِهِم وَقَبائِحِهِم ، وَوُجوبُ السَّيْرِ عَلى حَسَبِ ما جاءَ بِهِ الإسلامُ مِن تَعاليمَ وَتَشريعاتٍ .

٢ـ أكْلُ أموالِ النّاسِ بِالباطِلِ جَريمَةٌ أخلاقِيَّةٌ .

٣ـ تَحريمُ كَنْزِ المالِ وَمنعِ إخراجِ الحُقوقِ مِنهُ .

٤ـ إباحَةُ اقتِناءِ المالِ الزّائِدِ عَنِ الحاجَةِ ما دامَتْ تُؤَدّى زَكاتُهُ .

التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

يَكْنِزونَ ، بَشرِّهُمْ ، تُكْوى .

٢ـ بيِّنِ الجَريمَتَيْنِ الأخلاقِيَّتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَحدَّثَتْ عَنهُما الآيَةُ الأولى (٣٤) .

٣ـ بَيِّنْ بَعضَ صُوَرِ أكْلِ أموالِ النّاس بِالباطِلِ .

٤ـ مَا السِّرُّ في قَولِهِ تَعالى : ﴿يَأكلونَ أموالَ النّاسِ﴾ ؟

٥ـ متَى يَكونُ كَنْزُ المالِ حَراماً ؟ وهَلْ يكونُ المالُ الّذي أُخْرِجَتْ زَكاتُهُ كَنْزاً ؟

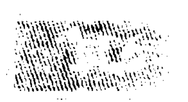
---

(١) أخرجه البخاري في كتاب الزكاة حديث رقم : ١٤٠٣ .

٦ـ بيَّنَت الآيَةُ الثّانِيَةُ (٣٥) العَذابَ المُتوعَّدَ بِهِ الكانِزونَ لأموالِهِم ، وَذَكرَتهُ في صُورَةٍ مُؤلِمَةٍ ، بيِّنْ هذا العَذابَ مِن خِلالِ تِلكَ الآيةِ .

٧ـ في الحَديثِ أيضاً صورَةٌ لِعَذابِ هؤُلاءِ النّاسِ ، بيِّنْها .

٨ـ ما الأثَرُ النَّفْسيُّ الحاصِلُ لَدَيْكَ بَعْدَ سَماعِكَ لِهذا اللَّونِ مِنَ العَذابِ ؟



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ بعضَ المُمارَساتِ الّتي تَدُلُّ عَلى أكْلِ الأحبارِ وَالرُّهبانِ المالَ بِالباطِلِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ثَلاثَةً مِنَ الحُقوقِ الّتي فَرَضَها اللهُ تَعالى في المالِ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ والعِشرونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ العاشِرُ

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (٣٧) ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عِدَّةَ الشُّهورِ : عَدَدَ الشُّهورِ .

حُرُمٌ : جمعُ حَرامٍ ، والمُرادُ احْتِرامُ هذهِ الشُّهورِ وَامتِناعُ القِتالِ فيها .

كافَّةً : جَميعاً .

النَّسيءُ : تأخيرُ حُرْمَةِ شَهرٍ إلى شَهرٍ آخَرَ .

لِيُواطِئوا : لِيُوافِقوا .

التَّفسيرُ :

بَيَّنَتِ الآياتُ السَّابِقَةُ ما يَجبُ أنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوقِفُ المُؤْمِنينَ مِنْ أهلِ الكِتابِ ، وَكَشَفَتْ عَنْ أحوالِهِمُ الباطِلَةِ ، وَعَنْ جُحودِ رُؤَسائِهِم لِلحَقِّ ، وَعَنِ انقيادِ عامَّتِهِم لِلضَّلالِ ، وَعَنِ استِحلالِ كَثيرٍ مِنْ أحبارِهِم ورُهبانِهِم لِمَحارِمِ اللهِ تَعالى . بَعْدَ ذلِكَ عادَتِ السُّورَةُ الكَريمَةُ إلى تَكمِلَةِ الحَديثِ عَنْ أحوالِ المُشْرِكينَ السَّيِّئَةِ وَعَن وُجوبِ مُقاتَلَتِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

إنَّ عِدَّةَ شُهورِ السَّنَةِ القَمَرِيَّةِ اثنا عَشَرَ شَهراً في حُكْمِ اللهِ تَعالى وَتَقديرِهِ ، وَفيما بَيَّنَهُ في كُتُبِهِ مُنذُ خَلَقَ العالَمَ سَماءَهُ وَأَرْضَهُ ، وَأنَّ هذِهِ الشُّهورَ مِنها أربَعَةُ أشهُرٍ حُرُم ، أيْ : مُحَرَّمٌ فيها القِتالُ ، وَهِيَ : ذو القِعدَةِ ، وَذو الحِجَّةِ ، وَالمُحَرَّمُ ، وَرَجَبٌ ، وَقَد أجمَعَ عُلَماءُ الإسلامِ عَلى ذلِكَ ، وبِهذا جاءَتِ الأحاديثُ الشَّريفَةُ ، مِنها ما أَخرَجَهُ الإمامُ البُخاريُّ عَن أبي بَكْرٍ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ في خُطبَةِ حِجَّةِ الوَداعِ : (إنَّ الزَّمانَ قَد استَدارَ كَهَيئَتِهِ يَومَ خَلَقَ اللهُ تَعالى السَّمواتِ وَالأرضَ ، السَّنَةُ اثنا عَشَرَ شَهراً مِنها أَربَعَةٌ حُرُمٌ : ثَلاثٌ مُتَوالِياتٌ : ذو القِعدَةِ ، وَذو الحِجَّةِ ، وَالمُحَرَّمُ ، وَرَجَبُ مُضَرَ الّذي بَينَ جُمادى وَشَعبانَ)[1] .

وَقَد بَيَّنَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ أنَّ هذا التَّحريمَ لِهذِهِ الأشْهُرِ الأربَعَةِ المَذْكورَةِ هُوَ دينُ اللهِ تَعالى المُستَقيمُ ، الّذي لا تَبديلَ فيهِ وَلا تَغييرَ ، وَحثَّتِ الآيَةُ الكَريمَةُ : ﴿ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ﴾ عَلى عَدَمِ الظُّلْمِ في هذِه الأشْهُرِ باسْتِحلالِ القِتالِ أوِ الامتِناعِ عَنهُ إذا أغارَ عَلَيْكُمُ الأعداءُ فيها .

والنَّهْيُ عَنِ الظُّلمِ في هذِهِ الأشْهُرِ الأربَعَةِ ، يَعْني بالقِتالِ فيها ، ولا يَعني أنَّهُ مُباحٌ في بَقِيَّةِ الأشهُرِ ، فَالظُّلمُ حَرامٌ في الأشهُرِ الحُرُمِ وَغَيرِها ، وَلكِنَّ الآيَةَ ذَكَرَتْ هذا لِخُصوصِيَّةِ هذِهِ الأشهُرِ ، وَلأنَّ فيها مِنَ الأحكامِ ما لَيسَ في غَيرِها .

ثُمَّ وَجَّهَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ النِّداءَ لِلمُؤْمِنينَ بِأنْ يُقاتِلوا جَماعَةَ المُشْرِكينَ دونَ استِثناءِ أَحَدٍ مِنهُم ، كَما أنَّهم يُقاتِلونَكُم أيُّها المُؤْمِنونَ مُعادينَ لَكُم جَميعاً ، وَخُتِمَتِ الآيَةُ الكَريمَةُ بأدَبٍ عالٍ مَعَ اللهِ تَعالى حَثّاً لِلمُؤْمِنينَ عَلى أنْ يَكونوا عَلى يَقينٍ مِنْ أنَّ اللهَ تَعالى ناصِرٌ لِلّذينَ يَخافونَ ، فَيَلتَزِمونَ أوامِرَهُ ، وَيجتَنِبونَ نَواهيهِ .

وَبَعْدَ هذا نَعى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَلى المُشْرِكينَ ما كانوا يَعْمَلونَ مِنْ تَقديمِ الأشهُرِ وَتَأخيرِها حَسَبَ أهوائِهِم وَتأييداً لِمَآرِبِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

---

(١) أخرجَهُ البخاريُ ، وسمّاهُ النبيُّ ﷺ رجبَ مضرٍ ، لأنَّ بني ربيعةَ بنَ نزارٍ كانوا يُحرِّمونَ شهر رمضان ، ويسمّونهُ رجباً ، وكانتْ قبيلةُ مضرٍ تحرّمُ رجبَ نفسهُ : ٤/ ١٧١٢ حديث رقم (٤٣٨٥) .

﴿ إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وَما تَأخيرُ هذِهِ الأَشْهُرِ الحُرُمِ أو بَعضِها عَمّا رَتَّبَهُ اللهُ تَعالى ـ كما كانَ يَفعَلُ أهلُ الجاهِليَّةِ ـ إلاّ إمعانٌ في الكُفْرِ ، يَزدادُ بِهِ الّذينَ كَفروا ضَلالاً فوقَ ضَلالِهِم ، لأنَّهُم قَد جَمَعوا إلى كُفرِهِم بِاللهِ تَعالى كُفْراً آخَرَ ، وَهُوَ تَحليلُهُم لِما حَرَّمَ اللهُ تَعالى ، وَتَحريمِهِم لِما أَحَلَّ اللهُ تَعالى ، وَبِذلِكَ يَكونونَ قد جَمَعوا بَينَ الكُفْرِ في العَقيدَةِ وَالكُفْرِ في التَّشريعِ .

وَقد كانَ العَرَبُ في الجاهِليَّةِ يَجعَلونَ الشَّهْرَ الحَرامَ حَلالاً إذا احتاجوا إلى القِتالِ فيهِ ، وَيَجْعَلونَ الشَّهرَ الحَلالَ حَراماً بَدَلاً عَن ذلِكَ الّذي أحَلّوهُ وَيقولونَ : شَهرٌ بِشَهرٍ ، لِيُوافِقوا عَدَدَ الأشهُرِ الّتي حَرَّمَها اللهُ تَعالى .

وَقَد حَسَّنَتْ لَهُم أهواؤُهُم أعمالَهُمُ السَّيِّئَةَ ، وَاللهُ تَعالى لا يَهدي القَوْمَ المُصِرِّينَ عَلى كُفْرِهِم ، لأنَّهم بِسَبَبِ سوءِ اختيارِهِمُ استَحبّوا العَمى عَلى الهُدى ، وَآثَروا الغِيَّ عَلى طَريقِ الرَّشادِ ، فَكانَ أمرُهُم فُرُطاً وتِلكَ حِكمَةُ اللهِ تَعالى فيمَنْ هذا شَأنُهُ ، واللهُ تَعالى لا يُغَيِّرُ حِكْمَتَهُ ولا يُبَدِّلُ سُنَّتَهُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ السَّنَةُ اثنا عَشَرَ شَهراً ، وإنَّ شُهورَ السَّنَةِ القَمَرِيَّةِ هِيَ المُعَوَّلُ عَلَيْها في الأحكامِ الشَّرعِيَّةِ .

٢ـ وُجوبُ التَّقيُّدِ بِما شَرَعَهُ اللهُ تَعالى مِن أحكامٍ مِنْ دونِ زيادَةٍ أو نُقصانٍ .

٣ـ لا يَحِلُّ القِتالُ في الأشْهُرِ الحُرُمِ إلاّ أنْ يَكونَ دِفاعاً ، بَل يَجِبُ قِتالُ مَنْ قاتَلَ المُسلِمينَ .

٤ـ الظُّلمُ حَرامٌ في الأشهُرِ الحُرُمِ وَغَيرِها .

٥ـ التَّحذيرُ مِن مُخالَفَةِ أوامِرِ اللهِ تَعالى ، وَسُلوكِ مَسالِكِ المُشْرِكينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

عِدَّةَ ، حُرُمٌ ، كافَّةً ، النَّسيءُ ، لِيُواطِئوا .

٢ـ سَمِّ الأشهُرَ الحُرُمَ .

٣ـ ماذا تَستَفيدُ مِن قَولِهِ تَعالى : ﴿فلا تَظْلِموا فيهنَّ أنفُسَكُمْ﴾ ؟

٤ـ كَيفَ ازدادَ الكافِرونُ كُفراً فَوقَ كُفْرِهِم ؟

٥ـ ما مَعنى النَّسيءِ ؟ وكَيفَ كانَ يَفعلُ المُشْرِكونَ بِخُصوصِ الأشهُرِ الحُرُمِ ؟

٦ـ ما مَعنى : زُيِّنَ لَهُم سوءُ أعمالِهِم ؟ وما خُطورَةُ تَزيينِ العمَلِ السَّيِّءِ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَسماءَ الأَشْهُرِ القَمَرِيَّةِ ، وَضَعْ دائِرَةً حَولَ كُلٍّ مِنَ الأشهُرِ الحُرُمِ .

* * *

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

انفروا	اخْرُجوا لِلجهادِ بِسُرعَةٍ وَنَشاطٍ .
اثاقلتم	تَثاقَلتُمْ وَتَباطَأتُمْ مائِلينَ إلى الرَّاحَةِ وَإِلى شَهَواتِ الدُّنيا الفانِيَةِ .
الغار	غارِ ثَورٍ ، الَّذي أوى إليهِ الرَّسولُ يَومَ الهِجرَةِ .
كلمة الذين كفروا	كَلِمَةَ الشِّرْكِ وَالكُفْرِ ، وَدولَتَهُ .

هذِهِ الآياتُ إلى آخِرِ السُّورَةِ الكَريمَةِ نَزَلَتْ في غَزوَةِ تَبوكَ ، تُقَوِّي مِن عَزْمِ المُؤْمِنينَ ، وتَكشِفُ

عَنْ كَذِبِ المُنافِقينَ ، وَتُبَيِّنُ أحكاماً كَثيرَةً لازِمَةً لِجماعَةِ المُؤْمِنينَ ، وَتُعاتِبُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ رَسول اللهِ ﷺ .

وَغزوَةُ تبوكَ كانَت في السَّنَةِ التّاسِعَةِ لِلهجرَةِ ، بِسَبَبِ حُشودِ الرُّوم وَأَتباعِهِم لِحَربِ المُسلِمينَ ، وَكانَ المُسلِمونَ في عُسْرَةٍ وَضيقٍ ، لِهذا كَرِهُ بَعضُ المُسلِمينَ الخُروجَ إلى القِتالِ . قالَ تَعالى :

يا أَيُّها الّذينَ آمَنوا بِاللهِ وَرَسولِهِ : مالَكُمْ إذا قيلَ لَكُمُ انْفِروا في سَبيلِ اللهِ اثّاقَلْتُمْ إلى الأرضِ ، يَعني : ما الّذي جَعَلَكُم تَباطَأتُم عَنِ الخُروجِ إلى الجِهادِ حينَ دَعاكُم رَسولُكُم ﷺ إلى قِتالِ الرُّوم ، وإلى النُّهوضِ لإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَنُصْرَةِ دينِهِ . وَقَد ناداهُم سُبْحانَهُ وتَعالى بِصيغَةِ الإيمانِ لِتَحريكِ واعِظِ العَقيدةِ في قُلوبِهِم ، ثُمَّ خاطَبَهُم مَتَعَجِّباً مِنهُم : عَجَباً لَكُمْ آآثَرتُم الحَياةَ الدُّنيا الفانِيَةَ عَلى الحَياةِ الآخِرَةِ وَنعيمِها الدّائِمِ ، فَما التَّمتُّعُ بِالدُّنيا وَلَذائِذِها في جَنبِ مَتاعِ الآخِرَةِ إلاّ قَليلٌ تافِهٌ . قالَ رَسولُ اللهِ في بَيانِ حَقارَةِ الدُّنيا بِالنِّسبَةِ لِلآخِرَةِ : (ما الدُّنيا في الآخِرَةِ إلاّ كَما يَجعَلُ أحَدُكُم إصْبَعَهُ هذِهِ في اليَمِّ ، فَلْيَنظُرْ بِمَ تَرجِعُ)[1] .

ثُمَّ هَدَّدَهُم سُبْحانَهُ وتَعالى بِالعَذابِ الأليمِ إنْ لَم يَنفِروا لِلجهادِ في سَبيلِهِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

إنْ لَم تَستَجيبوا لِلرَّسولِ ﷺ ، فَتَخرُجوا لِلجهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، يُعَذِّبْكُمُ اللهُ عَذاباً موجِعاً ، وَيستَبدِلِ اللهُ تَعالى بِكُم قَوماً آخَرينَ يَستَجيبونَ لِلرَّسولِ ﷺ ، وَلا يَتَخَلَّفونَ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَأنتُم بِتَخَلُّفِكُم هذا لا تَضُرُّونَ اللهَ تَعالى شَيئاً ، لأَنَّكُمْ أنتُمُ الضُّعَفاءُ ، وَاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى القَديرُ عَلى كُلِّ شَيءٍ ، فَالخَسارَةُ إنّما تَعودُ عَلَيْكُم .

وَهذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ والّتي سَبَقَتها اشتَمَلَتا عَلى أقوى الأساليبِ الّتي تَحُضُّ عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَتُرَغِّبُ فيهِ ، وَتُرَهِّبُ مِنَ النُّكوصِ وَالتَّخَلُّفِ عَنهُ ، وَتَبعَثُ عَلى الجِدِّ في طاعَةِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى ذَكَّرَ المُؤْمِنينَ بِما يَعرِفونَهُ مِنْ حالِ الرّسولِ ﷺ ، حَيثُ إنَّ اللهَ تَعالى نَصَرَهُ عَلى أعدائِهِ مِنْ دونِ عَوْنٍ مِنهُم ، وَأيَّدَهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِجُنودٍ لم يَرَها المُؤْمِنونَ ، وهذا كُلُّه

---

(١) رواه مسلم في صفة الجنة حديث رقم : ٢٨٥٨ .

بيانٌ مِنَ اللهِ تَعالى أنَّهُ مُتكفِّلٌ بنَصرِ رَسولِهِ ﷺ عَلى أعدائهِ ، وإظهارِ دينِهِ عَلى سائِرِ الأديانِ أعانَهُ المُؤمِنونَ عَلى ذلِكَ أم لَم يُعينوهُ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

يا أيُّها المُؤمِنونَ : إنْ لَم تنصُروا رَسولَ اللهِ ، فَإنَّ اللهَ تَعالى كَفيلٌ بنَصْرِهِ وَتأْييدِهِ ، كَما أيَّدَهُ وَنَصَرَهُ حينَما اضطَرَّهُ الّذينَ كَفَروا إلى الخُروجِ مِن مَكَّةَ وَلَيسَ مَعَهُ إلاّ رَفيقُهُ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ ، وكانَ ثانيَ اثنَيْنِ ، وَبَينَما هُما في الغارِ مُختَفِيانِ عَنْ أعيُنِ الكُفّارِ الّذينَ يَتعقَّبونَهُما ، خَشِيَ أبو بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ عَلى حَياةِ الرَّسولِ ﷺ ، فَقالَ لَهُ الرَّسولُ مُطَمْئِناً : لا تَحزَنْ ، إنَّ اللهَ معنا بالنَّصْرِ وَالمَعونَةِ ، عِندَ ذلِكَ أنْزَلَ اللهُ تَعالى الطُّمَأْنينَةَ في قَلْبِ صاحِبِه ، وَأيَّدَ رَسولَهُ ﷺ بجُنودٍ مِنْ عِندِهِ ، لا يَعلَمُها إلاّ هُوَ سُبْحانَهُ ، وَانتَهى الأمرُ بأنْ جَعَلَ اللهُ تَعالى شَوْكَةَ الكافِرينَ مَكسورَةً ، مَقهورَةً ، وَدينُ اللهِ هُوَ الغالِبُ ، وَكَلِمَتُهُ هِيَ العُليا ، وَاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى لا يُقهَرُ ، حَكيمٌ لا يَختَلُّ تَدبيرُهُ وَلا خَلَلَ في فِعْلِهِ .

وبَعدَ هذا التَّذكيرِ لِلمُؤمِنينَ بما كانَ مِنهُ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنْ تأييدٍ لِرَسولِهِ ﷺ عِندَ هِجرَتِهِ ، أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤمِنينَ بِالنَّفيرِ في كُلِّ حالٍ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

يا أيُّها الّذينَ آمَنوا إذا دَعا داعي الجهادِ فَلبُّوا النِّداءَ شَباباً وَشيباً ، رُكباناً وَمُشاةً ، سَهُلَ النَّفرُ عَلَيكُم أو ثَقُلَ وَصَعُبَ ، وَانْشَطوا بِالقُوَّةِ وَالسِّلاحِ ، وَجاهِدوا بِالمالِ وَالنَّفسِ في سَبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، فَفي ذلكَ العِزُّ وَالخَيرُ لَكُم في دُنياكُم وَفي آخِرَتِكُم ، إنْ كُنتُم مِن أهلِ العِلْمِ بِحقيقةِ ما بَيَّنَ لَكُم خالِقُكُم وَمُرَبّيكُم عَلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ .

وَلَقدْ أدرَكَ المُؤمِنونَ الصّادِقونَ حَقيقةَ هذا الخَيرِ ، فامتَثَلوا أمْرَ رَبِّهِم ، وَنَفَروا لِلجهادِ في سَبيلِهِ خِفافاً وَثِقالاً ، دونَ تَباطُؤٍ أو تَقاعُسٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التَّحذيرُ مِن مُخالَفَةِ أمرِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ بالإخلادِ إلى الأرضِ .

٢ـ الحَياةُ الدُّنيا في جَنْبِ الآخِرَةِ مَتاعٌ قَليلٌ زائِلٌ .

٣ـ وَجوبُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بِكُلِّ حالٍ ، وَالتَّحذيرُ مِنَ القُعودِ عَنهُ .

٤ـ ضَرَرُ القُعودِ عَن الجِهادِ يُلازِمُ القاعِدينَ .

٥ـ بَيانُ نِعمَةِ اللهِ تَعالى عَلى عِبادِهِ بِنُصْرَةِ رَسولِهِ ﷺ وَإعلائِهِ كَلِمَتَهُ وَعنايَتِهِ بِرَسولِهِ ﷺ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

انفِروا ، أثّاقَلْتُم ، كَلِمَةَ الّذينَ كَفَروا ، كَلِمَةُ اللهِ .

٢ـ بيِّنْ ما الّذي يَجبُ أنْ يَكونَ عَلَيْهِ مَوقِفُ المُؤْمِنِ حينَ يُدْعى إلى النَّفيرِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ جَزاءَ القُعودِ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، بيِّنْ ذلِكَ .

٤ـ بيِّن كَيفَ تَستَدِلُّ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى فَضْلِ أبي بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُ .

٥ـ في الآيَةِ الأخيرَةِ (٤١) بَيانٌ لِوُجوبِ الجِهادِ ، بيِّنْ ذلِكَ .

٦ـ ماذا تَفهَمُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ ﴿أَرَضيتُم بِالحياةِ الدُنيا مِنَ الآخِرَةِ﴾ .

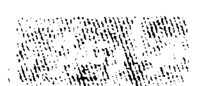
ب ـ ﴿وَلا تَضُرّوهُ شَيئاً﴾ .

ج ـ ﴿إلاّ تَنصُروهُ فَقَد نَصَرَهُ اللهُ﴾ .

٧ـ بيِّنْ سببَ نزولِ هذهِ الآياتِ .

١ـ ماذا تفهَمُ مِن قَولِهِ تَعالى : ﴿كلمةُ اللهِ هِيَ العليا﴾ بَعدَ قَولِهِ تَعالى : ﴿وجَعَلَ كلمةَ الّذينَ كَفروا السُّفلى﴾ ؟ اكتُبِ الجوابَ في دَفْتَرِكَ .

٢ـ ارجِعْ إلى أحَدِ كُتُبِ السّيرَةِ النَّبويَّةِ ، وَاكتُبْ أسبابِ غَزوَةِ تَبوكَ ، وانقُلْ ذلِكَ إلى دَفْتَرِكَ .



[ذ]كَرَ القُرطُبيُّ أنَّ أبا طَلحَةَ قَرَأَ سورَةَ (بَراءَةٍ) فَأتى عَلى هذِهِ الآيَةِ : ﴿انفِروا خِفافاً وثِقالاً﴾ فَقالَ : أيْ بَنِيَّ ، جَهِّزوني جَهِّزوني ، فَقالَ بَنوهُ : يَرحَمُكَ اللهُ! لَقَد غَزَوتَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ حَتّى ماتَ ، وَمَعَ أبي بَكْرٍ حَتّى ماتَ ، وَمَعَ عُمَرَ حَتّى ماتَ ، فَنَحنُ نَغزو عَنكَ ، فَقالَ : لا ، جَهِّزوني ، فَغَزا في البَحرِ فَماتَ في البحرِ ، فَلَم يَجِدوا لَهُ جَزيرةً يَدفِنوهُ فيها إلاّ بَعْدَ سَبعَةِ أيّامٍ ، فَدَفَنوهُ فيها ، وَلَم يَتَغيَّرْ رَضِيَ اللهُ عَنهُ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والعِشْرونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّاني عَشَر

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عَرَضاً	: غَنيمَةً أو مَتاعاً .
سَفَراً قاصِداً	: سَهلاً لا عَناءَ فيهِ وَلا مَشَقَّةَ .
الشُّقَّةُ	: المَسافَةُ البَعيدَةُ الشّاقَّةُ .
ارْتابَتْ قُلوبُهُمْ	: اضْطَرَبَتْ وَأصابَها الهَلَعُ مِن ثِقَلِ الدِّينِ الجَديدِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ تَحذيرِ المُؤْمنينَ مِنَ القُعودِ عَنِ الجهادِ ، وَبَيانِ نَصرِ اللهِ تَعالى لِرَسولِهِ ﷺ ، أَخَذَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ في بَيانِ قَبائِحِ المُنافِقينَ ، وَمَعاذيرِهِمُ الواهِيَةِ وَمَسالِكِهِمُ الخَبيثَةِ ، وأَيْمانِهِمُ الفاجِرَةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

نَدَّدَ القُرآنُ الكَريمُ بِالمُنافِقينَ في تَخَلُّفِهِم عَنْ مُتابَعَةِ الرَّسولِ ﷺ وَالجِهادِ مَعَهُ ، فَقالَ : لَو كانَ

الّذي دَعوتَهُم إليهِ يا مُحَمَّدُ ﷺ مَتاعاً مِنْ مُتَعِ الحَياةِ الدُّنيا ، وَسَفَراً سَهْلاً قَريباً لاتَّبَعوكَ فيما دَعوتَهُم إليهِ ، لأنَّهُ يُوافِقُ أهواءَهُم ، وَيُشبِعُ رَغَباتِهِم ، وَلَكِنَّهُم حينَ عَرَفوا أنَّ ما دَعوتَهُم إليهِ هُوَ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَما يَصحَبُهُ مِن سَفَرٍ وَمَشَقَّةٍ ، وَتَضحِياتٍ جَسيمَةٍ ، تَعَلَّلوا لَكَ بالمَعاذيرِ الكاذِبَةِ ، وَتَخَلَّفوا عَنِ الخُروجِ مَعَكَ ، جُبْناً مِنهُم ، وَحُبّاً لِلرّاحَةِ وَالسَّلامَةِ ، وَسَيَحلِفُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ باللهِ تَعالى كَذِباً وَزوراً قائِلينَ : لَو استَطَعْنا أيُّها المُؤْمِنونَ أنْ نَخرُجَ مَعَكُم لِلْجِهادِ في تَبوكَ لَخَرَجنا ، فَإِنَّنا لَم نَتَخَلَّفْ عَنِ الخُروجِ مَعَكُم إلاّ مُضطَرّينَ ، فَقَد كانَ لَنا مِنَ الأعذارِ ما حَمَلَنا عَلى التَّخَلُّفِ عَنكُم .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى سوءَ مَصيرِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ الكَذّابينَ فَقالَ : ﴿ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

أيْ أنَّ هؤُلاءِ المُتَخَلِّفينَ عَنِ الجِهادِ يُهْلِكونَ أنفُسَهُم بإيقاعِها في ضُرِّ الدُّنيا وَعَذابِ الآخِرَةِ بِسَبَبِ حَلْفِهِمُ الكاذِبِ ، وَجُرْأتِهِم عَلى اللهِ تَعالى في اختِلاقِ المَعاذيرِ الكاذِبَةِ الباطِلَةِ ، مَع أنَّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يَعلَمُ كَذِبَهُم في أيْمانِهِم ، وَفيما قَدَّموهُ مِنْ أعذارٍ .

ثُمَّ عاتَبَ اللهُ تَبارَكَ وتَعالى نَبيَّهُ مُحَمَّداً عِتاباً رَقيقاً ، لأَنَّهُ أذِنَ لِلمُنافِقينَ الّذينَ استَأذَنوهُ بِالتَّخَلُّفِ عَنِ الجِهادِ حينَ طَلَبوا ذلِكَ دونَ أنْ يَتَبَيَّنَ أحوالَهُم ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ .

عَفا اللهُ تَعالى عَنكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ وَتَجاوَزَ عَنْ مُؤاخَذَتِكَ فيما فَعَلْتَهُ مَعَ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مِن سَماحِكَ لَهُم بالتَّخَلُّفِ عَنِ الجِهادِ مَعَكَ في غَزوَةِ تَبوكَ ، حينَ اعتَذَروا إليكَ بالأعذارِ الكاذِبَةِ ، وَكانَ الأوْلى بِكَ أنْ تَتَرَيَّثَ وَتَتَأنّى في السَّماحِ لَهُم بالتَّخَلُّفِ ، حَتّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الّذينَ صَدَقوا في اعتِذارِهِم مِنَ الّذينَ كَذَبوا فيهِ ، فَقَد كانوا كاذِبينَ في مَعاذيرِهِم ، وَكانوا مُصِرّينَ عَلى القُعودِ عَنِ الجِهادِ حَتّى لَو لَمْ تَأذَنْ لَهُم بِذلِكَ . وَهذا عِتابٌ رَقيقٌ مِنَ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى لِنَبيِّهِ ﷺ . وَفي هذِهِ المُعاتَبَةِ الرَّقيقَةِ تَعليمٌ لِلمُؤْمِنينَ جَميعاً أنْ يَحتَرِموا رَسولَ اللهِ ﷺ وَيُوَقِّروهُ ، لأنَّ في هذِهِ الرِّقَّةِ في العِتابِ مِنْ تَعظيمِ شَأنِ النَّبيِّ ﷺ شَيئاً كَبيراً .

ثمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الصِّفاتِ الّتي يَتَميَّزُ بِها المُؤْمِنونَ الصّادِقونَ عَن غَيرِهِم مِنَ المُنافقينَ الكاذِبينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴾

لَيسَ مِنْ شَأنِ المُؤْمِنينَ باللهِ تَعالى الصّادِقينَ أنْ يَستَأذِنوكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ كَيلا يُجاهِدوا بِأموالِهِم وَأنفُسِهِم في سَبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَنُصْرَةِ دينِهِ ، وَإنَّما هُوَ شَأنُهُم وَعادَتُهُم ـ كَما ظَهَرَ ذلِكَ مِن

واقِعِهم وتاريخِهِم ـ أنْ يَنفِروا خِفافاً وَثِقالاً ، وَيُلبّوا نِداءَ الحَقِّ مُسرِعينَ غَيرَ مُتَثاقِلينَ وَلا مُتَباطِئينَ عِندَما يَدعو داعي الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَهُم لا يَنتَظِرونَ إذْناً مِنْ أحَدٍ ، وَإنَّما فَوْرَ أنْ تَدعوهُم يُسرِعونَ في إجابَةِ الطَّلَبِ وذَلِكَ لِقُوَّةِ إيمانِهِم ، وَصَفاءِ نُفوسِهِم ، وَاشتياقِهِم إلى الشَّهادَةِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

والمُؤْمِنونَ في هذا الجانِبِ يَمْتَثِلونَ أوامِرَ رَسولِهِم ﷺ ، وَيُحقِّقونَ قَولَهُ ، الّذي مِنهُ ما أخرَجَهُ الإمامُ مُسلِمٌ في صَحيحِهِ ، عَن أبي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ : (مِنْ خَيرِ مَعاشِ النّاسِ لَهُم ، رَجُلٌ مُمسِكٌ عِنانَ فَرَسِهِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى يَطيرُ عَلى مَتنِهِ ، كُلَّما سَمِعَ هَيْعَةً أو فَزْعَةً طارَ عَلَيْهِ يَبتَغي القَتْلَ أو المَوتَ مَظانَّهُ)[1] .

وَكَيفَ لا يَستَجيبُ المُؤْمِنونَ لِهذا الّذي يَدعوهُم إلى الجَنَّةِ ، بَل لَقَدِ استَجابوا وَكانَتِ استِجابَتُهُم مَثَلاً رائِعاً في طاعَةِ المُؤْمِنينَ لِرَبِّهِم تَبارَكَ وتَعالى وَلِنَبِيِّهِم ﷺ .

وَقَولُهُ تَعالى : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ فائِدَتُها التَّنبيهُ عَلى أنّ اللهَ تَعالى مُطَّلِعٌ عَلى أسرارِ المُؤْمِنينَ ؛ إذْ هُم المُرادُ بِالمُتَّقينَ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الصِّفاتِ الّتي يُعرَفُ بِها المُنافِقونَ بَعْدَ أنْ بَيَّنَ الصِّفاتِ الّتي يَتَمَيَّزُ بِها المُؤْمِنونَ ، وهِيَ الإيمانُ بِاللهِ تَعالى ، وَالإيمانُ بِاليَومِ الآخِرِ ، وَالمُسارَعَةُ إلى فِعْلِ الخَيراتِ ، وأَمّا المُنافِقونَ فَقَد قالَ تَعالى عَنهُم :

﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

إنَّما يَستَأْذِنُكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ في القُعودِ عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى أولَئِكَ الّذينَ مِنْ صِفاتِهِم أنَّهم لا يُؤْمِنونَ بِاللهِ تَعالى إيماناً صادِقاً كامِلاً ، وَلا يُؤمِنونَ بِاليَومِ الآخِرِ وَما فيهِ مِنْ ثَوابٍ وَعِقابٍ عَظيمَيْنِ مِمّا جِئتَ بِهِ مِنَ الدِّينِ ، فَصاروا يَقِفونَ مِن تَعاليمِكَ وَتَوجيهاتِكَ مَوْقِفَ الفَزِعِ الهَلِعِ الخائِفِ .

هذا هُوَ مَوقِفُهُم لا يَخرُجونَ عَنهُ ، فَإنْ ظَهَرَ مِنهُم ما يُبدي خُروجَهُم عَن هذا المَوقِفِ سُرعانَ ما يَعودونَ إلَيهِ ، لأنَّه صارَ سِمَةً لازِمَةً لَهُم ، وَعَلامَةً فارِقَةً لَهُم عَن غَيرِهِم .

وَهذِهِ الآيَةُ ذَكَرتْ مِنْ صِفاتِهِم أشياءَ ثَلاثَةً ، هِيَ : عَدَمُ إيمانِهِم بِاللهِ تَعالى ، وَعَدمُ إيمانِهِم بِاليَومِ الآخِرِ ، وَتَقاعُسُهُمْ عَنِ امتِثالِ أوامِرِ اللهِ تَعالى وَأوامِرِ رَسولِهِ ﷺ المُتَمَثِّلِ في رَيْبَتِهِم مِنهُ ، لأنَّ

---

(١) أخرَجَهُ الإمامُ مسلم في كتابِ الإمارة حديث رقم : ١٨٨٩ ، ومعنى من خير معاش : من خيرِ الحياةِ ، الهَيْعةُ : الصوت عندَ حضورِ العدوِّ ، مَتْنُهُ : ظَهْرهُ .

مَن يَرتابُ مِنْ شَيءٍ لا يَفعَلُهُ ، وَهكذا حَصَلَ التَّقابُلُ في هذِهِ الآيَةِ مَعَ الّتي سَبَقَتْها في صِفاتِ المُنافِقينَ مَعَ صفاتِ المُؤْمِنينَ ، لِيَميزَ اللهُ تَعالى الخَبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأَيْمانُ الكاذِبَةُ تُؤَدِّي إلى الهَلاكِ وَالخُسرانِ .

٢ـ يَجِبُ عَلى المُسلِمِ التَّريُّثُ في الحُكْمِ عَلى الأُمورِ ، وَعَدمُ التَّسَرُّعِ في إصدارِ الأحكامِ ، حَتّى يَتَبَيَّنَ الدَّليلُ .

٣ـ الواجِباتُ وَالأفعالُ الحَسَنَةُ نُسارِعُ إلى فِعْلِها دونَ اسْتِئذانٍ .

٤ـ المُسارَعَةُ إلى تَنفيذِ أوامرِ اللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ عَلامَةٌ فارِقَةٌ بَينَ المُؤْمِنينَ والمُنافِقينَ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

أـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

عَرَضاً ، سَفَراً قاصِداً ، الشُقَّةُ ، ارتابَتْ قُلوبُهُم .

ب ـ بيَّنَت الآيَةُ الأولى (٤٢) أنّهُ إذا تَحَقَّقَ لِلمُنافِقينَ رَجاؤُهُم مِنَ الخُروجِ خَرجوا ، بيِّنْ ذلِكَ .

ج ـ ذكرتِ الآياتُ الكَريمَةُ مُوازَنَةً بَينَ المُؤْمِنينَ والمُنافِقينَ ، بَيّنْ صِفاتِ كُلٍّ مِنَ الطّائِفتَيْنِ .

د ـ ماذا تَستَفيدُ مِنْ قولِهِ تعالى :

أـ يُهلِكونَ أنفُسَهُم .

ب ـ عَفا اللهُ عَنكَ .

هـ ـ في الآياتِ الكَريمَةِ أدبٌ سامٍ مَعَ النَّبيّ ﷺ ، وَضِّحْ ذلِكَ .

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الحديثَ الشَّريفَ الّذي يُبَيِّنُ صِفاتِ المُنافِقينَ .

۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

انبعاثهم: خُروجَهُم مَعَكَ لِلجهادِ .

فثبطهم: أزالَ عَزيمَتَهُم عَنِ الخُروجِ وَحَبَسَهُم عَنهُ .

خبالاً: فَساداً ، وَالمُرادُ اضْطِرابُ الجَيشِ وَاختِلالُ نِظامِهِ .

ولأوضعوا خلالكم: بَذَلوا جُهدَهُمْ لإيقاعِ التَّخاذُلِ وَالخَوْفِ بَينَ رِجالِ الجَيشِ .

هُنا تُتابعُ الآياتُ الكَريمَةُ بَيانَ بَعضِ المَسالِكِ الخَبيثَةِ الّتي كانَ يَتَّبعُها هؤُلاءِ المُنافِقونَ لِمُحارَبَةِ الدّعوةِ الإسلامِيّةِ ، وَكَيفَ أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أحْبَطَ مَكْرَهُم وَأفسَدَ خُطَطَهُم ، وَذلِكَ بَعْدَ أن مَيَّزَ اللهُ تَعالى بَينَ المُؤْمِنينَ وَبَينَهُم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ .

وَلَو صَدَقَتْ نِيَّةُ هؤُلاءِ المُنافِقينَ في الخُروجِ مَعَ الرَّسولِ لِلجهادِ لأَخَذوا أُهبَةَ الحَربِ ، وَاستَعَدّوا لَها بِما يَلزَمُ مِنَ المالِ وَالزّادِ ، وَالرّاحِلَةِ ، وَتَهَيَّأَتْ نُفوسُهُم لِذلِكَ ، وَلكِنَّ اللهَ تَعالى كَرِهَ خُروجَهُم مَعَ المُسلِمينَ ، لِعِلْمِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّهُم لَو خَرَجوا مَعَهُم لكانوا عَلَيْهِم لا لَهُم ، وَلِذلِكَ ثَبَّطَهُم اللهُ تَبارَكَ وتَعالى بِأَنْ خَلَقَ فيهِمُ الكَسَلَ ،وَضَعْفَ العَزيمَةِ عَلى الغَزوِ ، فَخارَتْ قِواهُم ، وَجَبُنوا ، وَتَنادَوْا فيما بَينَهُم أَنِ اقْعُدوا مَعَ القاعِدينَ ، أَصحابِ المَعاذيرِ وَالنِّساءِ وَالصِّبيانِ ، وَالمَرضى ، والمُستَضعَفينَ الّذينَ لا قُدرَةَ لَهُم عَلى المعارِكِ وَخَوضِ الحُروبِ ، وَهكَذا هانَتْ عَلَيْهِم أنفُسُهُم لَمّا قَعَدوا عَنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَهكَذا دائِماً أَوزارُ القُعودِ عَنِ الجِهادِ : خَوَرٌ ، وَضَعفٌ وَانحِلالٌ ، وَهَزيمَةٌ مَعنَوِيَّةٌ وَمادِّيَّةٌ ، وَاضطِرابٌ وَهَلَعٌ ، مُستَنقَعُ أمراضٍ لا يُذهِبُهُ وَيُجفِّفُهُ إلاّ شَمسُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعضاً مِنَ المَفاسِدِ الّتي تَتَرَتَّبُ عَلى خُروجِ المُنافِقينَ في جَيشِ المُؤْمِنينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

وَلَو خَرَجوا في صُفوفِ جَيشِكُمُ الغادي إلى تَبوكَ ، ما زادوكُم بِخُروجِهِم قُوَّةً ، بَل كانَ غايَةُ قَصْدِهِم أَنْ يُشيعوا فيما بَينَكُمُ اضْطِراباً في الرَّأيِ ، وَفَساداً في العَمَلِ ، وَضَعْفاً في القِتالِ ، وَلأَجْهَدَ هؤُلاءِ المُنافِقونَ أَنفُسَهُم ، وَبذَلوا كُلَّ ما لَدَيْهِم مِنْ قُوَّةٍ في التَّشكيكِ وَالخَديعَةِ ، لإيقاعِ الفِتنَةِ فيما بَيْنَكُم ، كَيْما يَصُدّوكُم عَن غايَتِكُم بِإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَيَرُدّوكُم عَن مَقصِدِكُم الّذي قَصَدتُموهُ ، هُم يَفعلَونَ هذا لأَنَّ هذا شَأْنُ النُّفوسِ المَريضَةِ الّتي تَمكُرُ لَكُمُ الشَّرَّ ، وَتُريدُ لَكُمُ الشَّرَّ ، وَمَع هذا فإِنَّ فيكُم أَيُّها المُؤْمِنونَ مَنْ يَجهَلُ خُبْثَ نِيّاتِهِم ، وَيُمكِنُ أَنْ يُخدَعَ بِكَلامِهِم ، فَيَفتَحُ لَهُم أُذُنَيْهِ وَيَسمَعُ دَعوتَهُم إلى الفِتنَةِ الّتي مُؤَدّاها ضَعفُ المُسلِمينَ في دينِهِم أو دُنياهُم . ثُمَّ هَدَّدَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى المُنافِقينَ بِقَولِهِ : ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ الّذينَ يَظلِمونَ أَنفُسَهُم بِما أَضْمَروهُ مِنَ الفَسادِ .

و بِذلكَ نَرى أَنَّ هذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ قَدْ وَضَّحَتْ أَنَّ هُناكَ ثَلاثَ مَفاسِدَ كانَتْ سَتَتَرَتَّبُ عَلى خُروجِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مَعَ المُؤْمِنينَ إِلى تَبوكَ :

الأولى : زِيادَةُ الاضْطِرابِ وَالفَوضى في صُفوفِ المُجاهِدينَ .

الثَّانِيَةُ : الإسراعُ بَينَهُم بالوِشاياتِ وَالنَّمائِمِ وَالإشاعاتِ الكاذِبَةِ .

الثَّالِثَةُ : الحِرْصُ عَلى تَفريقِ كَلِمَةِ المُؤْمِنينَ وَتَشكيكِهِم في عَقيدَتِهِم .

وَهذِهِ المَفاسِدُ الثّلاثُ ما وُجِدَتْ في جَيشٍ إلاّ أدَّتْ إلى انْهِزامِهِ ، وَمِنْ هُنا أيضاً كانَتِ الكَثْرَةُ العَدَدِيَّةُ في الجُيوشِ لا تُؤتي ثِمارَها المَرجُوَّةَ مِنها ، إلاّ إذا كانَتْ مُتَّحِدَةً في عقيدتِها وأهدافِها ، وَاتِّجاهاتِها ، أمّا إذا كانَت هذِهِ الكَثْرَةُ مُشتَمِلَةً عَلى عَدَدٍ كَبيرٍ مِنْ ضِعافِ الإيمانِ ، فَإنَّ ضَرَرَها يَكونُ أكبَرَ مِنْ نَفْعِها .

ثُمَّ ذَكَّرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ بِطَرَفٍ مِنَ الماضي المُظلِمِ لِهؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

إنّ ما صَدَر مِنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مِنْ مَسالِكَ خَبيثَةٍ وَشُرورٍ خِلالَ غَزوَةِ تَبوكَ ، لَيسَ هُوَ الأوَّلُ مِن نَوْعِهِ ، بَل لَهُم في هذا المِضمارِ تاريخٌ مُظلِمٌ بَدَأ مُنذُ أوائِلِ عَهدِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ بِالمَدينَةِ .

ومِنْ مَظاهِرِ هذهِ الحالةِ عِنْدَهُمْ : أنَّهُمْ ساءَهُمُ انْتِصارُ المُسْلِمينَ في غزوةِ بَدْرٍ ، وأنَّهُمُ امْتَنعوا عَنْ مُناصَرَةِ المُسْلِمينَ في غَزْوةِ أُحُدٍ ، وانْخَذَلَ زَعيمُهُمْ عبدُاللهِ بنُ أُبيٍّ بنِ سَلولٍ بِثُلُثِ الجيشِ . ولولا لُطْفُ اللهِ تَعالى لَحَدَثَ لِلْمُسْلِمينَ ما لا تُحْمَدُ عُقْباهُ . ومِنْ ذلكَ أيْضاً أنَّ بَعْضَهُمْ وقَفَ عَلى ثَنْيَةِ الوَداعِ ليلةَ العقبةِ لِيَفْتِكوا بالنَّبيِّ ﷺ .

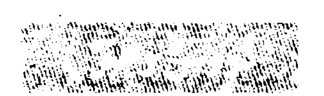
هذا شأنُ المُنافِقينَ مِنْ قَبْلُ ، ثُمَّ إنَّهُمْ أعْمَلوا المكائِدَ والحِيَلَ للإضْرارِ بالنَّبيِّ ﷺ بعدَ تلكَ الأُمورِ ،وكذا بحثوا وتجسَّسوا للاطِّلاعِ عَلى شَأْنِ المُسْلِمينَ وإخْبارِ العدوِّ بِهِ . ولقدِ اسْتَمرَّ هؤلاءِ عَلى هذهِ المفاسِدِ يُحارِبونَ الدَّعوةَ الإسْلامِيَّةَ حتَّى جاءَ النَّصْرُ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى لِعبادِهِ الموحِّدينَ ، وظَهَرَ دينُ اللهِ تَعالى وشَرْعُهُ . والمنافقونَ وأشْباهُهُمْ كارِهونَ ذلكَ ، لأنَّهُ يَغيظُهُمُ انتصارُ الإسلامِ وأهْلِهِ ، ويُحِبّونَ هَزيمةَ المُسْلِمينَ وخِذْلانَهُمْ ، ولكنَّ اللهَ تَعالى خَيَّبَ آمالَهُمْ ، وأحْبَطَ كَيْدَهُمْ ومَكْرَهُمْ .

ثُمَّ حكى لنا اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى طَرَفاً مِنْ مَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ وأقوالِهِمُ الخَبيثَةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

إنَّ مِنْ هؤلاءِ المُنافِقينَ مَنْ كانَ يَقولُ للرَّسولِ ﷺ ائْذَنْ لي في القُعودِ عنِ الجهادِ ، ولا توقِعْني في شِدَّةٍ وضيقٍ ، يَعْني بِذلِكَ أنَّهُمُ اعْتَقَدوا أنَّ الجهادَ فِتْنَةٌ وشِدَّةٌ لأنَّهُ يُؤدِّي إلى الموتِ الّذي هوَ مِنْ أشدِّ الأهْوالِ عَلى المُنافِقينَ ، وما عَلِمَ هؤلاءُ أنَّ قُعودَهُمْ عَنِ الجهادِ هُوَ الفِتْنَةُ ، وهو الشَّرُّ وهُوَ

الضّيقُ . إنَّ القُعودَ عنِ الجهادِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ومَعَ رَسولِه ﷺ مِنْ أعظمِ المَعاصي ، وأيُّ فِتْنَةٍ أعظمُ مِنْ هذهِ ؟ ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّ تَخلُّفَ هؤلاءِ عنِ الجِهادِ إنَّما هُوَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ وأنَّ اللهَ تَعالى مُحيطٌ بِهِمْ ، فَلَنْ يَفْلِتوا مِنْ عِقابِهِ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ في القُعودِ عنِ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى هَزيمةٌ ومَذَلَّةٌ .

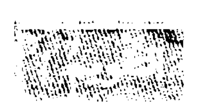
٢ـ عَلى الإمامِ أنْ يَحْمِيَ الصَّفَّ المُسْلِمَ مِمَّنْ يُريدُ بهِ فَساداً .

٣ـ إعْدادُ العُدَّةِ للجِهادِ واجِبٌ .

٤ـ تَنقيةُ الصَّفِّ المُسْلِمِ مِنْ أقوى عُدَدِ النَّصْرِ .

٥ـ التَّحذيرُ مِنْ مكائِدِ المُنافِقينَ .

٦ـ لنْ يَتوانى المُنافِقونَ عنْ إيقاعِ الأذى بالمُسْلِمينَ في أيِّ مُناسَبَةٍ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

كَرِهَ اللهُ انْبِعاثَهُمْ ، ثَبَّطَهُمْ ، ما زادوكُمْ إلاّ خَبالاً ، أوْضَعوا خِلالَكُم .

٢ـ ماذا نَستفيدُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ لَوْ أرادوا الخُروجَ لأعَدّوا لهُ عُدَّةً .

ب ـ وفيكُمْ سمَّاعونَ لَهُمْ .

ج ـ واللهُ عليمٌ بالظَّالِمينَ .

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ في خُروجِ المُنافِقينَ في جيشِ المُسْلِمينَ مَفاسِدَ عِدَّةً ، اذْكُرْ هذهِ المَفاسِدَ .

٤ـ بيِّنْ أثَرَ نَقاءِ الصَّفِّ المُسْلِمِ المُجاهِدِ عَلى المعركةِ .

٥ـ ما الّذي يُمْكِنُ أنْ تُفيدَهُ مِنْ عَرْضِ الآياتِ الكَريمةِ لبعضِ صِفاتِ المُنافِقينَ ؟

الدرس الخامس والثلاثون

سورة التوبة - القسم الرابع عشر

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ قُلْ أَنفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

معاني المفردات :

قَدْ أَخَذْنا أَمْرَنا مِن قَبْلُ	: استعدَدْنا لِما يُحتَمَلُ .
تَرَبَّصونَ بِنا	: تَنتَظِرونَ حُصولَ شَيءٍ بِنا .
إِحْدى الحُسْنَيَيْنِ	: النَّصْرُ أو الشَّهادَةُ .

التَّفسيرُ :

ما تَزالُ الآياتُ الكَريمَةُ تَتتابَعُ في بَيانِ قَبائِحِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فَضْحاً لَهُم وتَحذيراً لِلمُؤْمِنينَ مِنْ أَنْ يَسلُكوا مَسالِكَهُمْ ، وَهُنا نَوعٌ آخَرُ مِن خُبثِ نَواياهُم وَسوءِ بَواطِنِهم ، يَقولُ تعالى :

﴿ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾

إنْ تُصِبْكَ يا مُحَمَّدُ ﷺ حَسَنَةٌ مِنْ نَصْرٍ أو نِعمَةٍ أو غَنيمةٍ - كَما حَدَثَ يومَ بَدْرٍ مَثَلاً - تَسؤْهُم تِلكَ

الحَسَنَةُ ، وَتُورِّثُهم حُزناً وَغمّاً بِسَبَبِ شِدَّةِ عَداوتِهم لَكَ وَلإصحابِكَ .

وَإن تُصِبْكَ مُصيبَةٌ مِن هَزيمَةٍ أو شِدَّةٍ ـ كَما حَدَثَ يَومَ أُحُدٍ مَثَلاً ـ يَقولوا باخْتِيالٍ وَفَرَحٍ وَعُجْبٍ وشَماتَةٍ قَدْ أَخَذْنا أمْرَنا مِن قَبل ، أيْ : قَد تَلافَينا ما يُهمُّنا مِنَ الأمْرِ بِالحَزْمِ وَالتَّيَقُّظِ وَالاستِعدادِ التامِّ مِن قَبْلِ وُقوعِ الهَزيمَةِ الّتي حَلَّتْ بِالمُسلِمينَ ، وَلَمْ نُلْقِ بِأيْدينا إلى التَّهلُكَةِ كَما فَعلَ هؤُلاءِ المُسلِمونَ .

ثُمَّ صَوَّرَ القُرآنُ الكَريمُ حالَتَهُمُ النَّفسيَّةَ الّتي هُم عَلَيْها مِنَ الفَرَحِ وَالسُّرورِ بِما أَلَمَّ بِالمُسلِمينَ فَقالَ : ﴿وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾ أيْ عِندَما يَقَعُ ما يُؤلِمُ المُسلِمينَ ، يَرجِعُ هؤُلاءِ إلى أهْليهِم وَشيعَتِهِم وَالفَرَحُ يَملأُ جَوانِحَهُم ، يُبَشِّرونَ بِما حَلَّ بِالمُسلِمينَ مِن مَكروهٍ .

وَالحاصِلُ أنَّ في هذِهِ الآيَةِ بَياناً واضِحاً وَشافِياً بِأنَّ المُنافِقينَ لا يُريدونَ بِالمُؤْمِنينَ إلاّ المَكْروهَ ، وَيَتَألَّمونَ إذا فَرِحَ المُسلِمونَ .

ثُمَّ أرشَدَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى نَبِيَّهُ ﷺ إلى ما يَرُدّونَ بِهِ عَلَيهِم ، فَقالَ تَعالى :

﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾

قُل يا مُحَمَّدُ لِهؤُلاءِ المُنافِقينَ الّذينَ يَسُرُّهُم ما يُصيبُكَ مِن شَرٍّ ، ويُحزِنُهُم ما يُصيبُكَ مِن خَيرٍ ، وَالّذينَ خَلَتْ قُلوبُهُم مِنَ الإيمانِ بِقضاءِ اللهِ تَعالى وَقَدَرِهِ ، قُلْ لَهُم عَلى سَبيلِ التَّقريعِ وَالتَّبكيتِ : لَنْ يُصيبَنا إلاّ ما كَتَبَ اللهُ تَعالى لَنا وَقَدَّرَهُ عَلَينا ، ﴿هُوَ مَوْلانا﴾ الّذي يَتَولاّنا في كُلِّ أُمورِنا ، وَنَلجأُ إليهِ في كُلِّ أحوالِنا ، وَإليهِ وَحدَهُ سُبْحانَهُ نَكِلُ أُمورَنا وَلَيسَ إلى أحَدٍ سِواهُ ، فإذا ما أصابَنا خَيرٌ رَضينا بِهِ ، وَاطمأنَنّا إلَيهِ ، وَلا نَجزَعُ إنْ أصابَنا شَرٌّ أو مَكروهٌ .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴾

قُل لَهُمْ أيُّها الرَّسولُ أيضاً : لَيسَ لَكُم أنْ تَتَوَقَّعوا شَيئاً لَنا إلاّ إحدى العاقِبَتَيْنِ الحَميدَتَيْنِ : إمّا النَّصرُ وَالغَنيمَةُ في الدُّنيا ، وَإمّا الاستِشهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَالجَنَّةُ في الآخِرَةِ ، وَنَحنُ نَنتَظِرُ لَكُم أنْ يُوقِعَكُمُ اللهُ تَعالى في عَذابٍ مِنْ عِندِهِ يُهلِكُكُمْ بِهِ ، أو يُعذِّبُكُم بِالذِّلَةِ عَلى أيْدينا ، فانتَظِروا أمْرَ اللهِ تَعالى ، وَنَحنُ مَعَكمْ مُنتَظِرونَ أمرَهُ .

وبَعْدَ بَيانِ رَذائِلِ المُنافِقينَ وَمسالِكِهِمُ الخَبيثَةِ ، وَكَيْدِهِم لِلإسلامِ وَالمُسلِمينَ ، ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما يَكبِتُهُم ، وَيَفضَحُهُم عَلى رُؤوسِ الأشهادِ . بَعْدَ هذا بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ نَفَقاتُهُم غَيرُ مَقبولَةٍ ، لأنَّ قُلوبَهُم خالِيَةٌ مِنَ الإيمانِ ، ولأنَّ عِباداتِهِم لَيسَتْ خالِصَةً

لِوجهِ اللهِ تَعالى ، وَأنَّ ما يُنفِقونَهُ سيكونُ عَليهِم حَسرَةً ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾

قُل يا أيُّها الرَّسولُ لِلمُنافِقينَ ، الَّذينَ يُريدونَ أنْ يَستُروا عَوْراتِ نِفاقِهم بإنفاقِ المالِ في الجِهادِ وَغَيرِهِ ، أنْفِقوا ما شِئْتُمْ طائِعينَ أو مُكْرَهينَ ، فَلَن يَتَقَبَّلَ اللهُ تَعالى عَمَلَكُم ، فَقدْ أحبَطَهُ نِفاقُكُم ، وأنَّكُم دائِماً مُتَمَرِّدونَ عَلى دينِ اللهِ تَعالى ، خارِجونَ عَنْ أمْرِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الأسْبابَ الَّتي أدَّتْ إلى عَدَمِ قَبولِ نَفَقاتِهِم ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

أمّا السَّبَبُ الأوَّلُ : فَهُوَ كُفْرُهُمْ بِاللهِ تَعالى وَبِرَسولِهِ ﷺ .

وأمّا السَّبَبُ الثّاني : فَهُوَ كَونُهُم لا يَأتونَ الصَّلاةَ إلاّ وَهُم كُسالى ، أيْ : أنَّهمُ لا يَأتونَ الصَّلاةَ الَّتي كَتَبَها اللهُ تَعالى عَلَيْهِم في حالٍ مِنَ الأحوالِ إلاّ في حالِ كَوْنِهِم مُتَثاقِلينَ عَنها دونَ أنْ تَنشَطَ لها أبدانُهُم ، أو تَنشَرِحَ مَعَها صُدورُهُم ، ذلِكَ لأنَّهُم قَومٌ خَلَتْ قُلوبُهُم مِنَ الإيمانِ ، فَصاروا لا يَرجونَ مِن وَراءِ أدائِها ثَواباً ، وَلا يَخشَوْنَ مِنْ وَراءِ تَرْكِها عِقاباً ، وَإنَّما يُؤَدّونَها رياءً أو تُقْيَةً لِلمُسلِمينَ ، وَقَد قالَ اللهُ تَعالى عَنهُم في مَوضِعٍ آخَرَ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ [النساء : ١٤٢] .

وأمّا السَّبَبُ الثّالِثُ : فَهُو كَونُهُمْ لا يُنفِقونَ إلاّ وَهُم كارِهونَ . فُهمْ إذا أنْفَقوا نَفَقَةً في سَبيلِ اللهِ تَعالى كانوا كارِهينَ لِهذا الأمرِ غَيرَ راضينَ ، لأنَّهُم يَعُدّونَ الإنفاقَ مَغْرَماً ، وَتَرْكَهُ مَغنَما ، وما حَمَلَهُمْ عَلى الإنفاقِ إلاّ الرِّياءُ أوِ المُخادَعَةُ أوِ الخَوفُ مِنَ انكِشافِ أمرِهِمْ وَافتِضاحِ حالِهِمْ .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أعداءُ اللهِ تَعالى وَأعداءُ رَسولِهِ ﷺ لا يُحِبّونَ الخَيْرَ لِلمُؤْمِنينَ أبَداً .

٢ـ لا يَترُكُ أعداءُ اللهِ تَعالى وَأعداءُ رَسولِهِ ﷺ فُرصَةً لِلشَّماتَةِ بِالمُسلِمينَ إلاّ اهتَبَلوها .

٣ـ القَدَرُ خَيرُهُ وَشَرُّهُ مِنَ اللهِ تَعالى .

٤ـ حالُ المُؤْمِنِ في مُقابَلَةِ الأعداءِ كُلُّهُ خَيرٌ ، فإمّا الشَّهادَةُ في سَبيل تَعالى وَإمّا نَصرٌ وَتأييدٌ مِنَ اللهِ تَعالى .

٥ـ مَنْ أنفقَ مالَهُ لِغَيرِ وَجهِ اللهِ تَعالى ، كَأنْ يَكونَ رِياءً وَسُمعَةً ، لا يَقبلُ اللهُ مِنهُ ، لأنَّ اللهَ تَعالى لا يَقبَلُ مِنَ العَمَلِ إلاّ ما كانَ خالِصاً لِوَجهِهِ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

قَد أخَذنا أمْرَنا مِن قَبلُ ، تَرَبَّصونَ بِنا ، إحدى الحُسْنَيَيْنِ .

٢ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَوقِفَ المُنافِقينَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، بَيِّنْ هذا المَوقِفَ .

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ الأسبابَ الّتي أدَّتْ إلى عَدَمِ قَبولِ نَفَقَةِ المُنافِقينَ ، بيِّن هذِهِ الأسبابَ .

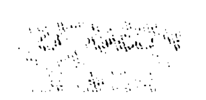
٤ـ هاتِ دَليلاً عَلى كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ لا يَتَرَبَّصُ المُنافِقونَ بِالمُؤْمِنينَ خيراً .

ب ـ أمرُ المُؤمِنِ كُلُّهُ خَيرٌ .

ج ـ الكافِرُ لا تَنْفَعُهُ أعمالُ البرِّ في الدُّنيا .

دـ المُنافِقونَ دائِمو الشَّماتَةِ بِالمُسلِمينَ .



أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ إذا عَزَمَ عَلى أمرٍ أنْ يَتَوَكَّلَ عَلى اللهِ ، اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الدّالّةَ عَلى ذلِكَ .

* * *

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

تَخرجَ مِنْ أجسادِهِمْ بِشِدَّةٍ وضيقٍ .

يَفْزَعونَ ويَخافونَ .

مَكَاناً يَلْجأونَ إليهِ ، ويَحْتَمونَ فيهِ .

أمْكنةً مُنْخَفِضةً في الأرضِ ، كالكُهوفِ تُخْفيهِمْ عَنْ أعينِ النّاسِ .

اسمٌ لِلْمَوْضِعِ الّذي يَدخلونَ فيهِ بصُعوبةٍ ومَشقَّةٍ ، مثلَ النّفقِ .

يُسرِعونَ أشدَّ الإسْراعِ .

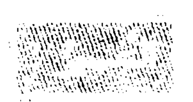
يَعيبُكَ ويَطعَنُ عَلَيْكَ .

الّذينَ يُكَلَّفونَ بجمعِ الزَّكاةِ وتَحصيلِها .

المؤلفة قلوبهم : مَنْ يُعطى مِنَ الزَّكاةِ استمالةً لِنفسِهِ للإسْلامِ أو لِكَفِّ شَرِّهِ أو رجاءَ نَفْعِهِ .

الغارمين : مَنْ لَزِمَتْهُمُ الدُّيونُ في غيرِ معصيةِ اللهِ ، ولا يَستَطيعونَ سَدادَها .

ابن السبيل : المسافرِ المُنْقَطِعِ عَنْ أهلِهِ وبَلَدِهِ ولا مالَ مَعَهُ .



بَعْدَ بَيانِ بعضِ قَبائحِ المُنافِقينَ في الآياتِ المُتقدِّمَةِ نَهى اللهُ تَعالى المُؤْمنينَ في شَخصِ نَبيِّهِمْ ﷺ عنِ التَّطلُّعِ إلى ما في أَيْدي هؤلاءِ المُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

في هذهِ الآيةِ يَكشِفُ اللهُ تَعالى سِرّاً مِنْ أسرارِ المُنافِقينَ وما جُبِلَتْ عَلَيْهِ نُفوسُهُمْ ، ففي نفوسِهِمْ شُحٌّ وحِرْصٌ عَلى المالِ ، وفتنةٌ بتَوْفيرِهِ ، والإشفاقُ مِنْ ضياعِهِ ، فَجَعَلَهُمْ بِسببِ ذلكَ في عناءٍ وعذابٍ مِنْ جرَّاءِ أموالِهِمْ ، فَهُمْ في تَعَبٍ مِنْ جَمْعِها ، وفي خَوْفٍ عَلَيْها مِنَ النُّقْصانِ ، وفي أَلَمٍ مِنْ إنْفاقِ ما يَضْطرّونَ إلى إنفاقِهِ مِنْ هذِهِ الأموالِ ، فَقَدْ أرادَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى تَعذيبَهُم في الدُّنْيا بما يَحُلُّ بِهِمْ مِنْ شقاءٍ وتعبٍ وَمشقَّةٍ عندَ جَمْعِها ، وقَدْ تمَّ مُرادُهُ سُبْحانَهُ ، وهذا مِنْ أشدِّ العُقوباتِ الدُّنيويَّةِ ، وهذا هو شأنُ البُخَلاءِ ، وأهلِ الشُّحِّ عُموماً ، فهُمْ يُجْهِدَونَ أنفُسَهُمْ لِجَمْعِ المالِ ، ثُمَّ يَحْرِمونَ أنفُسَهُمْ منهُ . ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى أرادَ استِمرارَ حالِهِمْ هكذا حتّى يُدرِكَهُمُ المَوْتُ وهم بهذِهِ الحالةِ ، فلا تَسألْ كَيفَ تكونُ وفاتُهمُ وهُمْ كافرونَ .

وَبَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنّ هؤلاءِ المُنافِقينَ قَدْ خَسِروا الدُّنْيا والآخِرَةِ ، بَيَّنَ مِنْ رذائِلِهِمُ الجُبْنَ والكَذِبَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴾

إنَّ هؤُلاءِ المنافِقينَ يَحلِفونَ باللهِ تَعالى لكُمْ أيُّها المُؤْمنونَ أنَّهُمْ لَمِنْكُمْ في الدِّينِ والمِلَّةِ ، والحقيقةُ أنَّهمْ ليسوا مِنْكُمْ ، ولكنَّهُمْ يُظهِرونَ الإسلامَ ، ويُخفونَ الكُفْرَ لِشدَّةِ خَوْفِهِمْ وهَلَعِهِمْ ، ولا يَستطيعونَ مُصارَحتَكُمْ بالعَداوةِ ، ولا يَجرؤونَ عَلى مُجابَهَتِكُمْ بما تُخفيهِ قُلوبُهُمْ لكُمْ مِنَ البَغْضاءِ .

﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾

هؤُلاءِ المنافِقونَ يَضيقونَ بِكُمْ ويَكْرَهونَ مُعاشَرَتَكُم ، ولو أنَّهُمْ يَجِدونَ حِصْناً يَلتجِئونَ إليهِ أو

مَغاراتٍ يَسْتَخْفونَ فيها ، أو سِرْداباً في الأرضِ يَجْحرونَ فيهِ ، لأقْبَلوا نَحْوَهُ مُسرِعينَ أشدَّ الإسْراعِ مِنْ دونِ أنْ يَرُدَّهُم شيءٌ ، كالفَرسِ الجَموحِ الّذي عَجزَ صاحِبُهُ عنْ مَنْعِهِ مِنَ النُّفورِ والعَدْوِ .

فهذهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تَصويرٌ رائعٌ لِما كانَ عَلَيْهِ المنُافِقونَ مِنْ خوفٍ شديدٍ مِنَ المُؤْمِنينَ ، ومِنْ بُغْضٍ دفينٍ لَهُمْ ، حتّى أنَّهُمْ لو وَجَدوا شيئاً مِنْ هذهِ الأمْكِنَةِ ـ الّتي هي مَنفورٌ عنها ـ لأسْرَعوا نَحْوَها إسْراعاً شديداً .

ثُمَّ تمضي السّورَةُ الكَريمَةُ بَعْدَ هذا في الكَشْفِ عَنِ الأَقوالِ المُنكَرةِ والأفْعالِ القبيحَةِ الّتي كانتْ تَصْدُرُ عنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ .

وبعضُ هؤلاءِ المُنافِقينَ يَعيبُكَ أيُّها الرّسولُ ويَطعَنُ في قِسْمَةِ الصَّدقاتِ ، إذْ لا هَمَّ لَهُمْ إلاّ حُطامُ الدّنْيا ، فإنْ أَعْطَيتَهُم مِنْ تلكَ الصَّدَقاتِ رَضوا عنكَ ، وحَكَموا عَلى هذا العَطاءِ بأنَّهُ عَدْلٌ ، وإنْ لَمْ تُعْطِهِمْ مِنها سَخِطوا عليكَ ، واتَّهموكَ بأنَّكَ غيرُ عادلٍ ، حتّى لو كان عَدَمُ عطائِهِمْ هو الحقَّ بعيْنِهِ ، فهمْ لا يَقولونَ ما يَقولونَهُ فيكَ غَضَباً لِلْعَدْلِ ، ولا حماسةً لِلحقِّ ، ولا غَيْرَةً عَلى الدّينِ ، وإنّما يقولونَ ما يقولونَ مِنْ أجلِ مَطامِعِهِمُ الشّخصيّةِ ، ومنافِعِهِمُ الذّاتيةِ . وبعدَ ذلكَ وضَّحَ سُبْحانَهُ وتَعالى المنْهَجَ الّذي يَليقُ بأصحابِ العَقيدةِ السَّليمةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴾ .

ولو أنَّ هؤُلاءِ المُنافقينَ الّذينَ عابوكَ في قِسْمَةِ الصَّدَقاتِ ، رَضوا بما قَسَمَ اللهُ تَعالى لَهُمْ ، وهو ما أعْطاهُمْ رسولُهُ ﷺ ، وطابتْ نفوسُهُم بهِ ـ وإنْ كانَ قليلاً ـ وقالوا : كَفانا حُكْمُ اللهِ تعالى ، وسَيَرْزُقُنا اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ ، وسَيُعْطينا رسولُهُ ﷺ أكثرَ مِمّا أعْطانا في هذهِ المَرّةِ ، وإنّا إلى طاعةِ اللهِ تَعالى وأفْضالِهِ وإحْسانِهِ لَراغِبونَ ، لو أنّهم فَعَلوا ذلكَ لكانَ خَيراً لَهُمْ . وبعدَ أنْ بَيّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى المنَهجَ اللّائقَ بأصْحابِ العَقيدةِ السّليمةِ في طَلَبِ الدُّنْيا ، والّذي خُلاصَتُهُ الرِّضا بما قَسَمَ اللهُ تَعالى ، وأعطى رسولُهُ ﷺ ، بَيّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى عَقِبَ ذلِكَ المُسْتَحقّينَ للصَّدقاتِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لا تُصْرَفُ الزّكاةُ المَفروضَةُ إلاّ للّذينَ لا يَجدونَ ما يَكْفيهِمْ ، والمَرْضى الّذينَ لا يَسْتَطيعونَ

كَسْباً ولا مالَ لَهُمْ ، والّذينَ يَجْمَعونَها ويَعْمَلونَ فيها .

والّذينَ تُؤَلَّفُ قُلوبُهُمْ لأَنَّهُم يُرْجى مِنهُمُ الإسلامُ ، والانتفاعُ بِهِمْ في خِدمَتِهِ ونُصْرَتِهِ ، والّذينَ يَدْعونَ إلى الإسلام وَيُبشِّرونَ بهِ ، وفي عِتْقِ رِقابِ الأَرِقّاءِ ، والأسْرَى مِنْ رِبْقَةِ العُبوديَّةِ وذُلِّ الأَسْرِ ، وفي قَضاءِ الدِّيونِ عَنِ المَدينينَ العاجِزينَ عَنِ الأداءِ ، إذا لَمْ تَكُنْ تِلكَ الدّيونُ ناشِئَةً عَنْ إثْمٍ أو ظُلْمٍ أو سَفَهٍ ، وفي إمدادِ الغُزاةِ بما يُعينُهُمْ عَلى الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وما يَتَّصِلُ بِذلِكَ مِنْ طُرُقِ الخَيْرِ ووجوهِ البِرِّ ، وفي عَوْنِ المُسافِرينَ إذا انْقطَعَتْ أَسبابُ اتِّصالِهِمْ بأموالِهِمْ وأهْليهِمْ . شَرَعَ اللهُ تَعالى ذلِكَ فَريضةً مِنهُ لِمصْلَحةِ عِبادِهِ ، واللهُ سُبْحانَهُ عَليمٌ بِمَصالِحِ خَلْقِهِ ، حَكيمٌ فيما يُشَرِّعُ .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ نَهْيُ المُؤْمِنينَ عَنْ أنْ يَتَطَّلعوا إلى ما في أيدي الكافِرينَ إعْجاباً .

٢ـ حياةُ الكُفّارِ بُؤْسٌ وَشَقاءٌ وإنْ كانتْ تَبدو عَلى غَيْرِ ذلِكَ .

٣ـ المُنافِقونَ دائِمو الخَوْفِ والتَّوَجُّسِ مِنَ المُؤْمِنينَ .

٤ـ المُنافِقَ يَكْذبُ ولا يَصْدُقُ .

٥ـ فَريضَةُ الزَّكاةِ تُطَهِّرُ النَّفْسَ مِنَ الشُّحِّ وَهِيَ شِرْعَةُ تَراحُمٍ وتَضامنٍ بَيْنَ أفرادِ الأُمَّةِ المُسلِمةِ .

٦ـ لا يَرْضى المُنافِقُ بِما قَسَمَ اللهُ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ .

٧ـ مِنْ عَلاماتِ الإيمانِ الرِّضا بِما قَسَمَ اللهُ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ .

٨ـ مصارِفُ الزَّكاةِ بيِّنَةٌ واضِحةٌ ، وَقَدْ تَكَفَّلَ اللهُ تَعالى بِبيانِها .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ، يَفْرَقونَ ، مَلْجأً أو مَغاراتٍ أوْ مُدَّخَلاً ، يَجْمَحونَ ، يَلْمِزُكَ في الصَّدقاتِ ، الغارِمينَ ، ابنِ السَّبيلِ .

٢ـ بَيِّنْ ماذا أرادَ اللهُ تَعالى بالمُنافِقينَ وأموالِهِمْ .

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ صُورةً قَبيحةً للمُنافِقينَ ، وضِّحْ هذِهِ الصّورَةَ مُستَدِلاً عَليْها بآياتِ الدَّرْسِ .

٤ـ لِماذا لا يُعْجَبُ المُنافِقُ بِقِسْمةِ رَسولِ اللهِ ﷺ ؟

٥ـ بماذا يَتميَّزُ المُؤْمِنُ الصَّادِقُ ؟

٦ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَصارِفَ الزَّكاةِ ، اذْكُرْها وهاتِ الدَّليلَ عَلى ما تَقولُ .

٧ـ بَيِّن مَوْقِفَكَ مِنَ المُنافِقينَ بَعدَما رَسَمتْ صورتَهُمْ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ .



ـ بَيَّنَتِ الآياتُ أنَّ المُنافِقينَ يُكْثِرونَ مِنَ الحَلْفِ ، اكْتُبْ سَبَبَ ذلكَ في دَفْتَرِكَ .



شكا عامِلُ الصَّدَقاتِ عَلى إفريقيةَ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العَزيزِ أنَّهُ لا يَجدُ فَقيراً يُنْفِقُ عَلَيْهِ ، فقالَ لَهُ : سَدِّدِ الدَّيْنَ عَنِ المَدينينَ ، فسَدَّدَ ، ثُمَّ شكا ثانيةً فقالَ لَهُ : اشْتَرِ عَبيداً وأَعْتِقْهُمْ ، وذلكَ مَصْرفٌ مِن مَصارِفِهِمْ .

والحقيقةُ أنَّ الزَّكاةَ لَوْ جُمِعَتْ مِنْ وُجوهِها وَصُرِفتْ في مَصارِفِها ، لتَبيَّنَ مِنْ تَطبيقِها أنَّها أعظَمُ نِظامٍ للتَّكافُلِ الاجْتِماعيِّ .

* * *

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

أيْ كالأُذُنِ في تَلقّي المَسْموعاتِ ، لا يَردُّ مِنْها شَيْئاً .

يُصَدِّقُ المُؤْمِنينَ .

يُعادي اللهَ ورَسولَهُ .

بَعْدَ الحَديثِ عَنْ الصَّدقاتِ الّتي كانَ المُنافِقونَ يَلْمِزونَ فيها رَسولَ اللهِ ﷺ ، وبَعْدَ بَيانِ مَصارِفِها بياناً شافياً يَقْطَعُ رَجاءَ كلِّ نَفْسٍ تَتطَلَّعُ إلى ما لا تَسْتَحِقُّ ، أَخَذَتِ السورَةُ الكَريمَةُ في مُواصَلَةِ حَديثِها عَنْ قَبائِحِ المُنافِقينَ ورذائِلِهِمْ ، وعَنْ سوءِ أَدَبِهِمْ مَعَ اللهِ تَعالى ، وَمَعَ رَسولِهِ ﷺ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾

مِنَ المُنافِقينَ قَومٌ يُؤذونَ النَّبيَّ ﷺ ، ويَتَناولونَهُ بما يَكْرَهُ ، فَيَتَّهِمونَهُ بأنَّهُ مُصدِّقٌ لِسَماعِ كُلِّ ما يُقالُ لَهُ مِنْ صِدْقٍ وَكَذِبٍ ، وأنَّهُ يُخْدَعُ بما يَسْمَعُ ، فأمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَقولَ لَهُمْ عَلى سَبيلِ التَّوْبيخِ والتَّبكيتِ : إنَّ مَنْ تَتَناوَلونَهُ في غَيْبَتِهِ بِهذِهِ التُّهْمَةِ ، لَيسَ كَما زَعمْتُم ، بلْ هُوَ أُذُنُ خَيْرٍ ، لا يَسْمَعُ إلاّ الصِّدْقَ ، ولا يُخْدَعُ بِالباطِلِ ، يُصدِّقُ باللهِ تَعالى وَوَحْيِهِ ، ويُصدِّقُ المُؤْمِنينَ ، لأنّ إيمانَهُمْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ الكَذِبِ .

وهُوَ ﷺ رَحْمَةٌ لِكُلِّ مَنْ يُؤْمِنُ مِنْكُمْ ، وأنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى قَدْ أعدَّ لِمَنْ يُؤْذي رَسولَهُ ﷺ عَذاباً موجِعاً ، دائِماً شَديداً ، لا يَنْقَطِعُ ولا يَجِدونَ مِنْهُ خَلاصاً . ثُمَّ حَكَى القُرآنُ الكَريمُ بَعْدَ ذلِكَ لَوْناً مِنْ جُبْنِهِمْ وعَجْزِهِمْ عَنْ مُصارَحَةِ المُؤْمِنينَ بالحَقائِقِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ ﴾

إنّ مِن عادَةِ المُنافِقينَ والكاذِبينَ وَمَنْ يَرتَكِبُ جُرْماً أنْ يَشْعُرَ وكَأنَّ النّاسَ جَميعاً مُطَّلِعونَ عَلَيْهِمْ ، عالِمونَ بأحْوالِهِمْ ، ولِذلِكَ تَراهُمْ يُكْثِرونَ مِنَ الحَلْفِ ، حَتّى تَبْتَعِدَ الشُّبْهَةُ المُحيطَةُ بِهِمْ ، وقَدْ كانَ المُنافِقونَ كَثيراً ما يَحْلِفونَ ويَعْتَذِرونَ ، واللهُ تَعالى يَعْلَمُ أنَّهُم لَكاذِبونَ ، يَحْلِفونَ لَكُم أيُّها المُؤْمِنونَ أنَّهم بَراءٌ مِمّا نُسِبَ إليهِمْ قَوْلاً وَفِعْلاً ، لِيَرْضوكُمْ ، فَتَطْمَئِنّوا لَهُمْ وَتَثِقوا فيهِم ، وَقَدْ فَهِموا أنَّهُم بِهذا يَضُمّونَكُمْ لِصفوفِهِم ، ولكنَّ اللهَ تَعالى لَهُم بِالمِرْصادِ ، فَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ ويَكْشِفُ سِترَهُمْ ، حَيثُ يَقولُ : يَحْلِفونَ لَكُم لِيُرْضوكُمْ ، والحالُ أنَّ اللهَ تَعالى ورَسولَهُ ﷺ أحَقُّ بالإرْضاءِ مِنَ المُؤْمِنينَ ، وإرضاءُ اللهِ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ إنّما يَكونُ بالإيمانِ الصّادِقِ والعَمَلِ الكامِلِ والبُعْدِ عَنِ النِفاقِ ، هذا إنْ كانوا مُؤْمِنينَ حقّاً ، إذْ علاماتُ الإيمانِ ثِقةٌ باللهِ تَعالى وحُبٌّ لَهُ تَعالى ولِرَسولِهِ ﷺ ، والعَمَلُ عَلى رِضاهُما بامْتِثالِ الأمرِ واجْتِنابِ النَّهْيِ .

وبعدَ هذا تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى بِسوءِ المَصيرِ بِسَبَبِ مُخالَفَتِهِمْ للهِ تَعالى ولِرسولِهِ ﷺ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

ألَمْ يَعلمْ هؤُلاءِ المُنافِقونَ الّذين مَرَدوا عَلى الفُسوقِ والعِصيانِ أنَّهُ مَنْ يُخالِفْ تَعاليمَ اللهِ تَعالى ورَسولَهُ ﷺ ، فَجَزاؤهُ جَهنَّمُ يَصْلاها يَوْمَ القِيامَةِ خالِداً فيها ، إنْ كانوا لا يَعْلَمونَ ذلِكَ فأعْلِمْهُمْ

يا مُحَمَّدُ ﷺ بسوءِ مَصيرِهِمْ إذا ما اسْتَمرّوا عَلى نِفاقِهِمْ ، ومُعاداتِهِمْ للهِ تَعالى ولِرَسولِهِ ﷺ .

وبِهذا نَرى أنّ هاتَيْنِ الآيَتَينِ قَدْ ذَكَرتا جانِباً مِنْ رذائِلِ المُنافِقينَ وأكاذيبِهِمْ ، وتَوعَّدَتا كُلَّ مُخالفٍ لأوامِرِ اللهِ تَعالى ورَسولِهِ بِسوءِ المَصيرِ والعِياذُ باللهِ .

ثُمَّ واصَلَتِ السّورةُ الكَريمَةُ فَضْحَها للمُنافِقينَ ، فَمازالتْ تَكْشِفُ خَباياهُمْ وتَهْتِكُ أَسْتارَهُمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ

المُنافِقونَ مُذَبْذَبونَ بَيْنَ الإيمانِ والكُفْرِ شاكّونَ مُرْتابونَ في الوَحْي وصِدْقِ الرَّسولِ ﷺ ، وهذا الشّكُّ والارْتِيابُ يَدعوهُمْ إلى الحَذَرِ والإشْفاقِ ،بلْ هو لازمٌ لَهُ ، إذْ لو كانوا مُوقِنينَ بِكَذِبِ الرّسولِ ﷺ لَما جاءَهُمُ الحَذَرُ ، ولوْ كانوا حقّاً مُصَدِّقينَ برسالَتِهِ لَما كانَ لِهذا الخَوْفِ والحَذَرِ مَحَلٌّ ، لهذا عنَّفَهُمْ القرآنُ الكَريمُ بالقولِ : يَحْذَرُ المُنافِقونَ أنْ تُنَزَّلَ عَلى المُؤْمنينَ سورةٌ كاشِفَةٌ لَهُمْ ، فاضِحَةٌ أسْتارَهُم ، مُبيِّنَةٌ نِفاقَهُمْ ، يَحْذَرونَ مِنْ سورةٍ تُنَبِّئُهُمْ بِما في قُلوبِهِمْ ، والمُرادُ اللّازِمُ هو فَضيحَتُهُمْ وكشفُ عوراتِهِمْ ، وبيانُ شَكِّهِمْ ، وارْتِيابِهِمْ وتَربُّصِهِمُ الدَّوائِرَ بالمُسلِمينَ ، وإنذارِهِمْ بما قَدْ يَترتَّبُ عَلى ذلكَ مِنْ عِقابِهِمْ . وقدْ كانَ المُنافِقونَ دائمي الاسْتِهزاءِ بالنَّبيِّ ﷺ وبالمُؤْمِنينَ ، ولِذلِكَ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَقولَ لَهُمْ : اسْتَهْزِئوا كما تَشاءونَ ـ وهذا تهديدٌ لَهُمْ شَديدٌ وَوعيدٌ أكيدٌ ـ إنّ اللهَ تَعالى مُخْرِجٌ ما تَحذَرونَ إخراجَهُ مِنْ مُخبّآتِ الضَّميرِ ، ومَكنوناتِ الصُّدورِ ، وقدْ حَصَلَ ذلكَ وظَهَرَ نِفاقُهُمْ لِكُلِّ النّاسِ .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ سِماتِ المُنافِقينَ دوامُ الخَوْفِ والحَذَرِ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ والمُؤْمِنينَ .

٢ـ مِنْ سِماتِهِمْ كذلكَ استهزاؤُهُمْ بِالنَّبيِّ والمُؤْمِنينَ .

٣ـ تَوعَّدَ اللهُ تَعالى مَنْ يُؤذي رَسولَهُ ﷺ بالعذابِ الأليمِ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

هُوَ أُذُنٌ ، يُؤْمِنُ لِلمُؤْمِنينَ ، يُحادّدِ اللهَ ، إنَّ اللهَ مُخْرِجٌ ما تَحْذَرونَ .

٢ـ ماذا تَستَفيدُ مِنْ كُلٍّ مِمّا يلي :

أ ـ ومِنْهُمُ الّذينَ يُؤْذونَ النَّبيَّ .

ب ـ يَحْلِفونَ باللهِ لكمْ لِيُرْضوكُمْ .

ج ـ قلِ اسْتَهزِئوا .

٣ـ وصَفَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ ﷺ بأنّهُ أُذُنُ خَيْرٍ ، وضِّحْ هذا الوَصْفَ ، واذْكُرِ الدَّليلَ عَلى ذلِكَ .



ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورةِ المُجادَلَةِ الّتي تُبيِّنُ حالَ مَنْ حادَّ اللهَ ورَسولَهُ .

* * *

الدرس الرابع والثلاثون

سورةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ السّابعَ عَشَرَ

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٦٧﴾﴾

معاني المفردات

نَخوضُ ونَلعبُ	: نَفْعَلُ فِعْلاً عَبَثاً لا نَقْصُدُ بِهِ الجِدَّ .
يَقبضونَ أَيديَهُمْ	: كنايةٌ عنْ شُحِّهِمْ على الفُقراءِ والمُحْتاجينَ .
نَسوا اللهَ	: أعْرَضوا عَنِ ابْتِغاءِ مَرْضاتِهِ وامْتِثالِ أوامِرِهِ .
نَسِيَهُمْ	: حَرَمَهُم ما أعَدَّهُ لِلمُؤْمنينَ مِنْ هِدايَتِهِ ورَحْمَتِهِ وفَضْلِهِ .

التفسير

تَسْتَمِرُّ الآياتُ الكَريمةُ في بَيانِ حَقيقةِ المُنافِقينَ وكَيفيَّةِ التّعامُلِ مَعَهُمْ ، فوجَّهَ اللهُ تَعالى لِنبيِّهِ ﷺ خِطابَهُ لِيسْأَلَ المُنافِقينَ عمّا هُمْ فيهِ مِنَ الباطِلِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ .

وَلَئِنْ سألتَ يا مُحَمَّدُ ﷺ هؤُلاءِ المُنافِقينَ عن سَبَبِ اسْتِهزائِهِمْ بِتعاليمِ الإسلامِ ، لَيَقولُنَّ لَكَ عَلى سبيلِ الاعْتذارِ : إنّما كُنّا نَفْعَلُ ذلكَ عَلى سَبيلِ المُمازَحَةِ ، والمُداعَبَةِ ، لا عَلى سبيلِ الجِدِّ ،

فإنْ قالوا لكَ ذلكَ فَقُلْ لَهُمْ عَلى سَبيلِ التَّوبيخِ والتَّجهيلِ : أَلَمْ تَجِدوا ما تَسْتَهزِءونَ بِهِ في مُزاحِكُمْ ولَعِبِكُمْ ـ كما تَزعمونَ ـ سوى فَرائضِ اللهِ تَعالى وأحْكامِهِ وآياتِهِ ، ورسولِهِ الّذي جاءَ لِهِدايَتِكُمْ وإخْراجِكُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إلى النّورِ ؟ وهذهِ الآيَةُ تدلُّ عَلى أنَّ الوَقاحَةَ بَلَغَتْ بالمُنافِقينَ مَبْلَغاً عَظيماً .

وبَعْدَ ذلِكَ أبْطَلَ اللهُ تَعالى اعْتِذارَهُمْ وما قَبِلَهُ مِنْهُمْ ، وأمَرَ رسولَهُ ﷺ أنْ يُوبِّخَهُمْ عَلى هذا العَمَلِ الفاسدِ ، والاعْتذارِ الباطلِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

قل يا مُحَمَّدُ لِهؤُلاءِ المُنافِقينَ المُسْتَهزِئينَ بِما يَجِبُ إجْلالُهُ واحْتِرامُهُ وتَوْقيرُهُ ، قلْ لَهُم عَلى سَبيلِ التَّوبيخِ والتَّجهيلِ أيْضاً : لا تَشتَغِلوا بتلكَ المَعاذيرِ الكاذِبَةِ ، فإنَّها غيرُ مقبولةٍ ، لأنَّكُمْ بهذا الاسْتِهزاءِ باللهِ تَعالى وآياتِهِ ورَسولِهِ ﷺ قَدْ كَفَرتُمْ بَعْدَ إيمانِكُمْ ؛ أيْ قدْ ظَهَرَ كُفرُكُمْ ، وثَبَتَ بَعْدَ إظهارِكُمُ الإيمانَ عَلى سبيلِ المُخادَعَةِ ، فإذا كنّا قبلَ ذلِكَ نُعامِلُكُمْ مُعامَلَةَ المُسلِمينَ بِمُقْتَضى نُطْقِكُمْ بالشّهادَتَيْنِ ، فنحنُ الآنَ نُعامِلُكُمْ مُعامَلَةَ الكافِرينَ بِسببِ اسْتِهزائِكُمْ باللهِ تَعالى وآياتِهِ ورَسولِهِ ﷺ ، لأنَّ الاسْتِهزاءَ بالدّينِ كُفْرٌ ، إذْ إنَّهُ يدلُّ عَلى الاسْتِخفافِ . والأساسُ الأوَّلُ في الإيمانِ تعظيمُ اللهِ تَعالى ، والجَمْعُ بَيْنَ الاسْتِخفافِ والتَّعظيمِ مُحالٌ ، وقولُهُ تَعالى :

﴿ لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾

هذا فتحٌ مِنَ اللهِ تَعالى لِتوبةِ الرّاغِبينَ مِنْهُمْ في التَّوْبَةِ ، فمَنْ تَرَكَ النِّفاقَ منكُمْ وتابَ مِنْ أوزارِهِ فإنَّ اللهَ تَعالى يَعفو عَنهُ ، وأمّا مَنْ أصَرَّ عَلى نِفاقِهِ واسْتَمْسَكَ بأوْزارِهِ ، فذاكَ المُجْرِمُ الّذي لا يَعفو اللهُ تَعالى عنهُ ولا يَقبلُهُ ، نعوذُ باللهِ تَعالى مِنَ النّفاقِ وأهْلِهِ .

ثُمَّ مَضَتِ السّورةُ الكَريمةُ في تقريرِ حَقيقةِ المُنافِقينَ ، وفي بيانِ جانبٍ آخَرَ مِنْ صِفاتِهِمْ والمَصيرِ السَّيىءِ الّذي يَنتظِرُهُم ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

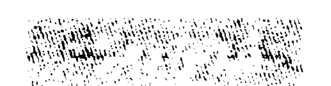
المُنافِقونَ والمُنافِقاتُ يُشْبِهُ بَعْضُهُمْ بَعضاً ، وَهُمْ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ ، فَهُمْ مُتَشابِهونَ وَصْفاً وَعَمَلاً ، ذُكوراً وإناثاً . وهذا دليلٌ عَلى تأصُّلِ الدّاءِ وتَمكُّنِهِ مِنْ نُفوسِهِم حتّى صارَ كالغرائِزِ المُوروثَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى وجْهَ الشَّبَهِ فقالَ : هم يَأْمُرونَ بكلِّ مُنْكَرٍ ويَدعونَ إليهِ ، والمُنْكَرُ ما أنْكَرَهُ

الطَّبْعُ السّليمُ والعَقْلُ الرّاجِحُ وما نَهى عنهُ الشّرْعُ الشَّريفُ ، ويَنْهَوْنَ عنِ المَعروفِ شَرْعاً وعَقْلاً وطَبْعاً .

ومِنَ المُشابَهَةِ بَيْنَهُمْ أنَّهم يَقبضونَ أيْدِيَهُمْ عنِ الإنْفاقِ ، ويَبْخَلونَ بِمالِهِمْ ، وهذا مِنْ أهمِّ علاماتِ النِّفاقِ . والنِّفاقُ أساسُ الشَّرِّ وأصْلُ البلاءِ ومَجْمَعُ كُلِّ رَذيلةٍ في الوُجودِ .

ثُمَّ إنَّ المُنافِقينَ نَسوا اللهَ تَعالى فأنْساهُمْ أنفُسَهُمْ ، ونَسوا التَّقرُّبَ إليهِ تَعالى ، ونَسوا جَلالَهُ وعَظَمَتَهُ وشَرْعَهُ وآياتِهِ وحِسابَهُ وعِقابَهُ ، فَنَسِيَهُمُ اللهُ تَعالى وجازاهُم عَلى عَمَلِهِم ، فَحَرَمَهُم مِنْ حُبِّهِ وذِكْرِهِ ، والتَّمتُّعِ بدينهِ وآياتِهِ والإنفاقِ في سَبيلِهِ ، وحَرَمُهْم مِنَ الثَّوابِ والرِّضْوانِ ، أولئِكَ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ وأولئكَ هُمُ الخاسِرونَ ، إنَّ المُنافِقينَ هُمُ الفاسِقونَ الخارِجونَ عَنْ العَقلِ والدّينِ ، والمَصلَحَةِ العامَّةِ والخاصَّةِ ، هُمُ الفاسِقونَ لا غيرَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ أقبحِ صِفاتِ المُنافِقينَ سُخْرِيَتُهُمْ مِنَ اللهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ .

٢ـ معاذيرُ المُنافِقينَ كلُّها زيفٌ وباطِلٌ ، فَهُمْ كاذِبونَ مُجْرِمونَ .

٣ـ بابُ التّوبَةِ مَفتوحٌ لِمَنْ تَرَكَ النِّفاقَ وتابَ مِنْ أوْزارِهِ .

٤ـ المُنافِقُ إنّما يُظْهِرُ الإيمانَ مُخادَعَةً ، ومِنْ علاماتِ المُنافِقينَ أنَّهم يَأْمُرونَ بالمُنْكَرِ ويَنْهَوْنَ عنِ المَعْروفِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

نخوضُ ونَلعَبُ ، يَقبِضونَ أيْدِيَهُمْ ، نَسوا اللهَ فَنَسِيَهُم ، المُنْكَر .

٢ـ اشْتَمَلتِ الآياتُ السّابِقَةُ عَلى بيانِ مجموعةٍ مِنْ صفاتِ المُنافِقينَ المُختلفةِ ، اذْكُرْ هذهِ الصِّفاتِ وما تَدلُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلكَ الآياتِ .

٣ـ بَيِّنْ ماذا تَسْتفيدُ مِمّا يلي :

أ ـ قلْ أبالله وآياتِهِ ورَسولِهِ كُنتمْ تَستهزِئونَ .

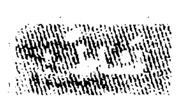
ب ـ قدْ كفرتُمْ بعدَ إيمانِكُمْ .

ج ـ لا تَعْتَذِروا .

د ـ إن نَعْفُ عَنْ طائِفةٍ مِنكُمْ نُعذِّبْ طائِفةً .

هـ ـ يَقبِضونَ أيْدِيَهُمْ .

٤ـ بيِّنْ لِماذا حَرَمَ اللهُ تَعالى المُنافِقينَ مِنَ الجَزاءِ الّذي أعدَّهُ لِلمُؤْمِنينَ .



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الثّلاثَ الأُولى مِنْ سورةِ « المُنافقونَ » وبيِّنْ شَهادةَ اللهِ تَعالى عَليْهِمْ .

٢ـ ارْجِعْ إلى كتابِ رياضِ الصّالِحينَ ، واسْتَخرِجْ مِنهُ الأحاديثَ الّتي تُبيِّنُ صِفاتِ المُنافِقينَ ، واقْرَأْها في طابورِ الصّباحِ .

* * *

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِىَ حَسْبُهُمْۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾

حسبهم	كافيهمْ
استمتعوا بخلاقهم	تلذَّذوا بما قَدَّرَهُ اللهُ تعالى لَهُمْ مِنَ الدُّنْيا .
خضتم كالذي خاضوا	دَخَلْتُمْ في الباطِلِ كما دَخَلَهُ مَنْ قَبْلَكُمْ .
أصحاب مدين	قومُ شعيبٍ عليهِ السّلامُ .
المؤتفكات	أصحابُ قُرى قوم لوطٍ عليهِ السّلامُ ، سُمِّيَتْ كذلكَ لأنَّ اللهَ قَلَبَها وأصْبَحَ عاليها سافِلَها .

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنْ قبائِحِ المُنافِقينَ ما يَفْضَحُ سِرَّهُمْ ، وَيهتِكُ سِتْرَهُم ، وبيَّنَ مِنْ

أخْلاقِهِمْ وأوْصافِهِمْ ما هُمْ مُتَشابِهونَ فيهِ ، أخبَرَنا سُبْحانَهُ وتَعالى بسوءِ مَصيرِهِمْ وعاقبةِ أمْرِهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾

إنّ اللهَ تَعالى في هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ بَيَّنَ ما أعدَّهُ للمُنافِقينَ مِنْ عقابٍ وجزاءٍ ، فقدْ أعدَّ لَهُمْ نارَ جهنَّمَ خالِدينَ فيها ، ثُمَّ ذَكَرَ سُبْحانَهُ الرِّجالَ مِنهُم والنِّساءَ ، لِلدَّلالَةِ عَلى عُموم الوَصْفِ فيهِمْ ، وتأصُّلِ الدّاءِ فيهِمْ كذلكَ . ثُمَّ قدَّمَ اللهُ تعالى ذِكْرَهُم عَلى الكُفّارِ دَلالةً عَلى أنَّ النِّفاقَ أخْطَرُ مِنَ الكُفرِ الصّريحِ . ثُمَّ إنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى بيَّنَ أنَّ عذابَهُمْ ، فيهِ العاجلُ في الدّنيا وفيهِ الآجِلُ في الآخِرَةِ ، فالنّارُ حَسْبُهُمْ ، يعني وفي جَهَّنمَ جزاءٌ يَكفيهِمْ عِقاباً لَهُمْ ، ولَعَنَهُمُ اللهُ تَعالى ، ففي الدُّنْيا طَرَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وتَوْفيقهِ ، وفي الآخِرَةِ لَهُمُ العذابُ الشّديدُ الثّابتُ الّذي لا يَحولُ ولا يزولُ . والظّاهِرُ ـ واللهُ تَعالى أعْلَمُ ـ أنَّ اللهَ سُبْحانَهُ وتَعالى بِهذا البَيانِ أرادَ أنْ يُذيقَهُمُ العذابَ الحِسّيَّ والمَعنويَّ الّذي يَتكافأُ مَعَ نِفاقِهِمْ وَعَمَلِهِمْ .

وبَعْدَ ذلكَ ساقَتِ السّورةُ الكَريمَةُ ـ لهؤُلاءِ المُنافِقينَ ـ نماذجَ لِمَنْ حَبِطَتْ أعمالُهُم بِسَبَبِ غُرورِهِمْ ، وَضَرَبَتْ لَهُمُ الأمثالَ بِمنْ هَلكَ مِنَ الطُّغاةِ السّابِقينَ بسببِ تكذيبِهِمْ لأَنْبيائِهِمْ ، فقال تَعالى :

﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

هذا خِطابٌ لِلْمُنافِقينَ المُعاصِرينَ للنَّبيِّ ﷺ : أنتُمْ أيُّها المنافِقونَ الّذينَ آذيتُمُ اللهَ تَعالى ورسولَهَ ﷺ والمُؤْمِنينَ ، كأُولئِكَ السّابقينَ مَعَ أنبيائِهِمْ ؛ أنتُّمْ مِثلُهُمْ مَغْرورونَ بِمالِكُمْ ، مَفتونونَ بأولادِكُمْ ، ولكنَّهُمْ كانوا أشدَّ مِنكمْ قُوَّةً ، وأكثرَ أموالاً ، وأولاداً ، ولم يَكُنْ لَهُمْ في دُنياهُمْ إلاّ مَطْلَبٌ واحِدٌ هو المَتاعُ الفاني ، والعَرَضُ الزّائِلُ ، والتَّمتُّعُ بالمالِ والوَلَدِ ، فكانَ نَصيبُهُمْ نَصيبَ الحيوانِ يَتمتَّعُ ويأْكُلُ وَيتناسَلُ ، فاسْتَمْتَعتُمْ أنتمْ بِنَصيبِكُمْ مِنَ المالِ والوَلَدِ والعَرَضِ الزّائِلِ كاسْتِمْتاعِهِمْ بِنَصيبِهِمْ ، لم تَفضُلوا عَلَيْهِمْ بشيءٍ مِنَ التَّمتُّعِ بِكلامِ اللهِ تَعالى المُحْكَمِ الّذي أنْزَلَهُ عَلى خيرِ أنبيائهِ وسيِّدِ رُسُلِهِ ﷺ ، فكنتُمْ أجدرَ مِنهُمْ بالمَلامةِ ، وأحقَّ بالعذابِ والنَّكالِ .

فأنتُمْ فَعلتُمُ الخَبائِثَ كما فَعَلوا ، وخُضْتُمْ في حَمأةِ الرّذيلةِ والفِسْقِ كما خاضوا ، ونَتيجةُ ذلِكَ أنْ حَبِطَتْ أعمالُهُمْ في الدُّنْيا وفَسَدَتْ ، لأنّها أعمالٌ للرِّياءِ والسُّمْعَةِ ، وقدْ ظَهَرَ نِفاقُهُمْ فيها ، وفي

الآخِرَةِ لَهُمُ العذابُ الأليمُ ، لأنَّ شَرْطَ الثّوابِ عَلى الأعمالِ الإيمانُ ، وهُمْ لا إيمانَ عندَهُمْ بلْ نِفاقٌ وزورٌ ، أولئِكَ هُمُ الخاسِرونَ الّذينَ يَحسَبونَ أنَّهُمْ يُحْسِنونَ صُنْعاً ، وقدْ ضَلَّ سعيُهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، ولابُدّ وأنْ يُصيبَكُمْ ما أصابَهُمْ .

ثُمَّ ساقتْ لَهُمُ السّورَةُ مِنْ أخبارِ السّابِقينَ ما فيهِ الكِفايةُ للعِظَةِ والاعْتِبارِ لو كانوا يَعقِلونَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

أَلَمْ يَصِلْ إلى أسْماعِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ خبرُ أولئِكَ المُهْلَكينَ مِنَ الأقوامِ السّابِقينَ بِسَبَبِ عِصْيانِهِمْ لِرُسُلِهِمْ صلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عليْهِمْ ، ومِنْ هؤُلاءِ الأقوام ، قومُ نوحٍ الّذينَ أُغْرِقوا بالطّوفانِ ، وقومُ عادٍ الّذينَ أُهْلِكوا بريحٍ صَرْصَرٍ عاتِيةٍ ، وقومُ ثمودَ الّذينَ أخذتْهُمُ الرَّجْفَةُ فأصْبَحوا في دارِهِمْ جاثِمينَ ، وقومُ إبراهيمَ الّذينَ سَلَبَ اللهُ تَعالى نِعَمَهُ عَنْهُم ، وأذلَّ غُرورَ زعيمِهِمُ الّذي حاجَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ في ربِّهِ تَعالى ، وأصحابُ مَدْيَنَ ، وأصْحابُ مَدْيَنَ هُمْ قومُ شعيبٍ عَلَيْهِ السَّلامُ الّذينَ أخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ ، والمُؤْتَفِكاتُ وهُمْ أصحابُ قُرى قومِ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ الّتي جعَلَ اللهُ عاليَها سافِلَها .

هؤلاءِ الأقوامُ أتَتْهُمْ رُسُلُ ربِّهِمْ تَبارَكَ وتَعالى بالبَيِّناتِ والحُجَجِ الواضِحَةِ ، فكذَّبوا وتَولَّوْا عنْ أنْبيائِهِمْ ، واخْتاروا طريقَ الغِوايةِ والضَّلالِ وبذلكَ ظَلَموا أنْفُسَهُم . وإنّما ذَكَرَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذهِ الطّوائِفَ السِّتَّ مِنَ الأُمَمِ المُهْلَكَةِ ، لأنَّ آثارَهُمْ باقيةٌ ، ومَواطِنُهُمْ هِيَ الشّامُ والعِراقُ واليمنُ ، وهي مواطِنُ قريبةٌ مِنْ أرضِ العَرَبِ ، فكانوا يَمرّونَ عليْها في أسْفارِهِمْ كما كانوا يَعْرِفونَ الكَثيرَ مِنْ أخبارِهِمْ ، قال تَعالى : ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الصافات ١٣٧-١٣٨] .

وقَدْ ظَهَر لنا مِنْ خلالِ هذهِ الآياتِ الكَريمَةِ أنَّ الغُرورَ بالقُوَّةِ والافْتِتانَ بالأموالِ والأولادِ ، والانْغماسَ في الشَّهَواتِ والمَلَذّاتِ الحِسِّيَّةِ ، والخَوْضَ في طُرُقِ الباطِلِ ، وعدمَ الاعْتِبارِ بما حَلَّ بالطُّغاةِ والعُصاةِ ، كُلُّ ذلِكَ يُؤدي إلى الخُسْرانِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وإلى التَّعرُّضِ لِسَخَطِ اللهِ تَعالى وعِقابِهِ .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ المُنافِقونَ أشدُّ خَطَراً مِنَ الكُفّارِ .

٢ـ هلاكُ الأُمَمِ بِفَسادِها .

٣ـ العِبْرَةُ بِمَنْ سَبَقَ تَصويبَ طريقِ مَنْ لَحِقَ .

٤ـ الدُّنْيا بِلَذائِذِها لا تُغني عَنِ الآخِرَةِ .

٥ـ تَكذيبُ الرُّسُلِ مَدْعاةٌ لِسَخَطِ اللهِ تَعالى وعِقابِهِ .

٦ـ اللهُ تَعالى لا يُحابي أحَداً ، فَمَنْ آمن أكْرَمَهُ ، ومَنْ كَفرَ عَذَّبهُ ، ولا يَظْلِمُ ربُّكَ أحَدَاً .

اجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

حَسْبُهُمْ ، اسْتَمْتَعوا بِخَلاقِهِمْ ، خُضْتُمْ كالّذي خاضوا ، أصحابُ مَدْيَنَ ، المُؤْتَفِكاتُ .

٢ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما أعَدَّ اللهُ تَعالى للمُنافِقينَ ، بَيِّنْ ذلِكَ مُسْتَدِلاً عَلَيْهِ بآيةٍ مِنْ كتابِ اللهِ تَعالى .

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أوْجُهَ المُشابَهَةِ بَيْنَ المُنافِقينَ ومَنْ سَبَقَهُمْ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٤ـ اذْكُرِ الأقوامَ الّتي ذَكَرَها اللهُ تَعالى تَمْثيلاً للمُنافِقينَ ، وبَيِّنْ كيفَ أهْلَكَ اللهُ كُلاً مِنْها .

٥ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمَةُ السَّبَبَ الّذي مِنْ أجْلِهِ أهْلَكَ اللهُ تَعالى الأُمَمَ السّابقةَ ، بَيِّنْ ذلِكَ .



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ لِماذا كانَ المُنافِقونَ أشدَّ خطراً مِنَ الكافِرينَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآياتِ الّتي تُبيِّنُ مُحاجَجَةَ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ لِمَلِكِ قَومِهِ .

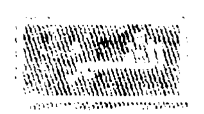
الدرس السادس والثلاثون

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ التّاسِعَ عَشَر

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

أولياءُ بَعضٍ : نُصَراءُ لِبَعْضِهِمْ بَعْضاً ، أُخوةٌ مُتحابّونَ .

جَنّاتُ عَدْنٍ : اسمُ جَنّاتِ الإقامةِ الدّائمةِ .



بَعْدَ أنْ تَحدَّثتِ السّورةُ الكَريمَةُ عنْ أحوالِ المُنافِقينَ وصِفاتِهِمْ وسوءِ عاقِبَتِهِمْ ، أَتْبَعَتْ ذلِكَ بالحديثِ عنِ المُؤْمنينَ الصّادِقينَ ، وما أعدَّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ مِنْ نَعيمٍ مُقيمٍ ، وذلكَ شأنُ الأُسلوبِ القُرآنيِّ ، يَذْكُرُ الشَّيْءَ ثُمَّ يُرْدِفُهُ بما يُقابِلُهُ لِيتجلّى الفَرْقُ ، ويَظهَرَ للعيانِ بِأَجْلى مَعانيهِ ، ولِيَعْلَمَ المُنافِقونَ أنّهم لَيْسوا عَلى شَيْءٍ مِنَ الإيمانِ .

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ .

المُؤْمِنونَ والمُؤْمِناتُ بعضُهم أولياءُ بعضٍ بِالنُّصْرَةِ والمَعونَةِ ، والمُساعَدَةِ في السّرّاءِ والضَّرّاءِ ،

بعضُهُمْ أولياءُ بعضٍ وِلايَةَ أُخوَّةٍ ، ومَودَّةٍ ، ومُحبَّةٍ ، وصَداقَةٍ ، فالنَّبيُّ ﷺ يقولُ : « مَثَلُ المُؤْمِنينَ في توادِّهِمْ وتَراحُمِهِمْ كَمَثَلِ الجَسَدِ الواحِدِ ، إذا اشْتَكى مِنهُ عُضْو تَداعى لهُ سائِرُ الجَسَدِ بالسَّهَرِ والحُمّى »[1] .

ويقولُ أيْضاً : « المُؤْمِنُ للمُؤْمِنِ كالبُنْيانِ يَشدُّ بعضُهُ بَعْضاً »[2] ، هذا هُوَ أساسُ الإيمانِ ، وطَبْعُهُ بينَ المُؤْمِنينَ ، لا فَرْقَ بَيْنَ ذَكَرٍ وأنْثى .

ولْنَتَأَمّلْ قولَهُ تَعالى في وصْفِ المُؤْمِنينَ : ﴿ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ ، وفي وصْفِ المُنافِقينَ : ﴿بعضُهُم مِنْ بَعضٍ﴾ نجدُ أنَّ المُنافِقينَ لا وِلايةَ بَينهُمْ ولا أُخُوةَ تَبلُغُ درجةَ الإيثارِ ، ولكنَّها أُخوَّةُ كلامٍ فقط ، فالمُنافِقونَ بعضُـهُمْ يُشْبهُ بعضاً في الشَّكِّ والارْتِيابِ ، ولكنْ لا صلةَ بَيْنَهُمْ ولا تآلُفَ . إذاً الوِلايَةُ ، والصِّلَةُ والأُخوَّةُ هيَ مِنْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ أصْحابِ العَقائِدِ الرّاسِخَةِ ، ولِذا قالَ اللهُ تَعالى فيهِمْ : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ .

وِلايةُ النُّصْرَةِ في الدِّفاعِ عنِ الحَقِّ والعَدْلِ والكَرامَةِ والدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالى ، يأمُرونَ بالمَعروفِ ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ .

وبعَكسِ ذلكَ المُنافِقونَ ؛ يأمُرونَ بالمُنْكَرِ ، ويَنْهَوْنَ عنِ المَعْروفِ ، ولا غرابةَ ، فهاتانِ الصِّفتانِ مِنْ أبرزِ صِفاتِ المنافِقينَ .

ومِنْ أوصافِ المُؤْمِنينَ الّتي ذَكَرَها اللهُ تَعالى هُنا أيضاً ، أنَّهُمْ يُقيمونَ الصَّلاةَ ، أيْ : يُؤدّونَها في أوقاتِها كامِلَةً ، تامَّةَ الأرْكانِ والشُّروطِ ، فيها الخُضوعُ الكامِلُ والخُشوعُ للهِ تَعالى ، ومُراقَبَتُهُ وذِكْرُهُ ، أمّا صلاةُ المُنافِقينَ فللرِّياءِ والسُّمْعَةِ والنِّفاقِ ، إذا قاموا إلَيْها قاموا كُسالى .

ومِنْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ كذلكَ أنَّهم يُؤْتونَ الزَّكاةَ ، أي : يُعطونَها لِمُسْتَحقّيها من دونِ مَنٍّ ولا أذىً ، وإيتاءُ الزَّكاةِ دليلُ كمالِ الإيمانِ والخَشْيَةِ مِنَ اللهِ تَعالى ، والأملِ في رِضْوانِهِ .

وإنّما خُصَّ هذانِ الرُّكنانِ : الصَّلاةُ والزكاةُ بالذِّكْرِ هنا ، لأنَّهُما علاجُ الهَلَعِ والجَزَعِ والبُخْلِ والخَوَرِ ، وكلُّ هذهِ أمراضٌ تَدفَعُ أصْحابَها إلى الإحْجامِ عنِ الدّفاعِ عَنِ الحَقِّ وإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وتَدْفَعُهُمْ إلى الشُّحِّ المانِعِ مِنَ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ، ولِذا كانَ المُنافِقونَ أجبنَ النّاسِ وأبْخَلَهُمْ .

وقَدْ جَعَلَ اللهُ تَعالى هذهِ الأُمورَ الأرْبَعَةَ : الأمْرَ بالمَعروفِ ، والنَّهْيَ عِنِ المُنْكَرِ ، وإقامَ الصّلاةِ ، وإيتاءَ الزّكاةِ ، أَساسَ النّجاحِ في الدُّنْيا ، وَوسيلَةَ العِمرانِ ، وإقامةِ الدّولةِ المُسلِمةِ

---

(١) رواه البخاري في الأدب حديث رقم : ٦٠١١ بلفظ قريب من هذا .

(٢) رواه البخاري في الصلاة حديث رقم : ٤٨١ .

الصّالِحَةِ للتَّمْكينِ في الأرضِ ، قالَ تَعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْاْ عَنِ ٱلْمُنكَرِۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الحج : ٤١] .

وفوقَ هذهِ الصِّفاتِ كُلِّها فإنَّ الدّائِرَةَ الجامِعَةَ لَها هِيَ طاعةُ اللهِ تَعالى ورسولِهِ ، باجْتِنابِ النَّواهي ، والامْتثالِ للأوامِرِ الرَّبانيَّةِ والنَّبويَّةِ ، لِذلِكَ جُعِلَتْ هذهِ الطّاعَةُ مِنْ أوصافِ المُؤْمِنينَ الخاصّةِ .

واسْتِجماعُ هذهِ الصّفاتِ فيهِمْ ، قادَهُمْ إلى رَحمةِ اللهِ تَعالى الواسِعَةِ الّتي كَتَبها اللهُ لَهُمْ ، خالِصَةً مِنْ شوائبِ الكَدَرِ والشَّقاءِ ، إنَّ اللهَ تَعالى عزيزٌ ، لا يُغْلَبُ ، حكيمٌ في كلِّ ما وَضَعَ .

وبَعْدَ ذلِكَ فصَّلَ اللهُ تَعالى مظاهِرَ رَحْمَتِهِ للمُؤْمِنينَ والمُؤْمِناتِ أصْحابِ تلكَ الصِّفاتِ السّابِقةِ ، فقالَ تعالى :

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

وعَدَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ والمُؤْمِناتِ جنّاتٍ جزاءً لَهُمْ ، وهلْ جزاءُ الإحسانِ إلاّ الإحسانُ ، وَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى جنّاتٍ مَوْصوفةً بِأنّها تَجْري مِنْ تَحتِها الأنْهارُ ، فليسَ فيها تَعَبٌ ولا مَشقَّةٌ ، ولا عَطَشٌ ولا أَلَمٌ ، كما أنّ مياهَها طاهِرَةٌ نَظيفةٌ ، لا تتغيَّرُ بالمُكْثِ ، ولا تفْسُدُ بالوُقوفِ ، وهُمُ الخالِدونَ فيها إلى ما شاءَ اللهُ تَعالى ، ومُقيمونَ فيها إقامةً أبَدِيَّةً ، وَوَعَدَهُمُ اللهُ تَعالى كذلكَ مساكِنَ طيِّبَةً يَتمتَّعونَ بِها ، مُشتمِلةً عَلى جَميعِ المَرافِقِ ، وهذا هُوَ المَتاعُ الجِسْمانيُّ في الآخِرَةِ ، وأمّا مَتاعُ الرّوحِ فالرِّضا والرِّضوانُ ، ورضوانُ اللهِ تَعالى أكبرُ مِنْ ذلكَ لا يقادَرُ قَدَرُهُ .

وبِهذا نَرى أنَّ هاتيْنِ الآيتينِ الكَريمتينِ قدْ بَشَّرَتا المُؤْمِنينَ والمُؤْمِناتِ بأَعْظَمِ البِشاراتِ ، وَوَصفَتاهُمْ بأشرفِ الصِّفاتِ ، وقابَلتا بَيْنَ جَزائِهِمْ وجَزاءِ الكُفّارِ والمُنافِقينَ ، بِما يَحْمِلُ العاقِلَ عَلى أنْ يَسْلُكَ طريقَ المُؤْمِنينَ وعلى أنْ يَنْهَجَ نَهْجَهُمْ ، ويَتحلّى بأوْصافِهِمْ ، وبذلك يفوزُ بنعيمِ اللهِ تَعالى ورِضاهُ كَما فازوا ، ويَسْعَدَ كما سَعِدوا ، ويَنْجو مِنَ العذابِ الّذي تَوعّدَ اللهُ تَعالى بِهِ المُنافِقينَ والكافِرينَ ، بسببِ إصْرارِهِمْ عَلى الكُفْرِ والنِّفاقِ ، وإيثارِهِمُ العَمى عَلى الرُّشْدِ .

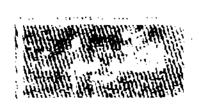


تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأُخُوَّةُ في اللهِ تَعالى مِنْ أساسِ الإيمانِ .

٢ـ الوِلايةُ الحَقّةُ بَيْنَ المُؤْمنينَ .

٣ـ لا وِلايَةَ حقيقيةَ بَيْنَ الكافِرينَ والمُنافِقينَ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

بعضُهُم أولياءُ بَعضٍ ، جَنّاتُ عَدْنٍ .

٢ـ بيِّنْ كَيفَ يَمضي الأُسلوبُ القُرْآنيُّ في ذِكْرِ التَّقابُلاتِ ، وبيِّنْ ما أهميّةُ هذا الأُسلوبِ وغايتُهُ .

٣ـ قالَ تَعالى في حقّ المُؤْمِنينَ : « بَعْضُهُم أولياءُ بعضٍ » وفي حقِّ المُنافِقينَ : « بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ» ما سِرُّ ذلِكَ ؟

٤ـ قارِنْ بَيْنَ المُؤْمِنينَ والمُنافِقينَ في الأُمورِ التّالِيَةِ :

أـ الأمْرُ بالمعَروفِ والنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ .

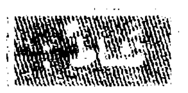
ب ـ إقامُ الصّلاةِ .

ج ـ إيتاءُ الزّكاةِ .

د ـ الوِلايةُ .

٥ـ بيِّنِ الأشْياءَ الّتي جَعَلَها اللهُ تَعالى وسيلَةَ العِمرانِ وإقامةِ الدَّولةِ المُسلِمَةِ الصّالِحَةِ لِلتَّمْكينِ .

٦ـ بيَّنَ اللهُ تَعالى مظاهِرَ رَحمَتِهِ بالمُؤْمِنينَ في الآخِرَةِ ، وضِّحْ ذلِكَ .



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صِفةَ المُنافِقينَ في الإنْفاقِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَصيرَ المُنافِقينَ والكافِرينَ يومَ القِيامَةِ .

* * *

الدرس السابع والثلاثون

سورة التوبة - القسم العشرون

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٧٨﴾﴾

اغلظ عليهم	: اشْدُدْ عليهِمْ ولا تَرْحَمْهُمْ .
نقموا	كَرِهوا ، عابوا ، أو أنْكَروا .
أعقبهم نفاقاً	: جَعَلَ عاقِبَةَ أمْرِهِمْ أنْ صاروا مُنافِقينَ .

بَعْدَ أنْ أنْذَرَ اللهُ تَعالى المُنافِقينَ في آياتٍ مَضَتْ بالعَذابِ الشَّديدِ في الدُّنيا والآخِرَةِ ، وسَمِعَ المُنافِقونَ هذا الإنذارَ ولمْ يَرْتَدِعوا ، ومَضى عَلَيْهِمْ مِنَ المُدّةِ ما انكَشَفَتْ فيهِ دَخيلَتُهُمْ بما تكرَّرَ مِنْهُم مِنْ بوادِرِ الكُفْرِ والكَيْدِ للمُسْلِمينَ ، أنجزَ اللهُ تَعالى للمُنافِقينَ بأنْ أمَرَ رَسولَهُ ﷺ بِجِهادِهِمْ وقِتالِهِمْ ، وهذا أيضاً نَوْعٌ مِنَ العَذابِ الدُّنيويِّ للمُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾

يا أيّها النَّبيُّ ﷺ ثابِرْ على جِهادِكَ في رَدْعِ الكُفّارِ عَنْ كُفْرِهِمْ ، والمُنافِقينَ عَنْ نِفاقِهِمْ ، واشْتَدَّ عليْهِمْ في جِهادِكَ ولا يَكُنْ لَكَ فِيهِمْ لينٌ ولا رَحْمَةٌ ، لأنّهمْ لا يَرحمونَ أنفسَهُمْ ، وإنَّ مآلَهُمُ الّذي أعدّهُ اللهُ تَعالى لَهُمْ في الآخِرَةِ هُوَ جَهنَّمُ ، وما أسوأَ هذا المَصيرِ .

وهذا دواءٌ وعِلاجٌ ربّانيٌّ ، فإنَّ المُذْنِبَ إذا عومِلَ مُعامَلَةً لَيِّنَةً ربّما أطْغَتْهُ وجَعَلَتْهُ يَتمادى ، وبالعَكْسِ لو عومِلَ بالشِّدَّةِ نوعاً ما ، كانَ ذلكَ أدْعى إلى أنْ يَرْجِعَ إلى نَفْسِهِ ، ويُحاسِبَها حساباً قدْ يَنتُجُ عنهُ رجوعُهُ إلى الجادّةِ ، والطَّريقِ المُستقيمِ . والجِهادُ المأمورُ بِهِ للفَريقيْنِ مُختلِفٌ ، فجهادُ الكُفّارِ كانَ بالسَّيْفِ ، وأمّا جِهادُ المُنافِقينَ فلم يَكُنْ كذلكَ ، وإنّما كانَ باللسّانِ والحُجَّةِ والبَيانِ ، لأنّ المُنافِقَ مُنْدَسٌّ في صُفوفِ المُسْلِمينَ غيرُ مُعْلِنٍ نِفاقَهُ ، ومِثْلُهُ لا يُجاهَدُ جِهادَ الكُفّارِ ، وهو على هذهِ الحالةِ .

وقدْ كانَ هذا هُوَ الّذي حَدَثَ مَعَ النَّبيِّ وهؤُلاءِ ، ولَمْ يَخْفَ أنَّ مَنْ أظْهَرَ نِفاقَهُ على المَلأ عومِلَ مُعامَلَةَ الكُفّارِ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

وبَعْدَ هذا بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما كانَ عليهِ المُنافِقونَ مِنْ كَذِبٍ وفُجورٍ ومِنْ خِيانَةٍ وغَدْرٍ ، وفَتَحَ أمامَهُمْ بابَ التَّوْبَةِ ، وأنْذَرَهُمُ العَذابَ الأليمَ إذا اسْتَمرّوا فيما هُمْ فيهِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا۟ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

إنّ المُنافِقينَ يَحْلِفونَ أمامَكَ أيُّها النَّبيُّ ﷺ باللهِ أنّهُمْ ما قالوا مُنْكَراً مِمّا بَلَغَكَ عَنْهُمْ ، وهُمْ كاذِبونَ في الإنْكارِ ، حانِثونَ في اليَمينِ ، وأنّهُمْ قد قالوا كَلِمَةَ الكُفْرِ ، عِياذاً باللهِ تَعالى وظَهَرَ كُفْرُهُمْ بعدَ أنْ كانَ باطِناً خَفِيّاً .

وما كانَ سببُ نِقمَتِهِمْ عَليكُمْ إلاّ بَطَراً بالنِّعمَةِ ، بَعْدَ أنْ أغناهُمُ اللهُ تَعالى ورَسولُهُ ﷺ بما حَصَلوا عَلَيْه مِنَ الغَنائِمِ الّتي شارَكوا فيها المُسلِمينَ ، فإنْ يَرْجعوا إلى اللهِ تَعالى بِتَرْكِ النِّفاقِ والنَّدَم عَلى ما كانَ مِنهُمْ يَقْبَلُ اللهُ تعالى تَوْبَتَهُمْ ، ويكونُ ذلِكَ خيراً لَهُمْ ، وإنْ يُعْرِضوا عَنِ الإيمان يُعذِّبْهُمُ اللهُ تَعالى عذاباً أليماً في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وليسَ لَهُمْ في الأرضِ مَنْ يُدافِعُ عَنْهُمْ أو يَشْفَعُ لَهُمْ ، أو يَنْصُرُهُمْ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى حَكى لَنا بَعْدَ ذلِكَ نَماذجَ مِنْ جُحودِهِمْ ، ونَقْضِهِمْ لِعهُودِهِمْ وبُخْلِهِمْ بما آتاهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين ﴾

وهذِهِ الآيةُ الكَريمَةُ بيانٌ لحالِ طائِفةٍ مِنْ أُولئِكَ الّذين أغْناهُمُ اللهُ تَعالى ورسولُهُ مِنْ فَضْلِهِ بَعْدَ الفَقْرِ والإمْلاقِ ، ويُوجَدُ مِثْلُهُمْ في كلِّ زمانٍ ، وهُمُ الّذينَ يَلجأونَ إلى اللهِ تَعالى في وقتِ العُسْرَةِ والفَقْرِ أوِ الشِّدَّةِ والضُّرِّ ، فَيَدْعونَهُ ويُعاهِدونَهُ عَلى الشُّكْرِ لهُ والطّاعَةِ لِشَرْعِهِ إذا هو كَشَفَ ضُرَّهُمْ ، وأغْنى فَقْرَهُمْ ، فإذا اسْتَجابَ لَهُمْ نُكِسوا عَلى رُؤوسِهِمْ ونَكَصوا على أعْقابِهِمْ ، وكَفَروا النِّعْمَةَ ، وبَطَروا الحَقَّ ، وهَضَموا حُقوقَ الخَلْقِ ، وهذا مَثَلٌ مِنْ شَرِّ أمْثالِهِمْ ، فهذِهِ الآيَةُ إذَنْ تَحكي صورَةً حَقيقيَةً وَواقِعيَّةً لِبعضِ المُنافِقينَ المُعاصرينَ لِلْعَهْدِ النَّبويِّ الشَّريفِ ، والّذينَ عاهَدوا اللهَ تَعالى فَنَقَضوا عُهودَهُمْ مَعَهُ ، وقابَلوا ما أعْطاهُمْ مِنْ نِعَمٍ بالبُخْلِ والجُحودِ .

ومِنَ المُنافِقينَ قَومٌ عاهَدوا اللهَ تَعالى وأكّدوا عُهودَهُمْ بالأيْمانِ المُغلَّظَةِ ، فقالوا لَئِنْ آتانا اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ مالاً وفيراً ، لَنَصَّدَّقَنَّ منهُ عَلى المُحْتاجينَ ، ولَنُعْطِيَنَّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ ، ولَنَكونَنَّ مِنْ عبادِ اللهِ الصّالِحينَ الّذينَ يُؤدّونَ واجبَهُم نَحوَ اللهِ تَعالى والنّاسِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى كَذِبَهُمْ ونِفاقَهُمْ ، وأنَّهم بِمُجرّدِ أنِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لَهُمْ ظَهَروا بِمَظْهَرِهِمُ الحَقيقيِّ المُتمثِّلِ في البُخْلِ والجُحودِ والنُّكْرانِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون ﴾

فلمّا أعْطى اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ هؤلاءِ المُنافِقينَ ما تَمنَّوْهُ مِنْ مالٍ وفيرٍ بَخِلوا بِهذا المالِ ، فَلَمْ يُنفِقوا منهُ شَيْئاً في وُجوهِهِ المَشْروعَةِ ، ولمْ يَعْتَرِفوا فيهِ بِحقوقِ اللهِ تَعالى أو حُقوقِ النّاسِ ، ولم يَكْتَفوا بذلكَ ، بلْ أدْبَروا عَنْ طاعةِ اللهِ تَعالى ، وعنْ فِعْلِ الخَيْرِ ، وهُمْ قَوْمٌ دَأبُهُمُ التَوَلّي عَنْ سَماعِ الحَقِّ ، وشَأنُهُمُ الانْقِيادُ لِلْهَوى والشَّيْطانِ .

وبَعْدَ هذا بَيَّنَ اللهُ تَعالى ماذا فَعَلَ بِهِمْ جَزاءَ هذا الجُحودِ والنُّكْرانِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون ﴾

فكانتْ عاقبةُ بُخْلِهِمْ أنْ جَعَلَ اللهُ تَعالى النِّفاقَ مُتَمَكِّناً في قُلوبِهِمْ إلى أنْ يَموتوا ويَلقَوْا اللهَ تَعالى ، بِسَبَبِ نَقْضِهِمْ عَهْدَهُمْ معَ اللهِ وبِسَبَبِ كَذِبِهِمْ في أيْمانِهِمْ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةَ بِتَوْبيخِهِمْ عَلى إصْرارِهِم عَلى المَعاصي ، فقالَ تَعالى :

﴿ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب ﴾

ألَمْ يَعلَمْ هؤُلاءِ أنَّ اللهَ تَعالى يَعْلَمُ ما يُسرّونَهُ في أنْفُسِهِمْ مِنْ نِفاقٍ ، وما يَتناجَوْنَ فيما بَيْنَهُمْ مِنْ

أقوالٍ فاسدةٍ ، وأنّه سُبْحانَهُ لا يَخفى عليهِ شَيءٌ في الأرْضِ ولا في السَّماءِ ، بلى إنَّهم لَيَعلمونَ ذلكَ عِلْمَ اليَقينِ ، ولكنَّهُم لاسْتيلاءِ الهَوى وسَيْطَرَةِ الشَّيْطانِ عَلَيْهِم لَمْ يَنتفِعوا بِعِلْمِهِمْ .

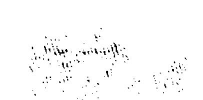
تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ عَلى المُسلِمينَ أنْ يُجاهِدوا أعْداءَهُمْ بالسِّلاحِ المُناسبِ لِجعلِ كَلِمةِ اللهِ تَعالى هِيَ العُلْيا .

٢ـ وُجوبُ الوفاءِ بالعُهودِ ، فإنَّ نَقْضَها مِنْ عَلاماتِ النِّفاقِ .

٣ـ النَّفْسُ البَشَرِيَّةُ ضَعيفةٌ شَحيحةٌ إلاّ ما عَصَمَ اللهُ تَعالى ، فإنْ تُرِكَتْ عَلى هَواها أوْرَدَتْ صاحِبَها المَهالِكَ .

٤ـ لا يَنفَعُ النَّدَمُ بعدَ فواتِ الأوانِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

اغْلُظْ عَلَيْهِمْ ، وما نَقَموا إلاّ أنْ أغْناهُمُ اللهُ ، أعْقَبَهُم نِفاقاً .

٢ـ قالَ تَعالى : ﴿يا أيُّها النَّبيُّ جاهِدِ الكُفّارَ والمُنافِقينَ﴾ ، هلْ جِهادُ الطّائِفَتَيْنِ هنا واحدٌ ؟ ولِماذا ؟

٣ـ في الآياتِ الكَريمَةِ بيانُ سَبَبِ نِقْمَةِ المُنافِقينَ ، بَيِّنْ ذلكَ .

٤ـ هاتِ الدَّليلَ مِنَ الآياتِ على ما يَلي :

أـ المُنافِقُ يَحْلِفُ باللهِ كَذِباً .

ب ـ بابُ التّوبَةِ مَفتوحٌ لِلمُنافِقينَ .

ج ـ المُنافِقُ إنْ وقَعَ عَلَيْهِ أمْرُ اللهِ تَعالى ليسَ لَهُ مَنْ يَنْصُرُهُ .

د ـ المُنافِقُ بَخيلٌ شَحيحٌ .



ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الفَرْقَ بينَ الجِهادِ والقِتالِ .

الدرسُ الثامنُ والثلاثونَ

سورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلًا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

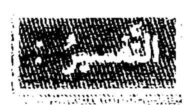
يَلْمِزونَ : يَعيبونَ ويُنْقِصونَ .

المُطَّوِّعينَ : أغنياءَ المُؤْمِنينَ الّذين قَدَّموا أموالَهُم للهِ تَعالى طَواعِيَةً .

جُهْدَهُمْ : أقْصى ما عِنْدَهُم .

لا تَنْفِروا : لا تَخْرُجوا لِلْجِهادِ .

الخالِفينَ : الّذينَ تَخلّفوا عنِ الخُروجِ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ قَصْداً .



بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى مِنْ قَبائحِ المُنافِقينَ ما ذَكَرَهُ في الآياتِ السَّابقةِ ، وذَكَرَ سُبْحانَهُ لنا مَثَلاً مِنْ واقِعِهِم المَريرِ ، والّذي تَظْهَرُ فيهِ صُورَتُهُمُ القَبيحةُ كما هِيَ ، زادَنا اللهُ تَعالى شَيْئاً مِنْ

قبائِحِهِمُ ، الّتي تُظْهِرُ مَوْقِفَهُمْ مِنَ المؤمنينَ الصّادِقينَ الذّينَ كانوا يَبْذُلونَ أمْوالَهُمْ في سبيلِ اللهِ تَعالى ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إنَّ هذهِ الآيَةَ لَتُبيِّنُ شَيئاً مِنْ صِفاتِ المُنافِقينَ ، الّتي مِنْ خلالِها يَظْهَرُ أنَّهُ لا يَسْلَمُ أحدٌ مِنْ عَيْبِهِمْ ولَمْزِهِمْ في جَميعِ الأحوالِ ، حتّى ولا المُتَصدِّقونَ المُنْفِقونَ ، فقدْ أخرجَ البُخاريُّ في سَببِ نُزولِ هذهِ الآيةِ عَنْ أبي مَسعودٍ قال : لمّا أُمِرْنا بالصَّدقةِ كُنّا نَتَحامَلُ (أيْ يَحمِلُ بَعضُنا لبعضٍ بالأُجْرَةِ) فجاءَ أبو عقيلٍ بنصفِ صاعٍ ، وجاءَ إنسانٌ بأكثرَ منهُ ، فقالَ المُنافِقونَ : إنَّ اللهَ لغنيٌّ عن صَدَقَةِ هذا ، وما فَعَلَ الآخرُ إلاّ رياءً فنزَلتْ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾[1] .

إنّ مِنَ الصِّفاتِ القَبيحةِ ـ أيْضاً ـ للمُنافِقينَ ، أنّهم كانوا يَعيبونَ عَلى المُؤْمِنينَ إذا بَذَلوا أموالَهُمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ عنْ طَواعيةِ نَفْسٍ ورضا قَلْبٍ ، وسماحةِ ضَميرٍ ، لأنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ لِخُلُوِّ قُلوبِهِمْ مِنَ الإيمانِ كانوا لا يُدْرِكونَ الدّوافعَ السّامِيَةَ ، والمَقاصِدَ العالِيَةَ مِنْ وراءِ هذا البَذْلِ ، ومِنْ أجلِ هذا كانوا يَقولونَ عَنِ المُكْثِرِ إنَّهُ يَبذُلُ رياءً ، وكانوا يَقولونَ عَنِ المُقِلِّ : إنَّ اللهَ تَعالى غنيٌّ عَنْ صَدَقَتِهِ ، فَهُمْ ـ لسوءِ نواياهُمْ وبُخْلِ نُفوسِهِمْ وخُبْثِ قُلوبِهِمْ ـ يُرْضيهِمْ أنْ يَرَوْا المُؤْمِنينَ يَتنافَسونَ في إرضاءِ اللهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ، ولِذلِكَ يقومُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ بالاسْتِهزاءِ بالمُؤْمِنينَ عندما يُلبّونَ دعوةَ رسولِ اللهِ ﷺ للإنفاقِ في سبيلِ اللهِ تَعالى . ولقدْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى جزاءَهُم في الدُّنيا والآخِرَةِ بأنّهُ سُبْحانَهُ فَضَحَهُمْ وأخْزاهُمْ ، وجَعَلَهُمْ مَحَلَّ الاحتقارِ والازْدِراءِ ، أمّا في الآخِرَةِ فلهُمُ العَذابُ الأليمُ الّذي لا يَخِفُّ ولا يَنْقَطِعُ .

ثُمَّ عقّبَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى هذا الحُكْمَ عَلَيْهِم بالعذابِ الأليمِ بِحُكْمٍ آخَرَ ، وهو عدمُ المَغْفِرَةِ لَهُمْ بسببِ إصْرارِهِمْ عَلى الكُفْرِ والفُسوقِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾

لنْ يَنفَعَهُمْ أنْ تَستجيبَ لِدُعاءِ بَعْضِهِمْ ، وتَطْلُبَ المَغْفِرةَ مِنَ اللهِ تَعالى لَهُمْ ، سواءٌ إنْ تَستغفِرْ لهمْ أَيُّها النَّبيُّ ﷺ أو لا تَستغفِرْ لَهُمْ ، وَمهْما أكْثَرْتَ مِنْ طلبِ المَغْفِرةِ لَهُمْ ، فلنْ يَعفوَ اللهُ تَعالى عَنهُم ، لأنّهُ لا أمَلَ في العَفْوِ والمَغفِرَةِ معَ الكُفْرِ والإصْرارِ عَلَيْهِ ، وقدْ كَفَرَ هؤُلاءِ باللهِ تَعالى

---

(١) رواه البخاري ، كتابُ التفسير ، حديث رقم ٤٦٦٨ .

ورسولِهِ ﷺ ، واللهُ تَعالى لا يَهدي الخارجينَ عَلَيْهِ وعلى رسولهِ ﷺ ، لِتَمرُّدِهِمْ عَلى شَرْعِهِ ودينِهِ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ بيانٌ لِشدَّةِ شَفَقةِ النَّبيِّ ﷺ عَلى أُمّتِهِ ، وحِرْصِهِ عَلى هِدايَتِها ، وكَثْرةِ دُعائِهِ لها بالرَّحْمةِ والمَغفِرَةِ ، وأنّه مَعَ إيذاءِ المُنافِقينَ لهُ كانَ ﷺ يَستغفِرُ لَهُمْ في تَوْبَتِهِمْ ، حتّى نهاهُ اللهُ تَعالى عَنْ ذلكَ ، عِنْدَها توقَّفَ .

وهكذا صَدَرَ الحُكْمُ الإلهيُّ مِنَ اللهِ تَعالى عَدْلاً في هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، بعدمِ المَغفِرَةِ لَهُمْ بسَبَبِ كُفْرِهِمْ باللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ورسولِهِ ﷺ .

وبَعْدَ هذا الحديثِ الطّويلِ المُتنوِّعِ عنْ أحوالِ المُنافِقينَ وَمسالِكِهِمُ الخَبيثةِ أخذتِ السّورَةُ الكَريمَةُ في الحديثِ عَنْ تَخلُّفِهِمْ عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ ورَفْضِهِمُ الخُروجَ مَعَ الرّسولِ ﷺ إلى تَبوكَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

لقدْ فَرِحَ المُنافِقونَ الّذينَ تَخلَّفوا عنِ الخُروجِ معَ رسولِ اللهِ ﷺ والمُسلِمينَ ، وفَرِحوا أيضاً بقعودِهِمْ في المدينةِ بَعْدَ خُروجِ النَّبيِّ ﷺ مِنها ، وبِمُخالَفَتِهِمْ أمْرَهُ والجهادَ مَعَهُ ﷺ ، وكَرِهوا أنْ يُجاهِدوا بأموالِهِمْ ، ويُضحّوا بأرْواحِهِمْ في سبيلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى وَنَصْرِ دينِهِ ، وأخذوا يُثبِّطونَ غيرَهُم ، ويُغْرونَهُمْ بالقُعودِ مَعَهمْ ، ويُخوِّفونَهُمُ النّفيرَ إلى الحَرْبِ في الحَرِّ ، فأمَرَ اللهُ رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لَهُمْ : لو كُنتمْ تَعقِلونَ لَذكرتُمْ أنَّ نارَ جهنَّمَ أكثرُ حرارةً وأشَدُّ قَسْوةً مِمّا تَخافونَ ، فَتخلُّفُكُمْ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ يوجِبُ عذاباً شديداً .

وإنّما فَرِحَ المُنافِقونَ بهذا القُعودِ ، وكَرِهوا الجِهادَ ، لأنَّهم قَومٌ خَلَتْ قُلوبُهُمْ مِنَ الإيمانِ باللهِ تَعالى واليومِ الآخِرِ ، وهَبَطَتْ نفوسُهُمْ عَنِ الارتفاعِ إلى مَعالي الأُمورِ ، وآثَروا الدُّنْيا وشَهواتِها الزّائلَةِ عَلى الآخِرَةِ ونَعيمِها الباقي ، ألا بِئْسَ ما صَنَعوا .

ثُمَّ تَوعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى وأخْبَرَ عنْ عاجِلِ أمْرِهِمْ وآجِلِهِ ، فإنْ ضَحِكوا في الدُّنْيا وفَرِحوا ، فسوفَ يبكونَ يومَ القِيامةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

إنّهُ وإنْ فَرِحوا وضَحِكوا طَوالَ أعْمارِهِمْ في الدُّنْيا ، فهو قليلٌ بالنسبةِ إلى بُكائِهِمْ في الآخِرَةِ ، لأنّ الدُّنيا فانيةٌ ، والآخِرَةُ باقيةٌ ، والمُنْقَطِعُ الفاني قليلٌ بالنِّسبةِ إلى الدائِمِ الباقي ، ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنّهُ لم يَظْلِمْهُمْ بما توعَّدَهُمْ بهِ مِنَ الضَّحِكِ القليلِ ، والبُكاءِ الكَثيرِ ، وإنّما هذا الوَعيدُ جزاءٌ لهم عَلى ما اكْتَسبوهُ مِنْ فنونِ المَعاصي ، وما اجْتَرحوهُ مِنْ مُحارَبَةٍ دائمةٍ لدعوةِ الحَقِّ .

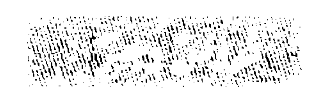
ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى ما يَجِبُ عَلى الرَّسولِ ﷺ نحوَ هؤُلاءِ المُخلَّفينَ الكارِهينَ لِلجِهادِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ۝٨٣﴾

فإنْ رَدَّكَ اللهُ تَعالى مِنْ سَفرِكَ هذا أَيُّها الرَّسولُ ﷺ إلى الطّائِفَةِ مِنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ الّذينَ تَخلَّفوا عنِ الخُروجِ مَعَكَ إلى تَبوكَ فاسْتَأْذنوكَ للخُروجِ مَعَكَ في غَزوةٍ أُخْرى بعدَ هذهِ الغَزْوةِ ، فَقُلْ لهم عَلى سبيلِ الإهانَةِ والتَّحقيرِ : لنْ تَخرجوا مَعِيَ أَبداً ما دُمتُ عَلى قيدِ الحياةِ ، ولن تُقاتِلوا مَعِي عدوّاً مِنَ الأعْداءِ الّذينَ أمَرَني اللهُ تَعالى بِقتالِهِمْ ، والسَّبَبُ في ذلِكَ أنّكُمْ أَيُّها المُنافِقونَ رَضيتُمْ بالقُعودِ عَنِ الخُروجِ مَعِيَ ، وَفرِحْتُمْ بهِ في أوَّلِ مَرَّةٍ دُعيتُمْ إلى الجهادِ ، فَجزاؤُكُمْ وعِقابُكُمْ أنْ تَقْعُدوا معَ الّذينَ تَخلَّفوا عَنِ الغَزْوِ ، لعدمِ قُدرَتِهِمْ عَلى تَكاليفِهِ ، كالمَرْضى والنّساءِ والصِّبيانِ أو مَعَ الأشرارِ الفاسِدينَ الَّذينَ يَتَشابهونَ مَعكُمْ في الجُبْنِ والنِّفاقِ وسوءِ الأخلاقِ .

وفي مَنْعِ المُنافِقينَ مِنَ الخُروجِ ومُقاتَلةِ أعداءِ الدّينِ زيادةٌ في تَبكيتِهِمْ وإهْمالِ شأنِهِمْ ، وفيهِ كَراهيةُ مُصاحَبَتِهِم ، لأنَّهم لو خَرَجوا مَعَ المُؤْمِنينَ ما زادوهُمْ إلاّ خَبالاً ، ولَوْ قاتَلوا مَعَهُمْ لكانَ قِتالُهُمْ خالِياً مِنَ الغايةِ السّامِيَةِ الّتي مِنْ أجْلِها قاتَلَ المُؤْمِنونَ ، وهي إعلاءُ كلمةِ اللهِ تَعالى ، وكلُّ قتالٍ خلا مِنْ تلكَ الغايةِ كانَ مآلُهُ الهزيمةَ .

وقدِ اشْتَملتْ هذهِ الآياتُ الكَريمَةُ عَلى بعضِ صفاتِ المُنافِقينَ ، كما اشْتَمَلَتْ عَلى أشدِّ ألوانِ الوعيدِ لَهُمْ في الدُّنْيا والآخِرَةِ جزاءً بِما كانوا يَكْسِبونَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ دَيْدَنُ المُنافِقينَ الهَمْزُ واللّمْزُ لعبادِ اللهِ تَعالى المُؤْمِنينَ .

٢ـ الكُفْرُ باللهِ تَعالى هو الحائِلُ بينَ الكافِرينَ ورحمتِهِ سُبْحانَهُ ، ومِنْ ثُمَّ لا يَنفعُهُمُ اسْتِغْفارُ المُؤْمِنينَ .

٣ـ المُنافِقُ لا يُحِبُّ الجِهادَ بنفسِهِ ولا بمالِهِ ، وهو دائِمُ التَّثبيطِ للمُجاهِدينَ .

٤ـ شأْنُ المُنافِقِ شأْنُ العاجِزِ الّذي لا يَعْقِلُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

يَلمِزونَ ، المُطَّوِّعينَ ، لا يَجدونُ إلاّ جُهْدَهُمْ ، لا تَنْفِروا في الحَرِّ ، اقْعُدوا مَعَ الخالِفينَ .

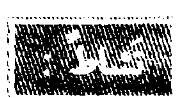
٢ـ لِماذا يَفْرَحُ المُنافِقُ لِلْتَخَلُّفِ عَنِ الجِهادِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ؟

٣ـ في قولِهِ تَعالى : ﴿فَلْيَضْحَكوا قليلاً ولْيَبْكوا كَثيراً﴾ تهديدٌ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٤ـ لِماذا نُهِيَ النَّبِيُّ عنِ اصْطِحابِ المُنافِقينَ مَعَهُ للجِهادِ ؟

٥ـ أـ بِماذا تَعلَّلَ المُنافِقونَ كيْ يَتخلَّفوا عنِ الخُروجِ إلى تَبوكَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ ؟

ب ـ بماذا ردَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهِمْ ؟



ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ صورةً مِن صُورِ تَنافُسِ المُؤْمِنينَ في التَّبرُّعِ لغزوة تَبوكَ .

* * *

الدرس التاسع والثلاثون

سورةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لا تَقُمْ على قَبْرِهِ	: لا تَقِفْ على قَبْرِهِ عندَ الدَّفْنِ لِتَدْعُوَ لَهُ .
تَزْهَقَ أنفسُهُمْ	: تَخْرُجَ مِنْ أجسادِهِمْ بِمَشَقَّةٍ .
أُولو الطَّوْلِ	: رؤساءُ المُنافِقينَ وأغْنياؤُهُمْ .
طُبِعَ على قُلوبِهِمْ	: خُتِمَ عَلَيْها فما عادَتْ تَفْقَهُ شَيْئاً .
الخوالِفِ	: الّذينَ تَخلَّفوا عَنِ الخُروجِ إلى تَبوكَ معَ رَسولِ ﷺ .
لهمُ الخَيْراتُ	: هيَ كلُّ ما يُسَرُّ المُؤْمِنُ بهِ مِنَ الثَّوابِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لِرسولِهِ ﷺ ما يَجِبُ أنْ يَفْعَلَهُ مَعَ المُنافِقينَ في حياتِهِمْ ، أَتْبَعَ ذلكَ بِبيانِ ما يجِبُ أنْ يَفعلَهُ عندَ مَماتِهِم ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾

لمّا ماتَ عبدُ اللهِ بنُ أُبيّ المُنافقُ ، دُعِيَ الرَّسولُ ﷺ للصَّلاةِ عَليْهِ وحاوَلَ عمرُ بنُ الخطّابِ أنْ يحولَ بَيْنَ النَّبيِّ ﷺ وبَيْنَ هذهِ الصّلاةِ بتَعدادِ مَثالِبِ هذا المُنافِقِ ، وكانَ عمرُ بنُ الخطابِ يقولُ للنَّبيِّ ﷺ : « أنا بَيْنَ خِيَرَتَيْنِ ، قالَ اللهُ تَعالى ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أو لا تَستَغفِرْ لهُمْ إنْ تَستغفِرْ لَهُمْ سَبعينَ مرّةً فَلَنْ يَغفِرَ اللهُ لَهُمْ﴾ ، ثُمَّ صلّى رسولُ اللهِ ﷺ وَنزلَ قولُهُ تعالى : ﴿وَلاَ تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنهُم مَّاتَ أَبَداً﴾ فما صلّى رسولُ اللهِ ﷺ على مُنافِقٍ بَعْدَها[1] .

لا تُصَلِّ أيُّها الرَّسولُ الكَريمُ ﷺ على أحَدٍ مِنْ هؤُلاءِ المُنافِقينَ أبَداً ، ولا تَقُمْ عَلى قبرِهِ عِنْدَ الدّفْنِ أو بَعْدَهُ بِقَصْدِ الزِّيارةِ أوِ الدُّعاءِ لهُ ، لأنَّ صلاتَكَ عَلَيْهِم ، وَوُقوفَكَ عَلى قُبورِهِمْ شَفاعةٌ لَهُمْ ، ورحمةٌ بِهِمْ ، وتكريمٌ لِشَأْنِهِمْ ، وهُمْ ليسوا أهْلاً لذلكَ ، لأنَّهُمْ قَدْ عاشوا حَياتَهُمْ كافِرينَ باللهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ، ومُحارِبينَ لدعوةِ الحَقِّ ، وماتوا وهُمْ خارِجونَ عنْ دائرةِ الإيمانِ .

وقدْ جَمَعَ اللهُ تَعالى للمُنافِقينَ في هذهِ الآيةِ بَيْنَ وصْفَي (الكُفْرِ والفِسْقِ) وذلكَ زيادةً في تَقبيحِ أمْرِهِمْ ، وتحقيرِ شَأْنِهِمْ ، فهُمْ لمْ يَكْتَفوا بالكُفْرِ وَحدَهُ ، وإنّما أضافوا إليهِ الخُروجَ عنْ كُلِّ قولٍ طيّبٍ ، وخُلُقٍ حَسَنٍ ، وفِعْلٍ كريمٍ .

وبَعْدَ ذلِكَ نَهى اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ وكلَّ مَنْ يَسمعُ هذا الخِطابَ مِنَ المُؤْمنينَ ، نَهاهُم عنِ الاغترارِ بما عندَ هؤُلاءِ المُنافِقينَ مِنْ مالٍ وَوَلَدٍ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾

قدْ مضى نَظيرُ هذِهِ الآيةِ مِنْ قَبْلُ، وذَكَرْنا أنَّ اللهَ تَعالى قدْ كَشَفَ سِرّاً مِنْ أسْرارِ المُنافقينَ وماجُبلَتْ عليهِ نَفوسُهُم بأنَّ في نُفوسِهِم شُحّاً وحِرْصاً عَلى المالِ ، وفِتنةً بِتوفيرِهِ والإشْفاقِ مِنْ ضياعِهِ ، فَجَعَلَهُم بِسَبَبِ ذلِكَ في عناءٍ وعذابٍ منْ جَرّاءِ أموالِهِمْ ، منهُمْ مَنْ تَعِبَ مِنْ جَمْعِها ، وفي خَوْفٍ عَلَيْها مِنَ النُّقْصانِ ، وفي ألَمٍ مِنْ إنفاقِ ما يَضطرّونَ إلى إنْفاقِهِ مِنْ هذهِ الأموالِ ، فقدْ أرادَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى تَعذيبَهُمْ بِسَبَبِها في الدُّنْيا ، وأَنْ يَموتوا وهُمْ كافِرونَ ، فلا يَنتفِعونَ بها كذلكَ في الآخِرَةِ ، لذلكَ نَهى اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ عَنِ النَّظَرِ إليْها والإعْجابِ بها .

وأمّا لِماذا ذُكِرَتْ هذهِ الآيةُ هُنا مَع ذِكْرِ ما يُقارِبُها في مَوْضِعٍ سابِقٍ ، فلأنَّ أشَدَّ الأشياءِ جَذْباً

(١) رواه البخاري، كتابُ التفسير، حديث رقم ٤٦٦٨ .

للقُلوبِ وجَلْباً للخواطِرِ إلى الاشْتِغالِ بالدُّنْيا ، هُوَ الاشْتِغالُ بالأموالِ والأولادِ ، وما كانَ كذلكَ ، يجبُ التَّحذيرُ مِنْهُ مرَّةً بَعْدَ مَرّةٍ ، أو لأنَّ المقصودَ هنا ألاّ يُقام وزْنٌ لأموالِهِمْ وأولادِهِمْ ، لأنَّ الإعْجابَ بها نوعٌ مِنَ التّكريمِ الشُّعوريِّ لَهُمْ ، وهُمْ لا يَستحقّونَهُ لا في الظّاهِرِ ولا في الشُّعورِ ، إنّما هُوَ الاحْتِقارُ والإهْمالُ لَهُمْ ولما يَمْلِكونَ .

وقيلَ إنّ الحديثَ في الآيتينِ عَنْ طائِفَتينِ مُختلِفَتَيْنِ ، واللهُ تَعالى أعْلَمُ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ مَوْقِفَ المُنافِقينَ مِنَ الجِهادِ ، فقالَ تعالى :

﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾

إنَّ مِنْ الصِّفاتِ الذَّميمةِ لِهؤلاءِ المُنافِقينَ ، أنَّهُمْ كُلّما نزَلَتْ سورةٌ قُرآنيَّةٌ ، تَدْعو في بَعضِ آياتِها النَّاسَ إلى الإيمانِ باللهِ تَعالى ، والجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مَعَ رَسولِهِ ﷺ ، ما كانَ منهُمْ عندَ ذلِكَ إلاّ الجُبْنُ والاسْتِخْذاءُ في القُعودِ وعَدمِ الخُروجِ ، قائلينَ لَهُ ﷺ دونما حياءٍ ، وفي جُبْنٍ : ﴿ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ .

وخُصَّ أُولو الطَّوْلِ مِنهُم بالذِّكْرِ هنا ، تَخليداً لِمَذمَّتِهِمْ واحْتِقارِهِمْ ، لأنَهُ كانَ المُتوقَّعُ مِنهُمْ أنْ يَتَقدَّموا صُفوفَ المُجاهِدينَ ، لأنَّهُم يَمْلِكونَ وسائِلَ الجِهادِ والبَذْلِ ، فلا يَتخاذَلوا ويَعتذِروا ، ولكنَّهُمْ قالوا ما يَدُلُّ عَلى جُبْنِهِمْ والْتِوائِهِمْ . ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى نَفْسيّاتِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾

رضِيَ هؤُلاءِ المُنافِقونَ لأنْفُسِهِمْ أنْ يَبْقَوْا في المَدينةِ مَعَ النِّساءِ ، ومعَ مَنْ لا خَيْرَ فيهِ مِنَ النّاسِ ، ولا يَرْضى بذلكَ إلاّ مَنْ هانَتْ كَرامَتُهُ وسَقَطَتْ مُروءَتُهُ ، وألِفَ الذُّلَّ والصَّغارَ . ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَهُ تَرتَّبَ عَلى رُسوخِهِمْ في النِّفاقِ وإصْرارِهِم عَلى الفُسوقِ والعِصْيانِ ، أنْ خَتَمَ اللهُ تَعالى عَلى قُلوبِهِم ، فَصارتْ لا تَفْقَهُ ما في الإيمانِ والجِهادِ مِنَ الخَيْرِ والسَّعادةِ ، وما في النِّفاقِ والشِّقاقِ مِنَ الشَّقاءِ والهَلاكِ .

وبعدَ ذلِكَ بَيَّنَ الحَقُّ سُبْحانَهُ وتَعالى مَوْقِفَ النَّبيِّ ﷺ وأصْحابِهِ مِنَ الجِهادِ في سبيلِ إعلاءِ كَلِمةِ الحَقِّ ، فقالَ تَعالى :

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾

إذا كانَ حالُ المُنافِقينَ كما وَصَفْنا مِنْ جُبْنٍ وتَخاذُلٍ وهوانٍ ، فإنَّ حالَ المُؤْمِنينَ ليسَ كذلكَ ،

فإنَّهم قدْ وَقَفوا إلى جانِبِ رسولِهم ﷺ ، فجاهَدوا مَعَهُ بأموالِهِمْ وأنْفُسِهِمْ مِنْ أجلِ إعلاءِ كلمةِ اللهِ تَعالى ، وأطاعوهُ في السِّرِّ والعَلَنِ ، وآثروا ما عندَ اللهِ تَعالى عَلى كلِّ شيءٍ في هذهِ الحياةِ ، وقدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ جزاءَهُمْ بأنَّ لهُمُ الخَيْراتُ الّتي تَسُرُّ النُّفوسَ وتَشْرَحُ الصُّدورَ في الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وبيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّهُمُ الفائِزونَ بسعادةِ الدّارَيْنِ .

ثُمَّ فَصَّلَ اللهُ تَعالى هذا الجَزاءَ الّذي ذَكرتْهُ الآيةُ الكَريمةُ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى قد هيَّأَ لَهُمْ في الآخِرَةِ النّعيمَ المُقيمَ ، في جَنّاتٍ تَتخلَّلُها الأنْهارُ ، وهمْ خالِدونَ في تلكَ الجَنَّاتِ خُلوداً أبديّاً ، وذلكَ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ والنَّجاحُ الكَبيرُ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

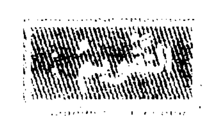
١ـ المُنافِقُ جبانٌ بَخيلٌ ذَليلٌ .

٢ـ تحريمُ الصّلاةِ عَلى الكافِرِ والوُقوفِ عَلى قَبْرِهِ .

٣ـ وُجوبُ مَنْعِ كلِّ مَظْهَرٍ مِنْ مظاهِرِ التَّكريمِ في الحياةِ وبعدَ المَماتِ عنِ الّذينَ يُحارِبونَ دَعْوَةَ الحَقِّ ، ويَقِفونَ في وَجْهِ انْتِصارِها وظُهورِها .

٤ـ يَنبغي للعاقِلِ أنْ لا يَغْتَرَّ بما عندَ المُنافِقينَ .

٥ـ الإيمانُ الصّادِقُ يدعو صاحِبَهُ إلى تَنفيذِ أمْرِ اللهِ تَعالى واتِّباعِ رسولِهِ ﷺ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لا تَقُمْ عَلى قَبْرِهِ ، تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ ، أُولو الطَوْلِ ، طُبِعَ عَلى قُلوبِهِمْ ، لَهُمُ الخَيْراتُ .

٢ـ لِماذا نَهى اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ عَنِ الصّلاةِ عَلى المُنافِقينَ ؟ وما الحِكْمَةُ مِنْ ذلكَ ؟

٣ـ بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أنَّ اللهَ تَعالى ما مَنَحَ المُنافِقينَ الأمْوالَ والأولادَ إلاّ لِيُشْقِيَهُمْ بذلكَ ، وضِّحْ هذا الأمْرَ .

٤ـ وازَنتِ الآياتُ الكَريمةُ بَيْنَ مَوْقِفي المُؤْمِنينَ أمامَ الإيمانِ باللهِ تَعالى والجهادِ معَ رسولِهِ ﷺ ، فَرِّقْ بينَ المَوقِفَيْنِ من خلالِ هذهِ المُوازَنَةِ .

٥ـ ما الجزاءُ الّذي أَعَدَّهُ تَعالى للمُؤْمِنينَ نَظيرَ طاعَتِهِمْ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيفَ يُعزّي المُسْلِمُ أهلَ المَيِّتِ مِنَ النَّصارى .

٢ـ هناكَ آيَةٌ في القُرآنِ الكَريم تَنْهى رسولَ اللهِ ﷺ عَنِ النَّظَرِ إلى ما في أيْدي النّاسِ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

* * *

الدرس الأربعون

سُورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثَّالِثُ والعِشْرون

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

معاني المفردات

المُعَذِّرونَ : المُعْتَذِرونَ بِصِدْقٍ .

الضُّعَفاءُ : مَنْ لا قُوَّةَ لَهُمْ في أبْدانِهِمْ عَلى الجِهادِ .

حَرَجٌ : ذَنْبٌ أو إِثْمٌ .

نَصَحوا للهِ ورسولِهِ : أَخْلَصوا للهِ تَعالى ورسولِهِ في القَوْلِ والعَمَلِ .

سبيلٍ : طريقٍ يُسْلَكُ لِمُؤاخَذَتِهِمْ .

التفسير

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أحوالَ المُنافِقينَ مِنْ سُكّانِ المَدينةِ أَتْبَعَ ذلكَ بالحديثِ عنِ الأعْرابِ سُكّانِ الباديةِ ، الّذينَ منهُمْ مَنْ كانَ مُنافِقاً كأهْلِ المدينةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

ظاهِرُ هذهِ الآيةِ الكَريمةِ يُفيدُ أنّها تَحدَّثتْ عَنْ نَوْعَيْنِ مِنَ الأعرابِ ، أحدُهُما : المُعذَّرونَ ، أيْ : أصْحابُ الأعذارِ ، وثانيهما : الّذين قَعَدوا في بُيوتِهِمْ مُكَذِّبينَ للهِ تَعالى ولِرسولِهِ ﷺ ، وأنَّ اللهَ تَعالى تَوعَّدَهُمْ بالعذابِ الأليمِ .

عندما استنفرَ النَّبيُّ ﷺ النّاسَ إلى غَزوةِ تبوكَ ، جاءَهُ أصحابُ الأعذارِ الصَّحيحةِ . وقَعَدَ عَنِ الخُروجِ إلى تبوكَ وعَنِ المجيءِ على رسولِ اللهِ ﷺ للاعتذارِ ، أولئكَ الذينَ كذَّبوا اللهَ تَعالى ورسولَهُ ﷺ في دَعوى الإيمانِ ، وهُمُ الرّاسِخونَ في النِّفاقِ والعِصْيانِ مِنَ الأعرابِ سُكّانِ الباديةِ ، ووعيدُ اللهِ تَعالى لهؤلاءِ أنّهُ سَيُصيبُ الّذينَ أصرّوا عَلى كُفْرِهِمْ ونِفاقِهِمْ مِنْ هؤُلاءِ الأعرابِ عذابٌ أليمٌ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

وبَعْدَ ذلكَ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى الأعذارَ الشَّرعيَّةَ المَقبولَةَ عندَهُ تَعالى وعندَ رَسولِهِ ﷺ ، والتي تَجعلُ صاحِبَها لا حَرَجَ عَلَيْهِ إذا ما قَعَدَ بِسببِها عنِ القِتالِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

ليسَ عَلى الضُّعفاءِ العاجِزينَ عنِ القِتالِ لِعِلَّةٍ في أجْسادِهِمْ ، أو الَّذينَ أقْعَدَتْهُمْ الشَّيخوخةُ ، ولا عَلى المَرْضى الّذينَ حالَتْ أمراضُهُمْ بَيْنَهُم وبينَ الجِهادِ ، ولا عَلى الفُقَراءِ القادِرينَ عَلى الحَرْبِ ، ولكنَّهُمْ لا يَجِدونَ المالَ الّذي يُنفِقونَهُ في مطالبِ الجهادِ ، ليسَ عَلى هؤلاءِ جميعاً إثْمٌ أو ذَنْبٌ بسَبَبِ عدَمِ خُروجِهِمْ معَ النَّبيِّ ﷺ إلى تَبوكَ لِقتالِ الكافِرينَ ، ولكنَّ هؤلاءِ مَطلوبٌ منهُمْ أنْ يُقيموا في البَلَدِ ، ويَحْتَرِزوا عنْ إنشاءِ الأراجيفِ ، وإثارةِ الفِتنةِ ، وعَلَيْهِم أنْ يَسْعَوْا في إيصالِ الخَيْرِ إلى أهْلِ المُجاهِدينَ الّذينَ خَرَجوا إلى الغَزْوِ ، ويَقوموا بِمَصالِحِ بُيوتِهِمْ ، ويُخْلِصوا الإيمانَ والعَمَلَ للهِ تَعالى ، ويُتابِعوا رسولَهُ ﷺ ، هذا هُوَ النُّصْحُ للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنّهُ لا يَحِقُّ لأحدٍ مُؤاخَذَةُ هؤلاءِ المُحْسنينَ بِسَبَبِ تَخلُّفِهِمْ عنِ الجهادِ ، بَعْدَ أنْ نَصَحوا للهِ تَعالى ورسولِهِ ﷺ ، وبعدَ أنْ حالتِ الموانِعُ الحَقيقيةُ بَيْنَهُمْ وبينَ الخُروجِ لِلجهادِ ، فاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى قدْ غفَرَ لَهُمْ ، فَهُو واسِعُ المَغفِرَةِ والرَّحمةِ ، يَسْتُرُ عَلى عبادِهِ المُخْلِصينَ ما يَصْدُرُ عنهُمْ مِنْ تَقصيرٍ تَقْتَضيهِ طبيعتُهُمُ البَشريَّةُ .

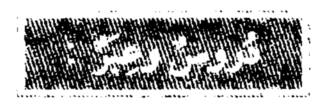
ثُمَّ أرْدَفَ سُبْحانَهُ وتَعالى بِطائِفَةٍ أُخرى مَنَعَها مِنَ الخُروجِ إلى الجِهادِ لا الاعْتِذارُ ، ولكنْ عدمُ وجودِ رواحِلَ تَحْمِلُهُم ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ .

وهؤلاءِ طائفةٌ أُخرى مِنَ المُؤْمِنينَ غيرِ القادرينَ ماديّاً عَلى أعباءِ الخُروجِ ، ولكنَّهُمْ يَسْتطيعونَ ذلِكَ جَسَديّاً ، جاءوا النَّبيَّ ﷺ يُريدونُ الخُروجَ مَعَهُ ، ولكنَّهُ ﷺ اعتذَرَ إِلَيْهِمْ بأنَّهُ لا يَجِدُ مِنَ الرَّواحِلِ ما يَحمِلُهُمْ عَلَيْهِ ، ولمّا كانَ الأمْرُ كذلكَ لم يَفْرَحْ هؤلاءِ بالقُعودِ ، ولكنَّهُمْ غادَروا مَجْلِسَ الرّسولِ ﷺ وهُمْ يَبْكونَ حُزْناً ، لأنَّهُمْ لا يَجِدونَ الوَسيلةَ الّتي يَخْرجونَ بِها للجِهادِ ، وهذا مِنْ أماراتِ الصِّدْقِ الواضحةِ عَلى حُبِّهِمْ للهِ تَعالى ، ولِرَسولِهِ ﷺ والجهادِ في سبيلِ اللهِ تَعالى ، هؤُلاءِ أيضاً مَشْمولونَ بأنّهُ لا حَرَجَ عَلَيْهِمْ في القُعودِ ، ولا يَنْبَغي لأحَدٍ أنْ يُعيِّرَهُمْ بهِ ، ولا سبيلَ لأحدٍ أنْ يُؤاخِذَهُمْ بشيءٍ مِنْ ذلكَ .

وهذهِ الآيةُ الكَريمَةُ تُعطي صُورَةً صادِقَةً مؤَثِّرَةً للرَّغبةِ الصّادِقَةِ في الجهادِ ، وللألَمِ الشَّديدِ للحِرْمانِ مِنْ نعمةِ المُشارَكةِ فيهِ ، وبمثلِ هذِهِ الرّوحِ ارْتَفَعتْ رايةُ الإسْلامِ وعزَّتْ كَلِمَتُهُ ، وانْتَشَرَتْ دَعوتُهُ .

وقدْ كانَ هؤُلاءِ الّذينَ تخلّفوا عَنِ الجهادِ بتلكَ الأسبابِ غيرَ مَحْرومينَ مِنَ الأجْرِ ، بلْ أخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّهُمْ شاركوا المُجاهِدينَ في الأجْرِ فقالَ ﷺ : « لقد خَلّفْتُم بالمَدينةِ رِجالاً ما قَطعتُمْ وادِياً ولا سَلَكْتمْ طريقاً إلاّ شارَكوكُمْ في الأجْرِ ، حَبَسهُمُ المَرَضُ » . وفي رواياتٍ أُخْرى (حَبَسَهُمُ العُذْرُ)[1] . وهذا دليلٌ عَلى أنّ اللهَ تعالى جَعَلَهُمْ في المَقْبولينَ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ التّكاليفُ الإسلاميَّةُ قائِمَةٌ عَلى اليُسْرِ ورَفْعِ الحَرَجِ .

٢ـ متى وُجدتِ النِّيَّةُ الصّادِقَةُ في فِعْلِ الخَيْرِ ، حَصَلَ الثّوابُ ، وإنْ لم يَكُنْ هناكَ عَمَلٌ .

٣ـ الصّحابةُ رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ قدْ ضَرَبوا أرْوَعَ الأمثلةِ في الحِرْصِ عَلى الجِهادِ والاسْتِشْهادِ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ٣/ ٣٠٠ وانظر الرواية الأخرى : ٣/ ١٦٠ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

المُعذِّرونُ ، نَصَحوا للهِ ، مِنْ سبيلٍ .

٢ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ الأعرابَ فريقانِ ، وضِّحْ ذلكَ .

٣ـ مَنْ هُمْ أصْحابُ الأعْذارِ ؟

٤ـ بيِّنْ علامةَ الصِّدْقِ الّتي أظْهَرَها الفريقُ الثّاني : الّذينَ لم يَجِدوا ما يُحْملَونَ عَلَيْهِ .

نَشاطٌ :

ـ مَنْ تَخلَّفَ عنْ غَزوَةِ تَبوكَ فَريقانِ : فريقٌ فَرِحٌ ، وفريقٌ بَكى ، بيِّنْ ذلِكَ واكْتُبْهُ في دَفْتَرِكَ .

* * *

إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

لَن نُصدِّقَكُم .

رَجعتُم إلَيْهِمْ وَوَصَلتُم إلَيْهِمْ .

لِتَصفَحوا عَنهُم .

قَذارَةٌ .

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى أحكامَ أصحابِ الأعذارِ المَقبولَةِ ، أتبَعَ ذلِكَ بِبَيانِ أحكامِ أصحابِ الأعذارِ الكاذِبَةِ ، وَصفاتِهِمُ القَبيحَةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ [illegible] ﴾

إذا كانَ الضُّعَفاءُ ، وَالمَرضى وَمَنْ في حُكْمِهِمْ ، لا إثمَ عَلَيْهِم وَلا عُقوبَةَ بِسَبَبِ تَخَلُّفِهِم عَن الجِهادِ ، فإنَّ الإثمَ والعُقوبَةَ وَاللَّومَ وَالعِتابَ عَلى هؤُلاءِ الَّذينَ يَستأذِنونَكَ أَيُّها النَّبيُّ ﷺ في الجِهادِ ، وَهُم واجِدونَ المالَ وَالعَتادَ ، قادِرونَ عَلى الخُروجِ مَعَكَ ، لَكِنَّهُم مَعَ قُدرَتِهِم واستِطاعَتِهِم رَضوا بِأَنْ يَقعُدوا مَعَ النِّساءِ الضَّعيفاتِ ، وَالشُّيوخِ العاجِزينَ ، وَالمَرضى غَيرِ القادِرينَ ، فَقُلوبُهُمْ أُغلِقَتْ عَنِ الحَقِّ ، فَهُم لا يَعْلَمونَ العاقِبَةَ الوَخيمَةَ الّتي تَتَرَتَّبُ عَلى تَخَلُّفِهِم في الدُّنيا وَفي الآخِرَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى ما سَيَكونُ مِن هؤُلاءِ المُنافِقينَ المُتَخَلِّفينَ عَنِ الجِهادِ مِنَ الاعتِذارِ لِلمُؤمِنينَ عِندَ عَودَتِهِم مِن تَبوكَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ [illegible] ﴾

سَيَعْتَذِرُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ المُتَخَلِّفونَ عَنِ الجِهادِ إلَيكُم أَيُّها المُؤْمِنونَ المُجاهِدونَ إذا رَجَعتُمْ مِن مَيدانِ الجِهادِ وَالتَقَيتُمْ بِهِم بِأَنْ يَقولوا لَكُم مَثَلاً : إنَّ قُعودَنا في المَدينَةِ وَعَدَمَ خُروجِنا مَعَكُم ، كانَ لَهُ مُسَوِّغاتُهُ القَويَّةُ فَلا تُؤاخِذونا . وَهذِهِ الجُملَةُ الكَريمَةُ مِنَ الأنباءِ الّتي أنبَأَ اللهُ تَعالى بِها رَسولَهُ ﷺ عَنْ أحوالِ المُنافِقينَ ، وَعَمّا سَيَقولونَهُ لَهُ وَلِلمُؤْمِنينَ بَعْدَ عَودَتِهِم إلَيْهِم . وَهذا يَدُلُّ عَلى أنَّ هذِهِ الآياتِ نَزَلَتْ في أثناءِ العَودَةِ وَقَبلَ وُصولِ الرَّسولِ ﷺ وَأصحابِهِ إلى المَدينَةِ مِن تَبوكَ .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَقولَ لَهُم عِندَما يَعتَذِرونَ إلَيهِ : دَعوكُمْ مِنْ هذِهِ المَعاذيرِ الكاذِبَةِ ، وَلا تَتَفَوَّهوا بِها أمامَنا ، فَإنَّنا لَن نُصَدِّقَ أقوالَكُم ، فإنَّ اللهَ تَعالى قَدْ كَشَفَ لَنا عَن حَقيقَتِكُم ، وَوَضَّحَ لَنا أحوالَكُم ، وَبَيَّنَ ما أنتُم عَلَيْهِ مِنَ النِّفاقِ وَالفُسوقِ وَالعِصيانِ ، وَما دامَ الأمرُ كَذلِكَ ، فَوَفِّروا عَلى أنفُسِكُم هذِهِ المَعاذيرَ الكاذِبَةَ . ثُمَّ هَدَّدَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى نِفاقِهِم وَكَذِبِهِم بِقَولِهِ : ﴿ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ أيْ : دَعوا عَنكُم هذِهِ الأعذارَ الباطِلَةَ ، فإنَّ اللهَ تَعالى مُطَّلِعٌ عَلى أحوالِكُم ، وَهوَ يَعلَمُ سِرَّكُم وَجَهْرَكُم عِلْماً يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ الجَزاءُ العادِلُ لَكُم ، وَسَيُبَلِّغُ رَسولَهُ ﷺ بِأخبارِكُم ، هذا في الدُّنيا ، أمّا في الآخِرَةِ فَإنَّكُم سَتُرَدّونَ إلى عالِمِ الغَيبِ وَالشَّهادَةِ الّذي لا يَخفى عَلَيْهِ شَيءٌ في الأرضِ وَلا في السَّماءِ ، فيُخبِرُكُم بِما كُنتُم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا مِنْ أعمالٍ قَبيحَةٍ ، وَسَيُجازيكُم عَلَيْها ، بِما تَستَحِقّونَهُ مِنْ عِقابٍ .

وَلمّا كانَ النِّفاقُ صِفَتُهُ الكَذِبَ فَقَدْ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ يُؤكِّدونَ اعتِذارَهُم بِالإيْمانِ الكاذِبَةِ ، فَقالَ تَعالى عَنهُم :

﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

سَيَحلِفونَ باللهِ تَعالى لَكُم ، حينَما تَرجعونَ إلَيهِم بِأنَّهُم صادِقونَ في مَعاذيرِهِم لِكَي يُرضوكُم ، فَتَغْفَلوا عَنْ عَمَلِهِم ، فَلا تُحقِّقوا لَهُم هذا الغَرَضَ ، بَلِ اجتَنِبوهُم وَامقُتوهُم ، لأنَّهُم في أشَدِّ دَرَجاتِ الخِبْثِ النَّفسِيِّ وَالكُفْرِ ، وَمَصيرُهُم إلى جَهَنَّمَ ، عِقاباً عَلى ما اقتَرَفوهُ مِن ذُنوبٍ وَأوزارٍ . ثُمَّ قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

إنَّ هؤُلاءِ المُنافِقينَ المُتَخلِّفينَ عَنِ الجِهادِ يَحْلِفونَ لَكُم أيُّها المُؤْمِنونَ أنَّهُم ما تَخَلَّفوا إلاّ لِعُذْرٍ ، لِكَي تَصْفَحوا عَنهُم وَتَرضَوْا ، فَإنِ تَرضَوْا عَنهُم أيُّها المُؤْمِنونَ ـ وَهذا لَيسَ بِحاصِلٍ ـ فَإنَّ اللهَ تَعالى لا يَصْفَحُ وَلا يَرضى عَنِ القَومِ الَّذينَ فَسَقوا عَنْ أمرِهِ ، وَخَرَجوا عَنْ طاعَتِهِ .

وَالمُرادُ مِنْ هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ نَهْيُ المُخاطَبينَ عَنِ الرِّضا عَنهُم ، وَعَنِ الاغتِرارِ بِمَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ عَلى أَبلَغِ وَجْهٍ وَآكَدِهِ ، فَإنَّ الرِّضا عَمَّنْ لا يَرضى اللهُ تَعالى عَنهُ لا يَصدُرُ عَنِ المُؤْمِنينَ .

وَبِهذا تَكونُ هذهِ الآياتُ الكَريمَةُ قَد ذَكَرَتْ جانِباً آخَرَ مِنَ الأحوالِ القَبيحَةِ لِلمُنافِقينَ ، وَرَدَّتْ عَلى مَعاذيرِهِمُ الكاذِبَةِ ، وأيْمانِهِمُ الفاجِرَةِ بِما يَفضَحُهُم ويَخْزيهِم ، وَتَوَعَّدَتهُم بِسوءِ العاقِبَةِ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاّ وُسْعَها .

٢ـ أغنِياءُ المُنافِقينَ شَديدو الحِرْصِ عَلى الحَياةِ الدُّنيا .

٣ـ المُنافِقُ قَذِرٌ يَنْبَغي أنْ يَتَجَنَّبَهُ المُؤْمِنُ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لَن نُؤمِنَ لَكُ ، انقَلَبْتُمْ إليهِمْ ، لِتُعْرِضوا عَنهُم ، رِجْسٌ .

٢ـ لِماذا يُكثِرُ المُنافِقُ مِنَ الحَلْفِ ؟

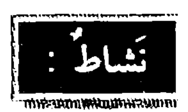
٣ـ لِماذا طَلَبَ اللهُ تَعالى مِنَ المُؤْمِنينَ الإعْراضَ عَنِ المُنافِقينَ ؟

٤ـ هاتِ ما تُرشِدُ إليهِ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ .

٥ـ أجِب بِآيَةٍ قُرآنِيّةٍ عَلى كُلٍّ مِمّا يَلي :

أـ حَلَفَ المُنافِقونَ لِلمُؤْمِنينَ كَي يُعرِضوا عَنهُم ، فَبِماذا أمرَ اللهُ المُؤْمِنينَ ؟

ب ـ طَلَبَ المُنافِقونَ مِنَ المُؤْمِنينَ قَبولَ عُذْرِهِم ، فَبِماذا أمرَ اللهُ المُؤْمِنينَ ؟



ـ هُناكَ فِئَةٌ تَخَلَّفَتْ عَنِ الرَّسولِ ﷺ يَومَ الحُدَيْبِيَةِ ، اكتُبْ في دَفْتَرِكَ ماذا كانَ عِقابُهُم .

* * *

الدرس الثاني والأربعون

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الخامِسُ والعِشْرون

ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

معاني المفردات :

الأَعْرابُ	: سُكّانُ البادِيَةِ .
أَجْدَرُ	: أحقُّ .
مَغْرَماً	: غَرامةً وَخَسارةً .
يَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوائِرَ	: يَنتَظِرُ بِكُمْ مَصائِبَ الدَّهرِ .
صَلَواتِ الرَّسولِ	: دَعَواتِ الرَّسولِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ هذا الحَديثِ الطَّويلِ عَنِ النِّفاقِ وَالمُنافِقينَ أَخَذَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ في الحَديثِ عَنْ طَوائِفَ أُخرى مِنها الصّالِحُ وَمِنها غَيرُ الصّالِحِ ، وَقَد بَدَأَتْ بِالحَديثِ عَنِ الأعْرابِ سُكّانِ البادِيَةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧)﴾ .

بَدَأَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بِذِكْرِ المُنافِقينَ مِنَ الأعراب ، قَبلَ المُؤْمنينَ مِنهُم ، إلْحاقاً لَهُم بمُنافِقي المَدينَةِ الّذينَ تَحَدَّثَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ عَنهُم قَبلَ ذلِكَ مُباشَرَةً حَديثاً مُستَفيضاً . وَبِهذا التَّرتيبِ الحَكيمِ تَكونُ السَّورَةُ الكَريمَةُ قَدَ واصَلَتِ الحَديثَ عَنْ مُنافِقي الحَضَرِ وَالبَدْوِ ، وَالمَعنى : الأعْرابُ أشَدُّ كُفْراً وَنِفاقاً مِنْ أهلِ الحَضَرِ الكُفّار وَالمُنافِقينَ ، وَهُم أحَقُّ مِنْ أهلِ الحَضَرِ بأَنْ لا يَعْلَموا حُدودَ ما أنزَلَ اللهُ تَعالى عَلى رَسولِهِ ﷺ ، بِسَبَبِ ابتِعادِهِم عَنْ مَجالِسِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَعَدَمِ مُشاهَدَتِهِم لِما يَنزِلُ عَلَيْهِ ﷺ مِن شَرائِعَ وَأحكامٍ وآدابٍ . وَقَولُهُ تَعالى : ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي : عَليمٌ بِأحوالِ عِبادِهِ الظّاهِرَةِ وَالباطِنَةِ لا يَخفي عَلَيْهِ شَيءٌ مِنْ صِفاتِهِم وَطِباعِهِم ، حَكيمٌ في صُنعِهِ بِهِم ، وَفي حُكمِهِ عَلَيْهِمْ ، وَفيما يَشرَعُهُ لَهُم مِن أحكامٍ ، وَفيما يُجازيهِمْ عَلَيْهِ مِن ثَوابٍ أو عِقابٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ أحوالَ فَريقٍ آخَرَ مِنَ الأعرابِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨)﴾

وَمِنَ الأعْرابِ قَومٌ آخَرونَ ، يَعُدّونَ ما يُنفِقونَ في سَبيلِ اللهِ غَرامَةً وَخَسارَةً عَلَيْهِم ، لأنَّهُم لا يُنفِقونَ طَمَعاً في ثَوابٍ أو خَوفاً مِن عِقابٍ ، وإنَّما يُنفِقونَهُ تُقْيَةً ورِياءً ومُداراةً لِلمُسْلِمينَ ، لا مُساعَدَةً لِلغُزاةِ وَالمُجاهِدينَ ، وَلا حُبّاً في انْتِصارِ المُؤْمِنينَ ، وَهُم بِجانِبِ هذا يَنتَظِرونَ ما يَحِلُّ بِكُم مِن صُروفِ الدَّهرِ وَنوائِبِهِ ، الّتي تُبدِّلُ حالَكُم مِنَ الخَيرِ إلى الشَّرِّ ، وَمِنَ الصِّحَّةِ إلى المَرَضِ والأسقامِ ، وَمِنَ الأمانِ وَالاطْمِئنانِ إلى القَلَقِ وَالاضطِرابِ ، وَلكِنْ عَلَيْهِم يَدورُ العَذابُ .

فَاللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى سَميعٌ لِكُلِّ ما يَتَفَوَّهونَ بِهِ مِن أقوالٍ ،عَليمٌ بِكُلِّ ما يُظهِرونَهُ وَيُبطِنونَهُ مِنْ أحوالٍ ، وَسَيُحاسِبُهُم عَلى ما صَدَرَ مِنهُم حِساباً عَسيراً يَومَ القِيامَةِ ، وَيُنزِلُ بِهِمُ العِقابَ الّذي يُناسِبُ جَرائِمَهُمْ .

ثُمَّ بَيَّنَت الآيَةُ الكَريمَةُ حالَ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ مِنَ الأعْرابِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾

لَيسَ كُلُّ الأعْرابِ مُنافِقينَ ، فَمِنهُم مُؤْمِنونَ باللهِ تَعالى مُصَدِّقونَ بِيَوم القِيامَةِ ، يَتَّخِذونَ الإنْفاقَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى وَسيلَةً يَتَقَرَّبونَ بِها إلى اللهِ تَعالى ، وَسَبَباً لِدُعاءِ الرَّسولِ ﷺ لَهُمْ ، إذْ كانَ يَدعو لِلمُتَصَدِّقينَ بِالخَيرِ وَالبَرَكَةِ ، ثُمَّ شَهِدَ اللهُ تَعالى لِصَدَقاتِ هؤُلاءِ بِأنَّها مَقبولَةٌ عِندَهُ قَبولاً مُؤَكَّداً ،

وَسَيُجازيهِمْ عَلَيْها بما يَستَحِقّونَ مِنْ أجْرٍ جَزيلٍ ، ثُمَّ وَعَدَهُم اللهُ تَعالى بإحاطَةِ رَحمَتِهِ تَعالى بِهِمْ ، وَأنَّهُم سَتَغمُرُهُم بِحَيثُ لا يُظَنُّ بِهِمْ شَقاءٌ مَعها أبَداً ، لأنَّهُ تَعالى قَدْ غَفَرَ لَهُم مَغفِرَةً أدخَلَتهُمْ في كُلِّ المَسَرّاتِ .

وَبِهذا نَرى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةَ قَد ذَمَّتْ مَنْ يَستَحِقُّ الذَّمَّ مِنَ الأعْرابِ ، وَمَدَحَتْ مَنْ يَستَحِقُّ المَدحَ مِنهُم ، وَبَيَّنَتْ مَصيرَ كُلِّ فَريقٍ لِيَكونَ عِبرَةً لِلمُعتَبِرينَ ، وَذِكرى لِلمُتَذَكِّرينَ .

وَبَعدَ هذا التَّقسيمِ لِلأعْرابِ انتَقَلَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ لِلحديثِ عَنِ المُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، الّذينَ وَقَفوا إلى جانِبِ الرَّسولِ ﷺ ، وَأطاعوهُ في السِّرِّ وَالعَلَنِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

هذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ مَدَحَتْ ثَلاثَ طَوائِفَ مِنَ المُسلِمينَ المُعاصِرينَ لِلعَهْدِ النَّبَوِيِّ الشَّريفِ ، الطّائِفَةُ الأولى : السّابِقونَ الأوَّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ ، وَهُمُ الَّذينَ تَرَكوا دِيارَهُم وَأموالَهُم بِمَكَّةَ ، وَهاجَروا إلى الحَبَشَةِ ثُمَّ إلى المَدينَةِ مِن أجلِ إعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَاستَمَرّوا في المَدينَةِ مَع رَسولِ ﷺ إلى أنْ تَمَّ الفَتحُ ، وَدَخَلَ النّاسُ في دينِ اللهِ تَعالى أفواجاً .

والطّائِفَةُ الثّانِيَةُ : السّابِقونَ الأوَّلونَ مِنَ الأنصارِ ، وَهُمُ الَّذينَ بايَعوا النَّبِيَّ ﷺ قَبلَ أنْ يُهاجِرَ إلى المَدينَةِ بَيعَةَ العَقَبَةِ الأولى وَالثّانِيَةَ ، وَآوَوْهُ وَنَصَروهُ عِندَ هِجرَتِهِ إلَيْهِم .

والطّائِفَةُ الثّالِثَةُ : الَّذينَ اتَّبَعوهُم بِإحسانٍ ؛ أيْ : الَّذينَ اتَّبَعوا السّابِقينَ في الإسلامِ مِنَ المُهاجِرينَ وَالأنصارِ اتِّباعاً حَسَناً في أقوالِهِم وَأعمالِهِم وَجِهادِهِم وَنُصرَتِهِم لِدَعوَةِ الحَقِّ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ هذِهِ القِسمَةِ ، أنَّهُ رَضِيَ عَنهُم في إيمانِهِم وإخلاصِهِم ، فَتَقَبَّلَ أعمالَهُم ، وَرَفَعَ دَرَجاتِهِم ، وَتَجاوَزَ عَن زَلّاتِهِم ، وَأنَّهُم كَذلِكَ رَضوا عَن رَبِّهِم تَبارَكَ وتَعالى بِما أسْبَغَهُ عَلَيْهِم مِن نِعَمٍ جَليلَةٍ ، وَبِما نالوهُ مِن كَرَمِهِ سُبْحانَهُ مِن هِدايَةٍ وَثَوابٍ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ بِبَيانِ أنَّهُ تَعالى بِجانِبِ رِضاهُ عَنهُم وَرِضاهُم عَنهُ في الدُّنْيا ، فَقَدْ أعَدَّ لَهُمْ في الآخِرَةِ جَناتٍ تَجري تَحتَها الأنهارُ ، وَأنَّهُم خالِدونَ فيها خُلوداً أبَدِيّاً ، وَذلِكَ الرِّضا والخُلودُ في الجَنّاتِ هُوَ الفَوْزُ العَظيمُ الّذي لا يُقارِبُهُ فَوزٌ وَلا تُدانيهِ سَعادَةٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ البُعْدُ عَنْ مَجالِسِ العِلْمِ وَالدِّينِ يُسَبِّبُ الجَفاءَ والغِلظَةَ .

٢ـ المُنافِقُ يَظُنُّ الأعْرابَ سَواءً في العِلْمِ وَالدِّينِ .

٣ـ لَيسَ كُلُّ الأعْرابِ سَواءً في العِلمِ وَالدِّينِ .

٤ـ مَنزِلَةُ مَن سَبَقَ إلى الإيمانِ عِندَ اللهِ تَعالى عالِيَةٌ .

٥ـ المُقتَدي بالصّالِحينَ يَنالُهُ فَضْلٌ مِنَ اللهِ تَعالى بِبَرَكَتِهِم وَرِضوانِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِم .

٦ـ الوُصولُ إلى رِضوانِ اللهِ تَعالى يَحتاجُ إلى مُجاهَدَةٍ عالِيَةٍ .

التقويم :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

الأعْرابُ ، أجْدَرُ ، مَغْرَماً ، يَتَرَبَّصُ بِكُم الدَّوائِرَ ، صَلَواتِ الرَّسولِ .

٢ـ ذَكَرَتِ الآيَةُ الأُولى (٩٧) صِنْفَيْنِ مِنَ الأعْرابِ وَمَيَّزَتْ بَيْنَهُما ، اذْكُرْ هذَيْنِ الصِّنفَيْنِ وَمَيِّزْ بَيْنَهُما .

٣ـ بَيِّنْ لِماذا ذُكِرَ الفَريقُ الكافِرُ مِنَ الأعْرابِ أوّلاً .

٤ـ بَيِّنْ لِماذا كانَ الأعْرابُ أجْدَرَ أنْ لا يَعْلَموا حُدودَ ما أنزَلَ اللهُ تَعالى .

٥ـ بَيِّنْ أقسامَ المُؤْمِنينَ الَّذينَ ذُكِروا في الآياتِ الكَريمَةِ .

٦ـ مَنِ المَقصودُ في كُلٍّ مِنَ الآياتِ التّالِيَةِ :

أـ ﴿عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ﴾ .

ب ـ ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللهُ في رحْمَتِهِ﴾ .

ج ـ ﴿رضِيَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضوا عَنْهُ﴾ .

نَشاطٌ :

١ـ بَيَّنَ الرَّسولُ ﷺ أنَّ بَعضَ النّاسِ يَتَّخِذُ الغَنيمَةَ مَغْنَماً وَالزَّكاةَ مَغْرَماً ، اكْتُبِ الحَديثَ الدّالَّ عَلى ذلِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ المِعيارَ الّذي يَكونُ عَلَيهِ مَدحُ النّاسِ وَذَمُّهُم شَرعاً .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الأخيرَةَ مِن سورَةِ النَّبَأِ ، وَبَيِّنْ وَجهَ الشَّبَهِ بَيْنَها وَبَيْنَ الآيَةِ (١٠٠) .

سورة التوبة - الثمن الخامس والعشرون

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

مَرَدوا على النِّفاق	تَجَرَّدوا لِلنِّفاقِ وَصارَ لَهُم سَجِيَّةً وَطَبْعاً .
تُزَكِّيهِم	تُبارِكُ لَهُم في حَسَناتِهِم .
صَلِّ عَلَيْهِم	ادْعُ لَهُم .
مُرْجَوْنَ لأمرِ اللهِ	مُؤَخَّرونَ حَتّى يَظهَرَ فيهِم حُكمُ اللهِ .

بَعْدَ أنْ تَحَدَّثَتِ الآيَةُ السّابِقَةُ عَن طائِفَةِ المُؤْمِنينَ وَمَدَحَتهُم بِما هُم أهلٌ لَهُ لِقُوَّةِ إيْمانِهِم ، وَصَفاءِ نُفوسِهِم ، وَإيثارِهِم ما عِندَ اللهِ تَعالى عَلى هذِه الدُّنيا وما فيها ، تَحَدَّثَتِ السّورَةُ الكَريمَةُ بَعْدَ ذلِكَ عَن أصنافٍ أُخرى مِنَ النّاسِ حَوْلَ المَدينَةِ المُنَوَّرَةِ عَلى ساكِنِها أفضَلُ الصَّلاةِ وَأتَمُّ التَّسليمِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

وَمِمَّنْ يُجاوِرُ المَدينَةَ مِن أهلِ البادِيَةِ مَنْ يُضمِرُ الكُفْرَ وَيُظهِرُ الإيمانَ ، وَكَذلكَ مِنْ سُكّانِ المَدينَةِ وَأهْلِها قومٌ ألِفوا النِّفاقَ ، حتّى بَرَعوا فيهِ وَسَتَروهُ عَنِ النّاسِ ، حتّى لَقدْ خَفِيَ أمرُهُم عَلَيْكَ أيُّها الرَّسولُ ، وَلكنّ اللهَ تَعالى هُوَ الّذي يَعلَمُ حَقيقَتَهُم ، وَسَيُعَذبُهُم اللهُ تَعالى في الدُّنيا مَرَّتَينِ : مَرّةً عَن طَريقِ فَضيحَتِهِم وَهَتْكِ أستارِهِم ، وَجَعْلِهِم يَعيشونَ في قَلَقٍ ، وَالمَرَّةُ الثّانِيَةُ إمّا بَنَصْرِكُم عَلى أعدائِكُم ، وَفي هذا غيظٌ لِلمُنافِقينَ ، وَعَذابٌ نَفسيٌّ مُؤْلِمٌ لَهُم ، وَإمّا عِندَما تَتَوَفّاهُمُ المَلائِكَةُ وَيَضرِبونَ وُجوهَهُم وَأدبارَهُم ، وَما يَتبَعُ ذلِكَ مِنْ عَذابِهِم في قُبورِهِم إلى أنْ تَقومَ السّاعَةُ ، فَيَجِدونَ العَذابَ الأكْبَرَ الّذي تَوَعَّدَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ في قَولِهِ : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ وذلِكَ في نارِ جَهَنَمَ ، نَعوذُ بِاللهِ مِن عَذابِ اللهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى طائِفَةً أُخرى مِمَّنْ أُشيرَ إلَيْهِم أوّلاً ، وَهُمُ الَّذينَ اعتَرَفوا بِذُنوبِهِم ، وَخَلَطوا ما بَيْنَ صالِحِ العَمَلِ وَسَيِّئِهِ ، فَقالَ تَعالى :

وَيوجَدُ مَعَكُم أيُّها المُؤْمِنونَ قَومٌ آخَرونَ مِن صِفاتِهِمْ أنَّهمُ اعْتَرَفوا بِذُنوبِهِمْ ، وَأقَرّوا بها وَلَمْ يُنْكِروها ، وَأنَّهُم خَلَطوا جِهادَهُم في سَبيلِ اللهِ تَعالى قَبلَ غَزوةِ تَبوكَ بِعَمَلٍ سَيِّءٍ ، وَهُوَ تَخَلُّفُهُم عَنِ الخُروجِ لِهذِهِ الغَزوَةِ ، أو أنَّهُم آذَوْا المُسلِمينَ بِأنواعٍ مِنَ الأذى ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذلِكَ اعْتَرَفوا بِما أذنَبوا ، وَسَلَكوا طَريقَ الحَقِّ ، وَأنَّهُمْ لِهذا يُرجى لَهُمْ أنْ تُقبَلَ تَوبَتُهُمْ ، ذلِكَ أنَّ اللهَ تَعالى رَحيمٌ بِعبادِهِ ، يَقبَلُ تَوبَتَهُم ، وَيغفِرُ لَهُم ما بَدَرَ مِنهُم بَعدَما أخلَصوا التَّوبَةَ لَهُ سُبْحانَهُ .

ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ ﷺ أنْ يَأخُذَ مِنْ هؤُلاءِ التّائِبينَ المُقرّينَ بِذنوبِهِم شَيئاً مِنْ أموالِهِم كَي يُطَهِّرَ بِهِ نُفوسَهُم وَيُزَكيّها ، حَتّى لا تَعودَ تَتَذَكَّرُ آلامَ المَعصِيَةِ ، فَقالَ تَعالى :

خُذ أيُّها الرَّسولُ ﷺ مِنْ هؤُلاءِ الَّذينَ اعتَرَفوا بِذُنوبِهِم وَخَلَطوا عَمَلاً صالِحاً وَآخَرَ سَيِّئاً ، وَمِن غَيرِهِم مِنْ أصحابِكَ المُؤْمِنينَ ، صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم مِن دَنَسِ البُخْلِ ، وَشُحِّ النَّفْسِ ، وَلُؤْمِ الخُلُقِ ، وَقَسْوَةِ الطَّبْعِ ، وَتُزَكيَّهِم بِها حَتّى تَنموَ نُفوسُهُم عَلى حُبِّ الخَيرِ ، وَتَزرَعَ في قُلوبِهِمُ العَطْفَ عَلى الفَقيرِ وَالضَّعيفِ وَالمُحتاجِ ، فَبِهذا تَنمو النَّفسُ وَتَرتَفِعُ .

وَصَلِّ عَلَيْهِم ، فَالصَّلاةُ مِنكَ دُعاءٌ لَهُم بِالخَيرِ ، وَسَكَنٌ لِنُفوسِهِم مِنَ الاضطِرابِ عَقبَ الذَّنبِ الّذي وَقَعَ بِالمُخالَفَةِ ، ادعُ لَهُم أَيُّها الرَّسولُ بِالخَيرِ وَالبَرَكاتِ ، وَاستَغفِرْ لَهُم ، فَدُعاؤُكَ وَاستِغفارُكَ سَكَنٌ لَهُم واطمئنانٌ لِقُلوبِهِم ، وَارتِياحٌ إلى قَبولِ تَوبَتِهِم ، وَاللهُ تَعالى سَميعٌ لِكُلِّ قَولٍ وَمُجازٍ عَلَيْهِ ، فَالصَّدَقَةُ إِذَنْ مَطْهَرَةٌ لِلنَّفسِ ، مَرضاةٌ لِلرَّبِّ ، ومُحَصِّنَةٌ لِلمالِ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى حَثَّ عِبادَهُ عَلى التَّوبَةِ النَّصوحِ وَبَذْلِ الصَّدَقاتِ ، فَقالَ تعالى :

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

أَلَم يَعلَمْ هؤُلاءِ التّائِبونَ مِن ذُنوبِهِم ، وَغَيرِهِم مِنَ المُؤْمِنينَ ، أَنَّ اللهَ تَعالى هُوَ وَحْدَهُ الّذي يَقبَلُ التَّوبَةَ الصّادِقَةَ مِنْ عِبادِهِ المُخلِصينَ ، وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ هُوَ الّذي يَتَقَبَّلُ الصَّدقاتِ مِنْ أصحابِها قَبولَ مَنْ يَأخُذُ شَيئاً لِيُؤَدِّيَ بَدَلَهُ ، وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ هُو واسِعُ الفَضلِ في قَبولِ التَّوبَةِ ، وَأَنَّهُ سُبْحانَهُ العَظيمُ رَحيمٌ بِعبادِهِ .

وفي هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ حَثٌّ شَديدٌ عَلى الصَّدَقَةِ مِنَ المالِ الحَلالِ ، وَقَدْ جاءَ في الحَديثِ مِمّا يُؤَيِّدُ هذا المَعنى ما رَواهُ البُخاريُّ : أَنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ : « مَن تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمرَةٍ ـ أي بِقيمَتِها ـ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ ـ ولا يَقبَلُ اللهُ إلاّ الطَّيِّبَ ، فَإنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُها بِيَمينِهِ ، ثُمَّ يُرْبيها لِصاحِبِها كَما يُرْبي أَحَدُكُم فِلْوَهُ ـ أي مُهْرَهُ ـ حَتّى تَكونَ مِثلَ الجَبلِ »[1] .

ثُمَّ إنّ اللهَ تَعالى أَمَرَ بِالتَّزَوُّدِ مِنَ العَمَلِ الصّالِحِ ، وَحَذَّرَ مِنَ الوُقوعِ في العَمَلِ السَّيِّىء فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

قُل يا أَيُّها الرَّسولُ ﷺ اعْمَلوا وَلا تُقَصِّروا في عَمَلِ الخَيرِ وَأداءِ الواجِبِ ، فَإنَّ اللهَ تَعالى يَعلَمُ كُلَّ أعمالِكُم ، وَسيَراها الرَّسولُ ﷺ وَالمُؤْمِنونَ ، فَيَزِنونَها بِميزانِ الإيمانِ ، وَيَشهَدونَ بِمُقتَضاها ، ثُمَّ تُرَدّونَ مِن بَعدِ المَوتِ إلى مَن يَعلَمُ سِرَّكُم وَجَهْرَكُم ، فَيُجازيكُم عَلى أعمالِكُم بَعْدَ أَنْ يُنَبِّئَكُم بِها صَغيرِها وَكَبيرِها .

وبَعْدَ ذلِكَ خَتَم اللهُ تَعالى هذِهِ الآياتِ الكَريمَةَ بِبَيانِ حالِ قِسْمٍ مِنَ الّذينَ تَخَلَّفوا عَن غَزوَةِ تَبوكَ ، وَهُم آخِرُ الأقسامِ المُتَحَدَّثِ عَنهُم في هذا الشّأنِ ، فَقالَ تَعالى :

---

(١) رواه البخاريُّ في كتابِ الزكاةِ ، حديث رقم ١٤١٠ .

﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ( ) ﴾ .

وَآخَرونَ مِنَ المُتَخَلِّفينَ عَن غزوَةِ تَبوكَ مُرْجَوْنَ لأمرِ اللهِ تَعالى ، وَمُؤَخَّرونَ لِحُكمِهِ ، فَحالُهمُ غامِضَةٌ عندَ النّاس ، لا يدرونَ ما يَنزِلُ في شَأْنِهِمْ هَل يُخلِصونَ في التَّوبَةِ فيتوبَ اللهُ ويَقبَلَ مِنهُم توبَتَهُم أم لا ؟ فَيُعَذِّبَهُمْ ويَحكُمَ عَلَيْهِمْ كَما حَكمَ عَلى المُنافِقينَ . وهؤلاءِ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ تَعالى ، في تَعْذيبِهِمْ أوِ التَّوْبَةِ عَلَيهِمْ ، ولَعَلَّ الحِكْمةَ في ذلكَ يَعني إبهامَ أَمْرِهِمْ لِما في ذلِكَ مِنَ التَّربيةِ لَهُمْ ، والتَّهذيبِ لنُفوسِهِمْ ولِما في ذلِكَ مِن بَيانٍ لِجُرْمِ التَّخَلُّفِ عَن رسولِ اللهِ ﷺ وإيثارِ الرَّاحةِ والدَّعةِ عَلى الجِهادِ ، ونَصْرِ الرَّسولِ ﷺ . وَبِهذا يَتَبَيَّنُ لَنا أنَّ الآياتِ الكَريمَةَ السَّابِقةَ قَد ذَكَرتْ ثَلاثَ طَوائِفَ مِنْ المُتَخَلِّفينِ عَنْ غَزوةِ تبوكَ ، هم :

الطَّائِفةُ الأولى : الّتي مَرَدَتْ عَلى النِّفاقِ ، وقَد تَعلَّلوا بِالأعذارِ الكاذِبَةِ .

الطَّائِفةُ الثّانِيةُ : الّتي سارَعَتْ إلى الاعتِذارِ والاعْتِرافِ بِالذَّنْبِ ، فَقَبِلَ اللهُ تَعالى مِنهُم .

الطَّائِفةُ الثّالثةُ : الّتي لَم تَجدْ عُذراً تعتَذِرُ بِهِ ، فَأوقَفَ اللهُ تَعالى أمرَهُم إلى أنْ حَكَمَ بِقبولِ توبَتِهِم بَعدَ خَمسينَ ليلةً . وسيأتي بيانُ هذهِ الطَّائِفةِ آخرَ السّورةِ إنْ شاءَ اللهُ تَعالى .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

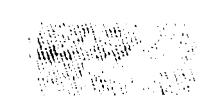
١ـ وُجوبُ الحَذَرِ مِنَ المُنافِقينَ وأعداءِ الدِّينِ ، فَالمُسْلِمُ اليَقِظُ حَذِرٌ .

٢ـ الاعتِرافُ بِالذَّنْبِ يَمحو آثارَهُ .

٣ـ يَنبَغي لِلمُسلِمِ أنْ لا تَحولَ الذُّنوبُ بَينَهُ وَبَيْنَ التَّوبَةِ .

٤ـ ضَرورَةُ التَّصَدُّقِ مِنَ المالِ الحَلالِ تَزكِيَةً لِلنَّفسِ وَتَطهيراً لِلمالِ .

٥ـ الحَثُّ الدَّؤوبُ عَلى عَمَلِ الخَيرِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ثَلاثَ طَوائِفَ مِنَ النّاسِ ، مَيِّزْ بَيْنَ هذِهِ الطَّوائِفِ .

٢ـ هاتِ الدَّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى ما يَلي :

أـ اللهُ وَحْدَهُ هُوَ الّذي يَقبَلُ التَّوبَةَ .

ب ـ اللهُ تَعالى لا تَخفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ .

ج ـ الصَّدَقَةُ تُطَهِّرُ النَّفْسَ وَالمالَ .

٣ـ لِماذا أَخْفى اللهُ تعالى حالَ الطّائِفَةِ الثّالِثَةِ عَنِ النّاسِ ؟

٤ـ ما الجَزاءُ الذي استَحَقَّهُ كُلٌّ مِنَ الفِئاتِ التّالِيَةِ ، كَما جاءَ في آياتِ الدَّرسِ :

أـ الأعْرابُ المُنافِقونَ وَمُنافِقو المَدينَةِ .

ب ـ مُؤمِنونَ اعتَرَفوا بِذُنوبِهِم خَلَطوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سَيِّئاً .

ج ـ مُؤمِنونَ آخَرونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللهِ .

* * *

الدرس الرابع والأربعون

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ السّابعُ والعِشْرونَ

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

معاني المفردات

- ضِراراً : إضْراراً بالغَيْرِ .
- إرْصاداً : تَرَقُّباً وانْتِظاراً .
- شَفا جُرُفٍ : حافَّةِ وادٍ .
- هارٍ : مُتَصَدِّعٍ آيلٍ لِلسُّقوطِ .
- ريبَةً : اضْطِراباً وَحَيْرَةً .

التفسير

بَعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى طوائِفَ النّاسِ ومَوقِفَهُم في تبوكَ ، خَتَمَ اللهُ تَعالى الحَديثَ عَنِ المَنافِقِينَ بِذِكْرِ شَيءٍ مِنْ فاسِدِ أعمالِهِمُ ، الّتي أرادوا بِها التَّشويشَ عَلى المُسلِمينَ في المَدينَةِ ، وذلكَ بإقامةِ مَسْجِدٍ لم يُقْصَدْ مِن بِنائِهِ وجْهُ اللهِ تَعالى ، وإنَّما المَقْصَدُ خِلافُ ذلِكَ ، فَفَضَحَ اللهُ تَعالى هذا العملَ

الفاسِدَ وأهلَهُ ، وهَتَكَ أستارَهُم ، وزلزَلَ بُنيانَهُم ، فقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى مُحَذِّراً المُؤمنينَ مِن هؤلاءِ المُنافِقينَ :

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

بيَّنتِ الآيةُ الكَريمَةُ الغايَةَ مِنْ بناءِ ذلِكَ المَسجِدِ ، وَلَقَدْ كانَتِ الغايَةُ موزَّعَةً على النَّحوِ الآتي :

أوّلا : ضِراراً : بِمعنى إلْحاقاً للأذى بِالمؤمِنينَ ، وصَرفِهِم عَن مَسجِدِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَغيرِهِ مِن مساجِدِ المُسْلِمينَ الّتي بُنِيَتْ للهِ تَعالى ، وَبِخاصَةٍ مسجدُ قُباءِ .

ثانيا : كُفراً : نُصرَةً لأهلِ الكُفرِ ، ولا يَفْعَلُ هذا الفِعلَ إلاَّ مَنْ خَرَجَ مِنْ مِلَّةِ الإسلامِ .

ثالثاً : تَفريقاً بينَ المؤمِنينَ : ذلِكَ لأنهُ يُمَزِّقُ وحدَةَ المسلِمينَ ويُشَتِّتُهُم إلى نواحٍ متعدِّدةٍ ، فَتَضعُفُ جماعَتُهُم ، وتَلينُ قَناتُهُم ، فَيَسهلُ اقْتِناصُهُمْ .

رابعاً : إرصاداً لِمَنْ حارَبَ اللهَ تَعالى وَرَسولَهُ ﷺ ، ذلِكَ أنَّ مِن غاياتِ هذا البناءِ الّذي سَمَّوْهُ مَسجداً ، أنْ يَكونَ مُجتَمَعاً لِمَن يُحارِبُ اللهَ تَعالى وَرَسولَهُ ﷺ ، يُخَطِّطونَ فيهِ ، وَيُدَبِّرونَ المَكائِدَ وَالمَصائِبَ لِلمُسْلِمينَ .

مِنَ المُنافِقينَ جَماعَةٌ بَنَوْا مَسجداً لا يَبتَغونَ بِهِ وَجْهَ اللهِ تَعالى ، وَإِنَّما بَنَوْهُ لأغراضٍ فاسِدَةٍ ، وَمقاصِدَ خَبيثَةٍ ، وَمَع ذلِكَ فهُم يُقسِمونَ أغلظَ الأيمانِ بِأنَّهُم ما أرادوا بِبنائِهِ إلاّ الخَيْرَ وَالعَمَلَ الأحسَنَ . ثُمَّ أخبرَ سُبْحانَهُ بِأنَّهُ يَشهَدُ بِأنَّهُمْ كاذِبونَ في تلكَ الأيمانِ وَفيما يَقولونَ ، وَلَقَدْ نَهى اللهُ تَعالى رَسولَهُ وَالمُؤمِنينَ عَنِ الصَّلاةِ في هذا المَسجِدِ وَالقيامِ فيهِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴾

لا تُصَلِّ أيُّها الرَّسولُ ﷺ في هذا المَسجِدِ أبَداً ، وَإنَّ مَسْجِداً أُقيمَ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ تَعالى وَطَلَباً لِمَرضاتِهِ مِن أوّلِ أمرِهِ ، كَمَسجِدِ قُباءِ وَالمَسجِدِ النَّبَوِيِّ لَجَديرٌ بِأنْ تُؤَدّى فيهِ شَعائِرُ اللهِ تَعالى ، وَفي هذا المسَجِدِ رِجالٌ يُحِبّونَ أنْ يُطَهِّروا أجسادَهُم وَقُلوبَهُم بِأداءِ العِبادَةِ الصَّحيحَةِ فيهِ ، واللهُ تَعالى يُحِبُّ وَيُثيبُ الَّذينَ يَتَقرَّبونَ إليهِ بالطَّهارَةِ الجِسْمِيَّةِ وَالمَعنَوِيَّةِ .

وَقَد خَيَّبَ اللهُ تَعالى مَسعى هؤُلاءِ المُنافِقينَ ، وَأبطَلَ كَيْدَهُم ، بِأنْ أمَرَ رَسولَهُ بِهَدْمِ هذا المَسجِدِ وَإزالَتِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الفَرْقَ بَيْنَ مَن أسَّسَ بُنيانَهُ عَلى الحَقِّ وَمَنْ أسَّسَ بُنيانَهُ عَلى الباطِلِ بِحَيثُ لا يَستَوِيانِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ .

لا يَستَوي في عَقيدَتِهِ وَلا في عَمَلِهِ مَنْ بُنيانُهُ عَلى الإخلاصِ في تَقوى اللهِ تَعالى ، وَابتِغاءِ رِضائِهِ ، ومَنْ أقامَ بُنيانَهُ عَلى النِّفاقِ وَالكُفْرِ ، فإنَّ عَمَلَ المُتَّقي مُستقيمٌ ثابتٌ عَلى أصلٍ مَتينٍ ، وَعَمَلُ المُنافِقِ كَالبناءِ عَلى حافَّةٍ هاوِيَةٍ فَهُوَ واهٍ ساقِطٌ ، يَقَعُ بصاحِبِهِ في نارِ جَهَنَّمَ ، وَاللهُ تَعالى لا يَهدي إلى طَريقِ الرَّشادِ مَنْ أصرَّ عَلى ظُلمِ نَفسهِ بِالكُفْرِ .

وَهاتانِ صورَتانِ مُتَقابِلَتانِ لِلثَّباتِ وَالتَّصدُّعِ وَالانهيارِ واضِحَتانِ لا تَخفَيانِ عَلى ذي عَيْنَيْنِ ، وَعَلى العاقِلِ أنْ يُفاضِلَ بَيْنَ طَريقٍ يُنْجيهِ وَطَريقٍ يُهلِكُهُ أو يَقضي عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَختارُ الطَّريقَ الَّذي يُنْجيهِ .

وَالمُرادُ بِالمَثَلِ هُنا بَيانُ ثَباتِ الحَقِّ الَّذي هُوَ دينُ الإسلامِ ، وَقُوَّتُهُ ، وَدوامُهُ وَسَعادَةُ أهلِهِ بِهِ ، وَذِكْرُهُ بأَثَرِهِ وَثَمَرَتِهِ في عَمَلِ أهلِهِ ، وَجِماعُها التَّقوى وَبَيانُ ضَعْفِ الباطِلِ ، وَاضمِحلالِهِ ، وَقُرْبُ زَوالِهِ ، وَخَيبَةُ صاحِبِهِ ، وسُرعَةُ انقطاعِ آمالِهِ . ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى بَيَّنَ الآثارَ الَّتي تَرَتَّبَتْ عَلى هَدمِ مَسجِدِ الضِّرارِ في نُفوسِ هؤُلاءِ المُنافِقينَ الأشرارِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

لا يَزالُ ما بَناهُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ مَوْضِعَ ريبَةٍ وَقَلَقٍ في نُفوسِهِم في كُلِّ وَقتٍ وَفي كُلِّ حالٍ ، إلاّ في وقتٍ واحِدٍ هُوَ وَقتُ أنْ تَتَمَزَّقَ قُلوبُهُم بِالمَوتِ وَالهَلاكِ ؛ أي أنَّهُم لا يَزالونَ في قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ وَاضطِرابٍ ما داموا أحياءً ، أمّا بَعْدَ مَوتِهِم فَستَتَكَشَّفُ لَهُمُ الحَقائِقُ ، وَيَجِدونَ مَصيرَهُمُ الأليمَ .

وَالسَّبَبُ في أنَّ هذا البناءَ كانَ مَثارَ ريبَتِهِم وَقَلَقِهِم ، حَتّى بَعْدَ هَدْمِهِ ، لأنَّهُم بَنَوْهُ بِنيَّةٍ سَيِّئَةٍ ، وَلِمَقاصِدَ خَبيثَةٍ ، فَكانوا يَخشَوْنَ أنْ يُطلِعَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ عَلى مَقاصِدِهِم الذَّميمَةِ ، فَهذِهِ الخَشيَةُ أورثَتْهُمُ القَلَقَ وَالرِّيبَةَ . فَلَمّا أطلَعَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ عَلى أغراضِهِم ، وَتَمَّ هَدْمُ مَسجِدِ الضِّرارِ وَانهارَ الجُرُفُ المُتَداعي المُتَساقِطُ ، استَمَرَّ قَلَقُهُم وَرَيْبُهُم ، لأنَّهُم لا يَدرونَ بَعْدَ ذلِكَ ماذا سَيَفعَلُ المُؤْمِنونَ بِهِم .

وَهكذا شَأنُ الماكِرينَ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، إنَّهُم يَعيشونَ طوالَ حَياتِهِم في فَزَعٍ وَقَلَقٍ وَخَوفٍ مِنْ أنْ يَنكَشِفَ مَكرُهُم وَيَظْهَرَ خِداعُهُم .

وبَعْدَ ذلِكَ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّهُ عَليمٌ بِكُلِّ شَيءٍ في هذا الكَونِ ، وَبِكُلِّ ما يَفعَلُهُ وَيَقولُهُ هؤُلاءِ المُنافِقونَ سِرّاً وَجَهْراً ، حَكيمٌ في كُلِّ تَصَرُّفاتِهِ وَأفعالِهِ وَفي صُنعِهِ بِهِم ، وَسَيُجازيهِمْ يَومَ القِيامَةِ بِما يَسْتَحِقّونَهُ مِن عِقابٍ .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وجوبُ الحَذَرِ مِنَ الأعمالِ الّتي لم يُرَدْ بها وجهُ اللهِ تَعالى ، وإنْ كانَ ظاهِرُها السّلامةُ .

٢ـ وُجوبُ الحَذَرِ مِن تَجَمُّعاتِ أعداءِ اللهِ تَعالى وأعداءِ رَسولِهِ ﷺ .

٣ـ يَنبَغي لِلمُؤمِنِ أن يَبتَعِدَ عَن مَواطِنِ الشُّبُهاتِ .

٤ـ وَجوبُ بِناءِ المَساجِدِ عَلى تَقوىً مِنَ اللهِ تَعالى وَرضوانٍ .

٥ـ المُحافَظَةُ عَلى الطَّهارَةِ مِنَ الصِّفاتِ الّتي يُحِبُّها اللهُ تَعالى .

٦ـ اسْتِحبْابُ الصَّلاةِ مَعَ الجَماعَةِ الصّالِحَةِ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

ضِراراً ، إرصاداً لِمَنِ حارَبَ اللهَ وَرَسولَهُ ، شَفا جُرُفٍ هارٍ ، ريبَةً .

٢ـ ما الغايَةُ مِن بِناءِ مَسجِدِ الضِّرارِ ؟ وَمَنِ الَّذينَ بَنَوْهُ ؟

٣ـ بِمَ أمرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ بِشَأْنِ هذا المَسْجِدِ ؟

٤ـ وَضِّحِ الصّورَةَ الّتي عَرَضَتْها الآياتُ الكَريمَةُ لِمَسْجِدِ التَّقوى وَمَسْجِدِ الضِّرارِ .

٥ـ لِماذا كانَ بِناءُ مَسْجِدِ الضِّرارِ ريبَةً في قُلوبِ الَّذينَ بَنَوْهُ ؟

ـ ارْجِعْ إلى كُتُبِ السّيرَةِ النَّبويَّةِ ، وَاكتُبْ مَوْضوعاً في حُدودِ صَفحَتَيْنِ عَنْ مَسجِدِ الضِّرارِ ، وَعَلِّقْهُ عَلى مَجَلَّةِ الحائِطِ في مَدْرَسَتِكَ .

* * *

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

اشترى من المؤمنين	هذهِ استِعارَةٌ لِلوَعْدِ بالجَزاءِ عَنِ الجهادِ .
استبشروا	اشْعُروا بِفرَحِ البُشْرى شُعوراً تَنبَسِطُ لَهُ أساريرُ الوُجوهِ .
السائحون	السّائِرونَ في الأرضِ لِكُلِّ مَقصِدٍ شَريفٍ .

بَعْدَ أنْ بَيّنَ اللهُ تَعالى أصنافَ المُتَخَلِّفينَ عَنِ غَزوَةِ تَبوكَ ، أتبعَ ذلِكَ بِالتَّرغيبِ في الجِهادِ وَبيانِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ المُجاهِدينَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، الَّذينَ عَقَدوا مَعَ اللهِ تَعالى صَفقَةً رابِحَةً ، فَقالَ سُبْحانَهُ وتَعالى في هذا الشَّأنِ :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (١١١)﴾ .

يُؤكِّدُ اللهُ تَعالى وَعْدَهُ لِلمُؤْمِنينَ الَّذينَ يَبذُلونَ أنفُسَهُم وَأموالَهُم في سَبيلِهِ ، بِأنَّهُ اشتَرى مِنهُم تِلكَ الأنفُسَ وَالأموالَ بِالجَنّةِ ، ثَمَناً لِما بَذَلوا ، فَإنَّهُم يُجاهِدونَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، فَيَقتُلونَ أعداءَ اللهِ تَعالى أو يُستَشهَدونَ في سَبيلِهِ . وَقَد أثبَتَ اللهُ تَعالى هذا الوَعدَ الحَقَّ في التَّوراةِ والإنجيلِ كَما أثبَتَهُ اللهُ تَعالى في القرآنِ الكَريمِ ، وَلَيسَ أحَدٌ أبَرَّ ولا أوفى بِعَهدِهِ مِنَ اللهِ تَعالى ، فافرَحوا أيُّها المُؤْمِنونَ المُجاهِدونَ بِهذِه المُبايَعَةِ الّتي بَذَلتُم فيها أنفُسَكُم وَأموالَكُمُ الفانِيَةَ ، وَعُوِّضتُم عَنها بِالجَنَّةِ الباقِيَةِ ، وَهذا الشِّراءُ وَالبَيعُ هُوَ الظَّفَرُ الكَبيرُ لَكُم .

إنَّ هذِهِ الآيَةَ الكَريمَةَ تَكشِفُ عَن حَقيقةِ العَلاقَةِ الّتي تَربطُ المُؤْمِنينَ بالله تَعالى ، وَعَنْ حَقيقَةِ البَيعَةِ الّتي أعطَوها ـ بإسلامِهِم ـ طوالَ الحَياةِ ، فَمَنْ بايَعَ هذِهِ البَيعَةَ وَوَفّى بها فَهُوَ المُؤمِنُ الحَقُّ ، الّذي يَنطَبِقُ عَلَيْهِ وَصْفُ (المُؤْمِنِ) وَتَتَمَثَّلُ فيهِ حَقيقَةُ الإيمانِ ، وَإلاّ فَهِيَ دَعوى تَحتاجُ إلى التَّصديقِ والتَّحقيقِ .

وَحَقيقةُ هذِهِ البَيعَةِ ، أو المُبايَعَةِ كما سَمّاها اللهُ تَعالى كَرَماً مِنهُ وَفَضلاً وَسَماحَةً ، أنَّهُ سُبْحانَهُ قَدِ استَخلَصَ لِنَفسِهِ أنفُسَ المُؤْمِنينَ وَأموالَهُم ، فَلَم يَعُدْ لَهُم أنْ يَستَبْقوا مِنها بَقِيَّةً لا يُنفِقونَها في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، لَم يَعُدْ خَيارٌ أنْ يَبذُلوا أو يُمسِكوا ، إنَّها صَفْقَةٌ مُشتَراةٌ ، لِشاريها أنْ يَتَصَرَّفَ بِها كَما يَشاءُ ، وِفقَ ما يَفْرِضُ وَوِفقَ ما يُحَدِّدُ ، وَلَيسَ لِلبائِعِ فيها مِن شَيءٍ سِوى أنْ يَمضِيَ في الطَّريقِ المَرسومِ ، لا يَلتَفِتُ وَلا يَتَخَيَّرُ ، وَلا يُناقِشُ وَلا يُجادِلُ وَلا يَقولُ إلاّ الطّاعَةَ وَالعَمَلَ وَالاستِسْلامَ . وَالثَّمَنُ هُوَ الجَنَّةُ ، وَالطَّريقُ هُوَ الجِهادُ وَالقَتلُ وَالقِتالُ ، وَالنِّهايَةُ هِيَ النَّصْرُ أو الاستِشهادُ .

إنَّ الجِهادَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى بَيْعَةٌ مَعقودَةٌ في عُنُقِ كُلِّ مُؤمِنٍ ، مُنذُ كانَتِ الرُّسُلُ عَلَيْهِم الصَّلاةُ والسَّلامُ ، وَمُنذُ كانَ دينُ اللهِ تَعالى ، إنَّها السُّنَّةُ الجارِيَةُ الّتي لا تَستَقيمُ الحَياةُ مِنْ دونِها ، وَلا تَصلُحُ الحَياةُ بِتَرْكِها ، قالَ تَعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة : ٢٥١] .

وَالمُجاهِدونُ يَتَّصفونَ بأفضَلِ الصِّفاتِ كَما بَيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ، وَلَم يَترُكْنا اللهُ تَعالى لِتَحْديدِ هذِهِ الصِّفاتِ بِأنْفُسِنا ولا لَتَبيُّنِ هذِهِ المَعالِمِ كَما نَشاءُ ، وَإنَّما حَدَّدَها هُوَ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وَبَيَّنَها في قَولِهِ تَعالى :

﴿ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وفي هذهِ الآيَةِ الكَريمَةِ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنّ المُجاهِدينَ المُخلِصينَ هُم مَنْ تَتوافَرُ فيهِم هذهِ الصِّفاتُ السَّبعُ ، وَهِيَ :

الصِّفَةُ الأولى : **التّائِبونَ : أي مِمّا أسْلَفوا ، العائِدونَ إلى اللهِ تَعالى مُستَغفِرينَ . وَالتَّوبَةُ شُعورٌ بالنَّدَمِ عَلى ما مَضى ، وَتَوَجُّهٌ إلى اللهِ تَعالى فيما بَقِيَ ، وَكَفٌّ عَنِ الذَّنبِ ، وَعَمَلٌ صالِحٌ يُحَقِّقُ التَّوْبَةَ بِالفِعْلِ ، كَما يُحَقِّقُها بِالتَّرْكِ فَهِيَ طَهارَةٌ وَزَكاةٌ وَتَوَجُّهٌ وإصلاحٌ .**

الصِّفَةُ الثّانِيَةُ : **العابِدونَ : أي المُتَوَجِّهونَ إلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ بِالعبادَةِ ، وَالعُبودِيَّةُ صِفَةٌ ثابِتَةٌ في نُفوسِهِم تُتَرجِمُها الشَّعائِرُ ، كَما يُتَرجِمُها التَّوَجُّهُ إلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ بِكُلِّ عَمَلٍ ، وَبِكُلِّ قَولٍ ، وَبِكُلِّ طاعَةٍ ، وَبِكُلِّ اتِّباعٍ .**

الصِّفَةُ الثّالِثَةُ : **الحامِدونَ : الَّذينَ تَنطَوي قُلوبُهُم لِلمُنعِمِ بِالنِّعمَةِ ، وَتَلهَجُ ألسِنَتُهُم بِحَمدِ اللهِ تَعالى في السَّرّاءِ وَالضَّرّاءِ ، وَلَيسَ الحَمْدُ هُوَ الحَمْدُ في السَّرّاءِ وَحْدَها ، وَلكِنَّهُ الحَمدُ في السَّراءِ والضَّرّاءِ ، حَيثُ يُدرِكُ القَلبُ المُؤْمِنُ أنَّ اللهَ تَعالى الرَّحيمَ العادِلَ ما كانَ لِيَبتَلِيَ المُؤْمِنَ إلاّ لِخَيرٍ يَعلَمُهُ ، مَهما خَفِيَ عَلى العِبادِ إدراكُهُ .**

الصِّفَةُ الرّابِعَةُ : **السّائِحونَ : السّائِرونَ في الأرضِ لِمَقصِدٍ شَريفٍ ، وَغَرَضٍ كَريمٍ لِتَحصيلِ العِلمِ ، وَالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَالتَّدَبُّرِ في مَلَكوتِهِ سُبْحانَهُ ، وَالتَّفَكُّرِ في سُنَّتِهِ في كَونِهِ ، والاعتِبارِ بِما عَمِلَهُ في هذا الكَونِ العَجيبِ .**

الصِّفَةُ الخامِسَةُ : **الرّاكِعونَ السّاجِدونَ : أي الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ وَيَقومونَ بِالصَّلاةِ ، وَكَأنَّها صِفَةٌ ثابِتَةٌ مِن صِفاتِهِم ، وَكَأَنَّ الرُّكوعَ وَالسُّجودَ طابَعٌ مُمَيِّزٌ لَهُم مِن بَيْنِ النّاسِ .**

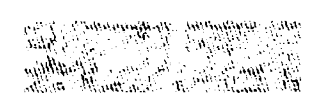
الصِّفَةُ السّادِسَةُ : **الآمِرونَ بِالمَعروفِ ، وَالنّاهونَ عَنِ المُنكَرِ . والأمرُ بِالمَعروفِ الَّذي يَرضاهُ الشَّرْعُ وَالنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ الَّذي يَأباهُ الشَّرْعُ مِن مَيْزاتِ المُجتَمَعِ المُسلِمِ ، وَهُوَ دَليلُ الحَيَوِيَّةِ في ذلِكَ المُجتَمَعِ ، وَدَليلُ الحَياةِ الحَقيقيَّةِ الَّتي لا تَرى الخَطأَ إلاّ وَتُسارِعُ في إزالَتِهِ حَتَّى لا يَصيرَ داءً تَفسُدُ مَعَه أخلاقُ المُجتَمَعِ المُسلِمِ ، وَهذِهِ الصِّفَةُ هِيَ دَليلُ التّآزُرِ وَالتَّواصُلِ بَيْنَ أفرادِ المَجتَمَعِ ، وَشَفَقَةُ بَعضِهِم عَلى بَعضٍ ، وَنِعْمَ هذا المُجْتَمَعُ الَّذي يَتَعاوَنُ فيهِ أفرادُهُ إلى حَدِّ الشَّفَقَةِ .**

الصِّفَةُ السّابِعَةُ : **الحافِظونَ لِحُدودِ اللهِ ، يَعني : القائِمونَ عَلى حُدودِ اللهِ تَعالى لِتَنفيذِها في النَّفسِ وَفي النّاسِ ، وَمُقاوَمَةِ مَنْ يُضَيِّعُها أو يَعتَدي عَلَيْها ، لا فَرْقَ في هذا بَيْنَ غَنِيٍّ وَفَقيرٍ ، وكَبيرٍ**

وَصَغيرٍ ، فالنّاسُ كُلُّهُم أمامَ شَريعَةِ اللهِ تَعالى مُتَساوونَ ، وَهذا هُوَ العَدلُ ، وَنِعْمَ هُوَ .

هذهِ هِيَ الجَماعَةُ المُؤْمِنَةُ الّتي بايَعَها اللهُ تَعالى عَلى الجَنَّةِ ، وَاشتَرى مِنها الأنفُسَ وَالأموالَ ، لِتَمضيَ مَع سُنَّةِ اللهِ تَعالى الجارِيَةِ مُنذُ كانَ دينُ اللهِ تَعالى ، وَرُسُلُهُ صَلواتُ اللهِ عَلَيْهِم جَميعاً وَرِسالاتُهُ ، قِتالٌ في سَبيلِ اللهِ تعالى لإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، وَقَتلٌ لأعداءِ اللهِ تَعالى الَّذينَ يُحادّونَ اللهَ تَعالى ، أو استِشهادٌ في المَعرَكَةِ الّتي لا تَفتُرُ بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ ، وَبَيْنَ الإسلامِ والجاهِلِيَّةِ ، وَبَينَ الشَّريعَةِ والطّاغوتِ ، وَبينَ الهُدى وَالضَّلالِ .

وَلَيْسَتِ الحَياةُ لَهْواً وَلَعِباً ، وَلَيْسَتْ أَكْلاً كَما تأكُلُ الأنعامُ ، وَلَيْسَتْ سَلامةً ذَليلَةً ، ورَاحةً بَليدَةً ، وَرِضىً بِالسِّلْمِ الرَّخيصِ ، إنَّما الحَياةُ : كِفاحٌ في سَبيلِ الحَقِّ ، وَجهادٌ في سَبيلِ الخَيْرِ ، وانتِصارٌ لإعلاءِ كَلِمَةِ اللهِ تَعالى ، أو استِشهادٌ كذلِكَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، ثُمَّ الجَنَّةُ والرِّضوانُ ، هذِهِ هِيَ الحَياةُ الّتي يُدعى إلَيها المُؤْمِنونَ بِاللهِ تَعالى .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ كَرامَةُ المُؤمِنِ عِندَ اللهِ تَعالى كَبيرَةٌ .

٢ـ مِنْ رضا اللهِ تَعالى بَذْلُ الأنفُسِ وَالأموالِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى . وَتَحقيقُ رضوانِ اللهِ أعظَمُ فَوزٍ في الحَياةِ .

٣ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى مِن أَوْثَقِ عُرى الإيمانِ .

٤ـ المُجتَمَعُ المُسْلِمُ حَيَويٌّ مُتَرابِطٌ مُتَّحِدٌ مَتَآلِفٌ ، مَتَآزِرٌ .

٥ـ الجَماعَةُ المُؤمِنَةُ أُمَّةٌ مُمَيَّزَةٌ بِأوصافٍ يَرْضى اللهُ تَعالى عَنْها وَرَسولُهُ ﷺ .

٦ـ الجِهادُ ماضٍ إلى يَومِ القِيامَةِ .

٧ـ ضَرورَةُ الجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى لِنَشرِ دينِهِ ، وَلِرَفْعِ دَرَجاتِ المُؤْمِنينَ عِندَ رَبِّهِمْ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

اشتَرى مِنَ المُؤْمِنينَ ، اسْتَبشِروا ، السّائِحونَ .

٢ـ بيّنِ الصَّفْقَةَ الّتي تَمَّتْ بَيْنَ اللهِ تَعالى وَعبادِهِ المُؤْمِنينَ .

٣ـ بيِّنْ أثَرَ كُلٍّ مِمّا يَلي عَلى المُجتَمَعِ المُسلِمِ أفراداً وَجَماعاتٍ :

أ ـ الجِهادُ في سَبيلِ اللهِ تَعالى .

ب ـ الأَمْرُ بِالمَعروفِ وَالنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ .

ج ـ حِفْظُ حُدودِ اللهِ تَعالى .

٤ـ عَدِّدْ صِفاتِ المُؤْمِنينَ الَّذينَ باعوا أنفُسَهُم للهِ تَعالى .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ غَرَضَيْنِ آخَرَيْنِ مِن أغراضِ السَّفَرِ وَالسِّياحَةِ المُباحَةِ .

* * *

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

كَثيرُ التَّأَوُّهِ وَالتَّوَجُّعِ مِن خَشيَةِ اللهِ تَعالى .

صَبورٌ عَلى ما يَنالُهُ مِنَ الأَذى .

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى فَضلَ الجِهادِ وَالمُجاهِدينَ ، وَأَنَّ ذلِكَ يُمَثِّلُ أعلى صُوَرِ الوَلاءِ للهِ تَعالى ، بَيَّنَ بَعْدَهُ أَنَّ مِنْ ضَروراتِ هذا الوَلاءِ قَطْعُ الرَّوابِطِ مَعَ الأَقرَبينَ إذا كانوا في صُفوفِ المُعادينَ للهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

ما كانَ مِنْ شَأنِ النَّبِيِّ ﷺ وَلا مِنْ شَأنِ أصحابِهِ المُؤْمِنينَ ، أنْ يَسْأَلوا اللهَ تَعالى أنْ يَغفِرَ

لِلمُشرِكينَ في حالٍ مِنَ الأحوالِ ، حَتّى وَلَو كانَ هؤُلاءِ المُشرِكونَ مِن أقرَبِ أقربائِهِم ، وذلِكَ بَعْدَ أنْ تَبَيَّنَ لِلرَّسولِ ﷺ وَلأصحابِهِ أنَّ هؤُلاءِ المُشرِكينَ مِن أصحابِ الجَحيمِ ، بِسَبَبِ مَوتِهِم عَلى الكُفرِ ، وإصْرارِهِم عَلَيْهِ ، وَعَدَمِ اعتِرافِهِم بِدينِ الإسلامِ .

وَهذِهِ الآيَةُ الكَريمَةُ تَشريعٌ مُبتَدأٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وَلَيسَتْ واردَةً عَلى سَبَبِ نُزولٍ ، لأنَّها مِن آخِرِ القُرآنِ نُزولاً ، وَغايَتُها قَطْعُ العَلائِقِ مَعَ مَنْ قَطَعَ عَلاقَتَهُ مَعَ اللهِ تَعالى ، ذلِكَ أنَّ العَقيدَةَ هِيَ العُروَةُ الكُبرى الّتي تَلتَقي فيها الأواصِرُ البَشَرِيَّةُ ، وَالعلاقاتُ الإنسانِيَّةُ ، فإذا انقَطَعَتْ وَشيجَةُ العَقيدةِ ، انقَطَعَتِ الأواصِرُ الأُخْرى مِن جُذورِها ، فَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في نَسَبٍ ، وَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في صِهْرٍ ، وَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في قَومٍ ، وَلا لِقاءَ بَعْدَ ذلِكَ في أرضٍ ، إمّا إيمانٌ بِاللهِ تَعالى فَالوَشيجَةُ الكُبرى موصولَةٌ وَالوَشائِجُ (الصِّلاتُ) الأخرى كُلُّها تَنبُعُ مِنها وتَلتَقي بِها ، أو لا إيمانَ فَلا صِلَةَ إذَنْ يُمكِنُ أنْ تَقومَ بَيْنَ إنسانٍ وَإنسانٍ ، وَأمّا المَصالِحُ المُرتَبِطَةُ بَيْنَ النّاسِ فَذلِكَ شأنٌ دُنيَوِيٌّ لا تَتَحدَّثُ الآيَةُ الكَريمَةُ عنهُ .

وَلَمّا كانَتْ بَعضُ النُّفوسِ رُبَّما تَتَعلَّقُ بِما فَعَلَهُ نَبِيُّ اللهِ تَعالى إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ ، مُحتَجَّةً بِأنَّهُ دَعا لأبيهِ لَعَلَّ اللهَ يَغفِرُ لَهُ ، وذلِكَ في قَولِهِ تَعالى : ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا﴾ [مريم : ٤٧] .

نَقولُ لِهؤُلاءِ لَمّا لَم يَحصُلْ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مِثلُ هذا الوَعدِ لَم يَجُزْ أنْ يُقتَدى بِوَعدِ إبراهيمَ ﷺ هُنا ، قالَ تَعالى :

[illegible]

لا أُسوَةَ بِإبراهيمَ ﷺ في استِغفارِهِ لأبيهِ ، فَإنَّما كانَ ذلِكَ مِنهُ وَعْداً رَجاءَ أنْ يَهديَ اللهُ تَعالى أباهُ إلى دينِ الإسلامِ الّذي بُعِثَ بِهِ ، وَلكِنْ لَمّا أنْ ماتَ أبوهُ عَلى الشِّرْكِ ، وَتَبيَّنَ إبراهيمُ ﷺ أنَّ أباهُ عدُوٌّ للهِ تَعالى لا رَجاءَ في هُداهُ ، تَبرَّأَ مِنهُ وَقَطَعَ صِلَتَهُ بِهِ .

هذا نَبِيُّ اللهِ إبراهيمُ ﷺ كَثيرُ الخُشوعِ وَالتَّذَلُّلِ لِرَبِّهِ كَثيرُ الصَّفحِ عَمَّنْ آذاهُ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَصفَحْ عَنْ أبيهِ عِندما استَيقَنَ مَوتَهُ كافِراً ، فأعلَنَ بَراءَتَهُ مِنهُ ، وانقِطاعَ صِلَتِهِ بهِ ، وهكَذا شَأنُ المُؤمِنِ في كُلِّ زَمانٍ وَمَكانٍ ، يَجِبُ أنْ يَصِلَ مَن وَصَلَ دينَ اللهِ تَعالى ، وَيقطَعَ مَنْ قَطعَ دينَ اللهِ تَعالى ، فهذا هُوَ شَأنُ الإيمانِ ، وَهكذا هُوَ أثرُهُ في النُّفوسِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلكَ سُنَّةً عامَّةً مِن سُنَنِهِ الّتي لا تَتَخلَّفُ دَلالَةً عَلى سَعَةِ رَحمَتِهِ وَوافِرِ عَدلِهِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

إنَّ اللهَ تَعالى لا يُحاسِبُ النّاسَ إلاّ عَلى ما بَيَّنَ لَهُم أن يَتَّقوهُ وَيحْذَروهُ ولا يأتوهُ ، وَلَيسَ مِن عَدلِ اللهِ تَعالى أنْ يَذهَبَ بِهُدى قَومٍ بَعْدَ إذ هَداهُم ، وَيَكِلَهُمْ إلى الضَّلالِ لِمُجرَّدِ الفِعْلِ ، ما لَمْ يَكُنْ هذا الفِعلُ مِمّا نَهاهُم عَنهُ ، ذلِكَ أنَّ الإنسانَ قاصِرٌ ، وَاللهُ تَعالى هُوَ العَليمُ بِكُلِّ شَيءٍ ، وَمِنهُ البَيانُ وَالتَّعليمُ ، وَلَقَد جَعَلَ اللهُ تَعالى هذا الدِّينَ يَسراً لا عَسراً ، فَبَيَّنَ ما نَهى عَنهُ بَياناً واضِحاً ، كَمَا بَيَّنَ ما أمَرَ بِهِ بَياناً واضِحاً ، وَسَكَتَ عَنْ أشياءَ لَم يُبَيِّنْ فيها بَياناً ـ لا عَن نِسيانٍ وَلكن عَن حِكمَةٍ وَتيسيرٍ ـ وَنَهى عَنِ السُّؤالِ عَمّا سَكَتَ عَنهُ لِئَلا يَنتَهِيَ السُّؤالُ بِالسّائِلِ إلى التَّشديدِ ، وَمِن هُنا فَلَيْسَ لأحَدٍ أنْ يُحَرِّمَ شَيئاً مِنَ المَسكوتِ عنهُ ، وَلا أنْ يَنهى عَنِ الأشياءَ الّتي لم يُبَيِّنها اللهُ تَعالى تَحقيقاً لِرَحمَةِ اللهِ تَعالى بِعبادِهِ .

وَفي نِهايَةِ هذِهِ الآياتِ وَفي جَوِّ الدَّعوَةِ إلى التَّجَرُّدِ مِنْ صِلاتِ الدَّمِ وَالنَّسَبِ ، بَعْدَ التَّجَرُّدِ مِنَ الأنفُسِ وَالأموالِ ، يُقَرِّرُ اللهُ تَعالى أنَّ الوَلِيَّ النّاصِرَ هُوَ اللهُ تَعالى وَحْدَهُ ، وَأنَّهُ مالِكُ السَّمواتِ وَالأرضِ ، وَمالِكُ الموتِ وَالحَياةِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

إنَّ الأموالَ وَالأنفُسَ ، وَالسَّمواتِ وَالأرضَ ، وَالحياةَ وَالموتَ ، وَالولايَةَ وَالنُّصْرَةَ ، كُلُّها بِيَدِ اللهِ تَعالى دون سِواهُ ، وَفي الصِّلَةِ باللهِ تَعالى وَحدَهُ كِفايَةٌ وَغَناءٌ . وَختاماً : إنَّ هذِهِ التَّوكيداتِ المُتَوالِيَةَ وَهذا الحَسْمَ القاطِعَ في عَلاقاتِ القَرابَةِ تَدُلُّ عَلى ما كان يَدورُ في بَعضِ النُّفوسِ مِنَ اضْطِرابٍ وَأرْجَحَةٍ بَيْنَ الرَّوابطِ السائِدَةِ في تِلكَ البيئَةِ وَروابطِ العَقيدَةِ الجَديدَةِ ، مِمّا اقتَضى هذا الحَسْمَ الأخيرَ في السّورَةِ الّتي تَتَولّى الحَسْمَ في كُلِّ عَلاقاتِ المَجتَمَعِ المُسلِمِ بِما حولَهُ ، حتّى الاستِغفارُ لِمَن ماتَ عَلى الشِّرْكِ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ مِنْها :

١ـ لا يَجوزُ لِمُسلِمٍ أنْ يَستغفِرَ لِمُشرِكٍ بَعْدَ مَوتِهِ عَلى الشِّركِ مَهما بَلَغَتْ دَرَجَةُ قَرابَتِهِ لَهُ .

٢ـ رابِطَةُ العَقيدةِ هِيَ أوثَقُ الرَّوابِطِ وَأعْلاها .

٣ـ شَرْعُ مَنْ قَبلَنا لَيسَ شَرْعاً لَنا إلاّ إذا أقَرَّهُ شَرْعُنا .

٤ـ اللهُ تَعالى يُحافِظُ عَلى عِبادِهِ المُهتَدينَ .

٥ـ لا وِلايَةَ وَلا نُصْرَةَ إلاَّ للهِ تَعالى الّذي بِيَدِهِ مقاليدُ كلِّ شَيْءٍ .

التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ الدَّليلَ عَلى ما يَأْتي مِن آياتِ هذا الدَّرسِ :

أ ـ لا يَستَغفِرُ المُؤْمِنُ لِلمُشْرِكِ .

ب ـ لا وَليَّ وَلا نَصيرَ إلاّ اللهُ تَعالى .

٢ـ لِماذا استَغفَرَ إبراهيمُ عَلَيْهِ السَّلامُ لأبيهِ ؟

٣ـ بيِّنِ السُّنَّةَ العامَّةَ الّتي ذَكَرَتْها هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ .

٤ـ كَيفَ دَلَّتْ هذِهِ الآياتُ الكَريمَةُ عَلى أنَّ رابِطَةَ العَقيدَةِ لا تَعلوها رابِطَةٌ ؟

نَشاطٌ :

١ـ وَرَد في السّورَةِ آيَةٌ تَنهى الرَّسولَ ﷺ عَنِ الصَّلاةِ عَلى الكافِرينَ ، اكْتُبْها في دَفْتَرِكَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورَةِ المُمْتَحِنَةِ الّتي تَدْعوهُ إلى التَّأسّي بِإبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والأَرْبَعونَ

سورةُ التوبةِ - القسمُ الثلاثون

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾

ساعة العسرة	وَقْتِ غزوةِ تَبوكَ ، وقدْ كانَ وقتَ شِدَّةٍ وضيقٍ .
كاد يزيغ قلوب فريق منهم	أشْرَفَ فريقٌ مِنْهُمْ عَلى المَيْلِ إلى التَخلُّفِ عنِ الغزوةِ .
ضاقت عليهم الأرض	شَعَروا بأنَّ الأرْضَ الفَسيحَةَ صارتْ ضَيِّقَةً .
لا ملجأ من الله إلا إليه	لا مَهْرَبَ مِنَ اللهِ إلاّ إليهِ .

لمّا كانَ الّذي مَضَى مِنَ الآياتِ مُبَيِّناً طَبيعةَ البَيْعَةِ مَعَ اللهِ تَعالى ، كان التَّخلُّفُ عَنِ الجِهادِ لِلْقادِرينَ - أيّاً كانتِ الأسْبابُ - أمْراً مُستَنْكراً عَظيماً ، وكانَ ما بَدا في تلكَ الغَزْوَةِ مِنَ التَّردُّدِ والتَّخلُّفِ ، ظاهِرةٌ تَستَحقُّ التَّتبُّعَ والتَّركيزَ عَلَيْها . وفي هذهِ الآياتِ التّالِيَةِ يُبيِّنُ اللهُ تَعالى عَظيمَ فَضْلِهِ ورَحمَتِهِ بالمُؤْمِنينَ ، إذْ يَتجاوزُ عمّا بدا مِنَ المُؤْمِنينَ المُخْلِصينَ ، ويَتوبُ عَلَيْهِم فيما وَقَعَ منهُم مِنْ أخطاءٍ صَغُرَتْ أم كَبُرَتْ ، كذلكَ يُبيِّنُ اللهُ مَصيرَ الثّلاثةِ الّذينَ خُلِّفوا بغيرِ حُكْمٍ في أمْرِهِمْ - وهُمُ المُرْجَوْنَ لأمْرِ اللهِ تَعالى الّذينَ سَبَقَ ذِكْرُهُمْ - حتّى نزلَ هذا الحُكْمُ بعدَ فترةٍ مِنَ الزّمانِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

وتوبةُ اللهِ تَعالى عَلى نَبيِّهِ ﷺ ، الظاهرُ أنّها مُتعَلِّقةٌ بما سَبَقَ أنْ قالَ اللهُ عنهُ لِنَبِّيهِ ﷺ في هذهِ السّورةِ ، وهُوَ قولُهُ تَعالى : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ وذلكَ حينَ استأذَنهُ جماعةٌ مِنْ أُولي الطَّوْلِ بأعْذارٍ مُنتحَلَةٍ فأذِنَ لهُمْ ، وقدْ عَفا اللهُ تَعالى عنهُ في اجْتِهادِهِ هذا ﷺ مَعَ تَنبيهِهِ إلى أنَّ الأَوْلى كانَ هو التّريُّثَ ، حتى يَتبَيَّنَ الصّادِقينَ في أعذارِهِمْ مِن الكاذِبينَ المُنتحِلينَ .

وتوبةُ اللهِ تَعالى عَلى المُهاجِرينَ والأنصارِ تَظهَرُ مِنْ قولِهِ تَعالى : ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ وقدْ كانَ بعضُهُم تَثاقَلَ في الخُروجِ ثُمَّ لَحِقَ بالرَّكْبِ ـ وهُمْ مِنْ خُلَّصِ المُؤْمنينَ ـ وبعضُهُمُ اسْتَمَعَ للمُنافِقينَ المُرْجِفينَ بِهَوْلِ لِقاءِ الرّومِ ، ثُمَّ ثَبَّتَ اللهُ تَعالى قَلْبَهُ ، ومَضى بَعْدَ تَردُّدٍ .

لقدْ تقبَّلَ اللهُ تَعالى تَوبةَ النّبيِّ ﷺ ، كما تَقبَّلَ توبةَ أصْحابِهِ المُهاجِرينَ والأنْصارِ ، الَّذينَ اتّبعوهُ عنْ طَواعيةٍ وإخْلاصٍ واخْتبارٍ في ساعةِ العُسْرَةِ ، أي في وقتِ الشّدّةِ والضِّيقِ ، وقدْ كانتْ غزوةُ تبوكَ تُسمّى غزوةَ العُسْرَةِ ، لأَنَّ المُؤْمِنينَ خَرَجوا إليها في سَنَةٍ مُجْدِبَةٍ ، وحرٍّ شديدٍ ، وقِلَّةٍ في الزّادِ والماءِ والرّاحِلةِ ، وقد قيلَ في كُتبِ السّيرةِ إنّ الرَّجليْنِ مِنَ المُؤْمنينَ كانا يَشقّانِ التّمْرةَ بَيْنَهُما ، وكانَ العَشرةُ منهُمْ يتَعاقبونَ بَعيراً واحِداً ، يركبُ الرّجلُ منهُم ساعةً ثُمَّ يَنْزِلُ فيركَبُ صاحِبُهُ كذلكَ .

ثُمَّ بَيّنَ اللهُ تَعالى أنَّ بَعْضَ المُؤْمِنينَ قدْ حَصَلَ في نفسِهِ الاضْطرابُ بحيثُ أوْشَكَ أنْ لا يَذهبَ ، ولكنَّ اللهَ تَعالى أدْرَكَهُ برحْمَتِهِ . وتعبيرُ القرآنِ الكَريمِ دِقيقٌ جدّاً ، فقدْ أشارَ إلى حُصولِ التّردُّدِ مِنَ البَعْضِ ، وهذا يَعني أنَّ مُعظَمَ المُهاجِرينَ والأنصارِ رضيَ اللهُ عنهم مَضوْا معَ النَّبيِ ﷺ دونَ أنْ تُؤثّرَ هذهِ الشّدائدُ في قوّةِ إيمانِهِمْ وصِدْقِ يَقينِهِمْ ، ومَضاءِ عَزيمَتِهِمْ ، وشِدَّةِ إخْلاصِهِمْ ، وهكذا هُو شَأنُ المُؤْمِنينَ .

ثُمَّ أكَّدَ اللهُ تَعالى تَوْبَتَهُ عليْهِمْ بَعْدَ أنْ كابَدوا ، ما كابَدوهُ مِنَ العُسْرَةِ والمَشَقَّةِ ومُجاهَدةِ النّفْسِ ، وهذا مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى ورَحْمَتِهِ ورَأْفَتِهِ بالمُؤْمِنينَ .

وفي نَظْمِ هذهِ الآيةِ الكَريمةِ ما يُلهِبُ المُؤْمِنينَ للثِّقَةِ بربِّهِمْ ، ذلكَ أنّه سُبْحانَهُ ذَكَرَ التَّوْبَةَ أوّلاً قَبْلَ ذِكْرِ الذّنْبِ ، تفضُّلاً منهُ تَعالى وتَطْييباً لِقلوبِ هَؤُلاءِ المُؤْمِنينَ ، ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعالى الذَّنْبَ بَعْدَ ذلِكَ ، وأتْبَعَهُ بذكْرِ التّوْبَةِ مرّةً أُخرى تعظيماً لِشأْنِهِمْ ، ولِيَعْلَموا أنَّهُ تَعالى قَدْ قَبِلَ تَوبَتَهُمْ ، وعَفا عنْهُمْ ، ثُمَّ أتْبَعَهُ بقولِهِ سُبْحانَه : ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ تأكيداً لذلكَ ، والرأفةُ هِيَ السّعْيُ في إزالةِ الضَّررِ ، والرَّحمةُ هيَ السّعيُ في إيصالِ النّفْعِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّهُ كَما تَقَبَّلَ تَوْبَةَ المُهاجِرينَ والأنصارِ الَّذينَ اتَّبعوا رَسولَهُم ﷺ ساعةَ العُسْرَةِ ، فقدْ تَقَبَّلَ توبةَ الثَّلاثةِ الَّذينَ تَخلَّفوا عَنِ الاشْتِراكِ في غزوةِ تبوكَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

وهذهِ الآيةُ الكَريمَةُ تحكي مُلَخَّصا لِقصّةِ المُتخلّفينَ الثلاثةِ مِنَ الأنْصارِ الَّذينَ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عُذْرٌ في الّذي فَعلوهُ وهُم : كعبُ بنُ مالكٍ ، وهلالُ بنُ أميّةَ ، ومُرارَةُ بنُ الرّبيعِ ، وحاصِلُ قِصَّتِهِمْ : أنّهم تَخلّفوا عنْ رَسولِ اللهِ ﷺ من دونِ عُذْرٍ ، ولمّا رجعَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ غزوةِ تبوكَ سألَهُمْ عنْ تَخلُّفِهِم فلمْ يَكذِبوهُ بالعُذْرِ كما فَعَلَ المُنافِقونَ ، وإنّما اعْتَرفوا بذَنْبِهِمْ وحَزِنوا لذلكَ حُزْناً شَديداً ، رغبةً منهُم في التّوبةِ إلى اللهِ تَعالى ، ثُمَّ إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ نَهى النّاسَ جَميعاً عَنْ كلامِهِمْ ، فلمْ يُكلّمْهُمْ أحدٌ ، ثُمَّ أمَرَهُمْ أنْ يَعْتَزِلوا نِساءَهُمْ فَفعلوا ، ثُمَّ عَفا عَنْهُم ﷺ بَعْدَ خمسينَ ليلةً ، وذلك بَعْدَ أنْ تابَ اللهُ عَلَيْهِم ، فأنزَلَ في تَوبتِهِمْ قرآناً .

لقدْ تقبّلَ اللهُ تَعالى بفضلِهِ وإحْسانِهِ توبةَ النّبيِّ ﷺ والمُهاجِرينَ والأنْصارِ ، وتقبّلَ كذلكَ توبةَ الثّلاثةِ الَّذينَ تَخلّفوا عنْ هذهِ الغَزْوَةِ كَسَلاً وحُبّاً للرّاحةِ . ولقدْ أخْبَرَنا اللهُ تَعالى بشِدَّةِ تَحيُّرِهِمْ وكَثْرةِ حُزْنِهِمْ واسْتِسْلامِهِمْ لِحُكْمِ اللهِ تَعالى فيهِمْ ، أيْ حتّى إذا ضاقتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ على سَعَتِها بِسَبَبِ إعْراضِ النّاسِ عَنْهُمْ ، ومُقاطِعَتِهِمْ لَهُمْ ، وضاقَتْ عَلَيْهِمْ أنفُسُهُمْ بِسببِ الهَمِّ والغَمِّ الّذي ملأها ، واعْتَقدوا أنَّهم لا مَلجأ ولا مَهْرَبَ لَهُم مِنْ حُكْمِ اللهِ تَعالى ، حَيْثُ قَبِلَ تَوْبَتَهُمْ ، وغَفَرَ خَطأهُمْ وعَفا عَنْهُم ، ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لنا أنَّهُ بَعْدَ هذا التّأديبِ الشّديدِ لَهُمْ تَقَبَّلَ تَوْبَتَهُمْ لِيَتوبوا إليهِ تَوبةً صادِقَةً نَصوحاً ، لا تَكاسُلَ معَها بَعْدَ ذلِكَ عنْ طاعةِ اللهِ تَعالى وطاعةِ رسولِهِ ﷺ ، إنّ اللهَ تَعالى هو دائِمُ القَبولِ لتوبةِ التّائِبينَ ، عظيمُ الرَّحمةِ بعبادِهِ .

وأمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ بِتقواهُ وبأنْ يَكونوا في زُمْرَةِ الصّادِقينَ مِثلَ أولئكَ الَّذينَ تَضمنَّتهُم القِصَّةُ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

يا مَنْ آمَنْتُمْ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، اتّقوا اللهَ تَعالى حقَّ تُقاتِهِ بأنْ تَفْعَلوا ما كَلَّفَكُمْ بِهِ ، وتَتْرُكوا ما نَهاكُمْ عنهُ ، وكُونوا مَعَ الصّادِقينَ في دينِ اللهِ تَعالى ، قَوْلاً ، وعَمَلاً ، وإخلاصاً ، فإنَّ الصِّدْقَ ما وُجِدَ في شيءٍ إلاّ زانَهُ ، وما وُجِدَ الكَذِبُ في شيءٍ إلاّ شانَهُ ، ومِنْ حقِّ مَنْ فَهِمَ عنِ اللهِ تَعالى وعَقَلَ عنهُ أنْ يُلازِمَ الصِّدْقَ في الأقوالِ ، والإخْلاصَ في الأعمالِ ، والصَّفاءَ في الأحوالِ ، فمنْ كانَ كذلكَ لَحِقَ بالأبْرارِ ، وَوَصَلَ إلى رَبِّنا الغفّارِ . قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « إنَّ الصِّدْقَ يَهدي إلى

البرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ ليَصْدُقُ حتّى يكونَ صِدّيقاً ، وإنَّ الكَذِبَ يَهدي إلى الفُجورِ ، وإنَّ الفُجورَ يَهدي إلى النّارِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتّى يُكْتَبَ عندَ اللهِ كذّاباً »[1] .



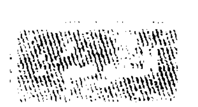
تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ بيانُ فضلِ اللهِ تَعالى العَظيمِ عَلى عِبادِهِ .

٢ـ التّوْبَةُ الصّادِقةُ تَجُبُّ ما قَبْلَها .

٣ـ الصِّدْقُ مَنجاةٌ ، والكَذِبُ مَهْلَكَةٌ .

٤ـ المُؤْمِنونَ سَريعو الامْتِثالِ لأمْرِ اللهِ تَعالى ورسولِه ﷺ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

ساعةِ العُسْرةِ ، كادَ يَزيغُ قُلوبُ فريقٍ مِنهُمْ ، ضاقَتْ عَلَيْهِمُ الأرضُ بما رَحُبَتْ ، لا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إلاّ إليهِ .

٢ـ ما مَعنى تَوبةِ اللهِ تَعالى عَلى نبيِّهِ ﷺ ؟

٣ـ ما الذّنبُ الّذي وقعَ فيهِ بعضُ المُؤْمِنينَ حتّى ذُكِرَتْ توبةُ اللهِ تَعالى عَلَيْهِم ؟

٤ـ كيفَ تَستَدِلُّ مِنْ قِصّةِ الثّلاثةِ المُخلَّفينَ عَنْ غزوةِ تَبوكَ عَلى أنَّ الصِّدْقَ مَنجاةٌ ؟

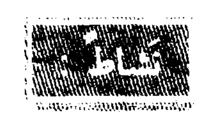
٥ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ أثَرَ الذّنْبِ عَلى النّفْسِ المُؤْمِنَةِ ، وَضِّحْ ذلكَ .

٦ـ مَنِ الثّلاثةُ المَذكورونَ في هذهِ الآياتِ ؟

٧ـ بَيِّنْ مَنزِلةَ الصِّدْقِ عَلى الصّادِقِ والمُجتَمعِ الّذي هو فيهِ .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأدبِ حديث رقم : ٦٠٩٤ .



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسمَ صَحابيٍّ تخلّفَ عنِ الرّسولِ ﷺ ، ثُمَّ لَحِقَ بِهِ قَبْلَ أنْ يَصِلَ إلى تَبوكَ .

٢ـ ارْجِعْ إلى صحيحِ البُخاريِّ في كتابِ المَغازي ، واقرأْ قصّةَ الثّلاثةِ الّذينَ تَخلّفوا في حديثِ رقم : ٤٤١٨ ، وتأمَّلْ ما فيهِ مِنْ عِبَرٍ وعِظاتٍ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والأَرْبَعونَ

سورةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الحادي والثَّلاثون

مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

لا يَرغَبوا بِأنفُسِهِم عَن نَفسِهِ : لا يُؤثِرونَ نُفوسَهُم بِالرَّاحَةِ والطُّمَأْنينَةِ دونَ نَفْسِ النَّبي ﷺ .

ظَمَأٌ : عَطَشٌ .

نَصَبٌ : تَعَبٌ ومشقَّةٌ .

مَخمَصَةٌ : جوعٌ .

يَنفِروا : يَخرُجوا .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعضَ مَظاهِرِ فَضلِهِ عَلى عِبادِهِ والّتي مِنها أن يَقْبلَ تَوبَتَهُم ، وَيتوبَ عَلَيْهِم ، أوجَبَ عَلَيْهِمُ الغَزوَ مَعَ رَسولِ اللهِ ﷺ ، وَوَعَدَهُم عَلَيْهِ بِجزيلِ الثَّوابِ ، ذلِكَ إنَّ مِن مَظاهِرِ التَّوبَةِ

الصَّادِقَةِ ، الصِّدَقُ والإقدامُ في مُتابَعَةِ نَبيِّ الإسلام ﷺ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

لَيسَ لأهلِ المَدينَةِ ، أو لِغَيرِهِم مِنَ الأعرابِ سُكّانِ البادِيَةِ الَّذينَ يَسكُنونَ ضَواحي المَدينَةِ ، لَيسَ لِهؤُلاءِ جَمعياً أنْ يَتَخَلَّفوا عَن رَسولِ اللهِ ﷺ إذا ما خَرَجَ لِلجهادِ ، كَما فَعَلَ بَعضُهُم في غَزوَةِ تَبوكَ ، لأنَّ هذا التَّخَلُّفَ يَتَنافى مَعَ الإيمانِ باللهِ تَعالى وَرَسولِهِ ﷺ ، وَلَيسَ لَهُمْ كَذلِكَ أنْ يُؤثِروا أنْفُسَهُم بِالرّاحَةِ عَلى نَفسِهِ بِأنْ يَترُكوهُ يَتَعَرَّضُ لِلآلامِ وَالأخطارِ دونَ أنْ يُشارِكوهُ في ذلِكَ ، بَلْ مِنَ الواجِبِ عَلَيْهِمْ أن يَكونوا مِنْ حَوْلِهِ في البَأساءِ وَالضَّرّاءِ ، وَالعُسْرِ وَاليُسْرِ ، وَالمَنشَطِ وَالمَكرَهِ .

إذْ قَدْ أُمِروا أنْ يَنصُروهُ في البَأساءِ وَالضَّرّاءِ ، وَأنْ يُكابِدوا مَعَهُ الأهوالَ بِرَغبَةٍ وَنَشاطٍ وَاغتِباطٍ ، وَأنْ يُلاقوا مِنَ الشَّدائِدِ ما تَلقاهُ نَفسُهُ ﷺ عِلْماً بِأنَّها أعَزُّ نَفسٍ عَلى اللهِ تَعالى وَأكرَمُها ، فإذا تَعَرَّضَتْ مَع عِزَّتِها وَكَرامَتِها لِلخَوضِ في شِدَّةٍ وَهَولٍ ، وَجَبَ عَلى سائِرِ الأنفُسِ أنْ تَتَساقَطَ فيما تَعَرَّضَتْ لَهُ ، ولا يَكتَرِثَ لَها أصحابُها ، وَلا يُقيمونَ لَها وَزناً ، وَتَكونَ أخَفَّ شَيءٍ عَلَيْهِمْ وَأهوَنَهُ فَضْلاً عَنْ أنْ يَربَأوا بِأنفُسِهِمْ عَنْ مُتابَعَتِها وَمُصاحَبَتِها ، وَيَضِنّوا بِها عَلى ما سَمَحَ بِنَفسِهِ عَلَيْهِ . وَهذا نَهيٌ بَليغٌ ، مَع تَقبيحٍ لأمرِهِم ، وَتَوبيخٍ لَهُمْ عَلَيْهِ وَتَهييجٌ لِمُتابَعَتِهِ بِأنَفَةٍ وَحَمِيَّةٍ .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى بَيَّنَ لِلنّاسِ سَبَبَ ما كُلِّفوا بِهِ مِن مُصاحَبَةِ النَّبيِّ ﷺ بِأنَّهُم لا يُصيبُهُم عَطَشٌ ، وَلا تَعَبٌ وَمَشَقَّةٌ ، وَلا مَجاعَةٌ شَديدَةٌ تَجعَلُ البُطونَ ضامِرَةً ، كُلُّ ذلِكَ ما دامَ في جِهادِ أعداءِ اللهِ تَعالى ، وَإعلاءِ كَلِمَةِ الحَقِّ ، وَكَذلِكَ لا يَدوسونَ مَكاناً مِن أمْكِنَةِ الكافِرينَ بِأرجُلِهِمْ أو بِحَوافِرِ خُيولِهِمْ مِن أجلِ إغاظَتِهِمْ وَإزعاجِهِمْ ، وَكَذلِكَ لا يُصيبونَ مِن عَدُوٍّ مِنْ أعدائِهِم إصابَةَ قَتْلٍ أو غَنيمَةً ، كُلُّ ذلِكَ لا يَفعَلونَ شَيئاً مِنهُ إلاّ كَتَبَ اللهُ تَعالى بِكُلِّ واحِدٍ مِن هذهِ الأعمالِ عَمَلاً صالِحاً يَنالونَ بِسَبَبِهِ الثَّوابَ الجَزيلَ مِنَ اللهِ تعالى ، لأنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُضيعُ أَجْرَ المُحسنينَ ، وَإنَّما يُكافِئُهُم عَلى إحْسانِهِم بِالأجرِ العَظيمِ .

﴿ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وَكَذلِكَ لا يَتَصَدَّقونَ بِصَدَقَةٍ صَغيرَةٍ كَالتَّمرَةِ وَنَحوِها ، وَلا كَبيرَةٍ كَما فَعَلَ عُثمانُ بنُ عَفّانٍ

رَضِيَ اللهُ عنهُ في هذِهِ الغَزوةِ فقدَ تَصدَّقَ بالكَثيرِ ، وَكذلكِ لا يَقْطَعونَ وادِياً مِنَ الوِديانِ في مَسيرِهِم إلى عَدُوِّهِم أو في رُجوعِهِم ؛ لا يَفعَلونَ شَيئاً مِن ذلِكَ إلاّ أعطاهُمُ اللهُ أحسَنَ ما كانوا يَعمَلونَ . فاللهُ تَعالى أمرَهُم بِمُصاحَبَةِ نَبيِّهِم ﷺ في كُلِّ غَزَواتِهِ ، وَكَلَّفَهُم بِتَحَمُّلِ مَشاقِّ الجِهادِ وَمَتاعِبِهِ لِيَجزيَهُمْ عَلى ذلِكَ أحسَنَ الجَزاءِ وأَعظَمَهُ .

وَمِنَ هُنا نَرى أنَّ اللهَ تَعالى قَد حَرَّضَ المُؤْمِنينَ عَلى الجِهادِ في هاتَينِ الآيَتَيْنِ ، وبَيَّنَ لَهُمْ أنَّ كُلَّ ما يُلاقونَهُ في جِهادِهِم مِن مَتاعِبَ لَهُ ثَوابُهُ العظيمُ ، وَما دامَ الأمرُ كذلِكَ فَعَلَيهِم أنْ يُصاحِبوا رَسولَهُم ﷺ في جَميعِ غَزَواتِهِ ، لأنَّ التَّخَلُّفَ عَنهُ لا يَليقُ بالمُؤْمِنينَ الصّادِقينَ ، فَضْلاً عَنْ أنّ التَخَلُّفَ مِنْ دونِ عُذرٍ شَرعِيٍّ سَيُؤدِّي إلى الخُسرانِ في الدُّنيا وَالآخِرَةِ .

وَلَمّا كانَ الّذي نَزَلَ مِنَ القُرآنِ في هذِهِ السّورَةِ نَزَلَ بِالنَّكيرِ عَلى المُتَخَلِّفينَ وَالتَّنديدِ بِالتَّخَلُّفِ ، وَبِخاصَّةٍ مِنْ أهلِ المَدينَةِ وَمَنْ حولَهُم مِنَ الأعْراب ، فَإنَّهُ قَد جَعَلَ النّاسَ يَتَزاحَمونَ في المَدينَةِ ، لِيَكونوا رَهْنَ إشارَةِ النَّبيِّ ﷺ ، وَبِخاصّةٍ مِنَ القَبائِلِ المُحيطَةِ بالمَدينَةِ ، مِمّا اقتَضى بَيانَ حُدودِ النَّفيرِ العامِّ ، فَقَدِ اتَّسَعَتْ رقعَةُ الدُّوَلِ الإسلاميَّةِ حتّى كادَتِ الجَزيرَةُ كُلُّها تَدينُ لِلإسلامِ ، وَكَثُرَ عَدَدُ الرِّجالِ المُستَعدّينَ لِلجِهادِ ، وَقَد آنَ أوانُ أنْ تَتَوزَّعَ الجُهودُ في الجِهادِ ، وَفي عِمارَةِ الأرضِ ، وَفي التِّجارَةِ ، وَفي غَيرِها مِن شُؤونِ الحَياةِ الّتي تَقومُ بِها أُمَّةٌ ناشِئَةٌ مَطالِبُها تَخْتَلِفُ عَن مَطالِبِ القَبيلَةِ السّاذِجَةِ ، وَعَن حاجاتِ المُجتَمَعِ القَبَلِيِّ الأوّلِيَّةِ ، عَلى إثرِ ذلِكَ نَزَلَت الآيَةُ الكَريمَةُ تُبَيِّنُ هذا الأمْرَ وَتُوَضِّحُهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾

إنّ المُؤْمِنينَ لا يَنفِرونَ جَميعاً ، وَلكِنْ تَنفِرُ هذِهِ الطّائِفَةُ في نُصْرَةِ الدِّينِ بِالنَّفيرِ وَالخُروجِ إلى الجِهادِ وَالحَرَكَةِ بِهذِهِ العَقيدَةِ ، وَتُنذِرُ الباقينَ مِن قَوْمِها إذا رَجَعتْ إلَيهِم ، بِما رأتهُ وما فَقِهَتهُ ، بِما يَتَكَشّفُ لَهُمْ مِنْ أسرارِهِ وَمَعانيهِ ، وَبِما يَتَجَلّى لَهُمْ مِن آياتِهِ وَتَطبيقاتِهِ العَمَلِيّةِ في أثناءِ الحَرَكَةِ بِهِ .

أمّا الّذينَ يَقعُدونَ فَهُمُ الّذينَ يَحتاجونَ إلى أنْ يَتَلَقّوْا مِمَّنْ تَحَرَّكوا ، لأنَّهُم لَم يُشاهِدوا ما شاهَدَ الَّذينَ خَرَجوا ، وَلا فَقِهوا فِقهَهُم ، ولا وَصَلوا مِنْ أسرارِ هذا الدّينِ إلى ما وَصَلَ إليهِ المُتَحَرِّكونَ بِهِ ، وَبِخاصَّةٍ إذا كانَ الخُروجُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، وَالخُروجُ بِصفَةٍ عامَّةٍ أقرَبُ إلى الفَهْمِ وَالتَّفَقُّهُ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

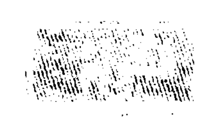
١ـ أنفُسُ المُؤْمِنينَ لَيْسَتْ بِأعَزَّ مِن نَفسِ رَسولِ ﷺ .

٢ـ مَن جاهَدَ في سَبيلِ اللهِ تَعالى نالَ أجْراً عَظيماً .

٣ـ وُجوبُ مُصاحَبَةِ النَّبيِّ ﷺ وَالنَّهْيُ عَنِ التَّخلُّفِ عَنهُ .

٤ـ وُجوبُ طَلَبِ العِلْمِ وَالتّفقُّهِ في دينِ اللهِ تَعالى .

٥ـ عَلى العالِمِ أن يُعَلِّمَ مَنْ لَمْ يَعلَمْ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لا يَرغَبوا بِأنفُسِهِمْ عَن نَفسِهِ ، ظَمَأٌ ، نَصَبٌ ، مَخمَصَةٌ .

٢ـ هاتِ الدّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ على ما يَلي :

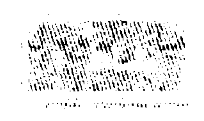
أـ إنَّ اللهَ تَعالى لا يُضيعُ عَمَلَ عامِلٍ مَهما كانَ صغيراً .

ب ـ نَشْرُ العِلْمِ واجِبٌ .

ج ـ نَفْسُ النَّبيِّ ﷺ أعظَمُ مِنَ نُفوسِ النّاسِ جَميعاً .

٣ـ بَعْضُ الفِقْهُ في الدِّينِ إنَّما يَكونُ بِالجِهادِ في سَبيلِ اللهِ تَعالى ، وَضِّح ذلِكَ .

٤ـ ذَكَرَتِ الآياتُ أصْنافاً مِنَ المَشاقِّ الّتي تَحَمَّلَها المُسلِمونَ في طَريقِ تَبوكَ ، اذْكُرْها مُرَتَّبَةً كَما جاءَ في الآيَةِ .

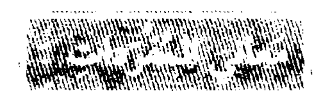


اكْتُبْ ما قالَهُ بَنو إسرائيلَ لِسَيِّدنا موسى عَلَيْهِ السَّلامُ عِندما رَأَوْا عُدُوَّهُم ، وَقارِنْ بَيْنَ مَوقِفِهِم وَمَواقِفِ المُؤْمِنينَ مَعَ الرَّسولِ ﷺ .

الدرس التاسع والأربعون

سُورَةُ التَّوْبَةِ ـ القِسْمُ الثّاني والثّلاثون

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾



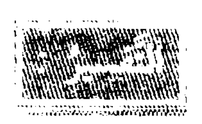
يَلونَكُمْ : يُجاوِرونَكُمْ .

غِلْظَة : خُشونةً وشِدَّةً .

رِجْساً : كُفراً ونِفاقاً .

يُفتَنونَ : يُبْتَلوْنَ ويُخْتَبرونَ .

انْصَرفوا : تَوَلَّوْا وأعْرَضوا مَتَسلِّلينَ .



كانتِ السّورَةُ الكَريمَةُ قدْ بدأتْ بإعلانِ القَطيعةِ بَيْنَ المُؤْمِنينَ والمُشْرِكينَ ، ثُمَّ تَوسَّعتْ في الحديثِ عنِ المنافِقينَ وأوْزارِهِمْ ، وها هِيَ تَخْتِمُ بالحَديثِ عَنْ هاتَيْنِ الطّائِفَتيْنِ لِتُعْلِنَ كذلكَ في

وُضوحِ مَوْقِفَ المُؤْمِنينَ مِنَ الكافِرينَ ، ومَوقِفَ المُنافِقينَ مِنَ المُؤْمِنينَ ، ليتذكَّرَ مَنْ يَتذكَّرُ ، ولِيعتبرَ مَنْ يَعتبرُ ، حتّى لا يَبقى أحدٌ يُقدِّمُ رِجْلاً ويُؤخِّرُ أُخْرى في شأنِ هاتيْنِ الطّائِفَتينِ اللّتينِ ابْتُلي بِهِما المُؤْمِنونَ منذُ فجرِ الرّسالةِ ، فَبدأَ اللهُ تَعالى بالكافِرينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أنْ يُقاتِلوا الكُفّارَ أوّلاً فأوّلاً ، الأقربَ فالأقْربَ إلى حَوْزَةِ الإسْلام ، ولِهذا بَدأَ الرّسولُ ﷺ بِقتالِ المُشْرِكينَ في جَزيرَةِ العَرَبِ ، فلمّا فَرَغَ منهُمْ وَفتَحَ اللهُ تَعالى عليهِ مَكّةَ والمَدينةَ واليَمَنَ وغيرَ ذلِكَ مِنَ الأقالِيمِ العرَبيّةِ ، ودخلَ النّاسُ مِنْ سائِرِ أحياءِ العَرَبِ في دينِ اللهِ أفواجاً ، شَرَعَ ﷺ في قتالِ أهلِ الكِتابِ ، فَتجهّزَ لغزوِ الرّومِ الّذينَ هُمْ أقربُ النّاسِ إلى جزيرةِ العَرَبِ ، وأوْلى النّاسِ بالدّعوةِ إلى الإسلامِ ، لأنّهُم أهلُ كتابٍ ، فبلغَ تبوكَ ثُمَّ رَجَعَ لأجلِ جُهْدِ النّاسِ ، وَجَدْبِ البلادِ ، وضيقِ الحالِ ، وذلكَ سنةَ تسعٍ مِنَ الهِجرَةِ ، ثُمَّ اشتغلَ في السّنةِ العاشِرَةِ بِحَجّةِ الوَداعِ ، ثُمَّ عاجَلَتْهُ المَنيّةُ ﷺ بعدَ حَجّةِ الوداعِ بواحدٍ وثمانينَ يوماً ، وسارَ خُلفاؤُهُ الرّاشِدونَ مِنْ بعدِهِ عَلى نَهْجِهِ .

ثُمَّ بيَّنَتِ الآيَةُ الكريمَةُ أمْرَينِ مُهمَّينِ ، الأولَ : أنّ المُؤْمِنَ ذَليلٌ رَحيمٌ معَ إخوانِهِ ، قويُّ الشّكيمةِ مَعَ أعدائِهِ فلا تَلينُ لـه قناةٌ ، ولا تأخُذُهُ في دينِ اللهِ تَعالى لَوْمَةُ لائِمٍ . والأمْرَ الثّاني : أنّ معيّةَ اللهِ تَعالى لا يَستحقُّها إلاّ المُتَّقونَ .

وإنّما أمَرَ اللهُ تَعالى المُؤْمِنينَ أنْ يَبدأوا قِتالَهُمْ مَعَ الأقْرَبِ فالأقْرَبِ مِنْ ديارِهِم ، لأنَّ القِتالَ شُرِعَ لتأمينِ الدّعوةِ الإسلاميّةِ ، فكانَ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ يَبدأوا قِتالَهُمْ مَعَ المُجاوِرينَ لَهُمْ حتّى يأمَنوا شَرَّهُم ، ولأنّهُ مِنَ المَعلومِ أنّهُ لَيْسَ في طاقةِ المُسلِمينَ قتالُ جميعِ الكُفّارِ ، وغزوُ جميعِ البلادِ في زمانٍ واحدٍ ، فكانَ مَنْ قَرُبَ أوْلى مِمّنْ بَعُدَ .

وبعدَ ذلِكَ تحدثَّتِ السّورةُ الكَريمَةُ حديثاً خِتامياً عنِ المُنافِقينَ ، وَبيّنتْ مَوْقِفَهُمْ مِنْ نُزولِ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾

وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ مِنْ سُوَرِ القُرآنِ ، وسَمِعَها المُنافِقونَ سَخِروا واسْتَهْزَءوا ، وقالَ بعضُهُمْ لبعضٍ : أيُّكُمْ زادَتْهُ هذهِ السّورَةُ إيماناً ؟

ولقدْ رَدّ اللهُ تَعالى عَليْهِمْ ردّاً حاسِماً أخْرَسَ ألسنَتَهُمْ ، وبيّنَ لَهُمْ أنّ هُناكَ فَرْقاً بينَ المُنافِقينَ

والمُؤْمِنينَ في مُواجَهَةِ نُزولِ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى رسولِ اللهِ ﷺ ، فأمّا المُؤْمِنونَ الَّذينَ أبْصَروا النّورَ وعَرَفوا الحَقَّ ، فقدْ زادَتْهُمْ آياتُ اللهِ تَعالى إيماناً ، وهُمْ عندَ نُزولِها يَفْرَحونَ ويَسْتَبْشِرونَ . هذا هُوَ شأنُ المُؤْمِنينَ بالنّسبةِ لنزولِ السّورِ الكَريمةِ ، وأمّا المُنافِقونَ فَقدْ صوّرَ القُرآنُ الكَريمُ حالَهُمْ ، بِقَوْلِهِ تَعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

وأمّا المُنافِقونَ الَّذينَ مَرضَتْ قُلوبُهُمْ ، وعَمِيَتْ بَصائِرُهُمْ عنِ الحَقِّ ، فقدْ زادَتْهُمْ هذهِ السُّوَرُ النّازِلَةُ عَلى النَّبيِّ كُفْراً إلى كُفْرِهِمْ ، وماتوا عَلى هذهِ الحالةِ السّيئةِ مِنَ الكُفْرِ الّذي يَدلُّ عَلى فسادِ أعمالِهِمْ في الدّنْيا وعلى سُوءِ نِيّاتِهِمْ .

ثُمَّ بَيّنَ اللهُ تَعالى ناعِياً عليْهِمْ أنّهُمْ مَعَ وُضوحِ هذهِ الآياتِ والدّلائلِ الّتي فيها إلاّ أنَّ هؤلاءِ المُنافِقينَ لَمْ يَعتبروا ولم يَتّعِظوا ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾

وهذا تَوبيخٌ لهَمْ عَلى قَسوةِ قُلوبِهِمْ ، وانْطِماسِ بَصيرَتِهِمْ ، وغَفلَتِهِمْ عمّا يَدعو إلى الاعتبارِ والاتّعاظِ . أبلغَ الجَهْلُ والسَّفَهُ وعمى البصيرةِ بهؤلاءِ ، أنّهم صاروا لا يَعتَبِرونَ ولا يَتّعِظونَ بما حاقَ بهِمْ مِنْ فِتَنٍ واختباراتٍ وابتلاءاتٍ تَنْزِلُ بِهِمْ في كلِّ عامٍ مرّةً أو مَرّتَيْنِ ؟

ومِنْ هذهِ الفِتَنِ والامْتحاناتِ : كَشْفُ مَكْرِهِمْ عَنْ طريقِ إطْلاعِ الرّسولِ ﷺ عَلى ما يُضْمِرونَهُ مِنْ سوءٍ ، وما يَقولونَهُ مِنْ مُنْكَرٍ ، وما يَفعلونَهُ مِنْ أفعالٍ خَبيثَةٍ ، وحُلولِ الأمْراضِ والمَصائِبِ بِهِمْ ، ومُشاهَدتِهِمْ لانْتِصارِ المُؤْمِنينَ ، وخِذلانِ الكافِرينَ .

ثُمَّ بَعدَ كلِّ هذهِ الفِتَنِ النّازِلَةِ بِهِمْ ، لا يَتوبونَ مِنْ نِفاقِهِمْ ولا هُمْ يَذَّكَّرونَ ويَتّعِظونَ ، بلْ يُصرّونَ عَلى مَسالِكِهِمُ الخَبيثَةِ وأعمالِهِمُ القَبيحةِ ، مَعَ أنَّ مِنَ الفِتَنِ والمَصائبِ والمِحَنِ ، ما يَحْمِلُ عَلى الاعتبارِ والاتّعاظِ ، والرُّجوعِ عَنْ طريقِ الشَّرِ إلى طريقِ الخَيْرِ .

ثُمَّ تَخْتِمُ السّورَةُ الحديثَ عنِ المُنافِقينَ بمشهدٍ تَصْويريٍّ مُعجزٍ يُبيِّنُ حالةَ المُنافِقينَ عندما تَنْزِلُ السّورَةُ القرآنيةُ عَلى الرَّسولِ الكَريمِ ﷺ ، وهُمْ حاضِرونَ في مَجْلِسِهِ ، فقالَ تَعالى :

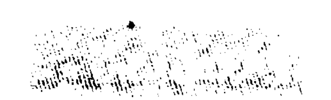
﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ ۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ .

وإذا ما أُنْزِلَتْ سورةٌ ، أو آياتٌ منها عَلى الرّسولِ ﷺ وهُمْ مَوجودونَ في مجلسِهِ ﷺ نَظَرَ بَعْضُهُمْ

إلى بَعْضٍ في ريبةٍ وَمكْرٍ ، وتَغامَزوا بِعُيونِهم وجَوارِحِهِمْ في لُؤْمٍ وخِسَّةٍ ، ثُمَّ تَساءلوا : هلْ يَراكُمْ مِنْ أحدٍ مِنَ المُسلِمينَ إذا ما قُمْتُمْ مِنْ هذا المَجْلِس قبلَ أنْ يتلوَ الرّسولُ ﷺ هذهِ السّورةَ أو الآياتِ الّتي قَدْ تَفضحُكُمْ ، وتَكشِفُ عمّا أسْرَرْتُموهُ فيما بَيْنَكُم ؟ ثُمَّ انْصَرفوا مِنْ مَجْلِسِ الرّسولِ ﷺ مُتسلّلينَ في حَذَرٍ حتّى لا يَراهُم أحدٌ مِنَ المُسلِمينَ . ثُمَّ ذمّهَمُ اللهُ تَعالى لإيثارِهِمُ الغيَّ عَلى الرُّشْدِ ، والضّلالةَ عَلى الهِدايةِ .

صَرَفَ اللهُ تَعالى قلوبَهُمْ عنِ الهدايةِ والرَّشادِ بِسَبَبِ أنَّهُم قومٌ لا يَفْقَهونَ ما فيهِ خَيْرُهُمْ ونَفْعُهُمْ ، وإنّما يَفْقَهونَ ما فيهِ شَقاؤُهُمْ وتَعاسَتُهُمْ .

والناظِرُ في هذهِ الآياتِ الكَريمةِ بِتَدبُّرٍ وإمعانٍ يراها قدْ صوّرتْ أحوالَ المُنافِقينَ وأخْلاقَهُمْ وحركاتِهِم تَصويراً دقيقاً مُعْجزاً ، حتّى أنّهُ لَيُخَيَّلُ إلى القارِىءِ لِهذِهِ الآياتِ الكَريمَةِ أو السّامِعِ لها ، أنّهُ يشاهِدُ المُنافِقينَ مُشاهدةً حِسيّةً ، وهُمْ عَلى تلكَ الحالةِ مِنَ التّحرّكِ المُريبِ والنَّظراتِ الخَبيثةِ ، والخُروجِ مِنْ مَجلسِ النَّبيِّ ﷺ في حَذَرٍ وريبةٍ ، وهذا كُلُّهُ مِمّا يَشْهَدُ بأنَّ هذا القُرْآنَ إنّما هُوَ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى العليمِ بِخفايا الصُّدورِ ، وبطوايا النُّفوسِ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وُجوبُ قتالِ الكافِرينَ والغِلْظَةِ عَلَيْهِم .

٢ـ مَعيَّةُ اللهِ تَعالى لا تَكونُ إلاّ للمُتَّقينَ .

٣ـ المُنافِقونَ لِخباثَتِهِمْ لا يَزدادونَ مَعَ الآياتِ إلاّ كُفْراً وعِناداً .

٤ـ لا يَتَّعِظُ المُنافِقونَ مِمّا يَحيقُ بِهِمْ مِنَ الأحداثِ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

يَلونَكُمْ ، غِلْظَةً ، رِجساً ، يُفْتَنونَ ، انْصَرَفوا .

٢ـ صَوّرتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَشْهَدَ المُنافِقينَ حينَ يَنْصَرِفونَ عنْ مَجْلِسِ الرّسولِ ﷺ ، بيّنْ هذِهِ الصّورةَ .

٣ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَوْقِفَ المُؤْمِنينَ ومَوْقِفَ المُنافِقينَ مِنْ نُزولِ السُّوَرِ الكَريمَةِ ، مَيِّزْ بَيْنَ المَوْقِفَيْنِ .

٤ـ ما السّبَبُ في عَدمِ اتِّعاظِ المُنافِقينَ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مَتى يكونُ قِتالُ المُشرِكينَ .

* * *

الدَّرْسُ الخَمْسونَ

سورةُ التَّوْبَةِ - القِسْمُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ ﴾

معاني المفردات

عزيزٌ عَلَيْهِ : ثَقيلٌ عَلَيْهِ .

ما عَنِتُّمْ : ما تَعبْتُمْ

رَؤوفٌ رحيمٌ : شديدُ الرَّأفةِ والرَّحمةِ بِكُمْ .

التفسير

كانتْ هذهِ السّورَةُ الكَريمَةُ سورةُ شِدّةٍ وغِلْظَةٍ عَلى المُشْرِكينَ وأهلِ الكِتابِ والمُنافِقينَ مِنْ أهلِ المَدينةِ ومِنَ الأعرابِ ، وخُتِمَتْ بآيتيْنِ تُذَكِّرُ بالمِنَّةِ الإلهيَّةِ بِبعثةِ النَّبيِّ والتَّنويهِ بَصفاتِهِ الجامِعَةِ لِصفاتِ الكَمالِ البَشَريِّ ، وهكذا انْفَتَحَ بهاتَيْنِ الآيتينِ بابُ حظيرةِ الإيمانِ والتَّوْبَةِ لِيَدْخُلَها مَنْ وَفَّقَهُ اللهُ تَعالى ، قالَ تَعالى :

﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ .

الخِطابُ في هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ للعَرَبِ ، والمَعْنى : لَقدْ جاءَكُم يا مَعْشَرَ العَرَبِ رسولٌ كَريمٌ مِنْ جِنْسِكُمْ ومِنْ نَسَبِكُمْ ، فهوَ عربيٌّ مِثْلُكُم ، فمِنَ الواجِبِ عليْكُمْ أنْ تُطيعوهُ وتُؤْمِنوا بِهِ ، فالمَقْصودُ

مِنْ هذهِ الجُمْلَةِ الكَريمَةِ تَرغيبُ العَربِ في الإيمانِ بالنَّبيِّ ﷺ وفي طاعَتِهِ وتأييدِهِ ، فإنَّ شَرَفَهُمْ قدْ تَمَّ بِشَرَفِهِ ، وعِزَّهُمْ بعزِّهِ ، وفَخْرَهُمْ بِفَخْرِهِ ، وهُمْ في الوَقْتِ نفسِه قدْ شَهِدوا لهُ في صِباهُ بالصِّدقِ والأمانةِ والعَفافِ ، وطهارةِ النَّسَبِ والأَخْلاقِ الحميدةِ .

وقدْ ذَكَر اللهُ تَعالى في هذهِ الآيَةِ بَعْضاً مِنْ خِصالِ النَّبيِّ ﷺ الحَميدةِ بعدَ أنْ ذَكَرَ تَعالى كَوْنَهُ مِنَ العَرَبِ أنْفُسِهِمْ ، ومِنْ هذِهِ الخِصالِ :

﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أيْ شديدٌ وشاقٌّ عليهِ عَنَتُكُمْ ومَشَقَّتُكُمْ ، لِكونِهِ بعضاً مِنْكُمْ فَهُوَ يَخافُ عَلَيكُم سوءَ العاقِبَةِ ، وَالوُقوعَ في العَذابِ . وَلَقَدَ حدَّثنا القُرآنُ الكَريمُ عَمّا كانَ يُلاقيهِ ﷺ مِن إعراضِ قَومِهِ عَنهُ وإجهادِهِ نَفسَهُ أنْ يُؤمِنوا ، قالَ تَعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤-٣٥]

والصِّفَةُ الأخرى : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، أي : أنَّهُ ﷺ يَسْعى بِشِدَّةٍ في إيصالِ الخَيْرِ وَالنَّفعِ لِلمُؤمِنينَ ، وَفي إزالَةِ كُلِّ مَكروهٍ عَنهُمْ .

وَلَم يَجمَع اللهُ تَعالى لأحَدٍ مِنَ الأنبياءِ عَلَيهِمُ السَّلامُ اسمَيْنِ مِن أسمائِهِ إلاّ للنَّبيِّ ﷺ فإنَّهُ قالَ فيهِ : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وَقالَ عَن ذاتِهِ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة : ١٤٣] وَأيُّ تَكريمٍ أعظَمُ مِن هذا التَّكريمِ .

وَمِنْ مَظاهِرِ هذِهِ الصِّفاتِ مُجتَمِعَةً في هذا النَّبيِّ العَظيمِ ﷺ ما أخرَجَهُ البُخاريُّ أنَّهُ لَمّا كذَّبَهُ قَومُهُ أتاهُ جبريلُ عليهِ السَّلامُ فَقالَ لَهُ : (إنّ اللهَ تَعالى قَدْ سَمِعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ ، وَما رَدّوا عَلَيْكَ ، وَقَدْ أمَرَ مَلَكَ الجِبالِ لِتَأمُرَهُ بِما شِئتَ فيهِم ، فَناداهُ مَلَكُ الجِبالِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ ، وَقالَ : مُرني بِما شِئتَ ، وَإنْ شِئتَ أن أُطبِقَ عَلَيْهِمُ الأخشَبَيْنِ) : جَبلُ أبي قُبيسٍ وَالذي يُقابِلُهُ ، « فقالَ النَّبيُّ ﷺ : « بل ، أرْجو أنْ يَخْرُجَ مِنْ أصلابِهِم مَنَ يَعبُدُ اللهَ وَحدَهُ وَلا يُشْرِكُ بِهِ شَيئاً »[1] .

وهذا مَوقِفُ رَحمَةٍ مِن نَبيِّ الرَّحمَةِ ﷺ إذْ كانَ حرصُهُ وَشَفقَتُهُ وَرَحمَتُهُ وَرَأفَتُهُ مانِعَةً مِن تَأجُّجِ صِفَةِ الانتِقامِ في نَفسِهِ الشَّريفَةِ ، فَسُبحانَ اللهِ تَعالى الّذي أكرَمَنا بِهذا النَّبيِّ العظيمِ .

ثُمَّ انتقلَ الخِطابُ في الآياتِ مِنْ خِطابِ المُؤْمِنينَ إلى خطابِ النَّبيِّ ﷺ ، فقالَ تَعالى :

---

(١) أخرجَهُ البخاري في كتاب الأدب حديث رقم : ٦٠٩٤ .

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ .

فإنْ أعْرَضوا عنِ الإيمانِ بكَ ، أيُّها الرَّسولُ ﷺ فلا تَحْزَنْ لإعْراضِهِمْ ، واعْتَزَّ بربِّكَ ، وقلْ يَكفيني اللهُ تَعالى وحْدَهُ ، الّذي لا إلهَ غَيرُهُ ، عَليْهِ وحْدَهُ تَوكَّلْتُ ، وهو مالِكُ المُلْكِ ، وربُّ الكَوْنِ وصاحِبُ السُّلطانِ العَظيمِ ، وصاحبُ العَرْشِ الّذي لا يَعْلَمُ مِقدارَ عَظَمَتِهِ إلاّ هو سُبْحانَهُ :

وبعدُ ، فهذهِ سورةُ التَوبةِ :

ـ السّورةُ الّتي احتوتْ عَلى بيانِ الأحكامِ النّهائيةِ في العَلاقاتِ الدّائمةِ بينَ المُجتمعِ الإسْلامِيِّ والمُجْتَمَعاتِ الأُخْرَى .

ـ السّورةُ الّتي أَوْجَبَتْ عَلى المُؤْمِنينَ أنْ تَكونَ مَحَبَّتُهُمْ للهِ تَعالى ولرسولهِ ﷺ ، ولإعلاءِ كَلمةِ الحقِّ ، فَوْقَ محبةِ الآباءِ والأبناءِ والإخْوانِ والأزْواجِ والعَشيرةِ والأمْوالِ .

ـ السّورةُ الّتي ذَكّرتِ المُؤْمِنينَ بنصرِ اللهِ تَعالى لَهُمْ في مَواطِنَ كثيرةٍ ، وحَذَّرتْهُمْ مِنَ الغُرورِ بأنْفُسِهِمْ ، والعُجْبِ بِقُوَّتِهِمْ ، وأمَرَتْهُمْ بنصرِ رسولِهِ ﷺ في السَّراءِ والضَّراءِ ، والعُسْرِ واليُسْرِ ، والمَنْشَطِ والمَكْرَه .

ـ السّورةُ الّتي أَمَرَتِ المُؤْمِنينَ بأن يُخْلِصوا في دِفاعِهِمْ عَنْ دينِ اللهِ تَعالى وعَنْ حُرُماتِهِ ومُقدَّساتِهِ ، وَبشّرَتْهُمْ بأنّهم إذا فَعَلوا ذلك فسوفَ يُغْنِيهُمُ اللهُ تَعالى مِنْ فَضْلِهِ .

ـ السّورةُ الّتي فَضَحَتِ المُنافقينَ وكَشَفَتْ عنْ أساليبِهِمُ الخَبيثةِ ومَسالِكِهِمُ القَبيحةِ ، وأقوالِهِمُ المُنْكَرَةِ الذَّميمةِ ، وسَجَّلَتْ عليْهِمُ الخِزْيَ والعارَ ، وحذَّرَتِ المُؤْمِنينَ مِن شُرورِهِمْ .

ـ السّورةُ الّتي رَسَمَتْ أُسسَ التّكافُلِ الاجتماعيِّ بينَ أفرادِ الأمّةِ الإسلاميةِ عَنْ طريقِ مَشروعيّةِ الزّكاةِ وَوُجوبِ أدائِها لِمُسْتَحِقِّيها .

ـ السّورةُ الّتي ساقَتْ ألواناً مِنْ فَضْلِ اللهِ تَعالى عَلى عِبادِهِ المُؤْمِنينَ حيثُ تَقبَّلَ تَوبَتَهُمْ ، وغَسلَ حَوْبَتَهُمْ وتَجاوزَ عن خَطيئِهِمْ .

ـ السّورةُ الّتي صَنَّفَتِ المُجْتَمعَ المُسلمَ في أواخِرِ العَهْدِ النَّبويِّ تَصنيفاً دَقيقاً ، فَهُناكَ السّابِقونَ الأوّلونَ مِنَ المُهاجِرينَ والأنْصارِ والّذينَ اتَّبعوهُمْ بإحسانٍ ، وهناكَ الّذينَ خَلطوا عَمَلاً صالِحاً وآخَرَ سيِّئاً ، وهناكَ المُرْجَوْنَ لأمرِ اللهِ تَعالى ، وهناكَ الأعْرابُ المُنافِقونَ ، وهناكَ الّذينَ مَرَدوا عَلى النِّفاقِ مِنْ أهلِ المَدينةِ . وقدْ بيَّنَتِ السَّورةُ كلَّ ما يَستحقُّهُ هؤلاءِ جميعاً بأقسامِهِمُ المُختلِفَةِ .

ـ السّورةُ الّتي أوْجَبَتْ عَلى المُؤْمِنينَ أنْ يُقيموا علاقاتِهِمْ عَلى أساسِ العَقيدةِ الدّينيّةِ ، لا عَلى أساسِ القَرابةِ الجَسَديةِ ، فَمَنَعَتْهُمْ أنْ يَسْتَغفِروا لِلْمُشْرِكينَ ولوْ كانوا أُولي قُرْبى .

ـ السّورةُ الّتي بيَّنَتْ فَضْلَ اللهِ تَعالى عَلى العَرَبِ وعلى غَيْرِهِمْ ببعثةِ هذا النَّبيِّ الكَريمِ ﷺ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إكْرامُ اللهِ تَعالى للعَرَبِ بَبعثهِ مُحَمَّداً نبيّاً مِنْ أنْفُسِهِمْ .

٢ـ النَّبيُّ الكَريمُ يَحْمِلُ أجْمَلَ وأكْمَلَ الصِّفاتِ الخُلقيَّةِ والخَلْقيّةِ .

٣ـ عَلى الدّاعِيَةِ أنْ يُبلِّغَ رِسالَةَ ربِّهِ ، وليسَ عَلَيْهِ أنْ يَنتظِرَ النَّتائِجَ .

٤ـ لا يَكِلُ المَرْءُ المُسلمُ أمْرَهُ إلاّ إلى اللهِ تَعالى فَهُوَ حَسْبُهُ وكافيهِ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

عزيزٌ عليهِ ما عَنِتُّمْ ، حَريصٌ عليْكُمْ ، بالمُؤْمِنينَ رؤوفٌ رَحيمٌ .

٢ـ بِماذا أكْرَمَ اللهُ تَعالى العَرَبَ ؟

٣ـ ما صِفاتُ الرّسولِ ﷺ كما بيَّنَتْها هذِهِ الآياتُ ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ الّتي تَدلُّ عَلى أَنَّ اللهَ تَعالى أرْسَلَ رَسولَهُ رحمةً لِلعالَمينَ .

* * *



الجُـــزْءُ الثّاني

مِنْ سورَةِ يونُسَ ـ نِهايَةِ سورَةِ هودٍ

قائمة المحتويات

قائمة المحتويات

الدَّرْسُ الأَوَّلُ

سورَةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الأَوَّلُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

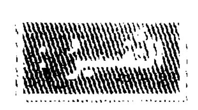
تعريف بالسورة :

هذهِ السّورَةُ مَكيَّةٌ وتَشتَمِلُ عَلى (١٠٩) آياتٍ ، وقدِ ابْتَدأَتْ بالإشارةِ إلى مَكانةِ الكِتابِ الكَريمِ ، وما يَقولُهُ المُشْركونَ في شأنِ النَّبيِّ ﷺ ، ثُمَّ ذِكْرِ الكَوْنِ وآياتِ اللهِ تَعالى فيهِ ، والجزاءِ يوم القيامةِ ، وسُنَّةِ اللهِ تَعالى في الكافِرينَ ، وقُدرةِ اللهِ تَعالى عَلى كُلِّ شيءٍ وعَجْزِ الأوْثانِ عنْ أيِّ شيءٍ . وفيها الإشارةُ إلى التَّحدّي بأنْ يَأتوا بِسورَةٍ ولوْ مُفْتَراةٍ ، وفيها التَّهديدُ الشَّديدُ بِعذابِ اللهِ تَعالى ، وأَحوالُ نُفوسِ النّاسِ ، ومُراقَبَةُ اللهِ تَعالى لأعمالِهِمْ ، ثُمَّ انتقلَ بَعْدَ ذلِكَ إلى التَّسريةِ عنِ النَّبيّ ﷺ ، لأَلَمِهِ مِنْ كُفْرِهِمْ مع قيامِ الحُجَّةِ القاطعةِ لأعمالِهِمْ ، وسرّى عنهُ بِذكْرِ قَصَصِ الأنبياءِ ـ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْهِم ـ مع أقوامِهِمْ ، فجاءتْ قِصَّةُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، وقصةُ موسى وهارونَ عليهما السَّلامُ معَ فِرْعَوْنَ وبَني إسْرائيلَ ، ثُمَّ إشارةٌ إلى قِصّةِ يونُسَ عَلَيْهِ السّلامُ وبهِ سُمِّيَتِ السّورَةُ ، واتَّجه البَيانُ في السّورَةِ مِنْ بَعْدَ ذلِكَ إلى النَّبيِّ ﷺ لِتمامِ العِظَةِ والاعْتِبارِ .

مَعاني المُفْرَداتِ :

الكتابِ الحكيمِ : الكِتابِ المُبرّأ مِنَ الخَلَلِ والتّناقُضِ والاخْتِلافِ .

قَدَمَ صِدْقٍ : سابقةً وَمَنْزِلَةً رَفيعَةً .



ابتدأتْ هذهِ السّورَةُ بالحُروفِ المُقطَّعَةِ ، وهذهِ الحروفُ قدْ بُدِئَتْ بِها سَبْعٌ وعِشْرونَ سورَةً مَكِّيَّةً واثْنَتانِ مَدنِيتانِ .

والعَرَبُ لم يَكونوا يَسْتَعمِلونَ هذهِ الحُروفَ بِهذهِ الطَّريقةِ في مُفْتَتَحِ كَلامِهِمْ ، وهو أُسلوبٌ بديعٌ غايَتُهُ اسْتِجْلابُ أذْهانِ المُستَمِعينَ إلى ما سَيُلقى عَلَيْهِمْ ، لأنَّ العربيَّ يَشدُّهُ الأُسلوبُ الغريبُ ، ولمّا كانَ وضْعُ هذهِ الحُروفِ بِهذا الشَّكْلِ غَريباً عليهِ ، فإنَّهُ فَوْرَ أنْ يُلقى إلى مَسْمَعِهِ هذهِ الحروفُ في ابتداءِ الكلامِ ، فإنَّ الأمْرَ يَسترعيهِ وَيشدُّ انْتِباهَهُ . وهذا ـ واللهُ أعلمُ ـ هو المقصودُ لإثارةِ أذْهانِ العربِ إلى ما سَيُلْقى عَلَيْهِم ، ولِذلكَ تجدُ هذهِ السّورةَ الّتي ابْتُدِئَتْ بهذهِ الحروفِ ، فإنَّها بَعْدَ تلك البِدايةِ لابُدَّ فيها مِنْ حديثٍ عنِ القُرْآنِ الكَريمِ إمّا صَراحةً ، وإمّا ضِمْناً ، وهذا ـ واللهُ أعلمُ ـ هو المقصودُ ، أنْ يُثارَ انتباهُ العربِ إلى هذا القُرآنِ الكَريمِ بهذا الأُسلوبِ البَديعِ ، معَ الإشارةِ الواضِحَةِ إلى أنَّ هذا القُرآنَ الكَريمَ مؤلَّفٌ مِنْ جِنْسِ هذهِ الحُروفِ الّتي يَنْطِقونَ بِها .

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ .

يُشيرُ اللهُ تَعالى إلى الآياتِ القرآنيَةِ المُحْكَمَةِ البيِّنَةِ ، فالقُرآنُ حكيمٌ لاشْتِمالِهِ على الحِكْمَةِ ، والقُرآنُ مُحْكَمٌ لخُلوِّهِ عنِ الكَذِبِ والافْتِراءِ ، والزِّيادَةِ والنُّقْصانِ ، حكيمٌ فيما تَضمَّنَهُ مِنْ معانٍ وتَوْجيهاتٍ وتَرْبيةٍ وتَشْريعٍ وتَعليمٍ ، فهوَ حكيمٌ في هذا كُلِّهِ ، فلا يُمكِنُ أنْ يوجَدَ فيهِ خَلَلٌ .

وبعدَ بيانِ الحِكْمَةِ المُشْتَمِلِ عَلَيْها هذا الكتابُ الكَريمُ ، توجَّهَ النَّظَرُ إلى الاسْتِعْجابِ مِنَ المُشْرِكينَ ، والإنْكارِ عَلَيْهِم ، كيفَ يَعجبونَ مِنْ أنْ يوحِيَ اللهُ إلى رَجُلٍ منهُمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

أَبَلَغَ الجَهْلُ وسوءُ التَّفكيرِ بِمُشْركي مَكَّةَ ومَنْ عَلى شاكِلَتِهِمْ ، أنْ كانَ إيحاؤُنا إلى رجلٍ مِنْهُم يَعرفُهُمْ ويَعْرِفونَهُ ، لكيْ يُبلِّغَهُمُ الدّينَ الحَقَّ أمْراً عَجَباً ، يَدعوهُمْ إلى الدَّهْشَةِ والاسْتِهزاءِ بالموحَى إليهِ ﷺ حتّى لكأنَّ النُّبوَّةَ في زَعْمِهِمْ تَتنافى مَعَ البَشريةِ . إنَّ الّذي يَدعو إلى العَجَبِ حَقّاً هو ما تَعجَّبوا منهُ ، لأنَّ اللهَ تَعالى اقْتَضَتْ حِكمَتُهُ أنْ يَجعَلَ رُسلَهُ إلى النّاسِ مِنَ البَشَرِ ، لأنَّ كُلَّ جِنْسٍ يَأْنَسُ لِجنْسِهِ ويَنفِرُ مِنْ غيرِهِ ، وهوَ سُبْحانَهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رِسالَتَهُ . ورِسالةُ الرَّسولِ ﷺ إلى قَوْمِهِ مُشتَمِلَةٌ عَلى أمْرَيْنِ :

الأَوَّلُ : إنذارُ النّاسِ وتَخويفُهُمْ عذابَ اللهِ إنْ هُمْ أَصَرّوا عَلى الكُفْرِ وعدمِ الإيمانِ .

الثّاني : تَبشيرُ النّاسِ المُؤْمِنينَ بأَنَّ لهُمُ المَنْزِلَةَ الرَّفيعَةَ عندَ ربِّهِمْ .

وهكذا يَفْرحُ المُؤْمِنونَ بِوَعْدِ اللهِ تعالى لَهُمْ ، وأمّا الكافِرونَ المُتَعجِّبونَ أصْلاً مِنْ بعْثَةِ الرُّسلِ صلواتُ اللهِ عَلَيْهِم فإنَّهمْ سُرعانَ ما يُطلِقونَ الاتِّهاماتِ ويُوَجِّهونَها إلى الأنْبياءِ صلواتُ اللهِ عَلَيْهم ويُعلنونَها في النّاسِ ، وهُنا قالوا عنِ النَّبيِّ ﷺ إنَّهُ ساحِرٌ مُبينٌ ، سِحْرُهُ مِنَ الوُضوحِ بِحيثُ لا يُحْتاجُ معهُ إلى بيانٍ . وهكذا يَسعى الكافِرونَ دائِماً للصَّدِّ عنْ سَبيلِ اللهِ تَعالى بالتُّهَمِ الكاذِبَةِ لأنبياءِ اللهِ المُخْلِصينَ .

دروس وعبر :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ ليسَ للحُروفِ الّتي تتركَّبُ منها الكَلِماتُ معانٍ مُنْفَصِلَةٌ .

٢ـ الحروفُ المُقطَّعَةُ في أوائلِ بعضِ السُّوَرِ لِجلْبِ انْتباهِ السّامِعينَ مِنَ العَرَبِ وغيرِهِمْ .

٣ـ السُّوَرُ المَبدوءةُ بالحُروفِ المُقَطَّعَةِ ، فيها الحديثُ عنِ القُرآنِ الكَريمِ إمّا صَراحةً وإمّا ضِمْناً .

٤ـ مُهمّاتُ الرُّسُلِ مُنْحَصِرَةٌ في الإنْذارِ والتَّبشيرِ .

٥ـ يَتعجَّلُ الكافِرُ صدّهُ عنْ سبيلِ اللهِ تَعالى بالأراجيفِ والتُّهَمِ الكاذِبَةِ .

٦ـ يُلاقي الأنبياءُ كثيراً مِنَ الشَّدائِدِ حينَ يُقابِلُهُمُ الكافِرونَ بالتُّهَمِ الباطِلَةِ .

٧ـ عَلى الدّاعيةِ المُسْلِمِ أنْ لا يَستسلِمَ لأباطيلِ خُصومِهِ .

التقويم :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

الكتابِ الحكيمِ ، قَدَمَ صِدْقٍ .

٢ـ بَيِّنِ السِّرَّ مِنْ وَضْعِ الحُروفِ المُقطَّعةِ في أوائِلِ بعضِ السُّوَرِ الكَريمةِ .

٣ـ كَيفَ يَستقبلُ الكافِرونَ دَعْوَةَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السّلامُ ؟

٤ـ مِمَّ كانَ العَجَبُ في هذهِ السّورةِ الكَريمةِ ؟

٥ـ اشْتَمَلتِ السّورةُ الكَريمةُ عَلى أُمورٍ عِدَّةٍ ، هاتِ خَمْسَةً مِنْها .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَسْماءَ خمسِ سُوَرٍ بَدأتْ بالحروفِ المُقطَّعَةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني

سورةُ يونُسَ - القِسْمُ الثّاني

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾

معاني المفردات

العَرْشِ : مَخلوقٍ عَظيمٍ مِنْ مَخلوقاتِ اللهِ تعالى .

يُدبِّرُ الأمْرَ : يُقدِّرُ أُمورَ الخَلْقِ على وَفْقِ حِكْمَتِهِ .

حَميمٍ : ما بَلَغَ أقْصى دَرجاتِ الحرارةِ .

التفسير

لمّا حَكى اللهُ تَعالى لَنا عَنِ الكُفّارِ وتَعجُّبِهِمْ مِنَ الوَحْيِ والبَعْثِ والرِّسالةِ ، أخذَ سُبْحانَهُ وتَعالى في بيانِ مَظاهرِ قُدْرتِهِ وعظَمَتِهِ ، الّتي تُدْلي إلى إثباتِ إلهيَّتِهِ سُبْحانَهُ ، وأنّهُ وَحدهُ القادِرُ ، ثَبَتَ بِهذا أنّهُ سُبْحانَهُ يختارُ مَنْ يشاءُ ويَخْلُقُ ما يشاءُ ، قالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ .

بَيّنتْ هذهِ الآيةُ مِنْ مَظاهِرِ قُدرةِ اللهِ تَعالى ثلاثةَ أشياءَ :

الأوّلُ : خَلْقُ السّمواتِ والأرضِ في ستَّةِ أيامٍ ، وهذه الأيّامُ قيلَ إنّها مِنْ أيّامِ الدُّنْيا ، وقيلَ هي مِنَ الغَيْبِ الّذي لا مَصْدَرَ لإدْراكِهِ إلاّ القرآنُ الكَريمُ ، فالواجِبُ أنْ نَقِفَ عِندَهُ ولا نَتعدّاهُ . والمقصودُ بِذِكْرِها هنا : الإشارةُ إلى حِكْمَةِ التَّقديرِ والتَّدبيرِ والنِّظامِ الّذي يَسيرُ معَ الكَوْنِ مِنْ بِدْئِهِ إلى مُنتَهاهُ .

الثّاني : أنَّهُ سُبْحانَهُ اسْتَوى عَلى العَرْش يُدبِّرُ الأمْرَ . وهذا خَبَرٌ مِنَ اللهِ تَعالى عَنْ شأنٍ مِنْ شُؤونِهِ ، أُدْرِجَ ضِمْنَ بيانِ مَظاهِرِ قُدرَتِهِ تَعالى . وهذهِ الشُّؤونُ الإلهيَّةُ كُلُّها ، هيَ مِنَ الغَيْبِ الّذي لَمْ يُطْلِعْنا اللهُ تَعالى إلاّ عَلى لَمْحَةٍ مِنْ لَمَحاتِهِ لِنفهَمَ عنهُ تَعالى ما أرادَهُ .

والظّاهِرُ أنَّ المُرادَ هُنا مِنْ قولِهِ : ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ ما يَخصُّ تدبيرَ شُؤونِ الخَلْقِ ، وأنَّهُ سُبْحانَهُ قد تَمَّ له ما أرادَهُ مِنْ خَلْقِهِ وهو يُسَيِّرُهُ ويُديرهُ ويُشْرِفُ عَلَيْهِ كما يُريدُ ويَشاءُ .

الثّالِثُ : ما مِنْ شَفيعٍ إلاّ مِنْ بَعْدِ إذْنِهِ . وهذا بيانُ اسْتِقلالِ الخالِقِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وهذا مَظْهَرٌ مِنْ مَظاهِرِ عَظَمَتِهِ ، إذِ السُّلطانُ والقَهْرُ والغَلَبَةُ والتَّدبيرُ كلُّها لهُ وحْدَهُ ، ولا أحدَ يَستطيعُ أنْ يفعلَ شيئاً إلاّ أنْ يَأذَنَ لهُ اللهُ تَعالى بذلكَ .

يُدَلِّلُ اللهُ تَعالى عَلى كَمالِ قُدرتِهِ فيخاطِبُنا بقولِهِ : إنَّ ربَّكُمْ أيُّها النّاسُ ، هو اللهُ الّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ وما فيهِما في ستَّةِ أيّامٍ ، لا يعلمُ إلاّ اللهُ تَعالى مَداها ، ثُمَّ هَيْمَنَ بِعظيمِ سُلْطانِهِ وحْدَهُ ودبَّرَ أُمورَ مَخلوقاتِهِ ، فليسَ لأحَدٍ سُلطانٌ مَعَ اللهِ تَعالى في شيءٍ ، ولا يَستطيعُ أحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ أنْ يَشْفَعَ لأحَدٍ إلاّ بإذنِهِ تَعالى ، وصَدِّقوا رسولَهُ ﷺ ، وآمِنوا بكتابِهِ ، وعَلَيْكُم أنْ تَذكُروا نِعمةَ اللهِ تَعالى وتَتدبَّروا آياتِهِ الدّالَّةَ عَلى وَحْدانيَّتِهِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنّ مَرْجِعَ العِبادِ جميعاً إليهِ ، وأنَّهُ سَيُجازي كلَّ إنسانٍ بما يَسْتَحِقُّهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ ﴾ .

وكما بدأَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى الخَلْقَ ، فإليهِ وحْدَهُ مَرْجِعُكُمْ ومَرْجِعُ المَخلوقاتِ كُلِّها ، وقدْ وعدَ اللهُ تَعالى بذلك وَعْداً صادِقاً لا يَتخلَّفُ وإليهِ سُبْحانَهُ مَرْجِعُكُمْ ، ومَرْجِعُ الخَلْقِ . وبعدَ فناءِ الإنسانِ سَيُعيدُهُ بِقُدْرَتِهِ ، لِيُثيبَ المُؤْمِنينَ المُطيعينَ جزاءَ ما عَمِلوا : جنّاتِ النَّعيمِ ، وأمّا الكافِرونَ فلهُمْ شرابٌ في جهنَّمَ شديدُ الغَلَيانِ ، ولهُمْ عذابٌ موجِعٌ جزاءَ كُفرِهِمْ . ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى مظاهِرَ أُخْرى لِقُدْرتِهِ وهَيْمَنَتِهِ على خَلْقِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ .

يُخبرُ اللهُ تعالى عمّا خلقَ مِنَ الآياتِ الدّالّةِ عَلى كَمالِ قُدرَتِهِ وعَظيمِ سُلطانِهِ ، إنّهُ تعالى جَعلَ سُلطانَ الشّمسِ بالنّهارِ وسُلْطانَ القمرِ باللّيلِ .

وقدّرَ سُبْحانَهُ وتَعالى القمرَ منازِلَ ، فأوّلُ ما يَبدو القمرُ صغيراً ، ثُمَّ يتزايَدُ نورُهُ وجرْمُهُ حتى يَكْتَمِلَ ويَصيرَ بَدْراً ، ثُمَّ يَشْرَعُ في النَّقْصِ حتّى يَرجِعَ على حالَتِهِ الأُولى ، فبالشَّمْسِ تُعْرَفُ الأيّامُ ، وبِسَيْرِ القَمَرِ تُعْرَفُ الشُّهورُ والأعوامُ ، وذلِكَ كُلُّه لِتَسْتَعينوا أيُّها النّاسُ بهذا في تَقديرِ مَواقيتِكُمْ وتَعْلَموا عَدَدَ السِّنينَ والحِسابَ . وما خَلَقَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ذلِكَ إلاّ بالحِكْمَةِ ولِحِكْمَةٍ ، وهو سُبْحانَهُ يَبسُطُ في كتابِهِ الآياتِ الدّالّةَ عَلى أُلوهيّتِهِ ، وكمالِ قُدْرتِهِ لكيْ تَتدَبّروها بِعُقولِكُمْ وتَسْتَجيبوا لِما يَقتضيهِ العِلْمُ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذا البيانَ بلونٍ آخَرَ مِنْ ألوانِ قُدرَتِه الدّالّةِ عَلى أُلوهيّتِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝ ﴾ .

إنَّ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ ، واختلافِهِما طولاً وقِصَراً ، وحَرّاً وبَرْداً وعدم سَبْقِ أحدِهِما الآخَرَ ، وكذلكَ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ وما فيهِما مِنْ أنواعِ الإِنْسِ والجِنِّ ، والحيوانِ والنّباتِ ، والنُّجومِ وغيرِ ذلكَ مِنَ المَخلوقاتِ الّتي لا تُعَدُّ ولا تُحْصى ، إنَّ في ذلِكَ كلِّهِ لأدِلّةً واضِحةً ، وحُجَجاً بَيّنةً على أُلوهيّةِ الخالِقِ سُبْحانَهُ وقُدرتِهِ لِمَنْ يَتجنَّبونَ غَضَبَهُ ويَخافونَ عذابَهُ .

وبهذهِ الآياتِ الكَريمةِ يَظهَرُ لنا أنَّ القُرآنَ الكَريمَ قدْ سَلَكَ أنْجَعَ الوسائلِ في مُخاطبَةِ الفِطْرَةِ البَشَرِيّةِ ، حيث لَفَتَ الأنظارَ إلى ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هذا الكونُ مِنْ مخلوقاتٍ مُشاهَدَةٍ مَحسوسةٍ تدلُّ على وَحدانيّةِ اللهِ تَعالى وقُدرتِهِ النافِذةِ ، ورَحمتِهِ السّابِغةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، منها :

١ـ الكَوْنُ مَليءٌ بالآياتِ والعِبَرِ الدّالّةِ عَلى وَحدانيّةِ اللهِ تَعالى .

٢ـ ضَرورةُ أنْ يَسلُكَ الدّاعِيَةُ مسالِكَ الأدِلّةِ لِبيانِ أُلوهيّةِ اللهِ تَعالى وَوحدانيّتِهِ .

٣ـ لا سُلطانَ لأحدٍ في هذا الكَوْنِ إلاّ للهِ تَعالى ، والمَخلوقاتُ عاجِزةٌ عن فِعْلِ شيءٍ إلاّ بأَمْرِهِ .

٤ـ ضَرورةُ التأمُّلِ والتَّدبُّرِ بما في الكونِ مِنْ آياتٍ عَظيمةٍ .

٥ـ فِعْلُ اللهِ تَعالى كلُّهُ حقٌّ وليسَ فيهِ باطلٌ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

العرشِ ، يدبِّرُ الأمْرَ ، حميمٍ .

٢ـ ما سِرُّ ذِكْرِ (ستَّةِ أيامٍ) في هذهِ الآياتِ ؟

٣ـ ماذا تَستفيدُ مِمّا يلي :

أ ـ ما مِنْ شفيعٍ إلاّ مِنْ بعدِ إذْنِهِ .

ب ـ إليهِ مَرْجِعُكُمْ جميعاً .

ج ـ لِتَعْلَموا عددَ السِّنينَ والحسابَ .

٤ـ هاتِ خمساً مِنْ دلائِلِ قُدرةِ اللهِ تَعالى وعَظَمتِهِ ، ذُكِرتَ في هذهِ الآياتِ .

٥ـ ما سِرُّ ذِكْرِ آياتِ القُدرَةِ بعدَ بيانِ عَجَبِ المُشرِكينَ مِنَ الرّسولِ ﷺ والرِّسالةِ ؟

* * *

الدَّرسُ الثّالِثُ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾

معاني المفردات :

لا يَرْجونَ لِقاءَنا : لا يَتوقَّعونَ الرُّجوعَ إليْنا .

مَأْواهُم : مَلجأُهُمْ .

دَعْواهُمْ : دُعاؤُهُمْ .

التفسير :

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْضَ مظاهرِ قُدرَتِهِ الدّالَّةِ على أُلوهيَّتِهِ وَوحدانيَّتِهِ ، بيَّنَ سُبْحانَهُ تَعالى لَنا ما أعدَّهُ مِنْ جزاءٍ وثوابٍ لِلطّائِعينَ ، وما أعدَّهُ مِنْ عذابٍ لِلعاصينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ بادِئاً بجزاءِ العاصينَ ، لأنَّ المَقامَ مَقامُ تَهديدٍ وتخويفٍ :

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّواْ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾﴾ .

إنَّ الَّذينَ لا يَرْجونَ ولا يَتوقَّعونَ لِقاءَنا يومَ القيامةِ لِحسابِهِمْ على أعمالِهِمْ في الدُّنْيا ، ورَضوا بالحياةِ الدُّنْيا رِضاءً جَعَلَهُمْ لا يُفكرِّونَ إلاّ في التَشبُّعِ مِنْ زينَتِها ومُتَعِها ، واطْمَأَنّوا بِها اطْمِئناناً

جَعَلهُمْ يَفرحونَ بِها ويَسكنونَ إليْها ، هؤلاءِ هُمُ الَّذينَ غَفِلوا عنْ آياتِ اللهِ تَعالى القُرْآنيَّةِ والكَوْنيَّةِ الدَّالَّةِ على وَحدانيَّتِهِ تَعالى وقُدرَتِهِ ، ولَمْ يَخطُرْ لهمْ على بالٍ شيءٌ مِمّا تَدلُّ عَلَيْهِ هذهِ الآياتُ مِنَ العِبَرِ والعِظاتِ .

وقدِ اشْتملَتْ هذهِ الآيةُ الكَريمةُ على بيانِ ثلاثةِ أوْصافٍ لهؤلاءِ الأشْقياءِ الَّذينَ حُرِموا لَذَّةَ التَّمَتُّعِ بآياتِ اللهِ تَعالى ، وهِيَ :

أوّلاً : عدمُ إيمانِهِمْ بلقاءِ اللهِ تَعالى ، بحيثُ صاروا لا يَطْمَعونَ في ثوابٍ ولا يَخافونَ مِنْ عقابٍ ، لإنْكارِهِمُ الدَّارَ الآخِرَةَ وما فيها مِنْ أهوالٍ .

ثانياً : رضاؤُهُمْ بالحياةِ الدُّنْيا ، بحيثُ صارَ همُّهُمْ في هذهِ الدُّنْيا التَّمَتُّعَ بِلَذائِذِها وشَهَواتِها ، والاكْتِفاءَ بِها والاسْتِغراقَ بِطَلَبِها .

ثالثاً غَفلتُهُمْ عنْ آياتِ اللهِ تَعالى : وتلكَ الآياتُ معَ عِظَمِها ووُضوحِها إلاّ أنَّهُمْ تَغافَلوا عَنْها ، وانْشَغلوا بِما أحبّوا مِنْ مُتَعِ هذهِ الحياةِ .

وبهذا يَظهَرُ أنَّ هؤلاءِ الأشْقياءَ قدْ آثَروا دُنياهُمْ على أُخْراهُمْ ، واسْتَحبّوا العَمى على الهُدى ، واسْتَبْدَلوا الّذي هَو أدْنى بالَّذي هُوَ خَيْرٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ لَنا ربُّنا سُبْحانَهُ وتَعالى مَصيرَ هؤلاءِ الأشْقياءِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ .

أولئكَ المُتَّصِفونَ بتلكَ الصِّفاتِ الخَسيسَةِ مَقرُّهُمْ ومَلجأهُمُ الّذي فيهِ نِهايَتُهُمْ هُوَ النّارُ ، وبِئسَ المَصيرُ ، بِسَبَبِ ما اكْتَسبوهُ مِنْ سيِّئاتٍ وآثامٍ ، وما اقْتَرفوهُ مِنْ مُنكَراتٍ شَغلَتْهُمْ عنِ اللهِ تَعالى والدّارِ الآخِرَةِ .

أمّا السُّعداءُ الَّذينَ اسْتَسْلَموا لِما أرادَ اللهُ تَعالى وانقادوا لَهُ ، فلهُمْ جزاءٌ غيرُ هذا ؛ ذلِكَ ما بيَّنَهُ ربُّنا فيما يلي ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴾

إنّ الَّذينَ آمنوا إيماناً صَحيحاً ، وعَمِلوا في دُنياهُمُ الأعْمالَ الصّالِحَةَ الّتي تَرْفَعُ دَرَجاتِهِمْ عندَ رَبِّهِمْ ، يُرشدُهُمْ ربُّهُمْ تَبارَكَ وتَعالى ، ويوصِلُهُمْ بسَبَبِ إيمانِهِمْ وعَمَلِهِمُ الصّالِحِ إلى غايَتِهِمْ ، وهي الجَنَّةُ الّتي تَجري مِنْ تَحتِها الأَنْهارُ ، ويَنْعُمونَ فيها نَعيماً خالِداً لا يَحولُ عنْهُمْ ولا يَزولُ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى بعضَ شَأنِ هؤلاءِ المُؤْمِنينَ في الجَنَّةِ ، فقالَ تعالى :

﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَـٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ .

دعاءُ المُؤْمِنينَ في هذهِ الجَنّاتِ تَسبيحُ اللهِ تَعالى وتَنْزيهُهُ عمّا كانَ يقولُهُ الكافِرونَ في الدُّنْيا ، وتَحيَّتُهُمْ الّتي يُحيِّيهِمْ بِها اللهُ تَعالى ، وتَحيَّةُ المَلائِكةِ لهُمْ ، وتَحيَّةُ بعضِهِمْ لِبَعْضِهِمُ الآخرِ ، تقريرُ الأَمْنِ والاطْمِئْنانِ .

وهذهِ التَّحيَّةُ كما يَظهرُ تكونُ مِنَ اللهِ تَعالى كَما في قولِهِ سُبْحانَه : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَـٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٤] وتكونُ مِنَ المُؤْمِنينَ فيما بَيْنَهُمْ كما يَظهَرُ مِنْ قولِهِ تَعالى : ﴿ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴾ . [الرعد : ٢٣ـ٢٤] وتكونُ مِنَ المُؤْمِنينَ فيما بَيْنَهُمْ كما يَظهَرُ مِنْ قولِهِ تَعالى : ﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ . [مريم : ٦٢] .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أَنَّ خاتِمَ دُعائِهِمْ دائِماً حَمْدُ اللهِ تَعالى على تَوفيقِهِ إيّاهُمْ للإيمانِ ، وظَفَرِهِمْ بِرِضْوانِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِمْ ، وهذا مِنْ شُكْرِ المُؤْمِنينَ لربِّهِمْ تَبارَكَ وتَعالى على ما أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِمْ وَوَفَّقَهُمْ إليهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مَنْ لا يَرجو لِقاءَ اللهِ تَعالى لا يَفوزُ بِرِضْوانِهِ تَعالى ، وسَيكونُ مَصيرُهُ إلى النّارِ .

٢ـ الغَفْلَةُ عَنْ آياتِ اللهِ تَعالى والرِّضا بالحياة الدُّنْيا سبيلٌ لِقَسْوَةِ القَلْبِ .

٣ـ النَّعيمُ العَظيمُ لِمَنْ آمَنَ باللهِ تَعالى وعَمِلَ صالِحاً ، وداومَ عَلى ذِكْرِ اللهِ تَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

لا يَرْجونَ لقاءَنا ، مأواهُمْ ، دَعْواهُمْ .

٢ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمةُ أوصافاً عِدّةً للأشقياءِ ، اذْكُرْ هذهِ الأوْصافَ ، وبيِّنْ ما الجَزاءُ الّذي أعدَّهُ اللهُ تَعالى لهُمْ .

٣ـ وازِنْ بينَ الأشْقياءِ والصّالحينَ كما ذَكرتْهُمْ هذهِ الآياتُ الكَريمَةُ مِنْ حَيْثُ الأوْصافُ والجَزاءُ .

٤ـ في قولِهِ تَعالى : ﴿تحيَّتُهُمْ فيها سلامٌ﴾ ثلاثةُ أنواعٍ مِنَ التَّحيّةِ ، اذْكُرْها ، واذْكُرِ الدَّليلَ عَليْها مِنَ القُرآنِ الكَريمِ .

ـ اكْتُبْ صِفَةَ التَّحيةِ الّتي يُحيّي المُسلمونَ بِها بَعْضَهُم بعضاً في الدُّنْيا .

* * *

الدَّرسُ الرَّابِعُ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الرّابِعُ

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

معاني المفردات :

يُعجِّلُ اللهُ : يُقدِّمُ الشَّيءَ على أوانِه (قَبْلَ أَوانِهِ) .
يَعْمَهونَ : يَترَدَّدونُ ويَتحيَّرونَ .
الضُّرُّ : الشِّدَّةُ .
المُسرِفينَ : المُتجاوِزينَ الحُدودَ .
القُرونَ : الأقوامَ في الأزمنةِ الماضيةِ .
خلائِفَ : خُلفاءَ مِنْ بَعْدِهِمْ في الأرضِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى حالَ الأشْقياءِ والمُتَّقينَ ، أتْبَعَ ذلِكَ بِذِكْرِ بَعْضِ مَظاهِرِ فَضْلِهِ ولُطْفِهِ عَلى عبادِهِ وما جُبِلوا عَلَيْهِ مِنْ صِفاتٍ وَطبائِعَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

هذهِ الآيةُ والَّتي تَليها في بَيانِ شَأنٍ مِنْ شُؤونِ البَشَرِ وغَرائِزِهِمْ فيما يَعْرِضُ لهمْ في حياتِهِمُ الدُّنيا مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ ، وَنفْعٍ وضُرٍّ ، وشُعورِهِمْ بالحاجةِ إلى اللهِ تَعالى واللُّجوءِ إلى دُعائِهِ لأَنْفُسِهِمْ وعَلَيْها ، واسْتعجالِهِمُ الأُمورَ قبلَ أوانِها ، وهذا تعريضٌ بالمُشرِكينَ وحُجَّةٌ عَلى ما يأتونَ مِنْ شِرْكٍ ، وما يُنكِرونَ مِنْ أمْرِ البعثِ .

ولو أجابَ اللهُ تَعالى ما يَستعجلُ بهِ النّاسُ عَلى أنفسِهِمْ مِنَ الشَّرِّ مِثْلَ اسْتِعجالِهِمْ لِطَلَبِ الخَيْرِ لأَهْلَكَهُم ، وأبادَهُمْ جميعاً ، ولكنَّهُ سُبْحانَهُ يَتلطَّفُ بِهِمْ ، فَيُرْجِىءِ هلاكَهُمُ انتظاراً لِما يَظْهَرُ منهُمْ ، حَسَبَ ما عَلِمَهُ فيهِمْ ، فَتَتَّضِحُ عدالَتُهُ في جزائِهِمْ ، إذْ يُتْركونَ والأدلَّةُ قائمةٌ عَلَيْهِم ، ويَتَعمَّدونَ الانْحِرافَ والاتِّجاهَ إلى طريقِ الضَّلالِ والظُّلمِ ، وبذلكَ تقومُ عَلَيْهِمُ البيِّنةُ ، وتَلزَمُهُمُ الحُجَّةُ بَعْدَ أنْ أصرّوا واسْتَمرّوا في ضَلالِهِمْ وحَيْرَتِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى طَبيعةَ الإنْسانِ في حالتي العُسْرِ واليُسْرِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

وإذا أصابَ الإنْسانَ ضُرٌّ في نفسِهِ ، أو مالِهِ ، أو نحوَ ذلكَ أحسَّ بَضَعْفِهِ ، ودعا ربَّهُ على أيِّ حالٍ من حالاتِهِ ، مَضْطَجِعاً ، أو قاعِداً ، أنْ يَكشِفَ ما نزَلَ بهِ ، فلمّا اسْتَجابَ اللهُ تَعالى لهُ ، فَكَشَفَ عنهُ ضُرَّهُ ، انْصَرَفَ عن جانِبِ اللهِ تَعالى ، وعادَ إلى عِصْيانِهِ ، ونَسِيَ فَضْلَ اللهِ تَعالى عليهِ ، كأنَّهُ لم يُصِبْهُ ضُرٌّ ، ولَمْ يَدْعُ اللهَ تَعالى إلى كَشْفِهِ ، وكمِثْلِ هذا المَسْلكِ زيَّنَ الشَّيْطانُ للكافِرينَ ما عَمِلوا مِنْ سوءٍ وما اقْتَرفوا مِنْ باطِلٍ .

وبَعْدَ أنْ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى جانِباً من شأنِهِ مَعَ النّاسِ ، ومن شأنِهِمْ مَعهُ ، أتْبَعَ ذلكَ بِبَيانِ مَصيرِ الأُممِ الظّالِمَةِ ، لِيَكونَ في ذلكَ عبرةٌ وعِظةٌ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ .

ولقدْ أهْلَكْنا القُرونَ السّابقةَ يا أهْلَ مكَّةَ حينَ اسْتَمرّوا في ظُلْمِهِمْ وعِنادِهِمْ ، وحينَ أصرّوا عَلى الكُفْرِ بَعْدَ أنْ جاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بالدَّلائِلِ الدّالَّةِ عَلى وَحدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، وعلى صِدْقِهِمْ فيما يُبلِّغونَهُ عن ربِّهِمْ ، فعليكُمْ أيُّها الغافِلونَ أنْ تَتوبوا إلى رُشْدِكُمْ ، وأنْ تَتَّبعوا الحَقَّ الّذي جاءَكُمْ بهِ نبيُّكُمْ ﷺ ، كيْ لا يُصيبَكُمْ ما أصابَ الظّالِمينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وقدْ عَلِمَ اللهُ تَعالى أنَّهُ لنْ يَحصُلَ منهُمْ

إيمانٌ بسببِ تَشبُّثِهِمْ بالكُفرِ والعِصيانِ ، فاعتَبروا يا كُفّارَ مَكّةَ ، فكَما أهْلَكْنا مَنْ قَبْلَكُمْ مِمّنْ لم يُؤمِنوا ، سَنجزي المُجرِمينَ السّائِرينَ عَلى دَرْبِهِمْ بإهْلاكِهِمْ كذلكَ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى شأْنَ هذهِ الأُمّةِ المُحمَّديّةِ المُبارَكةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ثُمَّ جَعلناكُمْ أيُّها المُكلَّفونَ باتّباعِ النَّبيِّ ﷺ خُلَفاءَ في الأرضِ ، تَعْمرونَها مِنْ بعدِ أُولئكَ الأقوام المُهْلَكينَ لِنَرى ونُشاهِدَ ونَعلمَ أيَّ عَمَلٍ تَعملونَ في خِلافَتِكُمْ ، فَنُجازِيَكُمْ عَلى ذلِكَ الجزاءَ المُناسِبَ الّذي تَقتضيهِ حِكْمَتُنا وإرادَتُنا ، وذلكَ بَعْدَ أنْ عَرَفْتُمْ ما جَرى عَلى أسْلافِكُمْ ، وليسَ النَّظرُ هنا مُراداً منهُ أنَّ اللهَ تَعالى لا يَعلمُ الأشياءَ إلاّ بَعْدَ حُدوثِها ، وإنَّما المُرادُ : يُعامِلُكُمْ مُعاملةَ مَنْ يَطلبُ العِلْمَ بأعمالِكُمْ لِيُجازِيَكُمْ بِحَسَبِها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ فَزَعُ الإنسانِ إلى اللهِ تَعالى حين تُصيبهُ المَصائِبُ .

٢ـ ضَرورةُ أخْذِ العِبْرَةِ مِنْ مَصارِعِ المُهْلَكينَ ، فاللهُ تَعالى لا يُعذِّبُ النّاسَ ظُلْماً .

٣ـ إنَّ اللهَ تَعالى لَيُمْلي للظّالِمِ حتّى إذا أخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ ، فمَنْ ظَلَمَ نالَ عاقبةَ ظُلْمِهِ .

٤ـ اللهُ تَعالى يُقدِّرُ في الكَوْنِ ما يُريدُه هُوَ لا ما أرادَهُ عِبادُهُ .

التّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

يُعَجِّلُ اللهُ ، يَعْمَهونَ ، الضُّرُّ ، المُسرِفينَ ، القُرونَ ، خَلائِفَ .

٢ـ لِماذا لا يُعَجِّلُ اللهُ تَعالى للنّاسِ في إجابةِ ما يَطلبونَ وبخاصةٍ إذا كانَ شرّاً ؟

٣ـ لِماذا ذكرَ اللهُ تَعالى إهلاكَ القُرونِ السّابقةِ الظّالِمَةِ ؟

٤ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ طبيعةَ الإنْسانِ في حالتي السّلامةِ والضُّرِّ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٥ـ ماذا تَستفيدُ مِمّا يلي :

أ ـ أهلكْنا القُرونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمّا ظَلَموا .

ب ـ جاءَتْهُمْ رسُلُهُمْ بالبيِّناتِ .

ج ـ لِننظُرَ كيفَ تَعْمَلونَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفترِكَ أسماءَ ثلاثةِ أقوامٍ جاءوا قبلَ بِعثةِ مُحمّدٍ ﷺ ، واكْتُبِ العَذابَ الّذي لَحِقَ بِهِمْ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسُ

سورَةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الخامِسُ

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بيِّناتٍ : واضحاتٍ .

تِلْقاءِ نَفْسِي : مِنْ عِندي .

مِنْ قَبْلِهِ : مِنْ قَبْلِ القُرآنِ .

افْتَرى : ادّعى كَذِباً .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى طَبيعةَ الإنْسانِ في حالِ السَّلامةِ وحالِ الضُّرِّ ، بَيَّنَ لنا هُنا بعضَ المُقْتَرَحاتِ الفاسِدَةِ الّتي اقتَرَحَها المُشرِكونَ عَلى النَّبيِّ ﷺ ، وردَّ عليها بما يُبطِلُها ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

وإذا تُتْلى عَلى أُولئكَ المُشْركينَ آياتُنا الواضِحَةُ البيِّنَةُ ، المُنزَّلَةُ عليكَ أيُّها الرَّسولُ الكَريمُ ﷺ ، قالَ المُشركونَ عَلى سبيلِ العِنادِ والحَسَدِ والسُّخريَةِ والاسْتِهزاءِ : هاتِ لنا قُرآناً آخرَ سِوى هذا القرآنِ الّذي جِئْتَنا بهِ ، أو بَدِّلْهُ بِأَنْ تَجعلَ مكانَ الآيِ الّتي فيها سَبٌّ لآلِهَتِنا آيةً أُخْرى فيها مَدْحٌ أو نحوَ ذلكَ . فلمّا قالوا ذلكَ أمَرَ اللهُ تَعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ بقولِهِ : قلْ لهُمْ عَلى سبيلِ التَّوبيخِ والإنْكارِ : لا يَصِحُّ لي بحالٍ مِنَ الأحوالِ ، ولا يجوزُ أنْ أُبدِّلَ هذا القرآنَ مِنْ عِنْدِ نَفْسي ، ما أنا إلاّ مُتَّبِعٌ ومُبلِّغٌ ما يوحَى إليَّ مِنْ ربّي ، إنّي أخافُ إنْ عَصيْتُ ربّي عذابَ يومٍ عظيمٍ ، وإذا كانَ شَأْني أنْ أخافَهُ تعالى مِنْ أيّةِ مَعصيةٍ ولو كانتْ صغيرةً ، فكيفَ لا أخشاهُ إنْ عَصيْتُهُ بِتَبديلِ كلامِهِ اسْتِجابةً لأهوائِكُمْ .

ثُمَّ لقَّنَ اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ ردّاً آخَرَ عَلَيْهِمْ ، زِيادةً في تَسفيهِ أفْكارِهِمْ والإنكارِ عَلَيْهِم ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ .

قلْ لهمْ أيُّها الرَّسولُ الكَريمُ ﷺ : لو شاءَ اللهُ تَعالى أنْ لا أَتْلُوَ عَلَيْكُمْ هذا القرآنَ لَفَعَلَ ، ولو شاءَ أنْ يَجعلَكُمْ لا تَدرونَ مِنهُ شيئاً لفَعَلَ أيضاً ، فإنَّ مَرَدَّ الأُمورِ كُلِّها إليهِ ، ولكنَّهُ سُبْحانَهُ شاءَ وأرادَ أنْ أتْلُوَ هذا القرآنَ عَلَيْكُمْ ، وشاءَ أنْ يُعلِمَكُمْ بِهِ بواسِطَتي ، فأنا رسولٌ مُبلِّغٌ ما أمَرَني ربّي بِتَبليغِهِ ، فأنتُمْ تَعلمونَ أنّي مَكَثْتُ فيما بَيْنَكُمْ مُدَّةً طويلةً مِنَ الزَّمانِ ، قبلَ أنْ أُبلِّغَكُمْ هذا القرآنَ ، حَفِظتُمْ خلالَ هذهِ المُدّةِ أحوالي ، وأحَطْتُمْ خُبْراً بِأَقْوالي وأَفْعالي ، وعَرفْتُمْ أنّي لمْ أقرأْ عليكُمْ مِنْ آيةٍ أو سورةٍ ، ممّا يشهدُ أنَّ هذا القرآنَ إنَّما هوَ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، أَفَجَهِلْتُمْ هذا الأمْرَ كُلَّهُ بالرَّغمِ مِنْ وُضوحِهِ وجَلائِهِ ، فَصِرْتُمْ لا تَعقِلونَ ؟ إنَّ أمثالَ هذهِ الاقْتِراحاتِ المُتعنِّتَةِ الّتي اقْتَرَحْتُموها لا يُمكِنُ لأَحدٍ تَنفيذُها إلاّ اللهُ تَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّهُ لا أحَدَ أكثرَ ظُلْماً ممّنْ كَذَبَ على اللهِ تَعالى أو كذَّبَ بآياتِهِ . وحَكَمَ اللهُ تَعالى عَلَيْهِم بالإجرامِ وأنَّهمْ لا يُفْلِحونَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

لا أحدَ أظلمَ ولا أعتى ولا أشدَّ إجْراماً مِمّنِ افْتَرى عَلى اللهِ تَعالى كَذِباً وتقوَّلَ عَلَيْهِ ، وزَعَمَ

أنَّ اللهَ تعالى أرْسَلَهُ ولم يَكُنْ كَذلِكَ ، فليسَ أحدٌ أكبرَ جُرْماً ولا أشَدَّ ظُلْماً مِنْ هذا ، ومثلُ هذا لا يَخْفى أمرُهُ على الأغبياءِ فكيفَ يَشْتَبِهُ حالُ هذا بالأنبياءِ ؟ فإنَّ مَنْ قالَ هذهِ المَقالةَ صادِقاً أو كاذِباً ، فلابُدَّ أنَّ اللهَ تعالى يُظْهِرُ عَلَيْهِ مِنَ الأدلّةِ على بِرِّهِ أو فُجورِهِ ما هُوَ أظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ . فإنَّ الفَرْقَ بينَ النَّبيِّ ﷺ وبَيْنَ مُسيلمَةَ الكذّابِ لِمَنْ شاهَدهُما ، أظْهَرُ مِنَ الفَرْقِ بَيْنَ الضُّحى وبين نِصفِ اللّيلِ ، فَمِنْ شِيَمِ كُلٍّ منهُما وأفعالِهِ وكلامِهِ يَستدلُّ مَنْ لهُ بَصيرةٌ على صِدْقِ النَّبيِّ ﷺ ، وكَذبِ مُسيلمَةَ الكَذّابِ . إنَّ مَنْ بَلَغَ بهِ الإجرامُ إلى هذا الحَدِّ لا يُمكِنُ أَنْ يكونَ مِنَ المُفْلِحينَ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أقبحَ رذائِلِ هؤلاءِ المُشرِكينَ المُجرِمينَ ، وهيَ عِبادَتُهُمْ غَيْرَ اللهِ تَعالى ، ودَعواهُمْ أنَّ أصْنامَهُمْ سَتشْفَعُ لهمْ عندَ اللهِ تَعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

ويَعبدُ هؤُلاءِ المُشرِكونَ ، المُفترونَ على اللهِ تَعالى أصْناماً باطِلَةً ، لا تَضرُّهُمْ ولا تَنفعُهُم ، ويقولونَ : هؤلاءِ الأصنامُ يَشْفَعونَ لَنا عِندَ اللهِ تعالى في الآخِرَةِ ، قُلْ لهمْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ : هل تُخْبِرونَ اللهَ تَعالى بِشَريكٍ لا يَعلمُ اللهُ تَعالى لَهُ وُجوداً في السَّمواتِ ولا في الأرضِ ؟ تنزّهَ اللهُ تَعالى عَنِ الشَّريكِ ، وعمّا تَزْعُمونَهُ بعبادةِ هؤُلاءِ الشُّركاءِ .

وهَكذا شَأْنُ المُضلِّينَ في كلِّ زمانٍ ، يَتَّخذونَ مِنْ أهوائِهِمْ آلِهَةً ، ثُمَّ يُحاوِلونَ إيجادَ المُسوِّغِ لهذهِ الآلِهَةِ ، لأجْلِ أنْ يُقنِعوا أنفُسَهُمْ والآخَرينَ مَعهُمْ بِصوابِ ما يفعلونَ وَهُمْ على الضَّلالِ المُبينِ ، فالواجِبُ على العاقِلِ الحَذَرُ مِنْ هؤلاءِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا يَتوانى أصْحابُ الباطِلِ مِنَ التَّرويجِ لِباطِلِهِمْ والدِّفاعِ عنهُ باسْتِخدامِ ما أمْكَنَ مِنَ الحُجَجِ والبَراهينِ الكاذِبةِ .

٢ـ مُهِمَّةُ النَّبيِّ ﷺ مَكشوفةٌ وواضِحَةٌ لِقوْمِهِ وللنّاسِ أجْمَعينَ .

٣ـ الكَذِبُ عَلى اللهِ تَعالى والتَّكذيبُ بآياتِهِ مِنَ الجرائِمِ العَظيمةِ .

٤ـ الشِّرْكُ باللهِ تَعالى أكبرُ جَريمةٍ اقْتَرَفَها الإنسانُ ، واللهُ تَعالى مُنَزَّهٌ عنْ أنْ يكونَ لهُ شريكٌ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

بيِّناتٍ ، تِلقاءِ نَفْسي ، مِن قَبلِهِ .

٢ـ ذَكَرتْ هذهِ الآياتُ الكَريمةُ مَطالِبَ الكُفّارِ واقْتِراحاتِهِمْ .

أـ اذْكُرْ هذهِ المَطالبَ .

ب ـ اذْكُرْ رَدَّ القرآنِ عَليْها .

٣ـ بيِّن ماذا تَستفيدُ مِمّا يلي :

أـ إن أَتَّبعُ إلاّ ما يُوحَى إليَّ .

ب ـ فقدْ لَبِثْتُ فيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِهِ .

٤ـ اكْتُبْ في كلِّ فَراغٍ ما يُناسِبُهُ مِنْ آياتِ الدَّرْسِ :

أـ إن أَتَّبعُ إلاّ ما .... إليَّ .

ب ـ قلْ لو شاءَ اللهُ .... عَليْكُمْ .

ج ـ فمَنْ أظْلَمُ مِمَّنْ .... عَلى اللهِ كَذِباً .

دـ ويَقولونَ هؤُلاءِ .... عندَ اللهِ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبِ الآياتِ مِنْ سورةِ الحاقَّةِ الدّالَّةَ عَلى تَهديدِ الرّسولِ ﷺ إذا قالَ ما لَمْ يُنزِّلْهُ اللهُ عَلَيْهِ .

* * *

الدرس السادس

سورةُ يونُس ـ القِسْمُ السادِسُ

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

النّاسُ	: الجِنْسُ البَشَريُّ .
كَلِمةٌ سَبقَتْ مِنْ ربِّكَ	: هي ما قضاهُ اللهُ تَعالى بِشَأْنِهِمْ

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيّنَ اللهُ تَعالى بعضَ أوهامِ المُشرِكينَ وقَبائِحِهِمْ ، بَيّنَ أنَّ الاخْتِلافَ هو الّذي أَوْصَلَ النّاسَ إلى هذهِ الحالةِ مِنَ الشِّرْكِ بَعْدَ أنْ كانوا عَلى الخَيْرِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

وما كانَ الناسُ في تَكوينِهِمْ إلاّ أمةً واحدةً بِمُقْتَضى الفِطْرَةِ ، فقدْ كانوا يَعيشونَ كَأُسْرَةٍ واحدةٍ ، حتّى كَثُروا وتَفرّقوا وصاروا عشائِرَ وقبائِلَ وشُعوباً تَختلِفُ حاجاتُها وتَتعارَضُ مَنافِعُها ، فَتَتعادى وتَتقاتَلُ في أُمور الدُّنْيا ، ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى بَعَثَ إلَيْهِمُ الرُّسُلَ لإرْشادِهِمْ وهِدايَتِهِمْ بِمُقْتَضى وحْيِهِ تَعالى ، فكانتْ تلكَ الطَّبيعةُ الإنْسانيَّةُ الّتي استعدَّتْ لِلخيْرِ والشَّرِّ سَبباً في أنْ يَغْلِبَ الشرُّ على بَعْضِهِمْ

بِسَبَبِ تَحكُّمِ الأَهْواءِ ونَزَعاتِ الشَّيطانِ ، فاخْتَلفوا أيضاً بِسبَبِ ذلك ، ولولا حُكْمٌ سابقٌ مِنْ ربِّكَ تَبارَكَ وتَعالى يا مُحمّدُ ﷺ بإمْهالِ الكافِرينَ ، وإرجاءِ هَلاكِهِمْ إلى مَوْعِدٍ مُحدَّدٍ عندَهُ ، لَعَجَّلَ لهمُ الهَلاكَ والعذابَ بسببِ هذا الخِلافِ الّذي وَقَعوا فيهِ .

وقدْ تَضمَّنتْ هذهِ الآيةُ الكَريمَةُ الوعيدَ الشَّديدَ عَلى الاخْتِلافِ المُؤدّي إلى التَّفرقةِ في الدّينِ وإلى الشِّقاقِ والنِّزاعِ ، كما تَضمَّنتْ تَسليةَ الرَّسولِ ﷺ عمّا أصابَهُ مِنْ قومِهِ ، فكأنَّ اللهَ تَعالى يقولُ : الاخْتِلافُ مِنْ طَبيعةِ البَشَرِ ، فلا تَنتَظِرْ مِنَ النّاسِ جميعاً أنْ يَكونوا مُؤْمِنينَ .

وبَعْدَ هذا حَكى اللهُ تَعالى لنا لَوْناً آخرَ مِنْ ألوانِ تعنُّتِ المُشرِكينَ وَجهالاتِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

والمُرادُ بالآيةِ الّتي طَلَبوها ، آيةً كونيَّةً سِوى القرآنِ الكَريمِ ؛ بأنْ يَكونَ معَهُ ﷺ ناقةٌ كناقةِ صالحٍ عليهِ السلامُ مَثَلاً ، أو أيُّ شيءٍ آخَرُ مثلُ هذا ، فهُمْ بهذا لا يَعدّونَ القُرآنَ الكَريمَ مُعجزةً للنَّبيِّ ﷺ .

فهؤلاءِ المُشركونَ يقولونَ للنَّبيِّ ﷺ : هلاّ أَنزلَ اللهُ تَعالى عليكَ آيةً أُخرى سِوى القُرآنِ الكَريمِ تكونُ شاهِدَةً لكَ بالنُّبوَّةِ ؟ وإنّما طلَبَ المُشْرِكونَ هذا الطَّلَبَ عَلى سبيلِ العِنادِ والكُفْرِ لا عَلى سبيلِ الاسترشادِ والتثبُّتِ ، وقدْ رَدَّ اللهُ تَعالى عليهِمْ بقولِهِ : ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ . [الأنعام : ١١١] .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تَعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يقولَ لَهُمْ في الجوابِ عَلى مَطالبِهِمْ هذهِ : إنَّ هذهِ المَطالِبَ الّتي طَلبتُموها هيَ مِنَ الغيْبِ الّذي اسْتأثَرَ اللهُ تَعالى بِعِلْمِهِ ، فقدْ يُجيبُكُمُ اللهُ تَعالى إلى ما طَلبتُموهُ وقدْ لا يُجيبُكُمْ ، فانتَظِروا ما يَقضيهِ اللهُ تَعالى في أمْرِ تعنُّتِكُمْ في مَطالِبِكُمْ ، فإنّي مَعكُمْ مِنَ المُنْتَظِرينَ لِقضائِهِ تَعالى وقَدَرِهِ ، ولِما يفعلُهُ بي وبكُمْ .

وقدْ حَكى القرآنُ الكَريمُ جُمْلةً مِنْ مَطالبِ المُشرِكينَ المُتعنِّتةِ ، الّتي غايَتُها إيقاعُ الرّسولِ الكَريمِ ﷺ في الحَرَجِ ، ومنها ما جاءَ في سورةِ الإسراءِ ، حَيْثُ قالَ تَعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ . [الإسراء : ٩٠-٩٣] .

ثُمَّ إنَّ اللهَ تَعالى عرَضَ لنا بَعْدَ ذلِكَ صورَةً مِنْ أحوالِ النُّفوسِ البَشَرِيَّةِ وطَبائِعِها المُخْتَلِفةِ في حالتَيِّ السَّراءِ والضَّراءِ فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

ومِنْ شأنِ النّاسِ أنَّا إذا أَنْعَمْنا عَليهِمْ مِنْ بعدِ شِدَّةٍ أصابتْهُمْ في أنفُسِهِمْ أو أَهليهِمْ أو أموالِهِمْ ، لمْ يَشْكُروا اللهَ تَعالى عَلى ما أنْعَمَ بهِ عليْهِمْ بَعْدَ صَرْفِ الضُّرِّ عَنهُمْ ، بلْ هُمْ يُقابلونَ ذلكَ بالإمعانِ في التّكذيبِ والكُفْرِ بالآياتِ الكَريمةِ ، ولَمّا كانَ أمْرُهُمْ كذلكَ أمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يقولَ لهمْ : إنَّ اللهَ تَعالى قادِرٌ عَلى إهْلاكِكُمْ والإسْراعِ بِتَعْذيبِكُمْ ، لولا حُكْمٌ سابِقٌ مِنهُ بإمْهالِكُمْ إلى مَوْعِدٍ اختصَّ وحْدَهُ تَعالى بعِلْمِهِ ، إنَّ رُسُلَنا مِنَ المَلائِكَةِ المُوكَّلينَ بكُمْ يَكتبونَ كلَّ ما تفعلونَهُ وتَمْكُرونَهُ ، واللهُ تَعالى سَيُحاسِبُكُمْ ويُجازيكُمْ عليهِ ، وقولُهُ تَعالى : ﴿ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ مِنْ قبيلِ المُشاكَلَةِ ، بمعنى أنَّ اللهَ تَعالى يَعلمُ ما يُخْفونَهُ وهو أسرعُ في المُحاسَبةِ عَلَيْهِ .

وهَكذا هو شَأْنُ النّاسِ عندما يَرفعُ اللهُ تَعالى عنهُمُ البُؤْسَ ، سُرعانَ ما يُفاجئوا عبادَ اللهِ تَعالى بالمَكْرِ بَدَلاً مِنَ الحَمْدِ والشُّكْرِ ، فإذا أصابَ الإنسانَ المطرُ بَعْدَ الجَدْبِ والشِّدَّةِ قالَ : إنَّ مَطَرَنا لآتٍ في فصلِ الشِّتاءِ ، ولم يَعْزُ ذلكَ إلى فضلِ اللهِ تَعالى ، وإذا نَجا مِنْ مَكروهٍ حاقَ بهِ قالَ : نَجَوْتُ بالمُصادَفَةِ ، وهكذا أَهْلُ مَكَّةَ عِنْدَما أصابَهُمُ الجوعُ والقَحْطُ والجَدْبُ حتّى أكلوا العِظامَ والمَيْتَةَ ، ثُمَّ سألوا النَّبيَّ ﷺ الدُّعاءَ لإزالةِ ما هُمْ فيهِ ، فَكَشفَ اللهُ تَعالى عَنهُمُ الجَهْدَ والبَلاءَ ، وما زادَهُمْ ذلِكَ إلاّ جُحوداً وكُفراً ومَكْراً وفساداً[1] .

دروس وعبر

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ فِطْرَةُ النّاسِ الأُولى هيَ الخَيْرُ ، وما تَفرَّقوا إلاّ بِسَبَبِ اخْتِلافِهِمْ .

٢ـ تعنُّتُ المُشركينَ في طَلَبِ الآياتِ لإحْراجِ الرّسولِ ﷺ .

٣ـ لا يَمْلِكُ النبيُّ ﷺ أنْ يُجيبَ النّاسَ إلى ما يَطلبونَ فالأمْرُ للهِ تَعالى .

٤ـ فَضْلُ اللهِ تَعالى ورحمتُه بعبادِهِ ، إذْ لَمْ يُسَرِّعْ لهمْ بالقَضاءِ والحِسابِ ولم يُعاجِلْهُمْ بالعُقوبَةِ .

---

(١) انظر صحيح البخاري حديث رقم : (٤٨٢٢) .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

٢ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

النّاسَ ، كلمةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربِّكَ ، اللهُ أسْرعُ مكْراً .

٣ـ ماذا نَستفيدُ مِمّا يلي :

أـ وما كانَ النّاسُ إلاّ أمّةً واحدةً .

ب ـ فقلْ إنّما الغَيْبُ للهِ .

ج ـ إنَّ رُسُلَنا يَكْتُبونَ ما تَمكُرونَ .

٤ـ بيِّنْ فضلَ اللهِ تَعالى ورحمَتَهُ بعبادِهِ مِنْ خِلالِ هذهِ الآياتِ الكَريمةِ .

٥ـ أظهرتِ الآياتُ الكَريمَةُ جَهْلَ الكُفّارِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٦ـ أظهرتِ الآياتُ الكَريمَةُ شِدَّةَ مُعاناةِ النَّبيِّ ﷺ مِنْ قومِهِ ، بيِّنْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ آيةً تَدلُّ عَلى خُطورةِ التَفرُّقِ والتَّنازُعِ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ السّابعُ

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ريحٌ عاصِفٌ : ريحٌ شديدةٌ .

ظَنّوا : أيْقنوا .

يَبْغونَ في الأرضِ : يَعيثونَ فيها فساداً .

كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ : كأنَّها لم تَكُنْ عامِرَةً .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى طَرَفاً مِنْ أحوالِ النّاسِ ، وذَكَرَ سُرعَةَ مَكْرِهِمْ عندما يَكونونَ في حالِ السَّلامَةِ ، ذَكَرَ اللهُ تَعالى شَيئاً مِنْ فَضْلِهِ عَلى عبادِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى الّذي تَكفُرونَ بنِعَمِه ، وتُكذِّبونَ بآياتِهِ ، هُوَ الّذي يُمكِّنُكُمْ مِنَ السَّيْرِ والسَّعْي في البَرِّ مُشاةً ورُكْباناً ، وفي البَحْرِ بما سَخَّرَ لكمْ مِنَ السُّفنِ الّتي تَجْري على الماءِ ، بما يُهيِّئُ اللهُ تَعالى لها من ريحٍ طيِّبَةٍ تَدْفَعُها في أمانٍ إلى غايَتِها ، حتَّى إذا اطْمَأْنَنْتُمْ وَفَرِحْتُمْ بها ، هبَّتْ ريحٌ عاصِفَةٌ أثارتْ عليكُمُ المَوْجَ مِنْ كلِّ جانبٍ ، وأَيْقَنْتُمْ أنَّ الهلاكَ واقعٌ لا مَحالةَ في هذهِ الشدَّةِ ، وفي تلكَ السّاعاتِ العَصيبةِ واللَّحظاتِ الحَرِجَةِ ، لا تَجدونَ ملجأً غيرَ اللهِ تعالى ، فَتدعونَهُ مُخلِصينَ في الدُّعاءِ ، وموقِنينَ أنّهُ لا مُنقِذَ لَكمْ سِواهُ ، مُتعهِّدينَ له تعالى بالإيمانِ لَئِنْ أنْجاكُمْ مِنْ هذهِ الكُرْبَةِ لَتؤمِنُنَّ بِهِ ولَتكونُنَّ مِنَ الشّاكرينَ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ بيانٌ واضِحٌ أنَّ الخَلْقَ جُبلوا على الرُّجوعِ إلى اللهِ تَعالى في الشَّدائِدِ ، وأنَّ المُضْطَرَّ يُجابُ دُعاؤُهُ وإنْ كانَ كافِراً ، وهذا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ تَعالى بعبادِهِ . وفي الآيةِ أيضاً أنّ المُشرِكينَ كانوا لا يَلتَفِتونَ على آلِهتِهِمْ في مثلِ هذهِ الأحْوالِ الرَّهيبةِ ، لِعلْمِهِمْ أنَّهُ لا يَنفعُهُمْ إلاّ اللهُ تَعالى ، فواعَجَباً لِكثيرٍ مِنَ المُسلِمينَ يَلجأونَ في بَعْضِ شَدائِدِهِمْ وأهوالِهِمْ إلى مَنْ ليسَ بيدِهِ نَفعٌ ولا ضَرٌّ ، ويَنسوْنَ إلهَهُمُ الأعظمَ سُبْحانَهُ وتَعالى . ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّهُ بَعْدَ أنْ سَكَنَتِ العاصِفَةُ وهدأتْ وانْخَفَضَتِ الأمواجُ بَعْدَ ذلكَ الدُّعاءِ العريضِ ، وقدْ سَكنتِ النُّفوسُ ، ووصلتِ السُّفُنُ إلى شاطىءِ الأمانِ ، كانتِ النَّتيجةُ أيضاً بَغْياً وكُفْراً ، قالَ تَعالى :

﴿ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

فلمّا أنْجاهُمْ مِمّا تَعرَّضوا لهُ مِنَ الهلاكِ ، نَقَضوا عَهْدَهُمْ ، وعادوا مُسرِعينَ إلى الفَسادِ الّذي كانوا فيهِ مِنْ قبلُ . يا أيُّها الناسُ : أنتمُ الّذينَ تَضرَّعْتُمْ إليْنا في ساعاتِ الشِّدَّةِ ، وسُرعانَ ما عُدتُمْ إلى البَغْيِ والفَسادِ بعدَ زوالِ تلكَ الشِّدَّةِ ناقِضينَ عَهدَكُمْ ، اعْلَموا أنَّ عاقبةَ اعتدائِكُمْ وظُلْمِكُمْ سَتَرْجِعُ عَلَيْكُمْ وحْدَكُمْ ، وإنَّ ما تَتمتَّعونَ بهِ في دُنياكُمْ متاعٌ دُنيويٌّ زائِلٌ ، ثُمَّ إلى اللهِ تعالى مَصيرُكُم في النِّهايةِ ، فَيَجْزيكُمْ بأعمالِكُمُ الّتي أسْلفْتُموها في دُنياكُمْ إنْ خَيْراً فَخيرٌ ، وإنْ شرّاً فَشَرٌّ ، وسوفَ يُنبِّئُكُمْ ربُّكُمْ بما كُنتمْ تعملونَ في هذهِ الدُّنيا .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَثَلاً لِمَتاعِ الحياةِ الدُّنْيا الزّائِلِ ، ولِزُخْرُفِها الفانِيَيْنِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

ما حالةُ الدُّنيا في رَوْعَتِها وبَهْجَتِها ، ثُمَّ في فنائِها بَعْدَ ذلِكَ ، إلاّ كحالةِ الماءِ يَنْزِلُ مِنَ السَّماءِ فَيختلِطُ بهِ نباتُ الأرضِ ممّا يأكلُهُ النّاسُ والحيوانُ ، فَيَزْدَهِرُ ويُثْمِرُ وتَزدانُ بهِ الأرضُ نضارةً وبَهجةً ، حتّى إذا بَلَغَتْ هذهِ الزّينةُ تَمامَها ، وأيْقَنَ أهلُها أنَّهمْ مالِكونَ زِمامَها ومُنتفِعونَ بثمارِها وخَيْرِها ، فاجأها أمْرُنا بزوالِها ، فَجعَلْناها كالشَّيْءِ المَحصودِ ، كأنَّها لمْ تكنْ آهِلَةً بسُكّانِها ، وآخِذَةً بَهجَتَها مِنْ قبلُ ، ففي كِلتا الحالتيْنِ نَضارةٌ وازْدِهارٌ يَبتهِجُ بهما النّاسُ ، ثُمَّ يَعقُبُها زوالٌ ودمارٌ . وكما بَيَّنَ اللهُ تَعالى ذلِكَ بالأمْثالِ يُفصِّلُ ما فيها مِنْ أحكامٍ وآياتٍ لقومٍ يَتفكَّرونَ ويَعقِلونَ .

وهذهِ الآيةُ مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ تَعالى للمُتشبِّثِ بالدُّنيا الرّاغِبِ في زَهْرَتِها وحُسْنِها . ووجهُ التَّمثيلِ فيها أنَّ غايةَ هذهِ الدُّنْيا الّتي يَنتفِعُ بها المَرْءُ ، إنّما هو كِنايةٌ عنْ هذا النّباتِ الّذي لَمّا عَظُمَ الرَّجاءُ في الانْتِفاعِ بهِ ، وقَعَ اليأسُ منهُ ، ولأنَّ المُتَمَسِّكَ بالدُّنيا إذا نالَ مِنْها بُغْيَتَهُ أتاهُ المَوْتُ ، فَسَلبَهُ ما هو فيهِ مِنْ نعيمِ الدُّنْيا ولَذّاتِها .

والآيةُ الكَريمَةُ تُشيرُ إلى حَقيقةٍ بدأتْ تَتكشَّفُ بَوادِرُها ، وهي تَسخيرُ الإنسانِ لِلْعِلْمِ لِخدْمَتِهِ ، وقدِ اسْتَطاعَ بذلكَ أنْ يُسيْطِرَ عَلى ما يُحقِّقُ أهدافَهُ ، حتّى إذا ما قاربتْ هذهِ الحقيقةُ عَلى الاكْتِمالِ ، وظَنَّ الإنسانُ أنَّهُ قدْ بَلَغَ أوْجَ المعرفةِ ، أتى أمرُ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إنَّ مِنَ الواجِبِ عَلى الإنْسانِ الإكثارَ مِنْ دُعاءِ اللهِ تَعالى في حالَتَي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ .

٢ـ يَنْبَغي لِلْعاقِلِ أنْ لا يَغترَّ بزُخْرُفِ الحياةِ الدُّنْيا وَزينَتِها ، فكلُّ متاعٍ زائلٌ .

٣ـ في ضَرْبِ الأمثالِ للنّاسِ إيقاظٌ لِضَمائِرِهِمْ وتَنبيهٌ لَهُمْ .

٤ـ يَنْبَغي لِلْعاقِلِ ألاّ يَأْمَنَ نِقْمَةَ اللهِ تعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

عاصِفٍ ، ظَنّوا ، يَبغونَ في الأرْضِ ، حَصيداً ، كأنْ لَمْ تَغْنَ بالأَمْسِ .

٢ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّه لا مَنْجى ولا مَهْرَبَ مِنَ اللهِ تَعالى إلاّ إليهِ ، وضِّحْ ذلكَ .

٣ـ هاتِ الآياتِ التي تَدُلُّ على كُلٍّ مِمَّا يَلي :

أـ الكُفْرُ مَرتَعُهُ وَخيمٌ .

ب ـ الآلِهَةُ لمْ تَنفعْ أصحابَها ونَفَعَهُمُ اللهُ .

ج ـ سُرعةُ فسادِ الإنسانِ في حالِ السَّلامةِ .

د ـ رِقَّةُ القَلْبِ عندَ الخَوْفِ .

٤ـ بيِّنْ كيفَ تُطبَّقُ المَثَلَ المَضروبَ في الآياتِ عَلى حالِ الإنسانِ .

٥ـ ما الفائدةُ مِنْ ضَرْبِ المَثَلِ ؟

٦ـ وُصِفَتِ الرِّيحُ في الآياتِ بِوَصْفَيْنِ :

أـ اذْكُرْهُما .

ب ـ بيِّنْ مَعنى كُلٍّ مِنْهما .

ج ـ أَثَرُها عَلى المِلاحَةِ البَحريَّةِ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفترِكَ مَثَلاً آخرَ ضَرَبَهُ اللهُ للحياةِ الدُّنْيا مِمّا جاءَ في سورةِ الكَهْفِ .

* * *

الدَّرسُ الثّامِنُ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

دارِ السّلامِ : الجنّةِ ، لأنَّها دارُ السّلامةِ والأَمْنِ .

لا يَرْهَقُ : لا يَلْحَقُ .

قَتَرٌ : غُبارٌ فيه سَوادٌ .

ذِلَّةٌ : هَوانٌ وصَغارٌ .

عاصِمٍ : مُنْقِذٍ .

أُغْشِيَتْ : أُلْبِسَتْ وغُطِّيَتْ .

زَيَّلْنا : مَيَّزْنا .

تَبْلو : تَخْتَبِرُ .

أَسْلَفَتْ : قَدَّمَتْ .



بَعْدَ أنْ بَيَّنَ تَعالى حالَ الحياةِ الدُّنْيا ، وهَوانَها ، وقِصَرِ التَّمتُّعِ بِها ، أتْبَعَ ذلكَ بِدَعوةِ النّاسِ جَميعاً إلى العَمَلِ الصّالحِ الّذي يوصِلُهُمْ إلى الجَنَّةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

واللهُ تَعالى يَدعو عِبادَهُ إلى الإيمانِ والعَمَلِ الصّالحِ ، وهِيَ الدَّعوةُ الّتي توصِلُ إلى جنَّةِ دارِ الأَمْنِ والطُّمَأْنينَةِ ، وهو سُبْحانَهُ يَهدي مَنْ يشاءُ هِدايَتَهُ ـ لِحُسْنِ اسْتِعدادِهِ وَمَيْلِهِ إلى الخَيْرِ ـ على الطَّريقِ الحَقِّ وهو الإسلامُ .

والهِدايَةُ الإلهيَّةُ لِلْعِبادِ نَوْعانِ : هدايَةُ دَلالةٍ وإرْشادٍ ، وهذهِ هِدايَةٌ عامَّةٌ لِجميعِ الخَلْقِ ، حيثُ دَلَّهُمُ اللهُ تَعالى عَلى طريقِ الخَيْرِ وبَيَّنَ لَهُمْ مَعالِمَهُ ، وحَذّرهُمْ مِنْ طريقِ الشَّرِّ وبَيَّنَ لهُمْ مَعالِمَهُ . وهِدايةُ تَوفيقٍ وتَثبيتٍ ، وهي الخاصَّةُ بِمَنْ يَختارُهُ اللهُ تَعالى لِيَشْرُفَ بِعُبودِيَّةِ ربِّهِ تباركَ وتَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ تَبارَكَ وتَعالى حُسْنَ عاقبةِ الّذينَ اسْتَجابوا لِدَعْوَتِهِ واتَّبعوا صِراطَهُ المُستقيمَ ، قالَ تَعالى :

﴿ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

لِلّذينَ أحْسَنوا بالاسْتِجابةِ لِدعْوَةِ اللهِ تَعالى ، فآمَنوا وعَمِلوا الخَيْرَ لِدينِهِمْ ودُنْياهُمْ ، لَهُمُ المَنزلةُ الحُسْنى في الآخِرَةِ وهيَ الجَنَّةُ ، ولهُمْ زِيادةٌ على ذلكَ فَضْلاً مِنَ اللهِ تَعالى وتكرُّماً ، ولا يَغشى وُجوهَهُمْ كآبةٌ مِنْ هَوْلٍ أو هوانٍ ، وهؤلاءِ هُمْ أهلُ الجنَّةِ الَّذينَ يَنْعُمونَ فيها أبَداً . وفُسِّرَتِ الزِّيادةُ في هذهِ الآيةِ بالنَّظَرِ إلى اللهِ تَعالى يومَ القيامةِ ، فقدْ أخرجَ الإمامُ مسلمٌ في صَحيحهِ عنْ صُهيْبٍ رضيَ اللهُ عنهُ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ تلا هذهِ الآيةَ وقالَ : « إذا دخلَ أهْلُ الجنَّةِ الجنَّةَ قالَ : يقولُ اللهُ تَعالى تُريدونَ شَيْئاً أَزيدُكُمْ ؟ فيَقولونَ : ألَمْ تُبيِّضْ وُجوهَنا ؟ ألَمْ تُدْخِلْنا الجَنَّةَ وتُنجِّنا مِنَ النّارِ ؟ قال : فيُكْشَفُ الحِجابُ ، فما أُعْطوا شَيْئاً أحبَّ إليْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إلى ربِّهِمْ عزَّ وجَلَّ »[1] .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَصيرَ الظّالِمينَ بعدَ أنْ بَيَّنَ حُسْنَ عاقبةِ المُحْسِنينَ ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ويَحيى مَنْ حَيَّ عَنْ بيِّنةٍ ، فقالَ تَعالى :

---

(١) صحيح مسلم حديث رقم ٢٩٧ .

﴿ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

والَّذينَ لمْ يَسْتَجيبوا لِدَعوةِ اللهِ تَعالى ، فَكَفروا واقْتَرفوا المَعاصي ، فَسَيُجزَوْنَ بِمِثْلِ ما عَمِلوا مِنْ سوءٍ ، ويَغشاهُمُ الهَوانُ ، وليسَ لَهُمْ واقٍ يَمنعُهُمْ مِنْ عَذابِ اللهِ تَعالى ، وَوُجوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ مِنَ الغَمِّ والكآبةِ ، كأنَّما أُسْدِلَ عَليْها سوادٌ مِنْ ظُلْمَةِ اللّيلِ ، وهُمْ أهلُ النّارِ يَشْقَوْنَ فيها أبداً .

وهَكَذا نَرى في هذهِ الآياتِ الكَريمَةِ تَصويراً بَديعاً لِما عَلَيْهِ المُؤْمِنونَ الصَّادِقونَ مِنْ صِفاتٍ حَسَنَةٍ ، ومِنْ جَزاءٍ كَريمٍ ، يَتجلَّى في رَفْعِ دَرَجاتِهِمْ ، وفي رِضا الله تَعالى عَنهُمْ . كَما نَرى في هذِهِ الآياتِ أيْضاً وَصْفاً مُعجزاً لأَحْوالِ الخارِجينَ عنْ طاعَتِهِ ، وعَنِ المَصيرِ المُؤْلِمِ الّذي يَنتظرُهُمْ يومَ القيامةِ : ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔاۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ [الانفطار : ١٩] .

وبعدَ هذا البيانِ عنْ هاتَيْنِ الصُّورَتَيْنِ ، وهَذيْنِ النَّوعيْنِ مِنَ الطَّائِعينَ والعاصينَ ، حَكَى لنا القرآنُ الكَريمُ جانِباً مِنَ الأقوالِ الّتي تدورُ بَيْنَ المُشرِكينَ وشُركائِهِمْ يومَ القيامةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

واذْكُرْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ أوْ أيُّها الإنْسانُ العاقِلُ هَوْلَ المَوْقِفِ ، يومَ نَجمعُ الخلائِقَ كافَّةً ثُمَّ نقولُ لِلَّذينَ أشْرَكوا فَعَبدوا آلِهَةً غيرَ اللهِ : قِفوا مَكانَكُمْ أنتُمْ ومَنِ اتَّخَذْتُموهُمْ شُرَكاءَ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، حتَّى تَنْظُروا ما يُفْعَلُ بِكُمْ ، وهنالِكَ تقعُ الفُرْقَةُ بينَ المُشرِكينَ والشُّركاءِ ، ويَتبَرَّأُ الشُّرَكاءُ مِنْ عابديهِمْ قائِلينَ لَهُمْ : لم نَدْعُكُمْ إلى عِبادَتِنا ، وما كُنتُم تَعبدونَنا ، وإنَّما كُنتُمْ تَعبدونَ أَهْواءَكُمْ . والمَقصودُ بقولِ الشُّرَكاءِ هذا التَبرّي مِنَ المُشرِكينَ ، وتَوبيخُهُمْ عَلى أفكارِهِمُ الفاسِدَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مِنْ قَوْلِ الشُّرَكاءِ ما يُؤَكِّدُ هذا التَّبرّي والإنكارِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

فَكَفى أنْ يكونَ اللهُ تَعالى شهيداً وحَكَماً بَيْنَنا وبَينَكُمْ ، فهو سُبْحانَهُ يَعلمُ حالَنا وحالَكُمْ ، ويعلمُ أنَّنا كُنّا في غَفلةٍ عَنْ عِبادَتِكُمْ لنا ، بحيثُ أنَّنا ما فَكَّرْنا فيها ولا رَضينا بِها ، وهَكَذا يَتنَصَّلُ الشُّرَكاءُ مِنَ المُشرِكينَ لِتَنقَطِعَ بالمُشرِكينَ السُّبُلُ ، ويَعْلَموا أنَّ وَعْدَ اللهِ تَعالى حَقٌّ ، وأنَّهم عَلى الباطِلِ ، وأنَّهُمْ لَنْ يَنْتَفِعوا مِنْ باطِلِهِمْ بشيءٍ .

ثُمَّ ختَمَ اللهُ تَعالى هذهِ الآياتِ الكَريمةِ ببيانِ أحوالِ النّاسِ في هذا اليومِ العَظيمِ ، فقالَ تَعالى :

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ .

هُنالكَ في ذلِكَ المَوْقِفِ الهائِلِ الشَّديدِ تَختبرُ كلُّ نَفْسٍ مُؤمِنةٍ أو كافِرَةٍ ما سَلَفَ مِنْها مِنْ أعمالٍ ، فَترى ما كانَ نافِعاً أو ضارّاً مِنْ هذهِ الأعمالِ ، وتَرى الجَزاءَ المُناسِبَ عنْ كُلِّ عَمَلٍ بَعْدَ أنْ عادَ الجميعُ إلى اللهِ تَعالى مَوْلاهُمُ الحَقُّ ، لِيَقْضِيَ بَيْنَهُم بِقَضائِهِ العادِلِ ، وقدْ غابَ عَنِ المُشْرِكينَ في هذا المَوْقِفِ ما كانوا يَفترونَهُ مِنْ أنَّ هناكَ آلِهةً أُخرى سَتَشفَعُ لهُمْ ، وأيْقَنوا في ذلِكَ المَوْقِفِ بِوَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى ، وبَطَلَ عِنْدَهُمْ ما كانوا يَفْتَرونَهُ عَلى اللهِ تَعالى .

وهَكَذا نَرى هذِهِ الآياتِ الكَريمةَ تُصوِّرُ أحوالَ النّاسِ يومَ الدّينِ تَصويراً بَليغاً مُؤَثِّراً ، يَتجلّى فيهِ مَوْقِفُ الشُّرَكاءِ مِنْ عابديهِمْ ، وموقفُ كلِّ إنسانٍ مِنْ عَمَلِهِ الّذي قَدَّمَهُ في الدُّنْيا .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كَثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اللهُ تعالى لا يَدعو إلاّ إلى الخَيْرِ والأمْنِ والسَّلامةِ والطُّمَأنينةِ .

٢ـ جزاءُ كُلِّ سَيِّئةٍ بِمِثْلِها ، والحَسَنَةُ تُضاعَفُ بِفَضْلِ اللهِ تَعالى .

٣ـ وعْدُ اللهِ تَعالى للمُحسِنينَ بزيادةِ ثوابِهِمْ ، وإشراقِ وُجوهِهِمْ .

٤ـ ذِلّةُ وجوهِ الظّالِمينَ يومَ القيامةِ وانْكِسارُها واسْوِدادُها .

٥ـ لا عاصِمَ مِنْ أمرِ اللهِ تَعالى إلاّ مَنْ رَحِمَ ، والخَلْقُ كُلُّهُمْ سَيُحْشَرونَ إلى اللهِ تَعالى .

٦ـ تَبرّي الشُّرَكاءِ مِنَ المُشرِكينَ ، وانْحسارُ الأملِ وانْقطاعُهُ لَديْهِمْ .

٧ـ خضوعُ الخَلْقِ جَميعاً لإرادةِ اللهِ تَعالى ، واسْتِسلامُهُمْ لِشهادَتِهِ سُبْحانَهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

دارِ السّلامِ ، ولا يَرْهَقُ وُجوهَهُمْ قَتَرٌ ولا ذِلّةٌ ، عاصِمَ ، أُغْشِيَتْ وُجوهُهُمْ ، زَيَّلْنا بَيْنَهُمْ .

٢ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمَةُ صُورَتيْنِ مُتَضادَّتيْنِ وحالينَ مُختلفيْنِ للمُؤْمِنينَ والكافرينَ ، بيِّنْ كُلّاً مِنْهُما .

٣ـ ما مَوْقِفُ الشُرَكاءِ مِنَ المُشرِكينَ ؟ وماذا تَستفيدُ مِنْ هذا المَوْقفِ ؟

٤ـ كيفَ تَستدلُّ مِنَ الآيةِ الأخيرةِ (٣٠) عَلى اسْتِسْلامِ الخَلْقِ كُلِّهِمْ للهِ تَعالى ؟

نَشاطٌ :

١ـ في سورةِ الفاتحةِ يَطْلُبُ العَبْدُ مِنْ ربّهِ الهِدايةَ ، اكْتُبِ الآيةَ الدَّالّةَ عَلى ذلكَ .

٢ـ اكْتُبْ مِنْ سورةِ البَقَرةِ ما يدلُّ عَلى انْقِطاعِ الصِّلَةِ بينَ التّابِعِ والمَتبوعِ يومَ القِيامَةِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ التّاسِعُ

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

معاني المُفْرَداتِ :

أنّى : كيفَ .

تُصْرَفونَ : تَتْرَكونَ عِبادةَ اللهِ وتَعبدونَ غيرَهُ .

حقَتْ : وجَبَتْ وثَبَتَتْ .

كلمةُ ربِّكَ : قضاؤُهُ وحُكْمُهُ .

تُؤْفَكونَ : تَتحوّلونَ مِنَ الحقِّ إلى الباطِلِ .

لا يَهْدِّي : لا يَهْتَدي بنفسِهِ .

التّفسيرُ :

بَعْدَ الحديثِ عَنِ الحَشْرِ وأهْوالِهِ ، ساقتِ السّورَةُ الكَريمةُ عدداً مِنَ الآياتِ الكَريمةِ ، وفيها مِنَ

الأدلَّةِ المُقْنِعَةِ على وَحدانيةِ اللهِ تَعالى ، وقُدرَتِهِ ، وذلكَ عنْ طريقِ السّؤالِ والجَوابِ ، لأنَّهُ أوْقَعُ في النّفْسِ وأعْوَنُ على الفَهْمِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

أُدْعُ أيُّها الرَّسولُ ﷺ إلى التَّوْحيدِ الخالِصِ ، وقُلْ للنّاسِ : مَنِ الّذي يَأتيكُمْ بالرِّزْقِ مِنَ السَّماءِ بإنْزالِ المَطرِ ، ومِنَ الأرضِ بإخْراجِ النَّباتِ والثَّمَرِ ؟ ومَنِ الّذي يَمنحُكُمُ السَّمْعَ والأبْصارَ ؟ ومَنْ يُخرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ كالنَّباتِ ، وهو حيٌّ مِنَ الأرضِ ، وهِيَ مَواتٌ ؟ ومَنْ يُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ كالإنسانِ يَسْلُبُ عنهُ الحياةَ ، وكالطَّيْرِ مِنَ البَيْضَةِ ونحوِ ذلكَ ؟ ومَنِ الّذي يُدبِّرُ ويُصرِّفُ جَميعَ أُمورِ العالَمِ كُلِّهِ بِقُدْرَتِهِ وحِكْمَتِهِ ؟ فَسَيَعْتَرِفونَ لا مناصَ ، بأنَّ اللهَ تَعالى وَحْدَهُ هُوَ فاعلُ ذلكَ كُلِّهِ ، فَقُلْ لهُمْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ عندَ اعترافِهِمْ بذلكَ : أَلَيْسَ مِنَ الواجِبِ المُؤكَّدِ أنْ تُذعِنوا للحقِّ وتَخافوا اللهَ تَعالى مالِكَ المُلْكِ ؟ كيفَ تَعترِفونَ بأنَّ اللهَ وحدَهُ هُوَ الخالِقُ لِما سَبَقَ والفاعِلُ لهُ والقادِرُ عَلَيْهِ ، ومعَ ذلِكَ تُشرِكونَ معَهُ آلِهَةً أُخْرى فتعْبُدونَها منْ دونِ اللهِ ؟ أفلا تتَّقونَ عذابَهُ يومَ القيامةِ ؟ إنَّ هذا المَسْلَكَ يَدُلُّ على ضَعْفِ التَّفْكيرِ ، وانْطماسِ العُقولِ وجَهالةٍ بَلَغتْ غايتَها .

وَقَدِ اشتملتْ هذهِ الآيَةُ على خمسةِ أدلَّةٍ لإثْباتِ وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى وقُدرَتِهِ ، وهِيَ :

أولاً : اللهُ تَعالى الرّازِقُ مِنَ السّماءِ والأرضِ .

ثانياً : اللهُ تَعالى مالِكُ السَّمْعِ والبَصَرِ .

ثالثاً : اللهُ تَعالى مُخرِجُ الحيَّ مِنَ المَيِّتِ .

رابعاً : اللهُ تَعالى مُخرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحيِّ .

خامِساً : اللهُ تَعالى مُدبِّرُ الأُمورِ كُلِّها .

وخَصَّ اللهُ تَعالى مِنَ الإنسانِ حاسَّتيِ السَّمْعِ والبَصَرِ ، لأنَّ لَهُما أعظَمَ الأثَرِ في حياةِ الإنْسانِ ، ولأنَّهُما قَدِ اشْتَمَلَتا في تَركيبِهِما على ما يُبْهِرُ العُقولَ ، ويَشْهَدُ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى وعَجيبِ صُنْعِهِ .

ثُمَّ أرشدَ اللهُ تَعالى الخَلْقَ إلى الطَّريقِ الحَقِّ لو كانوا يَعقِلونَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

فذلِكُمُ اللهُ تَعالى الّذي أقْرَرْتُمْ بِهِ ، هُوَ وحْدَهُ ربُّكُمُ الّذي تَحقَّقتْ رُبوبيَّتُهُ ، ووجَبَتْ عِبادَتُهُ دونَ سِواهُ ، وليْسَ بَعْدَ الحَقِّ مِنْ توحيدِ اللهِ تَعالى وعِبادَتِهِ إلاّ الوُقوعُ في الضَّلالِ ، وهُوَ الإشْراكُ باللهِ تَعالى وعبادةُ غَيْرِهِ ، فكيفَ تَنْصَرِفونَ أيُّها النّاسُ عنِ الحَقِّ إلى الباطِلِ ؟

وبعدَ هذا بيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ سُنَّتَهُ الّتي لا تَتخلَّفُ ولا تَتبدَّلُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

مِثْلَ ما ثَبَتَ أَنَّ اللهَ تَعالى هو الرَّبُّ الحَقُّ ، وأنَّهُ ليسَ بعدَ الحَقِّ إلاّ الضَّلالُ ، ثَبَتَ أيضاً الحُكْمُ والقضاءُ مِنهُ تَعالى عَلى الَّذينَ فَسَقوا عنْ أَمْرِهِ ، وعَموا وصَمّوا عَنِ الحقِّ أنَّهمْ لا يُؤْمِنونَ بهِ ، لأنَّهم إنْ يَرَوْا سبيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذونَهُ سَبيلاً ، وإنْ يَرَوْا سَبيلَ الغَيِّ يَتَّخذونَهُ سَبيلاً ، هكذا شأنُهُمْ ، وهكذا دَيْدَنُهُمْ ، فكيفَ يُوفَّقونَ لطاعةِ اللهِ تَعالى وعِبادَتِهِ ؟

ثُمَّ ساقَ اللهُ تَعالى لَنا في هذهِ السّورَةِ أدِلَّةً أُخرى عَلى وَحدانيَّتِهِ وقُدْرتِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

قلْ أيُّها الرَّسولُ لهؤلاءِ المُشرِكينَ : هلْ مِنْ مَعبوداتِكُمُ الّتي جَعلتُموها شُركاءَ للهِ تَعالى مَنْ يَستطيعُ أنْ يُنْشِئَ الخَلْقَ ابتداءً ، ثُمَّ يُعيدُهُ بعدَ فَنائِهِ ؟ إنَّهم سَيعجَزونَ عنِ الجوابِ! فقُلْ لهمْ حينئذٍ : اللهُ تَعالى وَحْدَهُ هُوَ الّذي يُنْشِئُ الخَلْقَ مِنْ عَدَمٍ ثُمَّ يُعيدُهُ بَعْدَ فنائِهِ ، فكيْفَ تَنْصَرِفونَ عنِ الإيمانِ بهِ ؟

وجَعَلَ اللهُ تَعالى إعادةَ المَخلوقاتِ بَعْدَ مَوْتِها حُجَّةً عَلَيْهِمْ في التَّدليلِ عَلى قُدرَتِهِ ، مَعَ عدم اعْترافِهمْ بهذهِ الإعادةِ ، للإيذانِ بسُطوعِ أدلَّتِها وَوُضوحِها ، ذلِكَ أنَّ القادِرَ عَلى البَدْءِ يَكونُ أَقْدَرَ عَلى الإعادةِ ، كما قالَ تَعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم : ٢٧] .

ثُمَّ ساقَ اللهُ تَعالى دَليلاً آخَرَ عَلى وَحدانيَّتِهِ وقُدرتِهِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

قلْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ لهؤلاءِ المُشرِكينَ : هلْ مِنْ مَعبوداتِكُمُ الّتي جَعَلْتُموها شُركاءَ للهِ تَعالى مَنْ يَستطيعُ التَّمييزَ بينَ الهُدى والضَّلالِ ، فيُرْشِدُ سِواهُ إلى الدِّينِ الحَقِّ ، فيُنْزِلَ كِتاباً أو يُرْسِلَ رسولاً ، أو يُشَرِّعَ شريعةً ، أو يَضَعَ نِظاماً دَقيقاً لهذا الكَوْنِ ، أو يَحُثَّ العقولَ على التَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في السَّمواتِ والأرضِ ؟ فَسَيَعْجَزونَ عنِ الإجابةِ! فقلْ لهُمْ : هلِ القادرُ على الهدايةِ إلى الحَقِّ أَوْلى بالاتِّباعِ والعِبادةِ أمِ الّذي لا يَستطيعُ أنْ يَهتدِيَ بنفسِهِ ؟ وهو بالأوْلى لا يَهدي غَيْرَهُ ، إلاّ إذا هَداهُ غَيرُهُ ؟ كرؤوسِ الكُفْرِ ، والأحْبارِ ، والرُّهبانِ الّذينَ اتَّخذتُموهُمْ أرْباباً مِنْ دونَ اللهِ تَعالى ، فما الّذي جَعَلَكُمْ تَنْحَرِفونَ حتّى أَشْرَكْتُمْ هؤلاءِ مَعَ اللهِ تَعالى ؟ وما هذهِ الحالُ العَجيبةُ الّتي تُجْبِرُكُمْ على تلكَ الأَحْكامِ الغَريبةِ ؟

ثُمَّ وبَّخَ اللهُ تَعالى هؤلاءِ المُشركينَ بما هُمْ أَهْلُهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

وما يَتَّبعُ أكْثَرُ المُشرِكينَ في مُعتقداتِهِمْ إلاّ ظُنوناً باطِلَةً وأَوْهاماً كاذِبَةً لا دَليلَ عَلَيْها ، والظَّنُّ ـ على وجهِ العُمومِ ـ لا يُفيدُ ، ولا يُغْني عَنِ العِلْمِ الحَقِّ أيَّ غَناءٍ ، ولا سيّما إذا كانَ ظَنّاً وهْمِيّاً كظنِّ هؤلاءِ المُشرِكينَ ، وإنَّ اللهَ تَعالى عليمٌ بما يَفعلُهُ رُؤساءُ الكُفْرِ وأَتْباعُهُمُ الّذينَ يُقلِّدونَهُمْ ، وسَيُجازيهِمْ على ذلكَ .

وخَصَّ أكثرَهُمْ بالذِّكْرِ ، إمّا لأنَّ هناكَ قِلَّةً منهمْ يَعرِفونَ الحَقَّ كَما يَعرِفونَ أبناءَهُمْ ، لكنَّهُمْ لا يَتَّبعونَهُ عِناداً وجُحوداً وحَسَدا ، كما قالَ تَعالى : ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام : ٣٣] ، أو للإشارةِ إلى أنَّ قِلَّةً مِنهمْ تَعْرِفُ الحَقَّ وسَتَتَبِعُهُ في الوقتِ الّذي يُريدُهُ اللهُ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الحقُّ والضَّلالُ نَقيضانِ لا يَجْتَمِعانِ .

٢ـ طريقةُ السّؤالِ والجَوابِ في عَرْضِ الأدلَّةِ نافعةٌ ومُفيدَةٌ .

٣ـ الآياتُ والأدِلَّةُ عَلى وَحْدانيَّةِ اللهِ تَعالى واضِحَةٌ وكَثيرةٌ .

٤ـ المُشرِكونَ يُقرّونَ بِقُدْرَةِ اللهِ تَعالى لكنَّهُمْ يَتعالَوْنَ عنِ الحَقِّ ، ويَتبَّعونَ الظَّنَّ .

٥ـ مَنْ لا يَمْلِكُ الهِدايَةَ لنفسهِ لا يَمْلِكُها للآخَرينَ ، واللهُ وحْدَهُ الهادي إلى سواءِ السَّبيلِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

أنَّى تُصرَفونَ ، حقَّتْ كلمةُ ربِّكَ ، أنّى تُؤْفَكونَ ، لا يَهِدِّي .

٢ـ بَسَطَ اللهُ تَعالى مِنَ الأدِلَّةِ عَلى وَحدانيَّتِهِ في هذهِ الآياتِ سَبْعاً ، اذْكُرْها ، واذْكُرْ دَليلَها مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ .

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما الّذي دَفَعَ المُشرِكينَ إلى ما هُمْ فيهِ ، وضِّحْ ذلكَ .

٤ـ ما قيمةُ الظَّنِّ أمامَ الحَقِّ ؟

٥ـ اخترْ مِنْ آياتِ الدّرْسِ الكَلِمةَ المُناسِبَةَ لكلٍّ مِنَ الفَراغاتِ التّاليةِ :

أـ فَسَيقولونَ اللهُ فقلْ أفلا. . . . .

ب ـ قلِ اللهُ يَبدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ فأنّى. . . . .

ج ـ فماذا بَعْدَ الحَقِّ إلاّ الضَّلالُ فأنَّى. . . . .

نَشاطٌ :

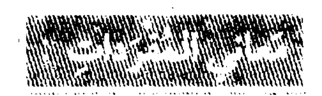
ـ ارْجِعْ إلى أحدِ كُتبِ عِلْمِ التَّجويدِ أو كُتبِ التّفسيرِ ، وبيِّنْ مَعنى كلمةِ : يهدِّي ، وأصْلَ تَركيبِها ، وما طرأَ عَليْها .

* * *

الدَّرسُ العاشِرُ

سورَةُ يونُسَ ـ القِسْمُ العاشِرُ

وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾



يَفْتَري	: يَدَّعي كَذِباً أنَّهُ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى .
تَصديقَ الّذي بينَ يديهِ	: مُصدِّقاً لِما جاءَ قَبْلَهُ مِنَ الكُتُبِ .
تَفصيلَ الكِتابِ	: بيانَ الأحكامِ الشّرْعيّةِ .



بَعْدَ أنْ ساقتِ السّورَةُ الكَريمةُ ألْواناً مِنَ البَراهينِ الدّالّةِ على وَحْدانيّةِ اللهِ تَعالى وقُدْرَتِهِ ، وعلى صِدْقِ الرّسولِ ﷺ فيما يُبلّغُهُ عَنْ ربِّهِ ، وعلى أنَّ هذا القرآنَ الكَريمَ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، عادتِ السّورَةُ الكَريمَةُ للحديثِ عَنِ القُرْآنِ الكَريمِ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

ما كانَ يَتأتّى في هذا القُرْآنِ أنْ يَفتريَهُ أحَدٌ مِنَ النّاسِ ، ويَدَّعي كَذِباً أنّهُ مِنْ عندِ اللهِ ، لأنّهُ في إعجازِهِ وهِدايَتِهِ وإِحْكامِهِ لا يُمْكِنُ أنْ يكونَ مِنْ عندِ غيرِ اللهِ تَعالى ، فهو حَقّاً مِنْ عندِ اللهِ جاءَ مُصَدِّقاً لِما سَبَقَهُ مِنَ الكُتُبِ السَّماويَّةِ فيما جاءتْ بهِ مِنَ الحَقِّ ، ومُوَضِّحاً لِما كَتَبَ وأَثْبَتَ مِنَ الحَقائِقِ والشَّرائِعِ ، ولا شَكَّ في أنَّ هذا القرآنَ مُنَزَّلٌ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى وأنّهُ مُعْجِزٌ لا يَقْدِرُ أحدٌ على مِثْلِهِ .

وبهذا نَرى أنَّ الآيَةَ الكَريمةَ وَصَفتِ القُرْآنَ الكَريمَ بِصِفاتٍ خَمْسٍ ، وهِيَ :

أوّلاً : لا يَصِحُّ أنْ يُفْتَرى هذا القرآنُ ويُنْسبَ إلى غيرِ اللهِ تَعالى .

ثانياً : مُصدِّقٌ لِما قَبْلَهُ مِنَ الكُتبِ السّماويَّةِ .

ثالثاً : مُفَصِّلٌ لِتعاليمِ الشَّريعةِ الإلهيَّةِ ومُبَيِّنٌ لأحْكامِها .

رابعاً : ذلكَ الكتابُ لا رَيْبَ فيهِ .

خامِساً : هو مِنْ عندِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَزاعِمَ المُشرِكينَ حوْلَ القُرآنِ الكَريمِ ، وردَّ عليْهِمْ مُتحدِّياً ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

بلْ يقولُ هؤلاءِ المُشْرِكونَ : اخْتَلَقَ محمَّدٌ ﷺ هذا القرآنَ مِنْ عندِهِ ، فأَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَقولَ لَهُمْ عَلى سبيلِ التَّبكيتِ والتَّحدّي : إنْ كانَ الأمْرُ كما زَعَمْتُمْ مِنْ أنّي أنا الّذي اخْتَلَقْتُ هذا القرآنَ ، فَأْتوا أنتُمْ يا فُصَحاءَ العَرَبِ بسورةٍ مثلِهِ في البَلاغةِ والهِدايةِ وقُوَّةِ التَّأْثيرِ ، وقدْ أَبَحْتُ لكُمْ معَ ذلِكَ أنْ تَدعوا لِمُعاوَنَتِكُمْ ومُساعَدَتِكُمْ في بُلوغِ غايَتِكُمْ كلَّ مَنْ تَستطيعونَ دَعوَتَهُ سِوى اللهِ تَعالى .

وهذِهِ الآيةُ الكَريمةُ قدْ تَحدَّتِ العَرَبَ وأثارَتْ حَماسَتَهُمْ ، وأرْخَتْ لهُمُ الحَبْلَ ، وعَرَّضتْ بِعَدَمِ صِدْقِهِمْ ، حتّى تَتوفَّرَ دواعيهِمْ عَلى المُعارَضَةِ الّتي زَعَموا أنَّهُمْ أهلٌ لَها .

ثُمَّ انتقلتِ السّورةُ الكَريمَةُ مِنْ تَوْبيخِهِمْ عَلى كَذِبِهِمْ وجُحودِهِمْ ، إلى تَوْبيخِهِمْ عَلى جَهْلِهِمْ وغَبائِهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

بلْ سارَعَ هؤلاءِ المُشرِكونَ إلى تَكذيبِ القُرآنِ الكَريمِ مِنْ غيرِ أنْ يَتدبَّروا ، ويَعلَموا ما فيهِ ، فلمْ يَنظُروا فيهِ بأنفُسِهِمْ ، ولم يَقِفوا عَلى تَفسيرِهِ وبَيانِ أحْكامِهِ بالرُّجوعِ إلى غَيْرِهِمْ ، وبِمثْلِ هذهِ الطَّريقةِ

في التّكذيبِ مِنْ غيرِ عِلْمٍ كَذَّبَ الكافِرونَ مِنَ الأُمَمِ السَّابِقةِ رُسُلَهُمْ وكُتبَهُمْ ، فانْظُرْ أيُّها الإنْسانُ ما آلَ إليهِ أمْرُ المُكذِّبينَ السّابِقينَ مِنْ خُذلانِهِمْ وهَلاكِهِمْ بالعذابِ ، وهذهِ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في أمثالِهِمْ .

ثُمَّ فصَّلَ اللهُ تَعالى أحوالَهُم ومَواقِفَهُمْ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ ، فقالَ تعالى :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

ومِنْ هؤلاءِ الّذينَ بُعِثْتَ إليْهِمْ يا مُحمَّدُ ﷺ مَنْ يُؤمِنُ بهذا القُرآنِ ، ويَتَّبِعُكَ ويَنْتَفِعُ بما أُرسِلْتَ بهِ ، ومِنهُمْ مَنْ لا يُؤمِنُ بهِ أبَداً لاسْتحبابِهِمُ العَمى عَلى الهُدى .

ومَعنى قولِهِ تَعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أيْ : وربُّكَ أعلمُ بهؤلاءِ الّذينَ أفْسَدوا في الأرضِ بالشِّرْكِ والظُّلْمِ والفُجورِ ، وسَيُحاسِبُهُمْ عَلى ذلِكَ يومَ الدّينِ حِساباً عَسيراً . فالآيةُ تهديدٌ ووعيدٌ . ثُمَّ طَمْأنَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ بالبَراءةِ مِنَ الشِّرْكِ والمُشركينَ ، فقالَ تعالى :

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ .

وإنْ أصَرّوا عَلى تَكذيبِكَ أيُّها الرّسولُ ﷺ بَعْدَ وُضوحِ الأدِلَّةِ عَلى نُبوَّتِكَ ، فقلْ لَهُمْ : إنَّ لِيَ جزاءَ عَمَلي ، ولكُمْ جزاءُ عَمَلِكُمْ كَيْفَما كانَ ، وإنّي مُسْتَمِرٌّ في دَعوَتي ، وأنتُمْ لا تُؤاخَذونَ بِعَمَلي ، وأنا لا أُؤاخَذُ بِعَمَلِكُمْ ، فافْعَلوا ما شِئتُمْ ، وسَيُجازي اللهُ تَعالى كُلاًّ بما كَسَبَ .

وهذهِ الآيةُ الكَريمةُ تَسليةٌ للرَّسولِ ﷺ عمّا أصابَهُ مِنْ قومِهِ ، وإعلامٌ لَهُ بأنَّ وظيفَتَهُ البَلاغُ ، أمّا حسابُ أعْمالِهِمْ فَعلى اللهِ تَعالى . ثُمَّ صَوَّرَ اللهُ تَعالى ما عليهِ أولئِكَ الجاحِدونَ مِنْ جَهالاتٍ وغَباءٍ ، فقالَ تعالى :

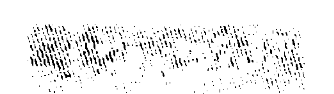
﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

ومِنْ هؤلاءِ المُشْركينَ يا مُحمّدُ ﷺ مَنْ يَستمِعونَ إليْكَ ، وأنْتَ تَقرأُ عليْهِمُ القرآنَ ، وتُرْشِدُهُمْ إلى ما يَنفعُهُمْ ، ولكنَّهُمْ يَستمِعونَ بلا تَدبُّرٍ أو فَهْمٍ ، فهلْ أنتَ يا محمَّدُ ﷺ في إمكانِكَ أنْ تُسْمِعَ الصُّمَّ ، ولوِ انضمَّ إلى صَمَمِهِمْ عدمُ تَعقُّلِهِمْ ؟ فإنَّ الأصَمَّ العاقِلَ ربَّما تَفرَّسَ واسْتَدلَّ إذا وقَعَ في صَماخِهِ دويُّ الصَّوْتِ ، فإذا اجْتَمَعَ سَلْبُ السّمْعِ والعَقْلِ جميعاً فقدْ تَمَّ الأمْرُ .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ .

ومِنْ هؤلاءِ المُشركينَ يا مُحمَّدُ ﷺ مَنْ يَنظُرُ إليْكَ ، ويُشاهِدُ البَراهينَ الدّالّةَ على صِدْقِكَ ، فإنَّ وجْهَكَ ليسَ بوجهِ كَذّابٍ ، ولكنَّهُ لا يَتّبِعُ دَعوتَكَ جُحوداً وعِناداً ، فهلْ أنْتَ في إمْكانِكَ أنْ تَهدِيَ العُمْيَ ولوِ انضمَّ إلى فُقْدانِ بَصَرِهِمْ فُقدانُ بَصيرَتِهِمْ .

وفي هاتَيْنِ الآيتيْنِ نَعى اللهُ على المُشركينَ جَهالاتِهِمْ ، وانْطِماسَ بَصائِرِهِمْ ، بحيثُ صاروا لا يَنتفِعونَ بِنِعَمِ اللهِ تَعالى الّتي أنعمَ بِها عَليْهِمْ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القرآنُ الكَريمُ مُعجزةُ الرّسولِ ﷺ ، وكلامُ اللهِ تعالى الّذي لا يَستطيعُ أحدٌ أنْ يَأْتِيَ بِمِثْلِهِ .

٢ـ عَجْزُ العَرَبِ عنِ الإتْيانِ بِمِثْلِ القُرْآنِ الكَريمِ دَليلُ صِدْقِ الرّسولِ ﷺ .

٣ـ الظّالِمونَ هُمُ الّذينَ افْتَرَوْا عَلى اللهِ تَعالى الأكاذيبَ .

٤ـ ليسَ عَلى الرّسولِ ﷺ إلاّ البَلاغُ ، ولا تَزِرُ وازِرةٌ وِزْرَ أُخْرى .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

يَفْتَري ، تَصديقَ الّذي بينَ يديهِ ، تَفصيلَ الكِتابِ .

٢ـ وَصَفَ اللهُ تَعالى القرآنَ الكَريمَ بأوصافٍ ، بيِّنْها معَ ذِكْرِ الدَّليلِ عَلى ما تَقولُ .

٣ـ علامَ يدلُّ عَجْزُ العَرَبِ عنْ أنْ يَأْتوا بِمِثْلِ القُرآنِ الكَريمِ ؟

٤ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ وجْهَ الشَّبَهِ بَيْنَ مُشركي العَرَبِ ومَنْ سَبَقَهُمْ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٥ـ ما الدَّليلُ عَلى أنَّ العرَبَ في دَواخِلِهِمْ كانوا مُصَدِّقينَ بِنُبُوَّةِ النَّبيِّ ﷺ ؟

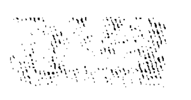
٦ـ امْلأْ الفراغَ بالكلمةِ القُرآنيةِ المُناسبةِ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ فيما يَلي :

أـ وما كانَ هذا القرآنُ أنْ (   ) مِنْ دونِ اللهِ .

ب ـ قلْ فأتوا بِسورَةٍ (   ) .

ج ـ أفَأنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ ولو كانوا لا (   ) .

دـ أفَأنتَ تَهْدي العُمْيَ ولو كانوا لا (   ) .



ـ اكْتُبْ في دَفترِكَ آيةَ سورةِ البَقرةِ الدّالَّةَ عَلى التَّحدّي .

الدَّرْسُ الحادي عَشَرَ

سورَةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الحادي عَشَرَ

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

معاني المُفرداتِ :

يَتعارَفونَ بَيْنَهُمْ	: يَتعرَّفُ بَعْضُهُمْ على بَعْضٍ .
بَعْضَ الّذي نَعِدُهُمْ	: العَذابَ الّذي وُعِدوهُ .
بالقِسْطِ	: بالعَدْلِ .

التفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنتِ السّورَةُ الكَريمةُ أَحْوالَ المُشرِكينَ في الدُّنْيا ، ومَواقِفَهُمْ مِنْ دَعوةِ الحَقِّ أَتْبعَتْ ذلِكَ بالحديثِ عَنْ سُنَّةِ اللهِ تَعالى فيهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ .

إنَّ اللهَ تَعالى قدِ اقْتَضَتْ سُنَّتُهُ في خَلْقِهِ ، وحِكْمَتُهُ وإرادَتُهُ أنْ لا يَظْلِمَهُمْ شيئاً ، كَأَنْ يُعذِّبَهُمْ مَثَلاً مَعَ إيمانِهِمْ وطاعَتِهِمْ لهُ ، أو يُنْقِصَهُمْ شيئاً مِنَ الأسبابِ الّتي يَهْتَدونَ باسْتِعمالِها إلى ما فيهِ خيرُهُمْ ، ولكنَّ النّاسَ همُ الّذينَ يَظْلِمونَ أنفُسَهُمْ بإيرادِها مَوارِدَ المَهالِكِ عَنْ طريقِ اجْتراحِ السَّيِّئاتِ ،

واقْتِرافِ الموبقاتِ ، الموجبَةِ للعُقوباتِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

ثُمَّ وجَّهَ اللهُ تَعالى إليْهِمُ الإنذارَ بالحَشْرِ يومَ القِيامَةِ ، فقالَ تعالى :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ .

وأنْذِرْهُمْ أَيُّها الرَّسولُ ﷺ يومَ نَجمعُهُمْ للحساب فَيَتحقَّقونَ مَجيءَ اليوم الآخِرِ بَعْدَ أنْ كانوا يُكذِّبونَ بهِ ، ويَتذَكَّرونَ حياتَهُمْ في الدُّنْيا كأنَّها ساعةٌ مِنَ النَّهارِ لمْ تَتَّسِعْ لِما كانَ يَنْبَغي مِنْ عَمَلِ الخَيْرِ ، ويَعرِفُ بَعضُهُمْ بَعْضاً ، ويَأْخُذونَ يَتلاوَمونَ عَلى ما كانوا عليهِ مِنَ الكُفْرِ والضَّلالِ ، وقَدْ خَسِرَ المُكذِّبونَ باليومِ الآخِرِ ، فلمْ يُقدِّموا في دُنْياهُمْ عَمَلاً صالِحاً ، ولم يَظْفَروا بِنعيمِ الآخِرَةِ بكُفْرِهِمْ .

والمَقصودُ بهذا التَّشبيهِ ، بيانُ أنَّ هذهِ السَّنواتِ الطَّويلةَ الّتي قَضاها هؤلاءِ المُشرِكونَ في الدُّنْيا يَتمتَّعونَ باللَّهْوِ واللَّعِبِ ، ويَستبعِدونَ أنَّ هناكَ بَعْثاً وحِساباً ، قدْ زالَتْ عنْ ذاكرتِهِمْ في يوم القيامةِ ، حتّى لَكأنَّهُمْ لمْ يَمْكُثوا فيها سِوى وقتٍ قَصيرٍ ، لا يَتَّسِعُ لأكثرَ مِنَ التَّعارُفِ القليلِ معَ الأقاربِ والجيرانِ والأَصْدقاءِ ، حتّى لَكأنَّ ذلكَ النَّعيمَ الّذي تَقلّبوا فيهِ دَهْراً طَويلاً لَمْ يَرَوْهُ مِنْ قَبْلُ . ومِثْلُ هذهِ الآيةِ الكَريمةِ قولُهُ تَعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ . [الأحقاف : ٣٥] .

ثُمَّ سلّى اللهُ تَعالى رسولَهُ ﷺ عمّا وَقَعَ منهُمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

إنّ هؤلاءِ المُشرِكينَ الّذينَ عادَوْكَ أَيُّها الرَّسولُ الكَريمُ ﷺ لا يَخْفى عَلَيْنا أمرُهُمْ ، ونحنُ إمّا نُرِيَنَّكَ بِبَصرِكَ فتُشاهِدَ بعضَ الّذي نَعِدُهُمْ مِنَ العذابِ الدُّنيويِّ ، وإمَّا نَتوفَّيَنَّكَ قبلَ ذلِكَ ، وفي كِلتا الحالتيْنِ فإنَّ مصيرَهُمْ بِأيْدينا ، ومَرجِعُهُمْ إليْنا وحْدَنا في الآخِرَةِ ، فَنُعاقِبُهُمُ العُقوبَةَ الّتي يَسْتَحقّونَها .

وقدْ أنجزَ اللهُ تَعالى وعْدَهُ لنبيِّهِ ﷺ ، فَسلَّطَ عَلى المُشرِكينَ القَحْطَ والمَجاعَةَ ، حتّى كانوا لِشدَّةِ جوعِهِمْ يَرَوْنَ كأنَّ بينَهُمْ وبينَ السَّماءِ دُخاناً ، ونَصَرَ اللهُ تَعالى المُسلِمينَ عَليْهِمْ في غَزْوَتي بَدْرٍ ويومَ الفَتْحِ ، وكلُّ ذلكَ حَدَثَ في حياةِ النَّبيِّ ﷺ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّ مِنْ مَظاهِرِ رَحمتِهِ بِعبادِهِ أنْ جَعَلَ لكلِّ أُمَّةٍ رَسولاً يَهديها إلى الحَقِّ وإلى الطَّريقِ المُستقيمِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

إنَّه سُبْحانَهُ وتَعالى اقْتَضتْ حِكْمَتُهُ أنْ يَجعلَ لكلِّ جماعةٍ مِنَ النّاسِ رَسولاً يُبلِّغُهُمْ ما أمَرَهُ اللهُ تَعالى بِتبليغِهِ ، ويشهدُ عليْهِمْ بذلكَ يومَ القيامةِ ، فإذا جاءَ رسولُهُمْ وشَهِدَ عَليْهِمْ بأنَّهُ قدْ بلَّغَهُمْ ما أمَرَهُ اللهُ تَعالى بهِ ، قَضى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَيْنَهُ وبَيْنَهُمْ بالعَدْلِ ، فحَكَمَ بِنَجاةِ المُؤْمِنينَ وبِعُقوبةِ الكافِرينَ ، ولا يظلمُ ربُّكَ أحَداً .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى شِدَّةَ عِنادِهِمْ وجُحودِهِمْ ، وأنَّهُمْ بَعْدَ كلِّ هذهِ الآياتِ لَمْ يُؤْمِنوا ولَمْ يُصَدِّقوا ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

ويُمْعِنُ الّذينَ كَفروا في التّكذيبِ باليومِ الآخِرِ ، فَيَسْتَعجِلونَهُ مُتهكِّمينَ ، ويَقولونَ متى هذا الّذي تَعِدُنا بهِ مِنَ العذابِ الأليمِ الّذي تُهدِّدُنا بِهِ ؟ إنّنا نَتعجَّلُهُ ، فَأْتِ بِهِ إنْ كنتَ أنتَ وأصْحابُكَ مِنَ الصّادِقينَ في دَعواكُمْ أنَّ هناكَ عذاباً يَنتظِرُنا .

وبعدَ هذا ، أمَرَ اللهُ تَعالى رسولَهُ ﷺ أنْ يَرُدَّ عَليْهِمْ ، ويُسْكِتَ أفواهَهُمُ الّتي ما فَتِئَتْ تَتكلَّمُ إلاّ بالجَدَلِ العَقيمِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ .

قلْ يا محمّدُ ﷺ لِهؤلاءِ الجاهِلينَ المُتَعَجِّلينَ لِلْعَذابِ : إنَّني لا أمْلِكُ لِنَفْسي شَيْئاً مِنَ الضُّرِّ فأدفعُهُ عنها ، ولا شيئاً مِنَ النَّفْعِ فأجْلِبُهُ لها ، لكنَّ الّذي يَمْلِكُ ذلكَ هُوَ اللهُ تَعالى وَحْدَهُ ، فهوَ سُبْحانَهُ الّذي يَملِكُ أنْ يُنزلَ العذابَ في أيِّ وقتٍ يشاءُ ، فَلماذا تَطلُبونَ منّي ما ليسَ في قُدْرَتي ، إنّ لكلِّ أمّةٍ مِنَ الأُممِ أجَلاً قدَّرهُ اللهُ تَعالى لانْتِهاءِ حياتِها ، فإذا حانَ وقتُ هذا الأجَلِ ، هَلَكتْ في الحالِ دونَ أنْ تَتقدَّمَ عَلى الوقتِ المُحدَّدِ لِوقْتِها ساعةً أو تتأخَّرَ ساعةً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِد الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ العَدْلُ كلُّهُ إلى اللهِ تَعالى ، ولا يَظلِمُ ربُّكَ أحَداً .

٢ـ الظُّلْمُ إنّما يَقعُ مِنَ النّاسِ بعضِهِمْ لبعضٍ .

٣ـ عندَ قيامِ السّاعةِ تَحِلُّ بالكافِرينَ النَّدامةُ ، ويَنْسى الكافِرُ أيّامَ دُنْياهُ .

٤ـ اللهُ تَعالى لا يُضيعُ شيئاً ولا تَخْفى عليهِ خافِيَةٌ .

٥ـ لا يُعذِّبُ اللهُ تَعالى أُمَّةً دونَ أنْ يُرسِلَ إليْها رسولاً .

٦ـ اسْتِعجالُ الكافِرينَ بالعذابِ دليلٌ عَلى جَهْلِهِمْ وَفسادِ عُقولِهِمْ .

٧ـ آجالُ الأُمَمِ مُحدَّدةٌ ومُقَدَّرَةٌ لا يَتقدَّمونَ عنْها ولا يَتأخَّرونَ ، فلا تَهْلِكُ أُمَّةٌ قبلَ حُلولِ أجَلِها .

التقويم :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

يَتعارَفونَ بَيْنَهُمْ ، بَعْضَ الّذي نَعِدُهُمْ ، بالقِسْطِ .

٢ـ ماذا تفهمُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أـ إنّ اللهَ لا يَظلِمُ النّاسَ شَيْئاً .

ب ـ ويومَ يَحشرُهُم كَأَنْ لَمْ يَلْبَثوا إلاّ ساعةً .

ج ـ ولكلِّ أمةٍ رسولٌ .

دـ وَيَقولونَ متى هذا الوَعْدُ .

٣ـ تَحقَّقَ وعْدُ اللهِ تَعالى لِنبيِّهِ ﷺ في قولِهِ : ﴿نُرِيَنكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ ، وضِّحْ ذلكَ .

٤ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةَ أنَّ الأمْرَ كُلَّهُ بيدِ اللهِ تَعالى ، وضِّحْ ذلِكَ ذاكِراً دليلَهُ .

٥ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ حَماقةَ الجاهِلينَ في اسْتِعجالِ عذابِ اللهِ تَعالى ، بيِّنْ ذلِكَ .

نشاط :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أسماءَ خمسةٍ مِنَ الرُّسُلِ والأقوامِ الَّذينَ بُعِثَ إليْهِمْ كلٌّ مِنهُمْ .

* * *

الدَّرسُ الثَّاني عَشَرَ

سورَةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الثّاني عَشَرَ

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ۝٥٢ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ۝٥٣ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٥٤ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٥ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٥٦ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أرَأَيتُمْ : أَخْبِروني .

بَياتاً : لَيْلاً .

يَستنبئونَكَ : يَطْلُبونَ مِنْكَ الأَخْبارَ المُهِمَّةَ .

أَسَرّوا النَّدامَةَ : أَخْفَوْها حينَ رأَوْا مُقَدِّماتِ العذابِ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ بيانِ سُنَّةِ اللهِ تَعالى في الَّذينَ ظَلَموا ، بَيَّنَتِ السّورةُ الكَريمةُ شَيْئاً مِنَ الحُجَجِ الّتي قابَلَ بِها رَسولُ اللهِ ﷺ اسْتِهْزاءَ المُشرِكينَ وتَقَوُّلَهُمْ عَلى اللهِ تَعالى ما لا يَعلمونَ ، قالَ تَعالى :

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ ﴾ .

أَخْبِروني أَيُّها الحَمْقى الجاهِلونَ : أيُّ دافعٍ جعلَكُمْ تتعجَّلونَ نُزولَ العذابِ ؟ إنَّ وُقوعَ العذابِ

سواءً أكانَ باللّيلِ أمْ النّهارِ لا يُمْكِنُ دَفْعُهُ ، ولا يُمكِنُ أنْ يَتعجَّلَهُ عاقِلٌ ، لأنّهُ كلُّهُ مَكروهٌ مُرُّ المَذاقِ ، موجِبٌ للنِّفارِ والخَوْفِ منهُ ، فكيفَ ساغَ لكُمْ أيُّها الجاهِلونَ أنْ تَستعجِلوا نُزولَ شيءٍ فيهِ هَلاكُكُمْ ومَضَرَّتُكُمْ ؟

وهذهِ الآيةُ توبيخٌ لِلمُشْرِكينَ عَلى اسْتِعجالِهِمْ وُقوعَ شيءٍ مِنْ شَأْنِ العُقَلاءِ أنْ يَرْجوا عدَمَ وُقوعِهِ ، وفي قولِهِ تَعالى : ﴿ مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ استفهامٌ يُفيدُ : التَّهويلَ والتَّعظيمَ ، أي : ما أعظمَ ما يَستعجِلونَ بِهِ ؟

ثُمَّ وبَّخَ اللهُ تَعالى المُشرِكينَ الّذينَ سَيوقِنونَ بالعذابِ حينَ يُشاهِدونَهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ﴾ .

إنّكم أيُّها الجاهِلونَ لَسْتُمْ بِصادِقينَ فيما تَطلبونَ ، لأنّكُمْ قبلَ وُقوعِ العَذابِ تَتعجَّلونَ وُقوعَهُ ، فإذا ما وَقَعَ وشاهدْتُمْ أهوالَهُ وذُقْتُم مَرارَتَهُ آمنتُمْ بأنّهُ حَقٌّ ، وتحوَّلَ اسْتِهزاؤُكُم إلى تصديقٍ وإذعانٍ وتحسُّرٍ ، ثُمَّ يُقالَ لَهُمْ عند ذلِكَ : الآنَ آمنتُمْ بِهِ ؟ معَ أنّكُمْ كنتم قبلَ ذلِكَ تَستهزِءونَ بِهِ وتَقولونَ للرّسولِ ﷺ ولِمَنِ اتَّبعَهُ : متى هذا الوعدُ إنْ كنتُمْ صادِقينَ ؟ ألا فاعْلَموا أنَّ إيمانَكُمْ في هذا الوقتِ غيرُ مقبولٍ ، ولا نافع ، لأنّهُ جاءَ في غيرِ أوانِهِ ، وصدقَ اللهُ العظيمُ إذ يقولُ : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [غافر ٨٤ـ٨٥] .

ثُمَّ زادَ اللهُ تَعالى في تَأْنيبِهِم بِما يُؤكِّدُ تَوبيخَهُمْ وأنّهُمْ عَلى ضَلالٍ مُبينٍ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ .

ثُمَّ يُقالُ يومَ القيامةِ للّذينَ ظَلَموا أنفسَهُمْ بإصْرارِهِمْ عَلى الكُفْرِ واقْترافِ المُنْكَراتِ : ذوقوا العذابَ الباقي الدّائِمَ ، فإنّكُمْ لا تُجزَوْنَ الآنَ إلاّ عَلى أعمالِكُمُ الّتي كَسبْتُموها في الدُّنْيا مِنْ كُفْرٍ بالحَقِّ ، وإيذاءٍ للدُّعاةِ إليهِ ، وتَكذيبٍ بِوَحْيِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أيضاً شَيْئاً مِنَ اسْتِهزائِهِمْ بالنَّبيِّ ﷺ عنْ طريقِ بَعْضِ ما كانوا يَطلبونَهُ ويَسألونَ النَّبيَّ ﷺ ، قالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

إنَّ هؤلاءِ الكافِرينَ يَطلبونَ منكَ أيُّها الرَّسولُ ﷺ عَلى سبيلِ التَّهكُّمِ والاسْتِهزاءِ ، أنْ تُخبرَهُمْ عنْ هذا العذابِ الّذي تَوعَّدتَهُمْ بِهِ ، أهوَ واقعٌ بهمْ عَلى سبيلِ الحَقيقةِ ، أمْ هو غيرُ واقعٍ وتُحدِّثُهُمْ عنهُ عَلى سبيلِ الإرْهابِ والتَّهديدِ ؟ ثُمَّ أرشدَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ للرَّدِّ عَلَيْهِم بقولِهِ : قلْ لَهُمْ : نَعَمْ وحَقِّ ربّي ، إنَّ العذابَ الّذي أخْبَرْتُكُمْ عنهُ لا مَحيصَ لكمْ عنهُ ، ولا مَهْرَبَ لكُمْ مِنْهُ ، وما أنتُمْ

بِمُعجزي اللهِ تَعالى إذا أرادَ أنْ يُنزِلَهُ بكمْ في أيِّ وقتٍ يُريدُهُ ، بلْ أنتُمْ في قَبضتِهِ وتحتَ سُلطانِهِ ومُلْكِهِ ، فاتَّقوا اللهَ تَعالى ، بأنْ تُخلِصوا لهُ العبادَةَ ، وتتَّبِعوا رَسولَهُ ﷺ فيما جاءَكُمْ بِهِ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّهُمْ لنْ يَسْتَطيعوا افْتِداءَ أنْفُسِهِمْ مِنَ العَذابِ عندَ وُقوعِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

ولَوْ أنَّ كُلَّ ما في الأرضِ مَمْلوكٌ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ بارتكابِ الشِّرْكِ والجُحودِ ، لارْتَضَتْ سَريعاً أنْ تُقدِّمَهُ فِداءً لِما تَستقبلُهُ مِنْ عذابٍ تَراهُ يومَ القيامةِ وتُعايِنُ هَوْلَهُ ، وحينئذٍ يَتردَّدُ النَّدَمُ والحَسْرَةُ في سرائِرِهِمْ لِعجْزِهِمْ عنِ النُّطْقِ بهِ ، ولِشدَّةِ ما دَهاهُمْ مِنَ الفَزَعِ لِرؤيةِ ذلِكَ العذابِ ، ونَفَذَ فيهِمْ قَضاءُ اللهِ تَعالى بالعَدْلِ وهُمْ غيرُ مَظلومينَ في هذا الجَزاءِ ، لأنَّهُ نَتيجةُ ما قدَّموا في الدُّنْيا .

ثُمَّ ساقَ اللهُ تَعالى بعضَ ما يَدُلُّ على كَمالِ قُدرَتِهِ وعَظيمِ مُلْكِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

لِيَعْلَمِ النّاسُ أنَّ للهِ تَعالى وحْدَهُ لا لِغيرِهِ ، مُلْكُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مِنْ مَخلوقاتٍ ، وهو سُبْحانَهُ يَتصرَّفُ فيها وِفْقَ إرادَتِهِ ومَشيئتِهِ مثْلَما يَتصرَّفُ المالِكُ فيما يَمْلِكُهُ ، فهو يُعطي مَنْ يشاءُ ، ويغفِرُ لِمَنْ يشاءُ ، ويتوبُ على مَنْ يشاءُ : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . ولِيَعْلَمِ النّاسُ كذلكَ أنَّ وعْدَ اللهِ تَعالى حَقٌّ ، فلا يُعجزُهُ شيءٌ ، ولا يَفْلِتُ مِنْ جزائِهِ أحَدٌ ، ولكنَّهُمْ قدْ غرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنْيا ، فلا يَعْلَمونَ ذلِكَ عِلْمَ اليَقينِ .

وفي قولِهِ تَعالى : ﴿ولكنَّ أكثرَهُمْ لا يَعلمونَ﴾ إنْصافٌ لِلقِلَّةِ المُؤمِنَةِ مِنَ النّاسِ الّتي عَلِمَتِ الحَقَّ فاتَّبَعَتْهُ وصدَّقَتْهُ ، ووقَفَتْ إلى جانِبِ الرَّسولِ ﷺ تُؤيِّدُهُ ، وتَفتدي دَعوَتَهُ بالنَّفْسِ والمالِ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى مَظهرَيْنِ بارزَيْنِ مِنْ مَظاهِرِ خُضوعِ الكوْنِ بما فيهِ لإرادَتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، فقالَ :

﴿ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

إنَّ اللهَ تَعالى يَهَبُ الحياةَ بعدَ عَدَمٍ لِمَنْ أرادَ لهُ ذلِكَ ، ويَسْلُبُ الحياةَ بَعْدَ وُجودِها مِمَّنْ أرادَ منهُ ذلكَ ، وإليهِ سُبْحانَهُ وتَعالى المَرْجِعُ في الآخِرَةِ ، يُحاسِبُ النّاسَ على ما بَدَرَ منهمْ مِنْ أعمالٍ ، إنْ خيْراً فخيرٌ ، وإنْ شرّاً فَشَرٌّ ، ومَنْ كانَ كذلكَ لا يَعْظُمُ عليهِ شيءٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا يَتْرُكُ اللهُ تَعالى أنْبياءَهُ ، صَلواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَيْهِمْ دونَ نَصْرٍ أو تَأْييدٍ .

٢ـ الكافِرونَ والمُكَذِّبونَ دائِماً يَقولونَ عَلى اللهِ تَعالى ما لا يَعْلمونَ .

٣ـ اسْتِعْجالُ الكافِرينَ لِعذابِ اللهِ تَعالى دليلٌ عَلى جَهْلِهِمْ وحَماقَتِهِمْ .

٤ـ لا يَقبلُ اللهُ تَعالى الإيمانَ عندَ مُعايَنةِ الكافِرينَ العذابَ ، ولا يَقبلُ مِنْهُمُ الفِداءَ .

٥ـ مَنْ فاتَهُ خَيْرُ الإيمانِ حُرِمَ الدُّنْيا والآخِرَةَ .

٦ـ اللهُ تَعالى وَحْدَهُ هوَ الرَّبُّ والمالِكُ والمُتَصرِّفُ في هذا الكَوْنِ وما فيهِ ، والإِحْياءُ والإماتَةُ بِيَدِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

أرأيْتُمْ ، بياتاً ، يَسْتَنبئونَكَ ، أسرّوا النَّدامَةَ .

٢ـ وصَفَ اللهُ تَعالى الكافِرينَ في الآياتِ الكَريمَةِ بأوْصافٍ عِدَّةٍ ، منها :

المُجرِمونَ ، الَّذينَ ظَلَموا ، بَيِّنْ ماذا تَستفيدُ مِنْ ذلِكَ .

٣ـ كَيفَ لقَّنَ اللهُ تَعالى حُجَّتَهُ لِنبيِّهِ في الرَّدِّ عَلى الكافِرينَ ؟

٤ـ بَيِّنْ حالةَ المُشرِكينَ حينَ يُعايِنون العذابَ .

٥ـ بَيِّنْ مَظاهِرَ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى الّتي ذَكَرَها في هذهِ الآياتِ .

٦ـ هاتِ خمسةً مِمّا تُرْشِدُ إليه الآياتُ الكَريمَةُ .

٧ـ اخْتَرْ مِنَ الآياتِ صَدْرَ الآيةِ المُناسِبَةِ لكلٍّ مِنَ النِّهاياتِ التّاليةِ .

أـ ولكنَّ أكثرَهُمْ لا يَعلمونَ .

ب ـ وإليهِ تُرْجَعونَ .

ج ـ إنَّهُ لَحَقٌّ وما أنتُمْ بِمُعجِزينَ .

دـ هلْ تُجْزَوْنَ إلاّ بِما كُنتُمْ تَكْسِبونَ .

هـ ـ ماذا يَسْتَعْجِلُ منهُ المُجْرِمونَ .

و ـ وكُنْتُمْ بهِ تَسْتَعْجِلونَ .

* * *

الدَّرسُ الثَّالِثَ عَشَرَ

سورَةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الثّالِثَ عَشَرَ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ٥٨ قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ ٥٩ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ ٦٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

مَوْعِظَةٌ : تَذكيرٌ بالتزام الحَقِّ والخَيْرِ .

فَلْيَفرَحوا : فَلْيُسَرّوا ، وتَظهرَ عَلَيْهِم علائمُ السُّرورِ والبِشْرِ .

تَفْتَرونَ : تكذِبونَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ بيانِ تلكَ الحُجَجِ الإلهيَّةِ ساقَ اللهُ تَعالى حُجَجاً تُبيِّنُ مَظاهِرَ قُدرَتِهِ تَعالى ، وكَمالِهِ ورأْفَتِهِ بالنّاسِ ورَحْمَتِه ، فقالَ تَعالى :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ٥٧﴾ .

هذهِ الآيةُ الكَريمةُ جَمَعَتْ أرْبَعاً مِنْ فضائِلِ القُرآنِ الكَريمِ الّذي أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى لِعبادِهِ ، وهيَ الّتي لوْ لَمْ يَكُنْ مِنها إلاّ واحدةٌ لَكَفَتِ النّاسَ ، فكيفَ بِها مُجتمِعَةً ؟ وهي :

أولاً : مَوْعِظَةٌ حَسَنَةٌ .

ثانياً : شِفاءُ أَمْراضِ النُّفوسِ .

ثالثاً : هِدايَةٌ وإرشادٌ يوصِلُ النّاسَ إلى ربِّهِمْ .

رابعاً : رَحْمَةٌ لِمُتَّبِعيهِ .

ومَعنى الآيَةِ الكَريمَةِ : يا أيُّها النّاسُ قدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ تَعالى وعلى لِسانِ رَسولِهِ ﷺ كِتابٌ جامِعٌ لِكُلِّ ما تَحتاجونَ إليهِ مِنْ أُمورِ الخَيْرِ ، فهو مَوْعِظَةٌ حَسَنَةٌ تَرِقُّ لها القُلوبُ ، وتَخشَعُ لها النُّفوسُ ، وإرشادٌ إلى التَّرغيبِ في الخَيْرِ ، والتَّرهيبِ مِنْ عَمَلِ السّوءِ ، وفيهِ أخبارُ مَنْ سَبقوكُمْ وتَوجيهُ نَظَرِكُمْ إلى عَظَمةِ الخالِقِ ، لِتُدْرِكوا عَظَمةَ الخالِقِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، وفيهِ دواءٌ لأَمْراضِ قُلوبِكُمْ مِنَ الشِّرْكِ والنِّفاقِ ، وما يتعلَّقُ بها مِمّا يُكَدِّرُ صَفْوَها ، وفيهِ هِدايَةٌ إلى الطَّريقِ المُستقيمِ ، وفي هذا كُلِّهِ رَحْمَةٌ للمُؤْمِنينَ تَرفَعُهُمْ إلى أعلى الدَّرَجاتِ وتُكَفِّرُ ما حَدَثَ مِنهُمْ مِنْ سيِّئاتٍ .

ثُمَّ وجَّهَ اللهُ تَعالى العِبادَ إلى سُلوكِ الطَّريقِ الخَيِّرَةِ في التَّعبيرِ عَنِ الفَرَحِ والسُّرورِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾

قلْ يا مُحمَّدُ للنّاسِ الَّذينَ يُؤْثِرونَ الحياةَ الدُّنْيا عَلى الآخِرَةِ ، اجْعَلوا فرحَكُمُ الأكبرَ ، وسُرورَكُمُ الأَعْظَمَ بِفَضْلِ اللهِ تَعالى الّذي شَرَعَ لكُمْ هذا الدِّينَ وأنْزَلَ لَكُمْ هذا القرآنَ عَلى لِسانِ رسولِهِ ﷺ ، وليَكُنْ فَرَحُكُمْ كذلكَ بِرَحْمَةِ اللهِ تَعالى الّتي وَسِعَتْ كلَّ شَيءٍ ، وهِيَ بالمُؤْمِنينَ أوْسعُ ، ولا يَكُنْ فَرَحُكُمْ بما تَجْمَعونَ في هذهِ الدُّنْيا مِنْ أموالٍ زائلةٍ ومُتَعٍ فانيةٍ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ أنْ يَرُدَّ عَلى أُولئكَ الَّذينَ أَحلّوا وحَرَّموا حَسَبَ أهوائِهِمْ دونَ أنْ يَأْذَنَ اللهُ تَعالى لَهُمْ بشيءٍ مِنْ ذلِكَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾

قلْ أَيُّها الرَّسولُ ﷺ لِلْكُفَّارِ الَّذينَ أُوتوا بَعْضَ متاعِ الحياةِ الدُّنْيا : أَخْبِروني عمّا مَنَحكُمُ اللهُ تَعالى مِنْ رزقٍ حلالٍ طيِّبٍ ، فَأَقَمْتُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ مُشَرِّعينَ ، تَجعلونَ بَعْضَهُ حلالاً ، وبَعْضَهُ حَراماً ، دونَ أنْ تَأْخُذوا بِشَرْعِ اللهِ تَعالى ؟ إنّ اللهَ تَعالى لمْ يأْذَنْ لكُمْ في شيءٍ مِنْ ذلِكَ ، بلْ أنتُمْ تَكذِبونَ عَلى اللهِ تَعالى ، وما ذلكَ إلاّ بِحَسَبِ أهوائِكُمْ ورَغَباتِكُمُ المُضِلَّةِ .

وفي هذهِ الآيَةِ الكَريمةِ زَجْرٌ كبيرٌ ووعيدٌ شديدٌ لِمنْ يَقولُ في شيءٍ هذا حلالٌ ، وهذا حرامٌ مِنْ دون عِلْمٍ ، إنَّ في الآيَةِ الكَريمةِ باعِثاً عَلى الاحْتياطِ في الدِّينِ عَلى أقْصى الغاياتِ ، فمَنْ لمْ يَستيْقِنْ مِنَ الحُكْمِ فلا عَلَيْهِ إلاّ أنْ يَسكُتَ ، وإلاّ عُدَّ مِنَ المُفتَرينَ عَلى اللهِ تَعالى الكَذِبَ .

ثُمَّ توعَّدَ اللهُ تَعالى هؤلاءِ الكذّابينَ بسوءِ المَصيرِ عَلى تلك الجُرْأةِ والكَذِبِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ .

ما الّذي يَظنُّهُ يومَ القيامةِ أُولئكَ الَّذينَ كانوا يَفترونَ الكَذِبَ عَلى اللهِ تَعالى ، فَيَدَّعونَ التَّحليلَ والتَّحريمَ مِنْ غير أنْ يكونَ عِنْدَهُمْ دَليلٌ ؟ إنَّ اللهَ تَعالى أنْعَمَ عَلَيْهِمْ نِعَماً كثيرةً ، وأحلَّها لَهُمْ بِفَضْلِهِ ، وشَرَعَ لَهُمْ ما فيهِ خَيْرُهُمْ ، ولكنَّ الأكْثَرينَ مِنَ النّاسِ لا يَشْكُرونَ اللهَ تَعالى عَلَيْها ، بلْ يَفترون عَلى اللهِ تَعالى الكَذِبَ زوراً وبُهْتاناً . وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ دليلٌ عَلى قُصورِ الإنْسانِ في تأديةِ واجبِ الشُّكْرِ للرَّحيمِ الرَّحمنِ ، فَنِعَمُهُ سُبْحانَهُ سابِغَةٌ ، وفَضْلُهُ عَميمٌ ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يَشْكُرونَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ نُزولُ القرآنِ الكَريمِ عَلى النَّبيِّ ﷺ مِنْ أعْظَمِ نِعَمِ اللهِ تَعالى عَلى الإنسانِ .

٢ـ الشِّفاءُ والهِدايةُ والمَوْعِظةُ والرَّحمةُ كلُّها في هذا القرآنِ العَظيمِ .

٣ـ حُطامُ الدُّنْيا زائِلٌ ومُتَعُها فانيةٌ ، والتَّشبُّثُ بها خِداعٌ وغُرورٌ .

٤ـ لا يكونُ التَّحليلُ والتَّحريمُ إلاّ للهِ تَعالى ، والقَوْلُ في دينِ اللهِ بغيرِ عِلْمٍ افْتِراءٌ وكَذِبٌ .

٥ـ وجوبُ الاحْتياطِ في الفَتْوى ، وإجابةِ السّائلينَ عن قضايا الدِّينِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

مَوْعِظةٌ ، فَلْيَفْرَحوا ، تَفْتَرونَ .

٢ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ مَزايا القرآنِ الكَريمِ وفَضائِلَهُ ، اذْكُرْها .

٣ـ هاتِ الدّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمَةِ عَلى ما يلي :

أ ـ لا يَفْرَحُ المُؤمِنُ إلاّ بِفَضْلِ اللهِ تَعالى ورَحْمَتِهِ .

ب ـ ما عندَ اللهِ تَعالى هُوَ خَيْرٌ مِمّا يَجمَعُهُ النّاسُ في الدُّنْيا .

ج ـ الكُفّارُ يُحِلّلونَ ويُحَرِّمونَ حَسَبَ أهوائِهِمْ .

د ـ لَمْ يأذنِ اللهُ تَعالى لأحَدٍ أنْ يَقولَ عليهِ بغيرِ عِلْمٍ .

هـ ـ وُجوبُ التَّريُّثِ في الفَتْوى .

و ـ نِعَمُ اللهُ تَعالى عَلى النّاسِ أكْبَرُ مِنْ شُكْرِهِمْ لهُ .

ز ـ القَليلُ مِنَ النّاسِ يَشكُرُ اللهَ تَعالى .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ حديثاً يُبيِّنُ عُقوبةَ مَنْ أفْتى بغيرِ عِلْمٍ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعَ عَشَرَ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الرَّابِعَ عَشَرَ

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

شأنٍ : أمْرٍ .

تُفيضونَ فيهِ : تَخوضونَ وتَنْدَفِعونَ فيه .

يَعْزُبُ : يَغيبُ ويَبْعُدُ .

العِزَّةَ : الغَلَبَةَ والقُوّةَ والمَنْعَةَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ ذَكَّرَ اللهُ تَعالى عِبادَهُ ببعضِ فَضْلِهِ عَلَيْهِمْ ، وما يَجِبُ عَلَيْهِم مِنْ شُكْرِهِ ، عَطَفَ على ذلِكَ تَذكيرَهُ إيّاهُمْ بإحاطةِ عِلْمِهِ سُبْحانَهُ بِكُلِّ صَغيرٍ وكَبيرٍ في هذا الكَوْنِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وما تكونُ أيُّها الرَّسولُ ﷺ في شَأْنٍ مِنْ شُؤونكَ الخاصَّةِ بكَ ، أو العامَّةِ الّتي تَدعو فيها إلى اللهِ تَعالى بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ ، وما تَتْلو مِنْ أَجْلِ ذلكَ الشّأْنِ مِنْ قُرآنٍ يَنْزِلُ عَليْكَ ، وأنتمْ أَيُّها النّاسُ لا تَعْمَلونَ مِنْ عَمَلٍ صَغيرٍ أو كَبيرٍ إلاّ كانَ اللهُ تَعالى شاهِداً عَلَيْهِ ومُطَّلِعاً ، وسَيُجازيكُمْ عَلى ذلِكَ ، فاللهُ تَعالى لا يَغيبُ عنهُ شيءٌ مَهْما كانَ صَغيراً لا في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ ، فَكُلُّ صَغيرٍ وكَبيرٍ عندَ اللهِ تَعالى مَكْتوبٌ مُسَجَّلٌ ومَحفوظٌ ، فلا تَخْفى عَلى اللهِ تَعالى خافِيَةٌ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ عُبِّرَ عَنْ عَمَلِ النّبيِّ ﷺ بـ (شَأْنٍ) وفي ذلكَ إشارةٌ إلى أنَّ أعمالَهُ كُلَّها عظيمةٌ وخَطيرةٌ ، حتّى العَمَلَ العاديَّ منها ، ذلكَ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ هو القُدْوَةُ الصّالِحَةُ لغيرِهِ مِنَ النّاسِ ، وهَكذا شَأْنُ العُظَماءِ .

وبعدَ هذا البيانِ ، بَشَّرَ اللهُ تَعالى أولياءَهُ بِحُسْنِ العاقِبَةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

تَنبَّهوا أَيُّها النّاسُ ، واعْلَموا أنّ المُوالينَ للهِ تَعالى بالإيمانِ والطّاعةِ يُحبُّهُمُ اللهُ تَعالى ويُحبّونَهُ ، ولا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ مِنَ الخِزْيِ في الدُّنْيا ولا مِنَ العَذابِ في الآخِرَةِ ، ولا هُمْ يَحزَنونَ عَلى ما فاتَهُم مِنْ عَرَضِ الدُّنْيا ، لأنَّ لَهُمْ عندَ اللهِ تَعالى ما هو أعْظَمُ مِنْ ذلِكَ وأكْثَرُ .

وَمقامُ الوِلايَةِ هذا مَقامٌ عَظيمٌ لا يَتوصَّلُ المَرْءُ إليهِ إلاّ بالاجْتِهادِ الدَّءوبِ في طاعةِ اللهِ تَعالى ، بحيثُ لا يَرى العبدُ في دُنْياهُ إلاّ آثارَ نِعمةِ اللهِ تَعالى في كُلِّ شَيْءٍ ، فإنْ رأى يَرى دَلائِلَ القُدرَةِ الإلهيَّةِ ، وإنْ سَمِعَ آياتِ اللهِ تَعالى الدّالّةِ عَلى انْفِرادِ اللهِ تَعالى بالتَّصرُّفِ في هذا الكَوْنِ ، وإنْ نَطَقَ بالثَّناءِ عَلى اللهِ تَعالى ، وإنْ تَحرَّكَ في خِدْمَتِهِ ، وإنْ اجْتَهَدَ في طاعةِ ربِّهِ ، ففي هذهِ الحالةِ يكونُ المَرْءُ قريباً مِنْ ربِّهِ مُحِبّاً لهُ ، فينالُ مَرتبَةَ الوِلايَةِ الّتي هيَ عُنوانُ رِضا اللهِ تَعالى عَلى العبدِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أَوْصافَ هؤُلاءِ الأولياءِ بقولِهِ سُبْحانَهُ :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾

إنّ الأولياءَ المُشارَ إليْهِمْ همُ الّذينَ صَدَّقوا بِكُلِّ ما جاءَ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، واسْتَسْلَموا للحقِّ ، واجتَنَبوا المَعاصي ، وخافوا اللهَ تَعالى في كلِّ أعمالِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى ما لِهؤلاءِ الأولياءِ عندَ اللهِ تَعالى مِنَ المَزيَّةِ والفَضْلِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ .

لِهؤلاءِ الأولياءِ البُشْرى بالخَيْرِ في الدُّنْيا ، وذلكَ بما وعَدَهُمُ اللهُ تَعالى بِهِ مِنْ نَصْرٍ وعِزٍّ ، وفي الآخرةِ يتحقَّقُ لهمْ وعْدُهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بالفَوْزِ بالجَنَّةِ ، والنَّجاةِ مِنَ النّارِ ، وهذا الّذي بُشِّروا بهِ في الدُّنْيا وظَفَروا بهِ في الآخِرَةِ ، هو الفوزُ العَظيمُ ، الّذي يَنتَفي بهِ كلُّ خُسْرانٍ ، وذلكَ هوَ وعْدُ اللهِ تَعالى الّذي لا يَتبدَّلُ ولا يَتخلَّفُ .

وبعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى ما عليهِ أولياؤُهُ مِنْ سَعادةٍ دُنيويَّةٍ وأُخْرَويَّةٍ ، أتْبَعَ ذلكَ بِتَسليةِ الرَّسولِ ﷺ عمّا لَقِيَهُ مِنْ أعدائِهِ مِنْ أذىً ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

لا تَحزَنْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ لِما يَقولُهُ المُشرِكونَ مِنْ سُخْرِيَةٍ وطَعْنٍ وتَكذيبٍ ، ولا تَظنَّ أنَّ حالَهُمْ سَتدومُ ، بلْ إنَّ النتيجةَ لكَ والنَّصرَ للإسلامِ ، فإنَّ العِزَّةَ كُلَّها للهِ تَعالى ، والنُّصْرَةَ بيدِهِ تَعالى وسَيَنْصُرُكَ عَلَيْهِمْ ، وهوَ سُبْحانَهُ السَّميعُ لِما يَفترونَ عليْكَ ، العليمُ بما يُضْمِرونَهُ لكَ ، وَسَيُجازيهِمْ على ذلكَ كُلِّهِ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ تَسليةٌ للنبيِّ ﷺ ، وتأنيسٌ لِقَلْبِهِ ، وإرشادٌ له إلى ما سَيَقعُ مِنْ أعدائِهِ مِنْ شُرورٍ ، حتّى لا يتأثَّرَ بِها عندَ وُقوعِها ، وفي هذا بيانٌ لِعِظَمِ مَنزلةِ النَّبيِّ ﷺ عندَ ربِّهِ تَعالى ، ولِعِظَمِ عِنايةِ اللهِ تَعالى بهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اللهُ تَعالى لا تَخْفى عليهِ خافيةٌ .

٢ـ أعمالُ النَّبيِّ كُلُّها عَظيمةُ الشَّأْنِ ، ومَنزلَتُهُ عندَ اللهِ عاليةٌ .

٣ـ وِلايةُ اللهِ تَعالى مَنزلةٌ رفيعةٌ لا يَنالُها إلاّ مَنْ وفَّقَهُ اللهُ تَعالى إليْها .

٤ـ وعْدُ اللهِ لا يَتخلَّفُ وكَلِماتُهُ لا تَتَبَدَّلُ ولا تَتغيَّرُ .

٥ـ اللهُ تَعالى لا يَتخلّى عَنْ أنبيائِهِ صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْهِم .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

شَأْنٍ ، تُفيضونَ فيهِ ، يَعْزُبُ ، العِزّةَ .

٢ـ ماذا تستفيدُ مِنَ الآياتِ التّاليةِ :

أ ـ وما يَعزُبُ عنْ ربّكَ مِنْ مثقالِ ذرَّةٍ في الأرضِ ولا في السَّماءِ .

ب ـ لا تَبْديلَ لِكَلِماتِ اللهِ .

ج ـ لا يَحْزُنْكَ قولُهُمْ .

٣ـ كيف نَستدلُّ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ عَلى أنَّ أعمالَ العُظَماءِ عَظيمةٌ ، وهَكذا يَنْبَغي أنْ يَكونوا ؟

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً قُدُسياً يُبيِّنُ دِفاعَ اللهِ عنْ أوليائِهِ .

* * *

الدَّرسُ الخامِسَ عشَرَ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الخامِسَ عشَرَ

أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

معاني المُفْرَدات :

يَتَّبِعُ : يُطيعُ ويَعْبُدُ .

يَخْرُصونَ : يَكذِبونَ .

سُلطانٍ : حُجَّةٍ واضِحَةٍ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أَنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى شأنَهُ معَ نبيِّهِ ﷺ ، وأَنَّهُ واساهُ وآنَسَ قَلْبَهُ وأَرْشَدَهُ ، بَيَّنَ اللهُ تَعالى أَوْهامَ المُشْرِكينَ فيما يَعبدونَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

لِتَعْلَموا أَيُّها النّاسُ أَنَّ للهِ تَعالى وحْدَهُ كُلَّ مَنْ في السَّمواتِ والأرْضِ خَلْقاً ومُلْكاً وتَدْبيراً ، وأَنَّ

الَّذينَ أشْرَكوا باللهِ تَعالى لا يَتَّبعونَ شُركاءَ للهِ تَعالى في الحَقيقةِ ، بلْ أوْهاماً باطِلَةً لا حَقيقةَ لها . ولَيْسوا إلاّ واهِمينَ ويَظنّونَ القُوَّةَ فيما لا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً ولا ضَرّاً وهُمْ في الحَقيقةِ كاذِبونَ .

والتَّعبيرُ في الآيةِ الكَريمةِ بلفظِ (مَنْ) الّتي للعُقَلاءِ ، للدَّلالةِ عَلى أنَّ غيْرَ العُقَلاءِ مَرْبوبونَ للهِ تَعالى مِنْ بابٍ أوْلى .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ تَعريَةٌ لأوهامِ أهْلِ الشِّرْكِ والباطِلِ الَّذينَ يَركُضونَ وراءَ السَّرابِ والأوْهامِ ، الّتي ليسَ مِنْ ورائِها إلاّ الشَّقاءُ والتَّعبُ .

وبعدَ ذلكَ بيَّنَ اللهُ تَعالى بعضَ مَظاهِرِ نِعَمِهِ سُبْحانَهُ عَلى عبادِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾

إنّ الّذي يَمْلِكُ مَنْ في السَّمواتِ والأرضِ ، هو الّذي خَلَقَ لَكُمُ اللَّيلَ لِتَستَريحوا فيهِ مِنْ عناءِ السَّعْيِ والحَرَكةِ في النَّهارِ ، وخَلَقَ لَكُمُ النَّهارَ مُضيئاً لِتَسْعَوْا فيهِ وتَتحرَّكوا وتَجْلِبوا مَصالِحَكُمْ ، إنَّ في خَلْقِ اللَّيلِ والنّهارِ بياناً لِمَنْ يَسمعونَ ويَتدبَّرونَ . وفي هذا بيانٌ يدلُّ عَلى سَعةِ رحمةِ اللهِ تَعالى بعبادِهِ وتفضُّلِهِ عَلَيْهِم بالنِّعَمِ الّتي لا تُحْصى .

وبعدَ ذلِكَ بيَّنَ اللهُ تَعالى أقْبَحَ الرَّذائلِ الّتي تَفَوَّهَ بها المُشرِكونَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا سُبْحَٰنَهُۥ هُوَ ٱلْغَنِىُّ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍ بِهَٰذَآ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

زَعَمَ بعضُ المُشرِكينَ أنَّ الملائِكةَ بناتُ اللهِ تَعالى ، كَما زَعَمَ بعضُ النَّصارى أنَّ المسيحَ ابنُ اللهِ تَعالى ، وبعضُ اليهودِ زعموا أنَّ عُزيْراً ابنُ اللهِ تَعالى ، كَبُرَتْ كلمةً تخرجُ مِنْ أفواهِهِمْ جميعاً ، ما يقولونَ إلاّ كَذِباً وبُهْتاناً . كَيْفَ يتَّخِذُ اللهُ تَعالى ولَداً ؟ وهو سُبْحانَهُ الخالِقُ للسَّمواتِ والأرْضِ ، وكلَّ ما فيهما ، لا يُشْبِهُهُ أحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ، ولا يحتاجُ إلى أحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، بل الكُلُّ مُحتاجٌ إليهِ ، وهوَ سُبْحانَهُ الغنيُّ بِذاتِهِ عنْ كلِّ شيءٍ ، لَهُ ما في السَّمواتِ وما في الأرضِ مُلْكاً وخَلْقاً وتَصريفاً ، لا يُشارِكُهُ في ذلِكَ أحَدٌ .

والوَلَدُ يَحتاجُ إليهِ أبوهُ لإبقاءِ ذِكْرِهِ ، وهو قُوَّتُهُ وعُصْبَتُهُ وأهلُهُ وعَشيرَتُهُ ، ومَتاعُهُ وزينَتُهُ ، عَلَيْهِ يَعتمِدُ ، وبِهِ يُفاخِرُ ، وقدْ يَحتاجُ إليهِ في كِبَرِهِ وضَعْفِهِ ، وهلْ يحتاجُ اللهُ تَعالى إلى شيءٍ مِنْ ذلِكَ كُلِّهِ ، وهو الغنيُّ سُبْحانَهُ وتَعالى عنْ كُلِّ ما يَصِفونَ .

ليسَ عِندكُمْ أيُّها الكافِرونَ مِنْ سُلطانٍ وحُجّةٍ عَلى قَوْلِكُمُ الإفْكَ! أتَقولونَ عَلى اللهِ تَعالى ما لا تَعْلَمونَ ؟ وفي هذا الاسْتِفهامِ تَوْبيخٌ لَهُمْ وتَبكيتٌ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ دليلٌ عَلى أنَّ كُلَّ قَوْلٍ لا دليلَ عليهِ فهُوَ جَهالَةٌ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذا الحديثَ ببيانِ عاقبةِ هؤلاءِ المُفْتَرينَ عَلى اللهِ تَعالى ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ .

قلْ يا محمّدُ ﷺ لِهؤلاءِ المُشركينَ ، عَلى سبيلِ التَّهديدِ والإنْذارِ : إنَّ الَّذينَ يَفْتَرونَ عَلى اللهِ تَعالى الكَذِبَ بِنسبَةِ الوَلدِ إليهِ والشَّريكِ ، لا يُفْلِحونَ ، ولا يَفوزونَ بِمَطلوبٍ أصْلاً ، بلْ دائماً هُمْ إلى الخُسرانِ المُبينِ ، وهَكذا شَأْنُ المُفْتَرينَ المُكذِّبينَ في كلِّ مكانٍ وزَمانٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى وجْهَ عدمِ فَلاحِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾ .

بَيَّنتْ هذهِ الآيةُ الكَريمةُ وجْهَ عَدمِ الفَلاحِ في ثَلاثةِ أشياءَ :

الأوَّلُ : متاعٌ في الدُّنْيا ، أيْ أنَّ ما يَتمتَّعونَ بهِ في الدُّنْيا مِنْ شَهَواتٍ ومَلذّاتٍ ، هُوَ متاعٌ قليلٌ مَهْما كَثُرَ ، لأنَّهُ إلى فَناءٍ وانْدِثارٍ .

الثاني : ثُمَّ إليْنا مَرْجِعُهُمْ ، وفي هذا إبْطالٌ لآمالِ المُشرِكينَ الَّذينَ كانوا يُنْكِرونَ البَعْثَ ، وتَضييعٌ لأمانيِّهِمُ الباطِلَةِ الزَّائِفَةِ ، وتَهديدٌ لَهُمْ بِمصيرٍ مُؤْلِمٍ .

الثّالِثُ : ثُمَّ نُذيقُهُمُ العَذابَ الشّديدَ بما كانوا يَكْفُرونَ ، وهذا هُوَ جزاءُ هؤلاءِ الكافِرينَ ؛ عذابٌ شديدٌ ، لأنَّهم في الدُّنْيا أنْكَروا النُّبوَّةَ والرِّسالةَ إنكاراً شديداً ، فلاقَوْا عندَ اللهِ تَعالى مَصيراً سَيِّئاً وعذاباً شديداً ، والجزاءُ مِنْ جِنْسِ العَمَلِ ، فإنكارٌ شديدٌ يُلائِمُهُ العذابُ الشَّديدُ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الشِّرْكُ والضَّلالُ كلُّها أَوْهامٌ وأَباطيلُ ، واللهُ تَعالى أغْنى الشُّرَكاءِ عنِ الشِّرْكِ .

٢ـ الظَّنُّ لا يُغْني مِنَ الحقِّ شَيئاً .

٣ـ فَضْلُ اللهِ تَعالى عَلى عِبادِهِ ظاهِرٌ في اللّيلِ والنَّهارِ .

٤ـ السَّعيدُ مَنْ تدبَّرَ آياتِ اللهِ تَعالى واتَّعظَ بِها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

يَتَّبِعُ ، يَخْرُصونَ ، سُلطانٍ .

٢ـ بيِّنْ كيفَ ردَّتِ الآياتُ الكَريمةُ عَلى المُشرِكينَ الَّذينَ زَعَموا أنَّ للهِ تَعالى ولَدَاً .

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ عاقبةَ الَّذينَ يَفْتَرونَ عَلى اللهِ تَعالى الكَذِبَ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٤ـ أجبْ بنعمٍ أو (لا) عَلى كلٍّ مِمّا يلي :

أـ الكافِرُ يَتَّبِعُ في كُفْرِهِ الظَّنَّ . ( )

ب ـ جَعَلَ اللهُ تَعالى الَّليلَ مُبْصِراً لِتَسْكُنوا فيهِ . ( )

ج ـ الكافِرُ يَدّعي أنَّ للهِ وَلَدَاً مِنْ دونِ سُلطانٍ أو دَليلٍ . ( )

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ التّوْبةِ الّتي تُبيِّنُ ما ادّعاهُ اليَهودُ والنَّصارى ونَسبوهُ للهِ تَعالى .

* * *

الدَّرْسُ السَّادِسَ عَشَرَ

سورةُ يونُسَ - القِسْمُ السّادِسَ عَشَرَ

﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

كَبُرَ علَيْكُمْ : عَظُمَ وشَقَّ عَلَيْكُمْ .

مَقامي : قِيامي فيكُمْ .

تَذكيري : إعْلامي بآياتِ اللهِ تَعالى وَوَعْظي ونُصْحي .

غُمَّةً : خَفِيّاً فيهِ شيءٌ مِنَ الحَيْرَةِ واللَّبْسِ .

اقْضوا إليَّ : أدّوا عليَّ أو أحْكُموا عليَّ .

خلائِفَ : يَخْلُفُ بَعْضُكُمْ بعضاً في عِمارةِ الأرْضِ وسُكْناها .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ ذلِكَ البيانِ الواضِحِ عنْ بَعضِ شُؤونِ اللهِ تَعالى في خَلْقِهِ ، أخَذَتِ السّورَةُ الكَريمةُ بالحديثِ عنْ بعضِ قَصَصِ الأنْبياءِ معَ أقوامِهِمْ ، وذلكَ ليُرينا اللهُ تَعالى نَماذجَ عَمَلِهِ مِنْ بعضِ شأنِهِ في خَلْقِهِ ، فَبَدَأَ سُبْحانَهُ بِقصَّةِ نَبيِّهِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ مَعَ قَومِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ ﴾ .

واقرأْ أيُّها الرّسولُ ﷺ على النّاسِ ، فيما يُنزلُهُ عليكَ ربُّكَ مِنَ القُرْآنِ قِصَّةَ نوحٍ رسولِ اللهِ عليهِ السّلامُ لمّا أحسَّ بكراهِيَةِ قومِهِ وعدائِهِمْ لِرسالَتِهِ ولِدَعْوَتِهِ ، إذْ قالَ لَهُمْ : يا قوم إنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُم وجودي فيكُمْ لِتبليغِ الرِّسالةِ ، وقدْ أَصْبَحَ شديداً عَلَيْكُم ، فإنِّي مُستمِرٌّ مُثابرٌ على دَعوتي مُتوكِّلٌ على اللهِ تَعالى في أمْري ، فاحْزموا أمْرَكُمْ ومَعَكُمْ شُرَكاؤُكُمْ في التَّدبيرِ ، ولا يَكُنْ في عدائِكُمْ لي أيُّ خفاءٍ ، ولا تُمْهِلوني بما تُريدونَ لي مِنْ سوءٍ ، إنْ كُنْتُمْ تَقدِرونَ على إيذائي ، فإنَّ ربّي تَعالى يَرْعاني .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ بيانٌ أنَّ موقِفَ نبيِّ اللهِ تَعالى نوحٍ عليهِ السّلامُ كانَ في نهايةِ الشَّجاعةِ في مُخاطَبَةِ قَوْمِهِ بَعْدَ أنْ مَكَثَ فيهمْ زَماناً طويلاً يَدْعوهُمْ إلى عبادةِ اللهِ تَعالى ، ويَتمثَّلُ مَوقِفُهُ فيما يلي :

أوّلاً : صارَحَهُمْ بأنّهُ ماضٍ في طريقهِ الّذي أَمَرَهُ اللهُ تَعالى أنْ يَمْضِيَ فيهِ ، وهو تَذكيرُهُمْ بِوَحدانيَّةِ اللهِ تَعالى وبوجوبِ الإخْلاصِ لهُ سُبْحانَهُ ، سواءً أشقَّ على قَوْمِهِ هذا التَّذكيرُ أمْ لمْ يَشُقَّ ، وأنَّهُ لا اعْتِمادَ إلاّ على اللهِ تَعالى .

ثانياً : تَحدّاهُمْ أنْ يُجْمِعوا أمْرَهُمْ وأمْرَ شُرَكائِهِم ، وأنْ يأخُذوا أُهْبَتَهُمْ لِكَيْدِهِ وحَرْبِهِ .

ثالثاً : طالبَهُمْ أنْ يَتَّخِذوا قَراراتِهِمْ بجُرْأةٍ ، دونَ تَستُّرٍ ولا خَفاءٍ .

رابعاً : طالَبَهُمْ أنْ يُبلِّغوهُ هذهِ القَراراتِ والأحْكامَ ، وأنْ يُنفِّذوها دونَ انْتظارٍ .

وهَكذا هُوَ موقفُ الدّاعيةِ المُسلمِ ؛ جريءٌ ، شُجاعٌ ، غَيْرُ هَيّابٍ ولا مُتردِّدٍ ، واثقٌ باللهِ تَعالى ، هَكذا بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ مَوْقِفَ هذا الرّسولِ عَلَيْهِ السّلامُ لِيَكونَ مِثالاً وقُدْوةً للدُّعاةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .

ثُمَّ تابعتِ الآياتُ الكَريمةُ حديثَ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ معَ قوْمِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ .

وإنْ بَقيتُمْ على الإعْراضِ عن دَعوتي ، فإنّ ذلكَ لَنْ يُضيرَني ، لأنّي لم أقُمْ بهذِهِ الدّعوةِ لأتَقاضى مِنْكُمْ أجْراً أخْشى عليهِ مِنَ الضَّياعِ بِسَبَبِ إعْراضِكُمْ وابْتِعادِكُمْ عنّي وعنْ دَعوَتي ، وإنّما أطلبُ الأجْرَ مِنَ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ على ما أقومُ بهِ مِنْ عَمَلٍ ، وقدْ أمَرَني ربِّي تَعالى أنْ أكونَ مُسلِماً إليهِ في جَميعِ أُموري وشؤوني .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى العاقبةَ الطَّيِّبَةَ الّتي انتَهى إليْها أَمْرُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، والعاقبةَ السَّيئةَ الّتي انتَهى إليْها قومُهُ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ .

ومعَ هذا المَجهودِ وتلكَ المُثابرَةِ الّتي بَذَلَها نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ أَجْلِ هِدايةِ قَوْمِهِ ، إلاّ أنَّهُمْ أصرّوا على أنْ يَستمرّوا في تَكذيبهِ وعَدائِهِ ، فَنَجّاهُ اللهُ تَعالى ومَنْ مَعَهُ مِنَ المُؤْمنينَ بهِ في السَّفينةِ الّتي صَنَعَها لِهذا الأَمْرِ ، وجَعَلَهُمُ اللهُ تَعالى عُمّاراً للأرضِ بعدَ هلاكِ الكافِرينَ الَّذينَ أغرَقَهُمُ الطّوفانُ ، فانْظُرْ يا مُحمّدُ ﷺ كيفَ لَقِيَ المُسْتَخِفّونَ بالنُّذُرِ مَصيرَهُمُ السَّيىءَ .

ثُمَّ بينَّتِ السّورةُ الكَريمةُ أنَّ اللهَ تَعالى قدْ أرْسَلَ رُسُلاً كَثيرينَ مِنْ بعدِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، فكانَ مَوْقفُ أقوامِهِمْ منهمْ مُشابِهاً لِمَوْقِفِ قَوْمِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ منهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾ .

ثُمَّ بَعثْنا مِنْ بَعْدِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ رُسُلاً كَثيرينَ إلى أقوامِهِمْ فجاءوهُمْ بالمُعْجزاتِ الدّالّةِ على صِدْقِهِمْ ، غَيْرَ أنّ هؤلاءِ الأشقياءَ اسْتَمرّوا على كُفْرِهِمْ وعِنادِهِمْ ، وامتَنَعوا عنِ الإيمانِ بما كذَّبوا بهِ مِنْ قبلِ مَجيءِ الرُّسُلِ إليْهِمْ ، وهو إفرادُ اللهِ تَعالى بالعِبادةِ والطّاعةِ ، فكانَ حالُهُمْ في الإصرارِ على الكُفْرِ والجُحودِ ، قَبْلَ مَجيءِ الرُّسُلِ إليْهِمْ ، كحالِهِمْ بَعْدَ أنْ جاءوهُمْ بالهُدى ودينِ الحَقِّ ، حتّى لَكأنَّهُمْ لمْ يأْتِهِمْ مِنْ بَشيرٍ ولا نذيرٍ ، وبذلكَ طَبَعَ اللهُ تَعالى على قُلوبِ الَّذينَ مِنْ شأنِهِمُ الاعتداءَ على الحقائقِ وعلى البيِّناتِ ، فلا يَنتفِعونَ بهُدىً ولا نُورٍ والعياذُ باللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ في قَصصِ الأنْبياءِ عِبَرٌ عَمليَّةٌ للدُّعاةِ إلى الحَقِّ .

٢ـ طريقُ الأنْبياءِ في الدّعوةِ إلى اللهِ تَعالى مُتشابِهٌ من حَيْثُ وحِدةُ الهَدَفِ وعَدمُ اليَأْسِ .

٣ـ نهايةُ الرُّسُلِ عليهِمُ السّلامُ نهايةٌ حَميدةٌ طيِّبةٌ ، ونِهايَةُ أَعْداءِ اللهِ سَيِّئةٌ .

التَّقْوِيمُ :

أَجِبْ عَنِ الأَسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

كَبُرَ عَلَيْكُم ، مَقامي ، تَذْكيري ، غُمَّةً ، اقْضوا إليَّ ، خلائِفَ .

٢ـ ما الهَدَفُ مِنْ ذِكْرِ اللهِ تَعالى لِقصصِ أنبيائِهِ عَلَيْهِمُ السّلامُ معَ أقوامِهِمْ ؟

٣ـ لخِّصْ قِصَّةَ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ مَعَ قومِهِ كما ورَدتْ في الآياتِ الكَريمةِ .

٤ـ بيِّنْ مَوْقِفَ الأقوامِ المُختلفَةِ مِنْ دَعَواتِ الأنْبياءِ عَلَيْهِمُ السّلامُ .

٥ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ تَشابُهَ مَوْقِفِ الأنْبياءِ دَعَوِيّاً ، وضِّحْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ مُدَّةَ مُكوثِ نوحٍ وهو يَدعو قَوْمَهُ ، والآيَةَ الدّالَّةَ عَلى ذلِكَ .

٢ـ ارجِعْ إلى تَفْسيرِ سُورةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ أحدِ كُتُبِ التَّفسير ، ولخِّصْ فيما لا يَزيدُ عَلى صَفحةٍ أُسلوبَهُ في الدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالى ، وَضَعِ المَوضوعَ في مَجلَّةِ المَدرسةِ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعَ عَشَرَ

سورةُ يونُس ـ القِسْمُ السّابعَ عَشَرَ

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

مَلَئِهِ : خاصَّتِهِ ، وأشْرافِ مَملكَتِهِ وأركانِ دَولتِهِ .

لِتَلْفِتَنا : لِتَصْرِفَنا .

الكِبْرِياءُ : الرِّياسَةُ الدِّينيّةُ والمُلْكُ الدُّنيويُّ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ قَصَّ اللهُ تَعالى عَلَيْنا قِصّةَ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، أَخْبَرنا سُبْحانَهُ عنْ قِصَّةِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ مَعَ فرعَونَ ، وفَصَّلَ فيها بعضَ التّفصيلِ ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ .

ثُمَّ أرسَلنا مِنْ بَعْدِ أُولئكَ الرُّسُلِ الكِرامِ الَّذينَ جاءوا لأقوامِهِمْ بالأَدِلَّةِ والبَيِّناتِ ، موسى وهارونَ

عَلَيْهما السّلامُ إلى فِرْعَوْنَ وأرْكانِ مَملكتِهِ ، وأيّدناهُما بالآياتِ الواضِحاتِ ، لكنَّهُمُ اسْتَكْبَروا عنِ اتّباعِ الحَقِّ ورَفضوهُ ، وكانوا بِهذا الرّفْضِ مُرْتَكِبينَ جُرْماً عظيماً آثِمينَ بِهِ .

وفي هذهِ الآيةِ خُلاصةٌ مُوجَزَةٌ مُرَكَّزَةٌ لِقصَّةِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ معَ فِرعونَ وَمَلَئِهِ ، وأمّا التَّفصيلُ فقدْ جاءَ بعدَ هذا ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

فلمّا وَصَلَ إليْهِمُ الحَقُّ الّذي جاءَهُمْ بِهِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ عِنْدِنا قالوا على سَبيلِ العِنادِ والحِقْدِ والغُرورِ : إنّ هذا الّذي جِئْتَ بِهِ يا موسى لَسِحْرٌ مُبينٌ ، واضِحٌ ، ظاهِرٌ ، لا يحتاجُ إلى تأمُّلٍ أو تَفكيرٍ .

ويَنبغي أنْ نتأمَّلَ سِرَّ التَّعبيرِ في قولِهِ تَعالى : (جاءَهُمْ) وقولِهِ تَعالى : (عِنْدَنا) وقولِهِ تَعالى : (إنَّ هذا لَسِحْرٌ) بالقَسَمِ المُؤَكِّدِ .

فأمّا قولُهُ : « جاءَهُم » فهو يدلُّ على أنَّ الحَقَّ وَصَلَ إليهْم مِنْ غيرِ تَعَبٍ منهُمْ ، فكانَ مِنَ الواجِبِ عليْهِم ـ لو كانوا يعقِلونَ ـ أنْ يَتقبّلوهُ بِسُرورٍ واقْتِناعٍ .

وأمّا قولُهُ : (مِن عِنْدِنا) فهو تصويرٌ لِشناعةِ الجَريمةِ الّتي ارْتَكَبوها في جانبِ الحَقِّ ، الّذي جاءَهُم مِنْ عندِ اللهِ تَعالى لا مِنْ عندِ غيرِهِ .

وأمّا القَسَمُ المؤكّدُ : فَيَدُلُّ على تَبَجُّحِهمُ الذّميمِ ، وكَذِبِهِمُ الأثيمِ ، حيثُ وصَفوا الحَقَّ الّذي لا باطلَ معهُ ، بأنَّهُ سِحْرٌ واضِحٌ ، وهكذا عِنْدَما تَقْسو القُلوبُ وتَفْسُقُ النّفوسُ تَتحوَّلُ الحَقائِقُ إلى أكاذيبَ وأباطيلَ في زَعْمِ تلكَ النّفوسِ البائِسَةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى رَدَّ نبيِّهِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ على مُفتَرَياتِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾

قالَ لهُمْ موسى عَلَيْهِ السّلامُ مُسْتَنْكِراً : أتَصِفونَ الحَقَّ الّذي جِئْتُكُمْ بِهِ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى بأنّهُ سِحْرٌ ؟ يا سُبْحانَ اللهِ! أفلا عَقْلَ لكُمْ يَحجزُكُمْ عنْ هذا القَوْلِ الّذي يَدلُّ على الجَهالةِ والغَباءِ ، انْظُروا وتأمّلوا : أسِحْرٌ هذا الّذي تَرَوْنَ حَقيقَتَهُ بأعيُنِكُمْ ، وتَرتَجِفُ مِنْ عَظَمتِهِ قلوبُكُمْ ؟ أوَ لا تَعلمونَ أنَّ السَّحَرَةَ غيرُ مُفْلِحينَ في أيِّ عَمَلٍ يَقومونَ بِهِ ، فليسَ لَديْهِمْ خَيْرٌ ولا هُمْ مِنْ أهلِهِ .

وبعدَ ذلكَ كَشَفَ اللهُ تَعالى عنْ حَقيقةِ الدّوافِعِ الّتي جَعَلَتْهُمْ يَصِفونَ الحَقَّ بأنَّهُ سِحْرٌ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾

قالَ فِرْعونُ ومَلَؤُهُ لِموسى عَلَيْهِ السّلامُ بَعْدَ أنْ جاءَهُمْ بالحَقِّ المُبينِ : أجِئْتَنا يا موسى عَلَيْهِ

السّلامُ لَمّا جِئتَنا بهِ ، لِتَصْرِفَنا عنِ الدّينِ الّذي وَجَدْنا عليهِ آباءَنا ، وتكونَ لكَ ولأخيكَ هارونَ عليهِ السّلامُ الكِبْرياءُ في الأرضِ ، أي : السِّيادةُ والرِّياسَةُ والزَّعامةُ الدّينيَّةُ والدُّنيويَّةُ في جَميعِ بِقاعِ الأرْضِ بِصفةٍ عامَّةٍ ، وفي مصرَ بِصفةٍ خاصَّةٍ . ثُمَّ أكَّدوا إنْكارَهُمْ لِما جاءَهُمْ بِهِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ مِنَ الدّينِ الحَقِّ ، فقالوا : ما نحنُ بِمُصَدّقينَ بما جِئْتَنا بِهِ ، لأنَّ تَصديقَنا لكُما يُخْرِجُنا عنِ الدّينِ الّذي وَجَدْنا عليهِ آباءَنا ، ويَنْزِعُ مُلْكَنا الّذي نَتمتَّعُ بهِ .

وهذهِ التُّهْمَةُ المُوجَّهَةُ لِموسى وهارونَ عليْهِما السّلامُ تُهمَةٌ قَديمةٌ قِدَمَ نوحٍ عليْهِ السّلامُ ، ومُتجدِّدَةٌ معَ كلِّ نبيٍّ يَدعو قومَهُ للتّوحيدِ ، فهذا هُوَ الخَوْفُ مِنْ تحطيمِ المُعْتَقداتِ المَوروثَةِ الّتي قامَ عليْها نِظامُهُمُ السّياسيُّ والاقتصاديُّ ، وهو الخَوْفُ على السُّلطانِ في الأَرْضِ ، ذلكَ السُّلطانِ الّذي يَستمدّونَهُ مِنْ خُرافاتِ عَقائِدِهمُ المَوروثةِ .

إنها العِلّةُ القديمةُ الّتي تَدفَعُ بالطُّغاةِ والظّالِمينَ إلى مُقاومةِ دَعَواتِ الإصْلاحِ ، ورَمْيِ الدُّعاةِ إلى اللهِ تَعالى بأَشنَعِ التُّهَمِ ، وإلْحاقِ أشدِّ الأذى بِهِمْ ، إنَّها الكِبرياءُ في الأرْضِ ، وما تقومُ عليهِ مِنْ مُعْتَقَداتٍ باطلةٍ يَحْرِصُ المُتَجبِّرونَ على بقائِها مُتحجِّرَةً في قلوبِ الجماهيرِ بكلِّ ما فيها مِنْ زيفٍ وفسادٍ وأوهامٍ وخُرافاتٍ ، كَيْلا تَنْفَتِحَ القلوبُ على العقيدةِ الصَّحيحةِ ، لأنَّ في ذلكَ خَطَراً على القِيَمِ الجاهليَّةِ المَوْرُوثةِ .

ثُمَّ حكى القرآنُ الكَريمُ ما طَلبَهُ فرعونُ من مَلئِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

وقالَ فِرعونُ لِخاصَّتِهِ بَعْدَ أنْ رأى مِنْ موسى عَلَيْهِ السّلامُ الإصْرارَ على دَعْوَتِهِ ودَعوةِ قومِهِ إلى عِبادةِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، وبَعْدَ أنْ شاهدَ عصاهُ وقدْ تحوَّلَتْ إلى ثُعبانٍ مُبينٍ ، قالَ فرعونُ لِخاصَّتِهِ بَعْدَ أنْ رأى كلَّ ذلِكَ : ائْتوني أيُّها المَلأُ بكلِّ ساحِرٍ مِنْ أفرادِ مَمْلَكَتي تكونُ عندَهُ المَهارةُ التَّامَّةُ في السِّحْرِ ، والخِبْرَةُ الواسعةُ في طُرُقِهِ وأساليبِهِ ، يُريدُ بذلكَ ـ لعنَهُ اللهُ ـ أنْ يُجابِهَ موسى عَلَيْهِ السّلامُ ومُعجزاتِهِ ، فأخْزاهُ اللهُ تعالى .

ثُمَّ جُمِعَ السَّحَرةُ وجيءَ بِهِمْ ، وحَصَلَ منهُمْ ما أخْبَرَنا القرآنُ الكَريمُ عنهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُوا۟ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

فلمّا حَضَرَ السَّحَرَةُ وَوَقَفوا أمامَ موسى عَلَيْهِ السّلامُ لِمُنازَلَتِهِ بِسِحْرِهِمْ على رُؤوسِ الأشْهادِ ، قالَ لَهُمْ موسى عَلَيْهِ السّلامُ بلسانِ الواثِقِ المُتَحدّي : هاتوا ما عِنْدَكُمْ مِنَ السِّحْرِ وَأَرونا إيّاهُ .

واسْتَجابَ السَّحَرَةُ لِموسى عَلَيْهِ السّلامُ وحَدَثَ ما قالَ اللهُ تعالى في شَأْنِهِ :

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

لَمّا ألقى السَّحَرةُ حِبالَهُمْ وعِصيَّهُمْ وصارتْ في أعينِ النّاسِ أفاعِيَ وحيّاتٍ ، قالَ موسى عليهِ السّلامُ مُستهزِءاً بِهمْ مُزْدَرِياً عَمَلَهُم : أيُّها السَّحَرةُ ، إنّ الّذي جِئتُمْ بِهِ هُوَ السَّحْرُ بِعَيْنِهِ ، ولَيْسَ الّذي جِئْتُ بِهِ أنا مِمّا وَصَفَهُ فِرعونُ وَملؤهُ بأنّهُ سِحرٌ مُبينٌ ، وإنَّ الّذي جِئتُمْ بِهِ سَيَمْحَقُهُ اللهُ تَعالى ، ويُزيلُهُ وأثرَهُ مِنَ النُّفوسِ ، عَنْ طريقِ ما أمَرَني اللهُ تَعالى بِهِ من إلقاءِ عصايَ ، فقدْ جرتْ سُنَّتُهُ تَعالى أنّهُ لا يُصلِحُ عَمَلَ المُفْسِدينَ ، وصَنيعُكُمْ هذا هُوَ إفسادٌ في الأرضِ وليْسَ إصْلاحاً .

ثُمَّ قَرَّرَ القُرآنُ الكَريمُ حقيقةً جيءَ بها على لسانِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ أنّ اللهَ تَعالى يُحِقُّ الحَقَّ ويُبْطِلُ الباطِلَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

جَرَتْ سُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ لا يُصلِحَ عَمَلَ المُفْسِدينَ ، بَلْ يَمْحقُهُ ويُبْطِلُهُ ، وإنّهُ سُبْحانَهُ يُحِقُّ الحَقَّ ، أيْ يُثبِّتُهُ ويُقوّيهِ ويُؤيِّدُهُ بكلماتِهِ النّافذةِ وقَضائِهِ الّذي لا يُرَدُّ ، ووعْدِهِ الّذي لا يَتخلَّفُ ، ولو كَرِهَ المُجْرِمونَ ذلِكَ ؛ لأنَّ كَراهيتَهُمْ لإحقاقِ الحَقِّ وإبْطالِ الباطِلِ لا تُعطِّلُ مَشيئةَ اللهِ تَعالى ولا تَحولُ بينَ تَنفيذِ آياتِهِ وكَلماتِهِ . وقدْ كانَ الأمْرُ كذلكَ فِعْلاً ، فقدْ أوحى اللهُ تَعالى إلى موسى عَليْهِ السّلامُ .

﴿ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف : ١١٧-١١٨] .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ سُنَّةِ اللهِ تَعالى أنْ يُرْسِلَ إلى النّاسِ مُبَشِّرينَ ومُنْذِرينَ ، ولَمْ يَمْنَعْ ذلِكَ مِنْ تَكذيبِ النّاسِ لهُمْ .

٢ـ لَمْ يُعذبِ اللهُ تَعالى قَوْماً قبلَ أنْ يُرْسِلَ إليْهِمْ رَسولاً .

٣ـ فِرْعَونُ نَموذجٌ للطُّغاةِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، والبِطانَةُ السَّيئةُ عَوْنٌ للطُّغاةِ .

٤ـ سرعةُ تَكذيبِ الأقوامِ لِرُسُلِهِمْ دونَ رَويَّةٍ ، دَلالةٌ عَلى خَوْفِهِمُ المُتَسارِعِ عَلى مَصالِحِهِمْ وأهوائِهِمْ .

٥ـ قُدرةُ موسى عَلَيْهِ السّلامُ وثَباتُهُ في مُواجَهةِ فِرعونَ وَمَلئِهِ ، فهو عَلى ثقةٍ تامَّةٍ بنَصْرِ اللهِ تَعالى .

٦ـ اللهُ تَعالى لا يَكونُ مَعَ المُفْسِدينَ ولا يُصْلِحُ أعْمالَهُمْ ، ومِنْ سُنَنِهِ إظهارُ الحَقِّ وإزهاقُ الباطِلِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَدات والتّراكيبِ التّاليةِ :

الملأُ ، تَلْفِتَنا ، الكِبْرياءُ .

٢ـ بيّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ سَبَبَ كُفْرِ فِرعونَ وَمَلَئِهِ ، بيّنْ ذلِكَ معَ الدَّليلِ .

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ ثِقةَ موسى بربِّه ، وضِّحْ ذلِكَ مِنْ خلالِ الآياتِ .

٤ـ الاسْتِكْبارُ في الأرْضِ عاقِبَتُهُ وخَيمةٌ ، بيّنْ ذلِكَ مِنْ خلالِ هذهِ الآياتِ .

٥ـ ذكرتِ الآياتُ الكَريمَةُ بعضاً مِنْ سُنَنِ اللهِ وأنّها لا تَتخلَّفُ ، هاتِ ثلاثاً مِنْها ، واذْكُرِ الدَّليلَ عَليْها .

٦ـ اذكُرْ بِلُغَتِكَ الحِوارَ الّذي دارَ بينَ موسى عَلَيْهِ السّلامُ وفِرْعَوْنَ كما جاءَ في الآياتِ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورةِ طه الّتي تُبيِّنُ إرسالَ موسى وهارونَ عليْهِما السّلامُ .

٢ـ اذكُرْ دليليْنِ جاءَ بِهِما موسى إلى فِرْعونَ ، واكْتُبْهُما في دَفترِكَ .

٣ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ اسْمَ اليومِ الّذي كانَ فيهِ اللّقاءُ ، والحِكْمَةَ مِنَ اخْتيارِ هذا اليومِ .

* * *

الدَّرسُ الثَّامنَ عَشَرَ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ذريّةٌ مِنْ قومِهِ	: عَددٌ قليلٌ مِنْ بني إسْرائيلَ .
يَفتِنَهُمْ	: يَرُدَّهُمْ عَنْ دينهِمْ .
عالٍ في الأرضِ	: جبارٍ شديدِ البَطْشِ .
تَبوّءا	: اتّخِذوا مَوْطِنا تُقيمونَ فيهِ .
اجْعَلوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً	: اجْعَلوها مَكاناً لِصلاتِكُمْ وعِبادَتِكُمْ .

التَّفسيرُ :

انتقلتِ السّورةُ الكَريمةُ لِلْحَديثِ عَنْ جانبٍ مِمّا دارَ بينَ موسى عليهِ السّلامُ وقومِهِ ، بَعْدَ الحديثِ عنْ جانبٍ مِمّا دارَ بينَ موسى عَلَيْهِ السّلامُ وبينَ فِرعونَ ومَلئِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

ومَعَ ظُهورِ الآياتِ الدّالّةِ على صِدْقِ رِسالةِ نَبيِّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ ، فإنَّ الّذينَ آمنوا بِهِ لم

يَكونوا إلاّ قِلّةً مِنَ الشَّبابِ ، الَّذينَ كانَ فرعونُ يَسومُهُمْ سوءَ العذابِ ، أمّا آباؤُهُمْ وأصحابُ الجاهِ فيهِمْ ، فقدِ انْحازوا إلى فِرْعَوْنَ طَمَعاً في عطائِهِ وخَوْفاً مِنْ بطشِهِ بِهِمْ ، وهؤلاءِ الشُّبّانُ الَّذينَ آمنوا كانَ إيمانُهُمْ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرعونَ ومِنْ أصحابِ الجاهِ في قَوْمِهِمْ أَنْ يَردّوهُمْ عَنْ هذا الإيمانِ الّذي اختاروهُ ، ذلكَ لأنَّ فِرْعونَ مُتكبِّرٌ جبّارٌ في أرضِ مِصْرَ كلِّها ، وإنَّهُ لَمِنَ المُتجاوِزينَ كلَّ حدٍّ في الظُّلْمِ والبَغْيِ وادّعاءِ ما ليسَ لهُ .

ثُمَّ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ رَباطةَ جَأْشِ مُوسى عَلَيْهِ السّلامُ وثِقَتَهُ بربِّهِ وبدينِهِ وبنفْسِهِ ، ذلكَ لأنَّ المُتَجبِّرينَ والمُسْرِفينَ يَحتاجونَ في مُقاوَمتِهِمْ إلى إيمانٍ عميقٍ ، واعْتمادٍ عَلى اللهِ تَعالى وَثيقٍ ، وثَباتٍ يُزيلُ المَخاوفَ ويُطمْئِنُ القلوبَ إلى حُسْنِ العاقبةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ .

قالَ موسى عليهِ السّلامُ للمُؤْمِنينَ مُواسِياً لهُمْ ومُشجِّعاً ومُطَمْئِناً لِقلوبِهِمْ بَعْدَ أَنْ رأى الخَوْفَ يَعلو وُجوهَ بعضِهِم ، قالَ لَهُمْ : يا قوم ، إنْ كانَ الإيمانُ قدْ دَخلَ قلوبَكُمْ في إخلاصٍ للهِ تَعالى ، فلا تَخْشَوْا سِواهُ ، وأسْلِموا أُمورَكُمْ إليهِ ، وتوكَّلوا عليهِ ، وثِقوا في النِّهايةِ بنصرِهِ وتأييدِهِ ، إنْ كُنتمْ ثابِتينَ عَلى الإسْلام .

ثُمَّ حَكى القرآنُ الكَريمُ جوابَهُمُ الدّالَّ عَلى صِدْقِ يَقينِهِمْ ، فقالَ تعالى :

﴿ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

فقالَ هؤلاءِ المُؤْمِنونَ مُجيبينَ نَصيحةَ نبيِّهِمْ موسى عَلَيْهِ السّلامُ : عَلى اللهِ تَعالى وَحْدَهُ لا عَلى غيرِهِ تَوكَّلْنا ، واعْتَمَدْنا وفَوَّضْنا أُمورَنا إليهِ . ثُمَّ دعوْا ربَّهُم قائِلينَ : يا ربَّنا لا تَجْعَلْنا مَوْضِعَ فِتنةٍ وعذابٍ للقومِ الظّالِمينَ ، بأنْ تُمكِّنَهُم منّا فَيسومونَنا سوءَ العذابِ ، وعندئذٍ يَعْتَدّونَ أنَّهُمْ عَلى الحَقِّ ، ونحنُ عَلى الباطلِ ، لأنّنا لو كُنّا عَلى الحَقِّ ـ في زَعْمِهِمْ ـ لَما تَمَكَّنوا منّا ، ولَما انْتَصروا عَلَيْنا . ثُمَّ توجَّهوا إلى اللهِ بالدُّعاءِ أنْ يُنجِّيَهُمْ ويَرْحَمَهُمْ ، قالَ اللهُ تَعالى مُبيِّناً ذلكَ :

﴿ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ .

نحنُ نَلتمِسُ منكَ يا مَولانا أنْ لا تَجْعَلْنا فِتنةً لَهُمْ فقط ، بلْ نَلتمِسُ منكَ أيْضاً أنْ تُسْبِغَ عَلَيْنا رَحمَتَكَ فَتُنجّينا مِنْ شرورِ القوم الكافِرينَ ، ونَسْأَلُكَ بِفَضْلِكَ أنْ تُخَلِّصَنا مِنْ سوءِ جِوارِهِمْ ، وأنْ تُفَرِّقَ بَيْنَنا وبَيْنَهُمْ كما فرَّقْتَ بينَ أَهلِ المَشرِقِ والمَغربِ .

وفي هذا الدُّعاءِ الّذي تَضرّعوا بِهِ إلى اللهِ تَعالى دليلٌ عَلى أنَّهُ كانَ لَهُمُ اهْتِمامٌ بأمْرِ الدِّينِ فوقَ اهتمامِهِمْ بِسَلامةِ أنفُسِهِمْ .

وبعدَ هذا الدُّعاءِ المُخْلِصِ ، وجَّهُ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ موسى عَلَيْهِ السّلامُ وأخاهُ هارونَ عَلَيْهِ السّلامُ إلى ما يوصِلُ إلى نَصْرِهِما ونَصْرِ أتباعِهِما ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

وأوْحَينا إلى مُوسى وأخيهِ هارونَ عليْهِما السّلامُ بعدَ أنْ لَجَّ فرعونُ في طُغيانِهِ ، وفي إنزالِ العَذابِ بالمُؤْمِنينَ ، أنِ اتّخذا لِقَوْمِكُما المُؤْمِنينَ بُيوتاً خاصَّةً بهمْ في مصرَ يَنزِلونَ بِها ، ويَستقرّونَ فيها ، ويعتزِلونَ فرعونَ وجُنْدَهُ إلى أنْ يَقضِيَ اللهُ تَعالى أمْرَاً كانَ مفعولاً .

وفي هذهِ البُيوتِ يُقيمونَ صَلاتَهُمْ وعِبادَتَهُمْ سِرّاً ، بَعْدَ أنْ حالَ فرعونُ ومَلَؤهُ بيْنَهُمْ وبينَ أنْ يَعبدوا ربَّهُمْ جَهْراً .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الشَّبابُ هُمْ وَقودُ الإيمانِ وجَذْوتُهُ .

٢ـ بَطْشُ فِرْعَونَ وجَبروتُهُ لم يَحُلْ بينَ النّاسِ وبينَ الإيمانِ .

٣ـ ضَرورةُ اعْتِزالِ أهْلِ الكُفْرِ والفُسوقِ إذا لم تَنفَعْ مَعهُمُ النَّصيحَةُ .

٤ـ ضَرورةُ الاسْتعانةِ عَلى بُلوغِ الغاياتِ بالصَّبْرِ والصّلاةِ .

٥ـ المحبَّةُ الصّادِقَةُ والأُخُوَّةُ الصّالِحةُ مِنْ أبوابِ التَّغلُّبِ عَلى العذابِ والبَطْشِ .

٦ـ لا يكونُ تَوكُّلُ المُؤْمِنِ إلاّ عَلى اللهِ تَعالى ، ولا يَدعو سِواهُ .

٧ـ الدُّعاءُ بابُ صِلَةٍ بينَ العَبْدِ وربِّهِ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

ذُرِّيةٌ مِنْ قومِهِ ، أنْ يَفتِنَهُمْ ، عالٍ في الأرضِ ، تَبوَّءا ، اجْعَلوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً .

٢ـ بيِّنْ أثَرَ الشّبابِ في رَفْدِ الإيمانِ .

٣ـ الدُّعاءُ والصَّبرُ والصَّلاةُ مِنْ وسائلِ تَخفيفِ المُعاناةِ ، بيِّنْ ذلِكَ مِنْ خلالِ الآياتِ الكَريمةِ .

٤ـ ما مَوْقفُ المُسلمِ مِنَ العُصاةِ إذا لم تَنفعْ مَعهُمُ النَّصيحَةُ ؟

٥ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ ضَرورَةَ طاعةِ القائِدِ فيما يأمُرُ ، دَلِّلْ عَلى ذلِكَ مِنَ الآياتِ .

٦ـ بِماذا أوْصى اللهُ تَعالى نبيَّهُ موسى عَلَيْهِ السّلامُ ؟ اذْكُرْ ذلِكَ معَ الدَّليلِ .

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الضَّرورياتِ الخَمْسِ الواجبَ حِفْظُها مُرَتَّبةً .

* * *

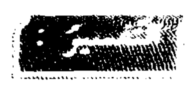
الدَّرسُ التَّاسِعَ عَشَرَ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ التّاسِعَ عَشَرَ

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

زِينةً	اسْمٌ لِما يَتزيَّنُ بهِ الإنْسانُ مِنْ ألوانِ اللّباسِ وأواني الطَّعامِ .
اطْمِسْ على أموالِهِمْ	أهْلِكْها وأتْلِفْها .
أشْدُدْ على قُلوبِهِمْ	ارْبِطْ عَليْها بحيثُ تَزدادُ قَسْوةً عَلى قَسْوَتِها .
البحرَ	هو البحرُ الأحمرُ .
بَغْياً وعَدْواً	ظُلْماً واعْتداءً .
أدْرَكَهُ الغَرَقُ	قارَبَ أنْ يَغْرَقَ في البَحْرِ .
بَوّأْنا	أنْزَلْنا .



بعدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لنا شيئاً مِنْ أحوالِ الَّذينَ آمنوا بِموسى عَلَيْهِ السّلامُ ، بَيَّنَ اللهُ تَعالى لنا ما الّذي حدَثَ أخيراً لِفِرْعَوْنَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

لَمّا تَمادى فرعونُ وقومُهُ في تعنُّتِهِمْ معَ نبيِّ اللهِ تَعالى موسى عَلَيْهِ السّلامُ ، دعا اللهَ تَعالى عليهِمْ قائلاً : يا ربُّ إنكَ أعْطَيْتَ فِرْعونَ وخاصَّتَهُ بَهجةَ الدُّنْيا وزينتَها مِنَ الأموالِ والبَنينَ والسُّلطانِ ، فكانتْ عاقبةُ هذهِ النِّعَمِ إسْرافُهُمْ في الضَّلالِ والإضْلالِ عنْ سبيلِ الحقِّ ، اللهمَّ اسْحَقْ أموالَهُمْ ، واتْرُكْهُمْ في ظُلمةِ قلوبِهِمْ ، فلا يُوفَّقوا للإيمانِ حتَّى يَرَوْا رأيَ العَيْنِ العذابَ الأليمَ الّذي هو العاقبةُ الّتي تَنتَظِرُهُمْ ، لِيكونوا عِبْرَةً لِغَيْرِهِمْ ، مِمَّنْ أوتِيَ مِنْ حُظوظِ هذه الدُّنْيا ، ومِمَّنْ مُنِعَها حتى لا تُسوِّلَ لهُ نفسُهُ الالتِفاتَ إليْها .

وهذهِ الدَّعوةُ مِنْ نَبيِّ اللهِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ كانتْ غَضَباً للهِ تَعالى ولِدينِهِ عَلى فِرْعونَ ومَلَئِهِ ، الَّذينَ تَبيَّنَ لهُ أنَّهمْ لا خَيْرَ فيهِمْ ، كما دعا نبيُّ اللهِ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ عَلى قومِهِ حينَ ظَهَرَ لهُ يَقيناً أنْ لا رجاءَ في إيمانِهِمْ ، فقالَ اللهُ تَعالى عنهُ : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] .

ولمّا كانتْ دَعْوَةُ موسى عَلَيْهِ السّلامُ انْتِصاراً للهِ تعالى وغَضَباً لانْتِهاكِ حُرُماتِهِ فقدِ اسْتَجابَ اللهُ تَعالى دُعاءَهُ ونَصَرَهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

قالَ اللهُ تَعالى لِموسى وهارونَ عليْهِما السّلامُ : أبشِرا فقدْ أُجيبتْ دَعْوَتُكُما في شأنِ فِرْعونَ ومَلَئِهِ ، فاسْتَقيما عَلى أمْري واستَمِرّا عَلى السَّيْرِ في طريقِ الحقِّ ، واتْرُكا سبيلَ الَّذينَ لا يَعلمونَ ما جرتْ بهِ سُنَّتي في خَلْقي ، مِمّنْ لا يُدرِكونَ طريقَ الخَيْرِ مِنَ الشَّرِّ ، ولا يُذْعِنونَ للحقِّ الّذي وَضَحَ .

وكانَ الجوابُ في هذهِ الآيةِ مِنَ اللهِ تَعالى لِموسى وهارونَ عليْهما السّلامُ معَ أنَّ الّذي كانَ يدعو هو موسى عَلَيْهِ السلامُ وَحْدَهُ ، ذلِكَ لأنَّ موسى وهارونَ عَليْهِما السّلامُ هُما رسولانِ في مُهمَّةٍ واحِدَةٍ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى قِصّةَ موسى عليهِ السّلامُ معَ فرعونَ في هذه السّورةِ الكَريمةِ بِبيانِ سُنَّةٍ مِنْ

سُنَنِ اللهِ تَعالى الّتي لا تَتخلَّفُ ، وهي حُسْنُ عاقبةِ المُؤْمِنينَ ، وسوءُ عاقبةِ المُكَذِّبينَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وجاوَزْنا بِبنَي إسْرائيلَ البَحْرَ ، وهُمْ تحتَ رعايَتِنا وقُدْرَتِنا ، حَيْثُ جَعَلْنا لهمْ طريقاً يَبَساً ، فَساروا فيهِ حتّى بَلَغوا نِهايَتَهُ ، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وجُنودُهُ ، لا لِطَلَبِ الهِدايةِ والإيمانِ ، ولكنْ لِلْبَغْي والعُدوانِ ، وذلكَ أنَّ اللهَ تَعالى لَمّا أخبرَ موسى وهارونَ عليهِما السّلامُ بإجابةِ دَعوتِهِما ، أمَرَهُما بإخراجِ بني إسْرائيلَ مِنْ مصرَ لَيْلاً ، فَخَرجا بِهِمْ عَلى حينِ غفلةٍ منْ فرعونَ ومَلَئِهِ ، فلمّا أحسَّ بذلكَ ، خَرَجَ هو وجنودُهُ عَلى أثَرِهِمْ مُسرِعينَ ، فالتفتَ بنو إسرائيلَ فإذا الطّامَّةُ الكُبرى وراءَهُمْ ، فقالوا يا موسى عَلَيْهِ السّلامُ : هذا فرعونُ وجنودُهُ وراءَنا ، وهذا البحرُ أمامَنا ، فكيفَ الخَلاصُ ؟ فأوْحى اللهُ تَعالى إلى موسى عليهِ السّلامُ أنِ اضْرِبْ بِعصاكَ البَحْرَ ، فضرَبَهُ ، فانفلَقَ اثني عَشَرَ فِرْقاً ، كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العَظيمِ ، وصارَ لكلِّ سِبْطٍ مِنْ أسْباطِ بني إسْرائيلَ طريقاً فَسَلَكوا فيهِ ، ووصلَ فرعونُ وجنودُهُ إلى السّاحِلِ ، وبنو إسرائيلَ قدْ خرَجوا مِنَ البحرِ ومَسلَكُهُمْ باقٍ عَلى حالِهِ ، فسَلَكَهُ فرعونُ وجنودُهُ ، فلمّا دخَلَ آخِرُهُمْ وهَمَّ أولهُمُ بالخُروجِ مِنَ البحرِ ، انْطَبَقَ عليْهِمْ وغَشيَهُمْ مِنَ اليَمِّ ما غَشيَهُمْ ، وانطبقَ البَحْرُ عَلى فرعونَ ولفَّهُ تحتَ أمواجِهِ ولُجَجِهِ ، حتّى إذا أدْرَكَهُ الغَرَقُ ، وعاينَ الموتَ ، وأيْقَنَ أنّهُ لا نَجاةَ لهُ مِنهُ ، قالَ : آمنتُ وصدَّقْتُ بأنّهُ لا مَعبودَ بحقٍّ سِوى الإلهِ الّذي آمَنَتْ بِهِ بنو إسْرائيلَ ، وأنا مِنَ القومِ الَّذينَ أسْلَموا نُفوسَهُمْ للهِ تَعالى وَحْدَهُ وأخْلصوها لِطاعَتِهِ .

ولمّا كانَ هذا الإيمانُ قدْ جاءَ في غيرِ أوانِهِ ، فليسَ بنافعٍ لأنّهُ جاءَ عندَ مُعايَنةِ المَوْتِ ، فقدْ ردَّ اللهُ تَعالى هذا الإيمانَ عَلى فرعونَ ولم يَقْبَلْهُ مِنْهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ .

الآنَ تَدَّعي الإيمانَ حين يَئِسْتَ مِنَ الحياةِ ، وأيْقَنْتَ بالموتِ ، والحالُ أنّكَ كنتَ قبلَ ذلكَ مِنَ العُصاةِ المُفْسِدينَ في الأرضِ ، المُصِرِّينَ عَلى تَكذيبِ الحَقِّ الّذي جاءَكَ بِهِ موسى وهارونُ عَلَيْهما السّلامُ .

ثُمَّ أخبرَنا اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلِكَ عمّا فَعَلَهُ بِفرعونَ لِيَكونَ عِظةً وعِبْرةً لِمَنْ يَأْتي بَعْدَهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ .

إنّ دَعواكَ الإيمانَ الآنَ مَرْفوضَةٌ ، لأنّها جاءتْ في غَيْرِ وَقْتِها ، وإنّنا اليومَ بَعْدَ أنْ حلَّ بكَ

الموتُ ، نُلقي بِجِسْمِكَ الّذي خَلا مِنَ الرّوحِ ، عَلى الأرضِ ، لِتكونَ عبرةً وعِظَةً للأَحْياءِ الّذينَ يَعيشونَ مِنْ بَعدِكَ سواءٌ أكانوا مِنْ بني إسرائيلَ أمْ مِنْ غيرِهِمْ ، حتّى يَعرفَ الجميعُ بالمُشاهَدَةِ أو الإخْبارِ سوءَ عاقبةِ المُكَذِّبينَ ، وأنَّ الأُلوهيَّةَ لا تكونُ إلاّ للهِ تعالى الواحِدِ الأحَدِ الفَرْدِ الصَّمَدِ .
وفي هذا دعوةٌ للنّاسِ جَميعاً إلى التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ والاعْتِبارِ بآياتِ اللهِ تَعالى وبِمَظاهِرِ قُدْرَتِهِ .

ثُمَّ بيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلِكَ بعضَ مَظاهِرِ نِعَمِهِ عَلى بَني إسْرائيلَ بَعْدَ أنْ أهلَكَ عدوَّهُمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُواْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

ولقدْ مَكَّنا لِبني إسْرائيلَ بعدَ ذلكَ ، فَعاشوا في أرضٍ طيِّبَةٍ ، مُحافِظينَ عَلى دينِهِمْ ، بَعيدينَ عنِ الظُّلْمِ الّذي كانوا فيهِ ، مَوفورةً لهُمُ الأرزاقُ والنِّعَمُ ، ولكنَّهمْ ما إنْ ذاقوا نِعْمَةَ العِزَّةِ بعدَ الهَوانِ ، حتّى أصابَهُمْ داءُ الفُرْقَةِ فاختلفوا ، مَعَ أنَّهُ قدْ تَبيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ ، وسَيقْضي اللهُ تَعالى بَيْنَهُمْ يومَ القيامةِ ، وسَيَجزي كُلاًّ منهُمْ بِما عَمِلَ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ تَوبيخٌ لهم على جَعْلِهِمُ العِلْمَ ـ الّذي كانَ مِنَ الواجِبِ عَلَيْهِمْ أنْ يَستعمِلوهُ في الحَقِّ والخَيْرِ ـ وسيلةً للاخْتِلافِ والابْتِعادِ عنِ الطَّريقِ المُستقيمِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ مِنْ عَلاماتِ الإيمانِ الصّادِقِ أنْ يكونَ الإنْسانُ غَيوراً عَلى دينِ اللهِ تَعالى .

٢ـ مِنْ مُسبِّباتِ القَلَقِ والحَيْرةِ في نُفوسِ المُؤْمِنينَ وُجودُ النِّعَمِ بينَ أيدي أعدائِهِمُ الجاحِدينَ لِدينِهم .

٣ـ مِنْ دواعي القَبولِ للدُّعاءِ حُسْنُ التَوجُّهِ إلى اللهِ تَعالى بهِ .

٤ـ إنّ مِنْ شُكْرِ نِعَمِ اللهِ تَعالى الاسْتِقامةَ عَلى أوامِرِهِ .

٥ـ المؤمنُ مُتميِّزٌ بإيمانِهِ وسُلوكِهِ عَنِ الجاهلِينَ الّذينَ يُعادونَ الحَقَّ .

٦ـ مِنْ علاماتِ الإيمانِ الصّادِقِ وُقوعُهُ في فُسْحَةٍ مِنَ الوَقْتِ ، فالإيمانُ عندَ انتهاءِ الأجَلِ غيرُ مَقبولٍ .

٧ـ آيةُ اللهِ تَعالى الباهِرَةُ بإهلاكِ فِرْعَوْنَ وإبقاءِ جَسدِهِ عِبرةٌ للنّاسِ .

٨ـ غَفْلَةُ كثيرٍ مِنَ النّاسِ عَنْ تدبُّرِ آياتِ اللهِ تَعالى دليلٌ عَلى جَهْلِهِمْ وقِلّةِ عِلْمِهِمْ .

التّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

زينةً ، اطْمِسْ على أموالِهِمْ ، اشْدُدْ على قُلوبِهِمْ ، بَغْياً وعَدْواً ، أدْرَكَهُ الغَرَقُ ، بَوَّأْنا .

٢ـ بيّنِ السَّببَ في دُعاءِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ عَلى فِرْعونَ ومَلَئِهِ .

٣ـ دلّلْ عَلى ما يلي مِنَ الآياتِ الكَريمةِ :

أـ الغَيْرةُ عَلى دينِ اللهِ تَعالى دليلٌ عَلى صِدْقِ الإيمانِ .

ب ـ حُسْنُ التَّوجُّهِ إلى اللهِ تَعالى أدْعى إلى قَبولِ الدُّعاءِ .

ج ـ الاسْتقامةُ عَلى أوامِرِ اللهِ تَعالى مِنْ شُكْرِ النِّعَمِ .

دـ لا يَنفعُ الإيمانُ حينَ يَنْزِلُ العَذابُ .

٤ـ بيّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ العاقبةَ الأليمةَ الّتي كانَتْ لِفِرْعَوْنَ ومَلَئِهِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٥ـ بيّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ الاخْتِلافَ بعدَ العِلْمِ آفةٌ عظيمةٌ ، وضِّحْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حُكْمَ الدُّعاءِ عَلى الكافِرينَ ، ومَتى يكونُ هذا ؟ مَعَ الدّليلِ مِنْ سُنّةِ الرّسولِ ﷺ .

٢ـ اخْتَرْ سورةً مِنَ السُّوَرِ الّتي جاءَتْ فيها قِصّةُ موسى عَلَيْهِ السّلامُ وتدبَّرْ آياتِها ، وقارِنْها بآياتِ هذهِ السّورةِ .

* * *

الدَّرسُ العِشرونَ

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ العِشْرونَ

فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

المُمْتَرينَ : المُتَردِّدينَ الشّاكّينَ .

حقّتْ عَلَيْهِمْ : وَجَبَتْ وسَبَقَ عَلَيْهِمُ القَضاءُ .

الرِّجْسَ : النَّجَسَ ، السُّخْطَ والعَذابَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ الحديثِ عَنْ قِصَّةِ موسى عَلَيْهِ السّلامُ مَعَ فرعونَ وَملَئِهِ ، وجَّهَ القرآنُ الكَريمُ خِطاباً إلى النَّبيِّ ﷺ تَثْبيتاً لِقَلْبِهِ وتَسلِيةً لَهُ عمّا أصابَهُ مِنْ أذى قَوْمِهِ لَهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ .

فإنْ كُنتَ أَيُّها الرَّسولُ ـ عَلى سبيلِ الفَرْضِ والتَّقديرِ ـ في شَكٍّ مِمّا أَنْزَلْنا إليكَ مِنْ قَصَصٍ حكيمٍ

كقصّةِ نوحٍ وموسى عليْهما السّلامُ وغيرِهما ، فاسْأَلْ عُلَماءَ أهلِ الكِتابِ ، فإنَّ ما قَصصناهُ عليكَ ثابتٌ في كُتُبِهِمْ . ثمّ أقْسَمَ اللهُ تَعالى لهُ بقولهِ : أُقْسِمُ لقدْ جاءَكَ الحَقُّ الّذي لا لُبْسَ فيهِ مِنْ ربِّكَ لا مِنْ غيرِهِ ، فلا تكونَنَّ مِنَ الشّاكّينَ المُتَرَدِّدينَ في صِحّةِ ذلِكَ .

وليسَ المُرادُ مِنْ هذهِ الآيةِ إثباتُ وُقوعِ الشّكِّ مِنَ النّبيِّ ﷺ ، وإنّما ذلكَ عَلى سبيلِ الفَرَضِ من جهةٍ ، ومن جهةٍ ثانيةٍ هُو إلْهابٌ للأُمّةِ وتَهييجٌ في أنْ تَزيدَ ثِقتَها بهذا النّبيِّ العظيمِ ﷺ ، لأنَّ في هذا إعْلاماً لَهُمْ بأنَّ صِفةَ نَبيِّهِمْ ﷺ مَوْجودةٌ في الكُتُبِ المُتقدِّمَةِ الّتي بِأَيْدي أهلِ الكِتابِ ، فإذاً لا مجال للشّكِّ ، فقدْ نزلَ الحَقُّ الّذي لا رَيْبَ فيهِ .

ثُمَّ إنّ الحَقَّ تَعالى أكَّدَ لِنبيِّهِ ضرورةَ تَميُّزِهِ عنِ المُكَذِّبينَ الخاسِرينَ ، فقالَ تَعالى مُبيِّناً ذلِكَ لِنَبيِّهِ :

﴿ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ .

لا تكُنْ أنتَ ولا أحدٌ مِنَ الّذينَ اتّبَعوكَ ، مِنَ الّذينَ يُكَذِّبونَ بالحُجَجِ والبيِّناتِ ، لِئلاّ يَحِلَّ عليكَ الخُسرانُ والغَضَبُ ، كَما هو شأنُ الكُفّارِ الّذينَ لا يُؤْمِنونَ . والخِطابُ هنا لِلنّبيِّ ﷺ ولكلِّ مَنِ اتَّبَعَهُ . وفي هذا الخِطابِ تَعريضٌ بالكُفّارِ مِنْ أهلِ مكّةَ وبيانٌ لِفسادِ مَسْلَكِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى سُنّتَهُ في خَلْقِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ .

إنَّ الّذينَ سَبَقَ عَلَيْهِمْ قَضاءُ اللهِ تَعالى بالكُفْرِ لِما عَلِمَ مِنْ عِنادِهِمْ وتَعصُّبِهِمْ واسْتِحْبابِهِمُ العَمى عَلى الهُدى ، لَنْ يُؤْمِنوا مَهْما أجْهَدْتَ نَفْسَكَ في إقْناعِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنّ هؤلاءِ لا يُؤْمِنونَ إلاّ حينما يُعايِنونَ عذابَ اللهِ تَعالى ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ .

ولو جِئْتَهُمْ بكلِّ أنواعِ الحُجَجِ الواضِحَةِ ، فإنّهم لَنْ يَقْتَنِعوا وسَيَسْتَمِرّونَ عَلى ضَلالِهِمْ إلى أنْ يَنتهيَ بِهِمُ الأمْرُ إلى العذابِ الأليمِ ، وهنا سَيكونُ إيمانُهُمْ كَعَدمِهِ ، لأنّهُ جاءَ في غيرِ وَقْتِهِ .

ثُمَّ إنّ السّورَةَ الكَريمةَ فَتحتْ بابَ الأملِ والنَّجاةِ لهؤلاءِ ، فَذكّرَتْهُمْ بقومِ يونُسَ عليهِ السّلامُ الّذينَ نَجَوْا مِنَ العذابِ بِسَبَبِ إيمانِهِم ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ ﴾ .

فهلاّ عادَ المُكَذِّبونَ إلى رُشْدِهِمْ وصَوابِهِمْ ، فآمَنوا بالحَقِّ الّذي جاءَتْهُم بهِ رُسُلُهم فَنَجَوْا بذلك

مِنْ عذابِ الاسْتِئصالِ الّذي حَلَّ بهم ، وهَلاّ كانوا كقوم يونُس عَلَيْهِ السّلامُ الَّذينَ آمنوا فَقَطَعَ أماراتِ العذابِ الّذي أنْذَرَهُمْ بِهِ نبيُّهُمْ ، فكَشَفَ اللهُ تَعالى عَنْهُمْ هذا العذابَ الّذي كادَ ينزِلُ بِهِمْ ، ومَتَّعَهُمْ بالحياةِ المُقدَّرَةِ لهمْ إلى حينِ انْقِضاءِ آجالِهِمْ في هذهِ الدُّنْيا .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ إشارةٌ إلى أنَّهُ لمْ تُوجَدْ قريةٌ آمنتْ بأجْمَعِها بنَبِيِّها المُرْسَلِ إلَيْها مِنْ سائِرِ القُرى إلاّ قومُ يونُسَ عَلَيْهِ السّلامُ ، وفيها كَذلكَ تَسْليةٌ للنَّبيِّ ﷺ عمّا أصابَهُ مِنْ حُزْنٍ بسببِ إعْراضِ قومِهِ عنِ الإيمانِ بدعوَتِهِ الشَّريفةِ ، وفيها كذلكَ تَعريضٌ بأهْلِ مَكَّةَ ، وإنْذارُهُمْ مِنْ سوءِ عاقبةِ الإصْرارِ عَلى الكُفْرِ ، وفيها حضٌّ لَهُمْ ولِغَيْرِهِمْ عَلى أنْ يَكونوا كقومِ يونُسَ عَلَيْهِ السّلامُ الَّذينَ آمَنوا فَنَفَعهُمْ إيمانُهُمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى تَسليةً لِرَسولِهِ ﷺ وتَوْضيحاً لِسُنَّةٍ مِنْ سُنَنِهِ في خَلْقِهِ ، أنَّهُ تعالى قادِرٌ عَلى أنْ يَجعلَ النّاسَ كُلَّهُمْ مُؤْمِنينَ ، ولَكِنِ اقْتَضتْ حِكْمَتُهُ أنْ يَتْرُكَ للإنسانِ الاختيارَ ، فقالَ تَعالى مُبيِّناً تلكَ السُّنَّةَ :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ ﴾ .

ولو شاءَ ربُّكَ يا مُحمّدُ ﷺ إيمانَ أهْلِ الأرْضِ كُلِّهِمْ جَميعاً لآمَنوا دونَ أنْ يتخلَّفَ منهمْ أحَدٌ ، ولكنَّهُ سُبْحانَهُ لم يَشأْ ذلِكَ ، لأنّهُ مُخالِفٌ لِلحِكْمَةِ الّتي عليْها أساسُ التَّكوينِ والتَّشريعِ والإثابةِ والمُعاقَبةِ ، فقدِ اقْتَضتْ حِكْمَتُهُ سُبْحانَهُ أنْ يَخْلُقَ الكُفْرَ والإيمانَ ، وأنْ يُحَذِّرَ مِنَ الكُفْرِ ويَحُضَّ عَلى الإيمانِ ، ثُمَّ بَعْدَ ذلِكَ مَنْ كَفَرَ فعليهِ كُفْرُهُ ، ومَنْ آمَنَ فَلَهُ ثوابُ إيمانِهِ ، وبناءً عَلى هذا فلا تستطيعُ أيُّها الرَّسولُ الكَريمُ أنْ تُكْرِهَ النّاسَ حتّى يُذْعِنوا للحَقِّ ويَستجيبوا لهُ ، فليْسَ لكَ أنْ تُحاوِلَ إكْراهَهُمْ عَلى الإيمانِ ، ولنْ تَستطيعَ ذلِكَ مَهما حاوَلْتَ .

ثُمَّ أتبعَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بيانَ تلكَ السُّنَّةِ في خَلْقِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ .

لا يُمْكِنُ لإنسانٍ أنْ يُؤْمِنَ إلاّ إذا اتَّجهتْ نفسُهُ إلى ذلِكَ ، وهُنا يَهديهِ اللهُ للإيمانِ ، ومَنْ كَفَرَ فهوَ مُسْتَحِقٌّ لِسَخَطِ اللهِ تَعالى وعَذابِهِ ، وسُنَّةُ اللهِ تَعالى أنْ يَجعلَ العَذابَ والغَضَبَ على الَّذينَ يَنْصَرِفونَ عنِ الحُجَجِ الواضِحَةِ ولا يَتدبَّرونَها .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا يَنْبَغي الشَّكُّ والامْتراءُ في شأنِ الحَقِّ .

٢ـ مَنْ لا يأخذُ بِأَسْبابِ الهُدى لا يَهْتَدي .

٣ـ بابُ الأَملِ مَفتوحٌ عندَ اللهِ تَعالى للنّاسِ أجْمَعينَ .

٤ـ صِدْقُ الإسْلامِ وحَقيقتُهُ مُتأكِّدٌ في القرآنِ الكَريمِ وفي كُتُبِ الأنبياءِ السّابِقينَ .

٥ـ لا يُؤمِنُ ولا يَهتدي إلاّ مَنْ شاءَ اللهُ تَعالى لهُ الإيمانَ والهِدايَةَ ، ولا إكْراهَ في الدّينِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

المُمْتَرينَ ، حَقَّتْ عَلَيْهِم ، الرِّجْسَ .

٢ـ لماذا طَلَبَ اللهُ تَعالى مِنْ نَبيِّهِ ﷺ أنْ يَسأَلَ أهْلَ الكِتابِ ؟ وهلْ كانَ يَشُكُّ في دينهِ ؟

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ بعضاً مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى في خَلْقِهِ ، بيِّنْ هذهِ السُّنَنَ مَعَ ذكْرِ الدّليلِ .

نَشاطٌ :

ـ ارْجِعْ إلى أحَدِ كُتبِ التَّفسيرِ ، ولَخِّصْ مِنْها قِصَّةَ يونُسَ عَلَيْهِ السَّلامُ .

* * *

الدَّرْسُ الحادي والعِشْرونَ

سورَةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

انْظُروا : تأمَّلوا وتَدبَّروا .

أيامِ الَّذينَ خَلَوْا : وقائِعِهِمْ وحَوادِثِهِمْ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى بعضَ سُنَنِهِ في خَلْقِهِ حَثَّنا على التَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ في مَلَكوتِ السّمواتِ والأرضِ ، لأنَّ ذلِكَ يُعينُ على التّفكيرِ السّليمِ ، وعلى اسْتِعمالِ العَقْلِ فيما يَهدي إلى الحَقِّ والخَيْرِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

قلْ أيُّها الرّسولُ ﷺ لِقَوْمِكَ : انْظُروا وتأمَّلوا وتَفكَّروا فيما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ السّمواتُ والأرضُ مِنْ شُموسٍ وأقْمارٍ ، وكَواكِبَ ونُجوم وسَحاب ، وفيما اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الأرضُ مِنْ زُروعٍ وأنهارٍ ، ومِنْ جبالٍ وأشجارٍ ومنْ حيواناتٍ ودوابَّ ، انْظُروا في أنْفُسِكُمْ كَيْفَ خَلَقَها اللهُ تَعالى ودبَّرَها وأحْسَنَ خَلْقَها وصوَّرَها ، انظُروا إلى ذلِكَ وتفكَّروا ، فإنَّ هذا التَّفكُّرَ يَهدي أصْحابَ العُقولِ السّليمةِ إلى أنَّ

لِهذا الكَوْنِ إلهاً واحِداً عَليماً قَديراً ، هُو وَحْدَهُ المُسْتَحِقُّ لِلعبادةِ والطّاعةِ .

ولكنَّ الآياتِ عَلى كَثْرَتِها واتِّضاحِها ، والنُّذُرَ عَلى قُوَّتِها وتَعدُّدِها لا تُجدي شَيْئاً بالنِّسبةِ لِمَنْ تَركوا الإيمانَ وجَحدوا بآياتِ اللهِ تَعالى ورُسُلِه صلواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْهِم .

ثُمَّ ساقَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى للمُعانِدينَ الجاحِدينَ المُكَذِّبينَ برسولِهِ ﷺ تَهديداً يَخلَعُ قُلوبَهُمْ ، وذلكَ بتذكيرِهِمْ بأيّامِ الَّذينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴾ .

فهلْ يَنتظِرُ أُولئكَ الجاحِدونَ إلاّ أنْ ينالَهُمْ مِنَ الأيّامِ الشِّدادِ مِثْلَ ما أصابَ الَّذينَ مضَوْا مِنْ مِثْلِ قوم نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، ومِنْ مِثْلِ عادٍ وثمودَ وغيرِهِمْ ، مِمّنْ يَعرِفونَ أخبارَهُمْ ويَعْلَمونَ أَحْوالَهُمْ ، قُلْ لَهُمْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ ؛ إذا كُنتمْ تَنتظِرونَ غيرَ ذلِكَ ، فانتَظِروا إنّي مَعَكُمْ مِنَ المُنتَظِرينَ ، وسَتُصيبُكُمُ المَصائِبُ القَريبةُ والعَذابُ يومَ القيامةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلِكَ سُنَّةً مِنْ سُنَنِهِ الّتي لا تَتخلَّفُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

تلكَ سُنَّتُنا في خَلْقِنا نُهْلِكُ الأُمَمَ المُكَذِّبَةَ ، وبعدَ ذلِكَ نُنَجّي رُسُلَنا الَّذينَ أرْسَلْناهُمْ لإخْراجِ النّاسِ مِنَ الظُّلماتِ إلى النّورِ ، وكَذلكَ نُنَجّي الَّذينَ آمنوا برسُلِنا وصَدَّقوهُمْ .

ومِثْلُ ذلِكَ الإنجاءِ الّذي تَكفّلْنا بهِ لِرُسُلِنا ولِمَنْ آمَنَ بِهِمْ ، نُنَجِّ المُؤْمِنينَ بكَ أيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﷺ ، ونُعذِّبُ المُصِرّينَ عَلى تَكذيبِكَ ، وهذا وعْدٌ مِنّا تفضُّلاً وتَكرُّماً .

وبَعْدَ هذا البيانِ لِسُنَّةِ اللهِ تَعالى في خَلْقِهِ أَمَرَ اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يُوجِّهَ نِداءَهُ إلى النّاسِ بالإخلاصِ للهِ تَعالى ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

قلْ يا أيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﷺ للنّاسِ : إنْ كُنتمْ تَشُكّونَ في صِحّةِ الدّينِ الّذي بُعِثْتُ بِهِ ، فاعْلَموا أنّهُ مهما تَشكَّكْتُمْ فيهِ فَلَنْ أعبُدَ الأَصْنامَ الّتي تَعبدونَها مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ، ولكنّي أعبدُ اللهَ تَعالى الّذي خَلَقَكُمْ ، والّذي بيدِهِ مَصيرُكُمْ ، وهو الّذي يَتوفّاكُمْ عندَ انْقضاءِ آجالِكُمْ ، وقدْ أَمَرَني سُبْحانَهُ وتَعالى أنْ أكونَ مِنَ المُؤْمِنينَ بأنَّهُ تَعالى الواحِدُ الأحَدُ ، الفَرْدُ الصَّمَدُ ، الّذي لا رَبَّ سِواهُ .

وهَكَذا نَرى أنَّ فِكْرَةَ الوَحدانيةِ والإيمانَ بها أعلى أساساتِ الإيمانِ ، ولا يَنْبَغي لِمُسْلِمٍ أنْ

يُساوِرَهُ الشَّكُّ في هذهِ القَضَيةِ مَهْما تَشكَّكَ فيها غيرُ المُؤْمِنينَ ، لأنَّ في ذلِكَ الشَّكِّ زَلزلةً لِبُنيانِهِ العَقَديِّ ، وانْحِلالاً لِعُرْوَةِ إيمانِهِ ، عياذاً باللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ ضَرورةُ النَّظَرِ والتَّأمُّلِ والتَّدبُّرِ والتَّفكُّرِ في مَلكوتِ اللهِ تَعالى ، وهذا مِنْ هَدْيِ الإسلامِ .

٢ـ مَنْ لمْ يُؤْمِنْ باللهِ تَعالى لا تَنفعُهُ الآياتُ والحُجَجُ ، والمُؤْمِنُ الصّادِقُ هو المُنتَفِعُ الحَقيقيُّ .

٣ـ ضَرورةُ الاعْتِبارِ والاسْتِبصارِ بما حلَّ بالأُممِ والأمْصارِ .

٤ـ نَجاةُ المُؤْمِنينَ وسَلامةُ مَنهَجِهِمْ وعْدٌ مِنَ اللهِ تَعالى ثابتٌ وتَحقَّقَ .

٥ـ ضَرورةُ ثِقةِ النَّبيِّ ﷺ بربِّهِ ودينهِ ، والمُؤْمِنُ الصّادِقُ لا يَصِحُّ منهُ الشَّكُّ في دينهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ التّاليةِ :

انْظُروا ، أيّامِ الَّذينَ خَلَوْا .

٢ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ ضَرورةَ النَّظرِ والتَّدبُّرِ في مَلَكوتِ اللهِ تَعالى ، علِّلْ ذلِكَ .

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ المُنتفِعَ بالآياتِ والعِبَرِ صِنْفٌ مِنَ النّاسِ ، بيِّنْهُ مَعَ ذِكْرِ الدّليلِ .

٤ـ بيِّنْ كيفَ يُمكِنُ أخْذُ العِبرَةِ مِنَ الأُممِ الماضيةِ .

٥ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمَةُ سُنَنَ اللهِ تَعالى ، هاتِها ، واذْكُرِ الدّليلَ عَلَيْها .

٦ـ التّوحيدُ رُكْنٌ أساسيٌّ في دينِ الإسلامِ ، بيِّنْ ذلِكَ مِنْ خلالِ آياتِ الدّرْسِ .

* * *

الدرس الثاني والعشرون

سورةُ يونُسَ ـ القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أقِمْ وجْهَكَ للدّينِ : اسْتَقِمْ على دينِكَ واثْبُتْ عَلَيْهِ .

حَنيفاً : مائِلاً عَنِ الشِّرْكِ إلى الإيمانِ .

ضُرٌّ : مَرَضٌ أو ألَمٌ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ أمَرَ اللهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ بتوجيهِ النِّداءِ للنّاسِ ، وجَّهَ اللهُ تَعالى النِّداءَ لِنبيِّهِ ﷺ ، وذلكَ تَثْبيتاً لِحالةٍ كانَ النَّبيُّ ﷺ وما زالَ عَلَيْها ، فقالَ تعالى :

﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

أمَرَ اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ بتَوْجيهِ نَفْسِهِ بالكُلّيّةِ إلى عِبادَتِهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، والإعْراضِ عمّا سِواهُ ، فإنَّ مَنْ أرادَ أنْ يَنْظُرَ إلى شيءٍ نَظَرَ اسْتقصاءٍ يُقيمُ وجْهَهُ في مُقابلَتِهِ ، بحيثُ لا يَلتفِتُ يَميناً

ولا شِمالاً ، إذْ لوِ التفتَ بَطَلَتِ المُقابَلَةُ ، فَلِهذا كنّى بإقامةِ الوَجْهِ عَنْ صَرْفِ العملِ بالكُلّيّةِ إلى الدّينِ ، والمُرادُ بالوَجْهِ : الذّاتُ ، والمُرادُ مِنْ كلٍّ ذلِكَ : اصْرِفْ ذاتَكَ وكُلّيّتَكَ للدّينِ ، بالإخلاصِ للهِ تَعالى وحْدَهُ ، والابتعادِ عنِ المُشرِكينَ وطَرائِقِهِمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى لِنبيِّهِ ﷺ أنّه تَعالى وَحْدَهُ هُوَ النّافِعُ الضّارُّ ، ولا يَنبغي للنَّبيِّ ﷺ أنْ يَتوجَّهَ بالدُّعاءِ إلاّ لهُ سبحانهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

ولا تَلجأْ أيُّها النَّبيُّ ﷺ بالدُّعاءِ والعِبادةِ إلى غيرِ اللهِ تَعالى مِمّا لا يَجْلِبُ لكَ نَفْعاً ، ولا يُنزِلُ بِكَ ضَرَراً ، فإنَّكَ إنْ فَعَلْتَ ذلِكَ كنتَ داخِلاً في غِمارِ المُشرِكينَ الظّالِمينَ .

والنَّهْيُ المُوَجَّهُ للنَّبيِّ ﷺ مُوجَّهٌ لأُمَّتِهِ ، وهُوَ تأكيدٌ للنَّهْيِ ، لأنَّ النَّهْيَ حيثُ لا يُمْكِنُ وُقوعُ المَنْهيِّ عَنْهُ مُبالغةٌ في النَّهْيِ ، فالنَّبيُّ ﷺ يَستحيلُ أنْ يتوجَّهَ بالعبادةِ إلى غيرِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلِكَ لنبيِّهِ ﷺ أنَّ اللهَ تَعالى هُوَ النّافِعُ ، وهُوَ الضّارُّ ، وهُوَ المُتصرِّفُ في عبادِهِ بما يشاءُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ تَعالى بِضُرٍّ كمرضٍ وتَعَبٍ وحُزْنٍ ، فَلَنْ يَكشِفَهُ أحَدٌ عنكَ إلاّ اللهُ تَعالى ، وإنْ يُقدِّرْ لكَ الخَيْرَ كالصِّحّةِ والغِنى والقُوّةِ ، فلا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يَمنعَ هذا الخَيْرَ عنكَ ، لأنَّ اللهَ تَعالى يَهَبُ الخَيْرَ مِنْ فَضْلِهِ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، وهو سُبْحانَهُ الواسِعُ المَغْفِرَةِ العظيمُ الرَّحمةِ . ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذِهِ السّورَةَ الكَريمَةَ بنداءٍ لَخَّصَ فيه غايَتَها وَهَدَفَها ، فقالَ تَعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

بلِّغْ أيُّها الرَّسولُ ﷺ دعوةَ اللهِ تَعالى إلى النّاسِ كافَّةً ، سواءٌ مِنهُمْ مَنْ بَلَغَهُ هذا النداءُ منكَ أمْ سَيُبَلِّغُهُ إياهُ مَنْ يَجيءُ بَعدكَ ، قلْ لَهُمْ : أيُّها النّاسُ ، قدْ أنزلَ اللهُ تَعالى عَلَيْكُمُ الشَّريعةَ الحَقَّةَ مِنْ عندِهِ ، فَمَنْ شاءَ أنْ يَهْتَدِيَ فَلْيُسارِعْ ، فإنَّ فائدةَ هُداهُ سَتكونُ لِنفسِهِ ، ومَنْ أصَرَّ عَلى ضَلالِهِ فإنَّ جزاءَ ضَلالِهِ سَيَقَعُ عَلَيْهِ وحْدَهُ ، وأنا لستُ مُوكَّلاً بإرْغامِكُمْ عَلى الإيمانِ ولا مُسَيْطِراً عَلَيْكُم .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ ﷺ بنداءٍ أخيرٍ باتِّباعِ ما أُوحِيَ إليهِ ، والصَّبْرِ عَلى ما هُوَ عَلَيْهِ حتّى يَحْكُمَ اللهُ تَعالى في شَأْنِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَٱتَّبِعۡ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَٱصۡبِرۡ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

وأنتَ أيُّها الرَّسولُ ﷺ اثْبُتْ على دينِ الحَقِّ ، واتَّبِعْ ما أُنزِلَ عليكَ مِنَ الوَحْي ، صابِراً على ما يَنالُكَ في سبيلِ الدّعوةِ مِنْ مَكارهَ حتّى يَقضِيَ اللهُ تَعالى بَيْنَكَ وبَيْنَهُمْ بما وَعَدَكَ بِهِ اللهُ تَعالى مِنْ نَصْرِ المُؤْمِنينَ وخِذلانِ الكافِرينَ ، وهو تَعالى خيرُ الحاكِمينَ ، لأنَّهُ سُبْحانَهُ العليمُ بالبواطِنِ والظَّواهِرِ وهُوَ الّذي لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ولا رادَّ لِقضائِهِ .

وبعدُ ؛ فهذهِ سورةُ يونُسَ عَلَيْهِ السّلامُ ، رَأَيْناها كيفَ أقامتِ الأدِلَّةَ على وَحدانيّةِ اللهِ تَعالى وعلى كَمالِ قُدرَتِهِ وشُمولِ عِلْمِهِ ، ونفاذِ إرادَتِهِ ، وسَعةِ رَحمتِهِ ، وكيفَ أنَّها أقامتِ الأدِلَّةَ على صِدْقِ الرَّسولِ ﷺ ، وعلى أنَّ القرآنَ الكريمَ هُوَ مِنْ عندِ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى ، ورَأَيْناها كيفَ ساقتْ مِنَ الأدلَّةِ على حَقيقةِ يومِ القيامةِ ، وعلى أحوالِ النّاسِ فيهِ ، ورَأَيْناها كيفَ ساقتْ جانِباً مِنْ أحوالِ بَعضِ الأنْبياءِ عَلَيْهِم السّلامُ مَعَ أقوامِهِمْ ، ورَأَيْناها كيفَ قَرَّرَتْ سُنَّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى الّتي لا تَتخلَّفُ ، وهي نَجاةُ رُسُلِ اللهِ تَعالى صَلواتُ اللهِ وسلامُهُ عَلَيْهِم والمُؤْمِنينَ بِهِمْ ، وجَعْلُ الرِّجْسِ على الكافِرينَ ، ورأَيْناها كيفَ بَيَّنَتْ أحوالَ النّاسِ في السّراءِ والضَّراءِ بياناً صادِقاً قوّياً مُؤَثِّراً ، مِنْ شَأنِهِ أنْ يَحمِلَهُمْ على التَّحلِّي بالأخلاقِ الحَميدةِ الكَريمةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ ضَرورةُ الاسْتِقامةِ عَلى مَنْهجِ اللهِ تَعالى والثَّباتِ عليهِ .

٢ـ التّوجُّهُ بالدُّعاءِ إلى اللهِ تَعالى ، فاللهُ وَحْدَهُ هو النّافِعُ والضّارُّ .

٣ـ إنْ أرادَ اللهُ تَعالى بِعَبْدٍ خَيْراً لا يَستطيعُ أَحَدٌ أنْ يَحولَ بَيْنَهُ وبَيْنَه .

٤ـ إنَّ الّذي جاءَ للنّاسِ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى عَلى أنبيائهِ ورُسُلِهِ عَلَيْهِم السّلامُ هوَ الحَقُّ لا غَيْرَ .

٥ـ عَلى المُسْلِمِ أنْ يَصبرَ عَلى ما ينالُهُ مِنْ أذىً حتّى يَقْضِيَ اللهُ تَعالى بَيْنَهُ وبينَ الّذينَ آذوْهُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ معانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

أقِمْ وجْهَكَ للدّينِ ، حَنيفاً ، ضُرّ .

٢ـ ما المُرادُ بالنَّهْيِ المُوَجَّهِ للنَّبيِّ في هذهِ الآياتِ ؟ وما الدَّليلُ عَلى ذلِكَ ؟

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أنَّ عاقِبةَ الهدايةِ والضَّلالِ إنّما هِيَ عَلى أنْفُسِ النّاسِ ، بيِّنْ ذلِكَ .

٤ـ اذْكُرْ خَمْسةً مِنْ مَوْضوعاتِ هذهِ السّورَةِ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الدُّعاءَ الّذي يُسَنُّ قولُهُ في بدايةِ الصّلاةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والعِشْرونَ

سورَةُ هودٍ - القِسْمُ الأوّلُ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾

تعريفٌ بالسُّورَةِ :

سورَةُ هودٍ مَكِّيَّةٌ ، عَدَدُ آياتِها مائةٌ وثلاثٌ وعِشْرونَ ، ابتدأتْ بالتَّنويهِ بالقُرْآنِ الكَريمِ ، وعبادةِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ ، والإنذارِ والتَّبْشيرِ ، ثُمَّ بَيانِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى ورُبوبيَّتِهِ ، وأحوالِ النّاسِ في تَلَقّيهِمْ نِعَمَ اللهِ تَعالى ونِقَمَهُ ، ثُمَّ مَقامِ القُرآنِ والتَّحدّي بهِ ، وكُفْرِ الكافِرينَ بهِ مِنْ غيرِ عُذْرٍ ، وبَيانِ ثَوابِ المُؤْمِنينَ ، وضَرْبِ الأمثلةِ ببعضِ قَصصِ الأنْبياءِ السّابِقينَ ، كَقصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، وكذا قصةِ هودٍ وقصَّةِ صالحٍ وقصّةِ لوطٍ ، وقصّةِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِم جَميعاً الصّلاةُ والسّلامُ ، ثُمَّ ذكرتِ العِبَرَ في هذا القَصصِ الحَقِّ . وختَمَها سُبْحانَهُ بِدَعْوَةِ المُؤْمِنينَ إلى العَمَلِ وانْتِظارِ الثَّوابِ ، ثُمَّ ذِكْرِ عِلْمِ اللهِ تَعالى الكامِلِ ، وَوُجوبِ التوكُّلِ عَلَيْهِ . وسُمِّيَتْ بسورةِ هودٍ لِوُرودِ ذِكْرِ نبيِّ اللهِ هودٍ عليهِ السَّلامُ فيها .

مَعاني المُفْرَداتِ :

أُحْكِمَتْ	: أُتْقِنَتْ إتْقاناً عَظيماً ، ونُظِمَتْ نَظْماً رَصيناً بارِعاً .
فُصِّلتْ	: بُيِّنَتْ .
حَكيمٍ	: مِنْ أسماءِ اللهِ تَعالى الحُسْنى ، والمُرادُ بِهِ مَنْ خَلَقَ الأشياءَ وأتْقنَ خَلْقَها أتمَّ الإتقانِ .
خبيرٍ	: مِنْ أسماءِ اللهِ تَعالى الحُسْنى ، والمُرادُ بِهِ العالِمُ بِدَقائقِ الأشياءِ .
يُمَتِّعْكم مَتاعاً حَسَناً	: يُبقيكُمْ إبقاءً حَسَناً آمِنينَ غيرَ خائِفينَ في الدُّنْيا .
يَثْنونَ صُدورَهُمْ	: يُميلونَها ويُطأْطِئونَها حتّى تكونَ قاماتُهُمْ غيرَ مُستقيمةٍ .
لِيَسْتَخْفوا منهُ	: يُحاوِلونَ الاخْتِفاءَ مِنَ اللهِ تَعالى ـ حَسْبَما زَعَموا ـ وما هُمْ بِقادِرينَ .
يَسْتَغْشونَ ثِيابَهُمْ	: يَتدثَّرونَ بِها ويَتغطَّوْنَ ، مُبالغةً في الاسْتِخفاءِ .

التَّفسيرُ :

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾ .

الر : حروفٌ ابتدأتْ بِها السّورَةُ الكَريمةُ للإشارَةِ إلى أنَّ القُرْآنَ مُعجِزٌ ، مع أنّهُ مُكوَّنٌ مِنْ هذهِ الحروفِ الّتي يَنْطِقونَ بها ، وللتَّنبيهِ إلى الإصْغاءِ عندَ تِلاوةِ القُرْآنِ الكَريمِ إلى أنّهُ كتابٌ عظيمُ الشّأنِ ، جليلُ القَدْرِ ، فَقدْ أحْكَمَ اللهُ تعالى آياتِهِ إحْكاماً بَديعاً ، وأتْقَنَها إتْقاناً مُعْجزاً ، بحيثُ لا يَتطرَّقُ إِلَيْها خَلَلٌ أو فَسادٌ ، ثُمَّ فَصَّلَ اللهُ تَعالى هذهِ الآياتِ تَفْصيلاً حَكيماً ، بأنْ أنْزَلَها نُجوماً ، وجَعلَها سُوَراً ، مُشتمِلَةً على ما يُسْعِدُ النّاسَ في دُنياهُمْ وآخرتِهِمْ مِنْ شُؤونِ العَقيدةِ والعِباداتِ ، والمُعاملاتِ ، والآدابِ ، وسائِرِ الأحْكامِ . وهذا الكِتابُ الّذي أُتْقِنَتْ آياتُهُ إتْقاناً بَديعاً ، وفُصِّلَتْ تَفصيلاً رصيناً ، ليسَ هُوَ مِنْ عندِ أحَدٍ مِنَ الخَلْقِ ، وإنّما هُوَ مِنْ عندِ الخالِقِ الحَكيمِ الّذي خَلَقَ كلَّ شيءٍ فأتْقَنَهُ ، الخَبيرِ ببواطِنِ الأُمورِ وظَواهِرِها سُبْحانَهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ الإحْكامَ والتَّفصيلَ الواقِعانَ في الكِتابِ ، لِيَعْبُدَ النّاسُ ربَّهُمْ ، ولِيُطيعوا رسولَهُ ﷺ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ ﴾ .

إنهُ سُبْحانَهُ وتَعالى فَعَلَ ما فَعَلَ مِنْ إحْكامِ القُرآنِ وتَفصيلِهِ وتَنْزيلِهِ على تلكَ الهَيْئةِ المُعْجزَةِ ، ما ذاكَ إلاّ لِتُخْلِصوا لهُ تَعالى العِبادَةَ والطّاعةَ ، وتَترُكوا عبادةَ غَيْرِهِ ، ثُمَّ بيّنتِ الآيةُ الكَريمةُ وظيفةَ الرّسولِ ﷺ لِيُناديَ بها في النّاسِ قائلاً : قدْ أرْسَلَني اللهُ تَعالى إليكُمْ لِكَيْ أُنْذِرَ الّذينَ فَسَقوا عنْ أمْرِهِ بسوءِ العاقبةِ ، وأُبَشِّرَ الّذينَ اسْتَجابوا لِدعوَتِهِ بحُسْنِ المَثوبَةِ ، وقَدَّمَ سُبْحانَهُ وتَعالى الإنْذارَ على التَّبشيرِ في هذهِ الآيةِ الكَريمةِ ، لأنَّ الخِطابَ مُوجَّهٌ إلى الكافِرينَ ، الّذينَ أشْرَكوا معَ اللهِ تَعالى آلِهَةً أُخْرَى .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى ما يَترتَّبُ على طاعَتِهِ مِنَ الخَيْراتِ ، وما يَترتَّبُ على التّولّي عَنْ طاعتِه مِنْ الوَيْلاتِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ .

عليكُمْ أيُّها النّاسُ بَعْدَ أنْ نَبذتُمْ كلَّ عِبادةٍ لغيرِ اللهِ تَعالى أنْ تَتضرَّعوا إلى اللهِ تَعالى داعينَ أنْ يَغفِرَ لكُمْ ذُنوبَكُمْ ، ثُمَّ تَرْجعوا إليهِ بإخْلاصِ العِبادةِ وعَمَلِ الصّالحاتِ كيْ يُمَتِّعَكُمْ مَتاعاً حَسَناً في الدُّنْيا ، إلى أنْ تَنتهِيَ آجالُكُمُ المُقدَّرَةُ لكُمْ فيها ، وهو سُبْحانَهُ يُعطي في الآخِرَةِ كلَّ صاحِبِ عَمَلٍ صالحٍ فاضِلٍ ثوابَ عَمَلهِ وفَضْلِهِ ، ثُمَّ حذَّرَهُمْ تَبارَكَ وتَعالى على لِسانِ رَسولِهِ ﷺ قائلاً لهمْ : وإنْ تَنْصَرفوا عمّا أدْعوكُمْ إليهِ فإنّي أخافُ عليكُمُ العَذابَ الشَّديدَ في يومٍ كبيرٍ يُحْشَرُ فيهِ النّاسُ جميعاً ، ويكونُ فيهِ الهَوْلُ الأكْبَرُ .

﴿ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ ﴾ .

يُؤَكِّدُ اللهُ تَعالى حَقيقَةَ إعادةِ الخلْقِ ، وقُدرَتَهُ تَعالى عَلى ذلِكَ بِقَوْلِهِ : إلى اللهِ وحْدَهُ مَرْجِعُكُمْ جميعاً ، وجزاؤكُمْ عَلى أعمالِكُمْ كلِّها ، فهو القادِرُ عَلى كلِّ شيءٍ ، ولا يُقادِرُ قَدَرَهُ قادِرٌ .

﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ﴾ .

إنَّ النّاسَ وبِخاصَّةٍ الكافِرونَ منهمْ يَطوونَ صُدورَهُم كاتِمينَ لِما يَجولُ فيها ، مُجْتَهِدينَ في كِتْمانِهِمْ ، زاعِمينَ أنَّهُم بذلكَ يُخْفونَ خَلَجاتِ صُدورِهِمْ عنِ اللهِ تَعالى! ألا فَليعْلَمْ هؤلاءِ أنّهم إنْ أوَوْا إلى فِراشِهِمْ مُسْتَتِرينَ ، واسْتَتَروا بظلامِ اللّيلِ ، وكَتَموا ما في الصُّدورِ ، فإنَّ اللهَ تَعالى عليمٌ بِهِمْ في سِرِّهِمْ وعَلَنِهِمْ ، لأنّهُ تَعالى يَعْلَمُ السِّرَّ وما تُخْفي الصُّدورُ .

والآيةُ الكَريمةُ تُصوِّرُ تَصْويراً بديعاً جَهالاتِ بعضِ الضّالّينَ بِعلْمِ اللهِ تَعالى ، المُحيطِ بكلِّ شَيْءٍ ، كما تُصوِّرُ تَصويراً دقيقاً أَوْضاعَهُمُ الحِسّيَّةَ حين يَأْوونَ إلى فُرُشِهِمْ ، وحينَ يُقابِلونَ النَّبي ﷺ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ القرآنُ الكَريمُ مُنَزَّلٌ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، وهو السّالِمُ مِنْ كلِّ تَبديلٍ وتَحريفٍ .

٢ـ الرَّسولُ ﷺ هو النَّذيرُ البَشيرُ .

٣ـ اللهُ تَعالى وَحْدَهُ الّذي يَستحِقُّ الطّاعَةَ والعِبادَةَ .

٤ـ اللهُ تَعالى لا تَخْفى عَلَيْهِ خافِيَةٌ وهو عالِمُ كلِّ شيءٍ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

أُحْكِمَتْ آياتُهُ ، فُصِّلَتْ ، حَكيمٍ خَبيرٍ ، يُمتِّعْكُمْ مَتاعاً حَسَناً ، يَثْنونَ صُدورَهُمْ ، لِيَسْتَخْفوا منهُ ، يَسْتَغشونَ ثِيابَهُمْ .

٢ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ بعضاً مِنْ خَصائصِ القُرآنِ الكَريمِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٣ـ لماذا قدّمتِ الآياتُ الكَريمةُ الإنذارَ عَلى التّبشيرِ ؟

٤ـ بيّنِ الأعمالَ الّتي يَنبغي القيامُ بِها للحُصولِ عَلى تَمْتيعِ اللهِ تَعالى المَتاعَ الحَسَنَ للنّاسِ .

٥ـ بيّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ عُقوبَةَ المُتولّينَ عَنْ مَنْهَجِ اللهِ تَعالى ، وضِّحْ ذلكَ .

٦ـ رَسَمتِ الآيةُ الأخيرةُ (٥) صُورَةً عَجيبةً للمُشْرِكينَ ، بيّنْ هذهِ الصُّورَةَ وَوضِّحْها .

٧ـ هاتِ الدّليلَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ عَلى ما يلي :

أـ أهميّةُ القُرْآنِ الكَريمِ وبقاؤُهُ .

ب ـ رسالةُ الرّسولِ هي إنذارٌ وتَبشيرٌ .

ج ـ لا طاعةَ ولا عِبادَةَ إلا للهِ تَعالى .

د ـ الاسْتِغفارُ والتّوْبَةُ طريقا رِضوانِ اللهِ تَعالى .

هـ ـ لكلِّ عاملٍ ثَوابُ عَمَلِهِ وجَزاؤُهُ .

و ـ عقائدُ المُشرِكينَ في ذاتِ اللهِ تَعالى عقائدُ فاسِدَةٌ .

نَشاطٌ :

١ ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةً أُخْرى تُبيِّنُ مُهمَّةَ الرّسولِ ﷺ .

٢ ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةً أُخْرى تُبيِّنُ عِلْمَ اللهِ تَعالى بما يُسِرُّهُ الإنسانُ ويُخْفيهِ .

* * *

الدرس الرابع والعشرون

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الثّاني

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- مُسْتَقَرَّها : مكانَ اسْتقرارِها الّذي تَأْوي إليهِ .
- مُستودَعَها : مكانَ اسْتيداعِها الّذي تُدْفَنُ فيهِ .
- لِيَبْلُوَكُمْ : يَخْتَبِرَكُمْ ويَمتَحِنَكُمْ .
- أُمّةٍ مَعدودةٍ : وقْتٍ مُعَيَّنٍ مِنَ الزّمانِ .
- حاقَ بِهِمْ : أحاطَ بِهِمْ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ صوَّرَ اللهُ تَعالى لنا حالَ المُشرِكينَ بصورةٍ بَليغةٍ ، أطْلَعَنا سُبْحانَهُ على بعضِ مَظاهِرِ قُدْرَتِه وسابِغِ فَضْلِهِ وشُمولِ عِلْمِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ .

لِيَعْلَمِ النّاسُ أنَّ قُدرَةَ اللهِ تَعالى ونعَمَهُ وعِلْمَهُ شامِلَةٌ لكلِّ شَيْءٍ ، فلا توجَدُ دابَّةٌ تَتحرَّكُ في الأرضِ إلاّ وقدْ تَكفَّلَ اللهُ تعالى برزْقِها المُناسِبِ لَها في مُخْتَلَفِ البيئاتِ ، تفَضُّلاً منه سُبْحانَهُ ، وإنَّهُ كذلكَ لَيَعْلَمُ مكانَ اسْتِقرارِها في حالِ حَياتِها ، والمكانَ الّذي تودَعُ فيهِ بَعْدَ مَوْتِها ، كلُّ ذلِكَ مُسجَّلٌ عندهُ سُبْحانَهُ وتَعالى في كِتابٍ واضحٍ بيِّنٍ . وكَوْنُ الرِّزقِ والمَعاشِ عَلى اللهِ تَعالى ، فإنّ ذلِكَ لا يُنافي الأخْذَ بالأسْبابِ ، والسّعيَ في سبيلِ الحُصولِ عَلى وسائِلِ العَيْشِ ، لأنّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى وإنْ كانَ قدْ تَكفَّلَ بأرزاقِ خَلْقِهِ ، إلاّ أنّهُ أمَرَهُمْ بالاجْتِهادِ في اسْتِعْمالِ كافّةِ الوسائلِ المَشروعةِ ، مِنْ أجْلِ الحُصولِ عَلى مالٍ يُغنيهِمْ ويَسُدُّ حاجَتَهُمْ .

وبعدَ ذلِكَ ساقَ اللهُ تَعالى للنّاسِ ما يُبيِّنُ عَظَمتَهُ وقُدْرَتَهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

واللهُ تَعالى وحْدَهُ هُوَ الّذي خَلَقَ السَّمواتِ والأرْضَ وما فيهما في سِتّةِ أيامٍ مِنْ أيامِهِ تَعالى الّتي لا يَعْلَمُها إلاّ هُوَ ، ومِنْ قَبْلِ ذلكَ لم يَكُنِ الوُجودُ أكثرَ مِنْ عالَمِ الماءِ ومِنْ فَوْقِهِ عَرْشُ اللهِ تَعالى ، الّذي لا يَعْلَمُ شأْنَهُ إلاّ هُوَ سُبْحانَهُ .

وهو سُبْحانَهُ قد خَلَقَ هذا الكَوْنَ لِيُظْهِرَ بالاخْتِبارِ أحْوالَكُمْ أيُّها النّاسُ ، لِيُعامِلَكُمْ سُبْحانَهُ مُعامَلَةَ المُخْتَبِرِ ، لِيُظْهِرَ مِنْكُمْ لأنفسِكُمْ مَنْ يُقْبِلُ عَلى اللهِ تَعالى بالطّاعَةِ والأعْمالِ الحَسَنةِ ومَنْ يُعْرِضُ عِنْ ذلِكَ ، ومعَ هذهِ القُدْرَةِ الإلهيّةِ الخارِقَةِ ، إنْ قُلْتَ لَهُمْ مُؤكِّداً إنّهُمْ سَيُبْعَثونَ مِنْ قُبورِهِمْ ، وإنّهُمْ خُلِقوا لِيَموتوا ويُبْعَثوا ، سارَعَ هؤلاءِ الكَفَرَةُ إلى الرَّدِّ عليكَ مُؤكِّدينَ أنّ هذا الّذي جِئْتَهُمْ بِهِ لا حقيقةَ لَهُ ، وما هُوَ إلاّ كالسِّحْرِ الواضِحِ الّذي يَلْعَبُ بالعُقولِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلِكَ لَوْناً مِنْ ألوانِ غُرورِ المُشْركينَ المُكَذِّبينَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

وَلَئِنْ أخَّرْنا بِفَضْلِنا وكَرَمِنا عَنْ هَؤلاءِ المُشْرِكينَ العذابَ الّذي يَسْتَحقّونَهُ ، لِجُحودِهِمْ لآياتِنا وتَكذيبِهِمْ لِرُسُلِنا إلى وَقْتٍ مُعيَّنٍ مِنَ الزّمانِ عَلى حَسَبِ إرادَتِنا وحِكْمَتِنا ، لَيقولَنَّ هؤلاءِ المُشرِكونَ الظّالِمونَ عَلى سَبيلِ التَّهكُّمِ والاسْتِهزاءِ ، واسْتِعجالِ العَذابِ : ما الّذي جَعَلَ هذا العَذابَ الّذي

حذَّرَنا منهُ مُحمَّدٌ ﷺ مَحْبوساً عنّا ، وغيرَ نازلٍ بنا ؟

ولا شَكَّ في أنَّ قَوْلَهُمْ هذا يَدلُّ عَلى بُلوغِهِمْ أقْصى دَرَجاتِ الجَهالةِ والطُّغيانِ ، حيثُ قابَلوا رَحمةَ اللهِ تَعالى المُتمثِّلَةَ في تأخيرِ العذابِ عنهُمْ ، بالاسْتِهزاءِ والاسْتِعجالِ ، ولِذا ردَّ اللهُ تَعالى عَلَيْهم بقولِهِ : ﴿ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ .

أي : ألا إنَّ ذلِكَ العذابَ الّذي اسْتَعْجَلوهُ واسْتَخفّوا بهِ يومَ يَنزِلُ بِهِمْ ، لنْ يَصْرِفَهُ عنهُمْ صارِفٌ ، ولنْ يَدْفَعَهُ عنهُمْ دافِعٌ ، بلْ سَيُحيطُ بهِمْ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، بِسَبَبِ اسْتِهزائِهِمْ بهِ وإعراضِهِمْ عمَّنْ حذَّرَهُمْ منهُ .

والأقربُ إلى سياقِ هذهِ الآياتِ أنْ يكونَ المُرادُ بالعَذابِ هُنا عذابَ الاسْتِئْصالِ الدُّنيويِّ ؛ إذْ هُوَ الّذي اسْتَعْجَلوا نُزولَهُ ، أمّا عذابُ الآخِرَةِ فقدْ كانوا يُنكرونَهُ أصْلاً .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى جانِباً مِنْ طبيعةِ بني آدمَ إلاّ مَنْ عَصَمَ اللهُ تَعالى ، فَقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴾ .

إنَّ مِنْ طَبيعةِ الإنْسانِ أنْ تَستغرِقَ نَفْسُهُ الحالَ الّتي يَكونُ عَليْها ، فإذا أعْطَيْناهُ بعضَ النِّعَمِ رَحمةً منّا ، كالصِّحَّةِ والسَّعَةِ في الرِّزقِ ، ثُمَّ نزَعنا بَعْدَ ذلِكَ هذهِ النِّعَمِ لِحكْمَةٍ مِنّا ، أسْرَفَ هذا الإنسانُ في يأسِهِ مِنْ عَوْدَةِ هذهِ النِّعَمِ إليهِ ، وأسْرَفَ كذلكَ في كُفْرِهِ بالنِّعَمِ الأُخْرى الّتي ما يزالُ يَتمتَّعُ بها . وفي هذهِ الآيةِ تصويرٌ بليغٌ صادِقٌ لِما يَعتري نَفْسَ هذا الإنسانِ عِنْدَما تُسْلَبُ منهُ النِّعْمةُ بَعْدَ أنْ ذاقَها ، فهو لِقلَّةِ إيمانِهِ وضَعْفِ ثِقتِهِ بربِّهِ فَقَدَ كُلَّ أمَلٍ في عودةِ هذهِ النِّعْمَةِ إليهِ ، ولَكأنَّ هذهِ النِّعمةَ الّتي سُلِبَتْ منهُ لمْ يَرَها قبلَ ذلكَ ! !

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى حالةَ هذا الإنسانِ اليَؤوسِ الكَفورِ عِنْدَما تَأْتيهِ السَّرّاءُ بَعْدَ الضَّرّاءِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴾ .

وإنّنا لوْ أعَطيناهُ نِعمةً بَعْدَ ضُرٍّ لَحِقَ بهِ ، فإنّهُ يقولُ : ذهبَ ما كانَ يَسوءُني ولَنْ يَعودَ ، ويَحْمِلُهُ ذلكَ عَلى شِدَّةِ الفَرَحِ بمتاعِ الدُّنْيا ، وعلى المُبالَغةِ في التَّفاخُرِ عَلى الآخَرينَ ، فَيَنْشَغِلُ قلبُهُ عنْ شُكْرِ ربِّهِ ، هذا هُوَ شَأْنُ غالِبِ بني الإنْسانِ ، مُضطربٌ بَيْنَ اليأسِ والتَّفاخُرِ .

وفي هذهِ الآيةِ أيضاً صورةٌ صادِقَةٌ لهذا الإنسانِ العَجولِ القاصِرِ ، الّذي يَعيشُ في لَحظتِهِ الحاضِرَةِ ، فلا يَتذكَّرُ فيما مَضى ، ولا يَتفكَّرُ فيما سَيكونُ عليهِ حالُهُ بَعْدَ المَوْتِ ، ولا يَعتبرُ بِتقلُّباتِ الأيّامِ ، فهوَ يَؤوسٌ كَفورٌ إذا نُزِعَتْ منهُ النِّعمةُ ، وهو بَطِرٌ فَخورٌ إذا عادتْ إليهِ ، وهذا مِنْ أسوأ ما تُصابُ بهِ النَّفْسُ الإنْسانيَّةُ مِنْ أخلاقٍ مَرذولةٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى صِنْفاً مُميَّزاً مِنْ بَني الإنْسانِ لَمْ يُصَبْ بمثلِ هذهِ الرَّذائِلِ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ .

لا يَخلو مِنْ هذا العَيْبِ إلاّ الَّذينَ صَبَروا عندَ الشَّدائِدِ وعَمِلوا الصّالحاتِ في السَّرّاءِ والضَّرّاءِ ، وهؤلاءِ لَهُمْ مَغفرةٌ مِنَ الذُّنوبِ ، وأجْرٌ كبيرٌ على أعمالِهِمُ الصّالحَةِ .

والمُؤْمِنُ شاكِرٌ على السَّرّاءِ صابِرٌ على الضَّرّاءِ ، كما قالَ النَّبيُّ ﷺ في هذا الشَّأْنِ : « عَجَباً لأمْرِ المُؤْمِنِ إنّ أمْرَهُ كُلَّهُ خيرٌ ، وليسَ ذلكَ لأحَدٍ إلاّ للمُؤْمِنِ ، إنْ أصابَتْهُ سَرّاءُ شَكَرَ فكانَ خَيْراً لهُ ، وإنْ أصابَتْهُ ضَرّاءُ صَبَرَ فكانَ خَيْراً لهُ »[1] .

دُروسٌ وَعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الأخْذُ بالأسْبابِ في تَحصيلِ الرّزْقِ مِنَ الواجباتِ الشَّرعيَّةِ ولا يُنافي ذلكَ التَّوكُّلَ عَلى اللهِ تَعالى .

٢ـ بيانُ قُدرةِ اللهِ تَعالى العَظيمةِ في خَلْقِ السَّمواتِ والأرْضِ .

٣ـ الكافِرُ لا يَنتفِعُ بالأدلَّةِ والبَيِّناتِ مَهْما كانتْ واضِحَةً .

٤ـ اضْطِرابُ النّفْسِ الإنْسانيَّةِ عندَ حُصولِ النِّعْمَةِ، وسَلْبُها سَبَبُهُ عَدَمُ الإيمانِ باللهِ تَعالى واهبِ النِّعَمِ .

٥ـ عَلى الإنْسانِ أنْ لا يغْتَرَّ بالنِّعَمِ ، كَما عَلَيهِ أنْ لا يَيْأسَ مِنَ النِّقَمِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

مُسْتَقرَّها ، مُسْتَوْدَعَها ، لِيَبْلُوَكُمْ ، أُمَّةٌ معدودةٌ ، حاقَ بِهِمْ .

---

(١) صحيح مسلم٤/ ٢٩٩٥ حديث رقم(٢٩٩٩) .

٢ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ بعضَ مظاهرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى ، وضِّحْ ذلِكَ مُستشهِداً بالآياتِ الكَريمةِ .

٣ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ طَرَفاً مِنْ غُرورِ المُشرِكينَ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٤ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمةُ الإنْسانَ واضْطِرابَهُ بينَ حالَيْنِ ، بيّنْ ذلِكَ .

٥ـ بيِّنِ الفِئةَ المُستْثناةَ مِنَ اضْطِرابِ الإنْسانِ بَيْنَ الخَيْرِ والشَّرِّ .

٦ـ ارْسُمْ صورةً مِنْ خلالِ الآياتِ الكَريمةِ للإنسانِ الفَرِحِ البَطِرِ ، وأُخْرى لليائِسِ العاجِزِ .

٧ـ هاتِ ما يدلُّ عَلى أنَّ أمْرَ المُؤمِنِ كُلَّهُ لهُ خَيْرٌ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يُبيِّنُ فيهِ الرَّسولُ ﷺ كيفَ يَرْزُقُ اللهُ الطَّيْرَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ حَديثاً يُبيِّنُ أنَّ المُؤْمِنَ في خَيْرٍ دائماً في السَّراءِ والضّرّاءِ .

* * *

الدرس الخامس والعشرون

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الثّالِثُ

فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٞۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيۡهِمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فِيهَا وَهُمۡ فِيهَا لَا يُبۡخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيۡسَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ضائِقٌ بهِ صَدْرُكَ	: عارِضٌ لكَ الضّيقُ في الصَّدْرِ خَشيةَ تَكذيبِكَ .
افْتَراهُ	: اخْتَلَقَهُ وكَذَبَهُ .
لا يَبْخَسونَ	: لا يُنْقِصونَ مِنْها شَيْئاً .
حَبِطَ ما صَنَعوا	: بَطَلَ وفَسَدَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعضاً مِنْ أحوالِ الإنْسانِ وما يَعتريهِ في حالي الضُّرِّ والنَّفْعِ ، بَيَّنَ لنا بعضَ ما كانَ مِنَ المُشرِكينَ مِنْ أقوالٍ وأفعالٍ ضاقَ بِها صَدْرُ النَّبيِّ ﷺ ، وبيّنَ اللهُ تَعالى كَيْفَ ثَبَّتَ نبيَّهُ وقوّاهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾ .

ليسَ خافِياً علينا أَيُّها الرَّسولُ الكَريمُ ما يَفعلُهُ المُشرِكونَ مَعَكَ مِنْ تَكذيبٍ لِدَعْوَتِكَ ، ومِنْ جُحودٍ لِرسالَتِكَ ، ومطالِبَ يَطلُبونَها مِنْكَ ، فلا تُحاوِلْ أَيُّها النَّبيُّ ﷺ إرْضاءَهُمْ أَنْ تَتركَ تِلاوةَ بعضِ ما يوحى إليكَ مِمّا يَشقُّ سَماعُهُ عَليْهِمْ كاحتقارِ آلهتِهِمْ ، خَوْفاً مِنْ قُبْحِ ردِّهِمْ واسْتِهزائِهِمْ ، وعسى أنْ تَحُسَّ بالضّيقِ وأنْتَ تَتلوهُ ، لأنَّهُمْ يَطلبونَ أنْ يُنْزِلَ اللهُ تَعالى عَليْكَ كَنْزاً تَنعُمُ بِهِ كالمُلوكِ ، أو يَجيءَ مَعَكَ مَلَكٌ يُخْبِرُهُمْ بِصِدْقِكَ ، فلا تُبالِ أَيُّها النَّبيُّ ﷺ بِعِنادِهِمْ ، فما أنتَ إلاّ مُنذِرٌ ومُحَذِّرٌ مِنْ عِقابِ اللهِ تَعالى مَنْ يُخالِفُ أَمْرَهُ ، وقَدْ فعلتَ فأرِحْ نفسَكَ منهُمْ ، واعْلَمْ أنَّ اللهَ تَعالى رَقيبٌ عَلى كلِّ شيءٍ ومُهيْمِنٌ عَلَيْهِ ، وسَيفعَلُ بِهِمْ ما يَستحِقّونَ . وهذهِ الآيةُ الكَريمةُ حَثٌّ للنَّبيِّ عَلى الثَّباتِ والصَّبْرِ وعلى تَبليغِ ما يوحى إليهِ ، معَ عدمِ المُبالاةِ بما يضَعُهُ المُشرِكونَ في طريقهِ مِنْ عَقَباتٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى زَعْماً آخَرَ مِنْ مَزاعِمِ المُشرِكينَ الكَثيرةِ ، وهُوَ دَعْواهُمْ أنَّ القُرْآنَ مُفْتَرىً ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ .

إنَّ هؤلاءِ المُشرِكينَ لَمْ يَكْتَفوا بما طَلَبوهُ منكَ يا مُحمّدُ ﷺ بلْ تَجاوزوا ذلِكَ إلى ما هو أشَدَّ منهُ جُرْماً ، وهو قولُهمْ إنَّكَ افْتَريْتَ القرآنَ الكَريمَ واخْتَرَعْتَهُ مِنْ عندِ نفسِكَ ، فقلْ لَهُمْ عَلى سبيلِ التَّحدّي : إنْ كانَ الأمْرُ كما تَزْعُمونَ أنّي قدِ افْتَرَيْتُ هذا القرآنَ ، فأنا واحدٌ منكُمْ وبَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، فهاتوا عَشْرَ سُوَرٍ مُخْتَلَقاتٍ مِنْ عندِ أنفسِكُمْ تُشبهُ ما جِئْتُ بِهِ ـ حَسَبَ زَعْمِكُمْ ـ في حُسْنِ النَّظْمِ ، وبَراعةِ الأُسلوبِ ، وحِكْمةِ المَعْنى ، وادْعوا لِمُعاوَنَتِكُمْ في بُلوغِ هذا الأمْرِ كلَّ مَنْ تَتوسَّمونَ فيه المُعاوَنَةَ غيرَ اللهِ تَعالى .

وبَعْدَ هذا أكَّدَ اللهُ تَعالى أنَّ هذا القُرآنَ مِنْ عندِهِ هُوَ لا مِنْ غَيْرِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ .

قلْ يا أَيُّها الرَّسولُ الكريمُ ﷺ لِهؤلاءِ الَّذينَ تَحدَّيْتَهُمْ أنْ يأتوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِ سُوَرِ القرآنِ الكَريمِ ، مُسْتَعينينَ بِمَنْ يَسْتَطيعونَ فِعْلَ ذلِكَ ، قلْ لَهُمْ : فإنْ لَمْ يَستجبْ لكُمْ مَنِ اسْتَعنتُمْ بهِمْ ، فاعْلَموا أَيُّها النّاسُ أنَّ هذا القرآنَ إنّما أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللهِ تَعالى وَحْدَهُ وبِقُدْرَتِهِ وَحْدَهُ ، ولا يَقْدِرُ عَلى إنْزالِهِ أحدٌ سِواهُ ، واعْلَموا أيْضاً أنَّهُ لا إلهَ إلاّ اللهُ سُبْحانَهُ ، فهو الإلهُ الحَقُّ الّذي تَعنوا لَهُ الوُجوهُ ، وتَخْضَعُ لهُ القُلوبُ ، وتَتَّجِهُ إليهِ النُّفوسُ بالعبادةِ والطّاعةِ ، فهلْ أنتُمْ أَيُّها المُشرِكونَ بَعْدَ تلك الأدلَّةِ

الواضِحَةِ الدّالّةِ عَلى وَحْدانيةِ اللهِ تَعالى ، وعلى أنَّ هذا القُرْآنَ الكَريمَ مِنْ عندِهِ ، فهلْ أنتُمْ مُسْلِمونَ ، داخِلونَ في الإسْلامِ ، ومُتَّبِعونَ لِما جاءَكُمْ بِهِ الرّسولُ ﷺ ؟

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى سوءَ المَصيرِ لِلَّذينَ لا يُريدونَ بأقوالِهِمْ وأعمالِهِمْ وَجْهَ اللهِ تَعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ .

مَنْ كانَ يُريدُ بأقوالِهِ الحُسْنى وبِأعْمالِهِ الطَّيِّبَةِ ـ عَلى حَسَبِ الظاهِرِ ـ الحصولَ عَلى الحياةِ الدُّنْيا وزينَتِها مِنْ مالٍ وجاهٍ ومَنْصِبٍ وغيرِ ذلِكَ مِنَ المُتَعِ الدُّنيويَّةِ ، مِنْ دونِ التفاتٍ إلى ما يُقرِّبُهُ مِنْ ثوابِ الآخِرَةِ ، مَنْ كانَ يريدُ ذلِكَ فإنّا نوصِلُ إليْهِمْ بإرادَتِنا وَمشيئَتِنا ثِمارَ جُهودِهِمْ وأعْمالِهِمْ في هذهِ الدُّنْيا ، وهُمْ في هذه الدُّنْيا لا يُنْقَصونَ شيئاً مِنْ نتائجِ جُهودِهِمْ وأعْمالِهِمْ ، حتّى ولوْ كانتْ جُهوداً لا إخْلاص مَعَها ولا إيمانَ ، فهُمْ يَأْخذونَ أُجورَهُمْ غيرَ مَنقوصةٍ في هذهِ الدُّنْيا .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى سوءَ مَصيرِ هؤلاءِ في الآخِرَةِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ .

أولئكَ الّذينَ قَصَروا هَمَّهُمْ على الدُّنْيا وزينَتِها ، ليسَ لَهُمْ في الآخِرَةِ إلاّ عذابُ النّار ، وبَطَلَ نَفْعُ ما صَنعوهُ في الدُّنْيا ، لأنَّهُ لم يَكُنْ للآخِرَةِ فيهِ نَصيبٌ ، وهو في نفسِهِ باطلٌ أيْضاً ، لأنَّ العَمَلَ الّذي لا يُفيدُ السَّعادةَ والهَناءَةَ كأنَّهُ لَمْ يَكُنْ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ ليسَ عَلى الرَّسولِ إلاّ البَلاغُ المُبينُ .

٢ـ يَطْلُبُ الكافِرونَ طَلَباتِ المُتَعنِّتينَ الّتي ليسَ مِنْ غايَتِها الوُصولُ إلى الهِدايةِ .

٣ـ ضَرورةُ الصَّبْرِ والثَّباتِ عَلى الدَّعوةِ إلى اللهِ تَعالى بالرَّغمِ مِنْ كُلِّ العَقَباتِ .

٤ـ مزاعِمُ المُشرِكينَ حوْلَ القُرْآنِ الكريمِ والنَّبيِّ ﷺ لا تَنْقَطِعُ .

٥ـ العَمَلُ المَقبولُ عندَ اللهِ تَعالى هو ما أُريدَ بِهِ وجْهُ اللهِ سُبْحانَهُ وتَعالى .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

ضائِقٌ ، افْتَراهُ ، لا يَبْخَسونَ ، حَبِطَ ما صَنَعوا .

٢ـ ذَكَرَتِ الآياتُ الكَريمةُ بعضاً مِنْ طَلَباتِ المُشرِكينَ ، بَيِّنْ هذهِ الطَّلَباتِ .

٣ـ علامَ يدلُّ إرْخاءُ العِنانِ للمُشْرِكينَ لِيَسْتَنْصِروا بِمَنْ شاءوا في تَحدّي القُرآنِ ؟

٤ـ بيِّنِ الآيةَ التي تَدُلُّ عَلى أنّ مَنْ رَغِبَ في الحياةِ الدُّنْيا تَحقَّقتْ لهُ رَغبتُهُ بإرادةِ اللهِ تَعالى .

٥ـ بيِّنْ جزاءَ الَّذينَ لا يُريدونَ وَجْهَ اللهِ تَعالى بما يَعْمَلونَ .

نشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما طَلَبهُ المُشرِكونَ مِنْ رسولِ اللهِ ﷺ كما بَيَّنَتْهُ آياتُ سورةِ الإسْراءِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ البَقرةِ الّتي تُبيِّنُ تحدّياً آخَرَ للمُشْرِكينَ .

* * *

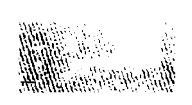
الدَّرسُ السَّادِسُ والعِشرونَ

سورَةُ هودٍ - القِسْمُ الرَّابِعُ

أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

يَتْلوهُ	:	يَتْبَعُهُ .
شاهِدٌ	:	القُرآنُ .
الأَشْهادُ	:	الشُّهودُ .
يَصدّونَ	:	يَمْنَعونَ
يَبغونَها عِوَجاً	:	يُريدونَها مُعْوَجَّةً .
لا جَرَمَ	:	حقّاً .
أَخْبَتوا	:	خَشَعوا وخَضَعوا .



بَعْدَ أن بَيَّنَ اللهُ تَعالى حالَ الَّذينَ يُريدونَ الحياةَ الدُّنيا وزينَتَها ، أتْبَعَ ذلِكَ بِموازَنَةٍ بَيْنَ هؤلاءِ والمُؤْمِنينَ ، فَقالَ تَعالى :

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ .

أَفَمَنْ كانَ يَسيرُ في حياتِهِ عَلى بَصيرةٍ وهِدايةٍ مِنْ ربِّهِ ، ويَطْلُبُ الحَقَّ مُخْلِصاً ، ومعَهُ شاهِدُ الصِّدْقِ مِنَ اللهِ تَعالى وهُوَ القرآنُ الكريمُ ، وشاهدٌ مِنْ قَبْلِهِ وهو كتابُ موسى عَلَيْهِ السّلامُ الّذي أنْزَلَهُ اللهُ تَعالى قُدوَةً يَتَّبِعُ ما جاءَ بِهِ ، ورحمةً لِمُتَّبعيهِ ، كَمَنْ يَسيرُ في حياتِهِ عَلى ضَلالٍ وعَمايةٍ ، فلا يَهتمُّ إلاّ بمتاعِ الدُّنْيا وزينَتِها ؟ أولئِكَ المُؤْمِنونَ هُمُ الَّذينَ أنارَ اللهُ تَعالى بَصائِرَهُمْ ، فهُمْ يُؤْمِنونَ بالنَّبيِّ والكِتابِ الّذي أنْزَلَ عَلَيْهِ ، ومَنْ يكفُرُ بهِ مِمّنْ تَألَّبوا عَلى الحَقِّ وتَحزَّبوا ضِدَّهُ ، فالنّارُ مَوْعِدهُ يومَ القيامةِ ، فلا تَكُنْ أيُّها النَّبيُّ ﷺ في شَكٍّ مِنْ هذا القرآنِ ، إنّهُ الحقُّ النّازِلُ مِنْ عندِ ربِّكَ ، لا يَأْتيهِ باطِلٌ ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ تُضِلُّهُمُ الشّهواتُ ، فلا يؤمِنونَ بما يَجبُ الإيمانُ بهِ .

وبِهَذا نَرى أنَّ الآيَةَ الكَريمةَ قدْ مَيَّزَتْ مَنْ كانَ عَلى الحَقِّ ومَنْ كانَ عَلى الباطِلِ ، وساقَتْ بعضَ الأدلَّةِ الدّالَّةِ على صِدْقِ الرّسولِ ﷺ في دَعْوَتِهِ ، وعَلى صِحَّةِ ما عَلَيْهِ أتْباعُهُ ، وأمَرَتْهُمْ بالثَّباتِ عَلى الحَقِّ الّذي آمنوا بهِ ، وتوعَّدَتِ المُتَحزِّبينَ ضِدَّ دَعْوَةِ الإسلامِ بنارِ جَهَنَّمَ الّتي هيَ بِئْسَ القرارُ .

وبعدَ ذلِكَ تحدَّثَتِ الآياتُ الكَريمةُ عنِ الَّذينَ كَفروا بالإسْلامِ ووَصَفَتْهُمْ بأوصافٍ مُتعدّدةٍ ، تدلُّ عَلى مَبلغِ ما هُمْ فيهِ مِنَ السّوءِ والباطِلِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

ولَيْسَ أحدٌ أكْثَرُ ظُلْماً لِنفسِهِ وبُعْداً عنِ الحَقِّ مِنَ الّذينَ يَخْتَلِقونَ الكَذِبَ ويَنْسِبونَهُ إلى اللهِ تَعالى ، إنَّ هؤلاءِ سَيُعْرَضونَ يومَ القيامةِ على ربِّهِمْ لِيُحاسِبَهُمْ على ما عَمِلوا مِنْ سوءٍ ، فيقولُ الأشْهادُ مِنَ الملائِكةِ والأنْبياءِ وغيرِهِمْ : هؤلاءِ هُمُ الَّذينَ ارتَكَبوا أفْظَعَ الجرائِمِ والظُّلْمَ بالنِّسبةِ لِخالِقِهِمْ ، إنَّ لعنةَ اللهِ تَعالى سَتَقَعُ عَلَيْهِم لأنَّهُمْ هُمُ الظّالِمونَ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى جانِباً آخرَ مِنْ أفعالِهِمُ الشَّنيعةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ .

ألا لَعْنَةُ اللهِ تَعالى عَلى الظّالِمينَ ، الَّذينَ مِنْ صِفاتِهِمْ أَنَّهُمْ لا يَكتفونَ بانْصِرافِهِمْ عَنِ الحَقِّ ، بلْ يُحاوِلونَ صَرْفَ غيرِهِمْ عنهُ ، ويَطلبونَ لِمِلَّةِ الإسلام العِوَجَ ، ويَبغونَها كذلكَ تَنفيراً للنّاسِ مِنْها ، ذلكَ لأنَّهمْ يُريدونَ هذهِ المِلَّةَ أنْ تكونَ مُوافِقةً لأهوائِهِمْ وشَهَواتِهِمْ ، فلمّا كانتْ غيرَ ذلِكَ ، لم يَجِدوا مِنْ وَسيلةٍ سوى أنْ يَصِفوها بأقذَعِ الأوصافِ عندَهُمْ ، حتّى يَصدّوا النّاسَ عنها ، هؤلاءِ فوقَ ما يَفعلونَ هُمْ بالآخِرَةِ كافِرونَ مُكذِّبونَ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ هذا أنّهُ سُبْحانَهُ قادِرٌ عَلى عذابِهِمْ في الدُّنْيا قَبْلَ الآخِرَةِ ، ولكنَّهُ سُبْحانَهُ أخَّرَ عذابَهُمْ إملاءً لهمُ وإمْهالاً ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾ .

أولئكَ الكافِرونَ ، لم تَكُنْ لهمْ قُوّةٌ تُعْجِزُ اللهَ تَعالى عنْ أخْذِهِمْ بالعَذابِ في الدُّنيا ، ولَمْ يَكُنْ لَهُمْ مَنْ يَنْصُرُهُمْ ويَمْنَعُ عَنْهُمْ عذابَ اللهِ لو شاءَ أنْ يُعَجِّلَهُ لَهُمْ ، وأنّ العذابَ سَيَقعُ عَلَيْهِمْ في الدّنْيا ، لأنَّهُمْ كَرِهوا أنْ يَسْمَعوا القرآنَ الكريمَ لِثِقَلِهِ عَلى نُفوسِهِمُ الخَبيثةِ الفاسِدَةِ ، وكَرِهوا أنْ يُبْصِروا آياتِ اللهِ تَعالى في الكَوْنِ ، وكَرِهوا أنْ يُبْصِروا المُعْجزاتِ الدّالّةَ عَلى صِدْقِ رسولهِ ﷺ ، كأَنَّهُمْ لِفَرْطِ جَهْلِهِمْ وعِنادِهِمْ وخُبثِ نُفوسِهِمْ لمْ يَكونوا يَستطيعونَ أنْ يَسمعوا أو يُبْصِروا .

ثُمَّ أكَّدَ اللهُ تَعالى سوءَ مَصيرِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ .

أولئكَ الكافِرونَ خَسِروا أَنْفُسَهُمْ ، وغابَ عنهمْ في الآخِرَةِ ما كانوا يَفْتَرونَ مِنْ أكاذيبَ ودَعاوى باطلةٍ ، وما كانوا يَعبدونَ مِنَ الآلِهةِ الباطِلَةِ ويَزْعُمونَ أنَّهُمْ يَنفعونَهُمْ أو يَشفعونَ لَهُمْ ، فإنَّ يومَ القِيامةِ هو يومُ الحَقائقِ الّتي لا زيفَ فيها ولا افْتِراءَ .

ثُمَّ أكَّدَ اللهُ تَعالى خُسرانَهُمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ .

حقّاً ، إنّهم في الآخِرَةِ أشدُّ النّاسِ خُسْراناً .

وبعدَ ذلِكَ بَيَّنَ اللهُ تَعالى حُسْنَ عاقبةِ المُؤْمِنينَ ، فقالَ تَعالى :

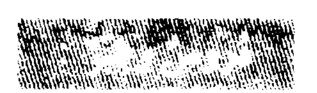
﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخۡبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ .

إنّ الّذينَ آمَنوا باللهِ تَعالى إيماناً حقّاً ، وعَمِلوا الأَعْمالَ الصّالحاتِ الّتي تُرْضيهِ سُبْحانَهُ ، واطْمَأَنّوا إلى قَضاءِ ربِّهِمْ وحُكْمِهِ ، وخَشَعوا لهُ وخَضَعوا ، أُولئكَ المَوْصوفونَ بذلكَ هُمْ أصحابُ الجَنَّةِ ، وهُمُ الخالِدونُ فيها خُلوداً أَبَدِيّاً ، وهُمُ الّذينَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمْ ورَضوا عَنْهُ .

ثُمَّ ضَرَبَ اللهُ تَعالى مَثَلاً لِفريقِ الكافِرينَ وفَريقِ المُؤْمِنينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ مَثَلُ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ كَٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡأَصَمِّ وَٱلۡبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ .

مَثَلُ الفَريقيْنِ : المُؤْمِنينَ والكافِرينَ ، كالأَعْمى الّذي يَسيرُ على غَيْرِ هُدىً والأصَمِّ الّذي لا يَسْمَعُ ما يُرشِدُهُ إلى النَّجاةِ ، وكقويِّ البَصَرِ الّذي يَرى طريقَ الخَيْرِ والنَّجاةِ ، وقَويِّ السَّمْعِ الّذي يَسمعُ كلَّ ما يَنفعُهُ ، هذانِ الفريقانِ لا يَستويانِ في الحالِ والمآلِ . أفلا تَتفكَّرونَ أيُّها النّاسُ فيما بَيْنَكُمْ مِنَ التَّبايُنِ وتتَّعظونَ فتُفرِّقونَ بينَ الباطلِ والحَقِّ ، فتَبْتَعِدوا عنْ طريقِ الباطِلِ والضَّلالِ وتَسيروا على طريقِ الحقِّ المُستقيمِ؟



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الكافِرُ أعْمى البَصيرةِ فلا يَنفَعُهُ بَصَرُهُ ، والمُؤْمِنُ اسْتَنارتْ بَصيرَتُهُ .

٢ـ الحقُّ بَيِّنٌ لا خَفاءَ فيهِ ولا غُموضَ .

٣ـ الكَذِبُ عَلى اللهِ تَعالى والصَّدُّ عنْ سبيلِهِ مِنْ أعظمِ الجَرائِمِ .

٤ـ اللهُ تَعالى لا يُعْجِزُهُ شيءٌ ، وهو يُمْهِلُ ولا يُهْمِلُ .



أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

يَتْلوهُ ، شاهدٌ ، الأَشْهادُ ، يَصدّونَ ، يَبغونَها عِوَجاً ، لا جَرَمَ ، أَخْبَتوا .

٢ـ هاتِ الدّليل عَلى ما يلي :

أـ الكافِرُ لا يَنتفِعُ بحواسِّهِ .

ب ـ التَّوراةُ الّتي أُنْزِلَتْ عَلى موسى عَلَيْهِ السّلامُ مُؤيِّدَةٌ للقرآنِ الكَريمِ .

ج ـ مَنْ تَحزَّبَ ضِدَّ الإسلامِ فالنّارُ مَوْعِدُهُ .

د ـ لا أعْظَمَ مِنَ الكذبِ عَلى اللهِ تَعالى .

هـ ـ اللهُ تَعالى يُمهِلُ ولا يُهْمِلُ .

٣ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ مَجموعةً مِنْ أوصافِ المُشْرِكينَ ، هاتِ خَمْساً مِنْها معَ ذِكْرِ الدّليلِ عَليْها .

٤ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ نِهايةَ المُشْرِكينَ ومَصيرَهُمْ في الآخِرَةِ ، اذْكُرِ الدَّليلَ عَلى ذلِكَ .

٥ـ صوَّرتِ الآيَةُ الأخيرةُ المُؤْمِنينَ والكافِرينَ بِصورَتَيْنِ مُختَلِفتَيْنِ ، وضِّحْ هاتَيْنِ الصّورَتَيْنِ .

نَشاطٌ :

ـ اكتبْ في دَفْتَرِكَ آيةً تدلُّ على أنَّ الكافِرينَ لا يَستخدمونَ حواسَّهُمْ للوُصولِ إلى الحَقِّ .

* * *

الدَّرسُ السَّابعُ والعِشرونَ

سورةُ هودٍ - القِسمُ الخامِسُ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَـٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَـٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَـٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

بادِيَ الرَّأْيِ	أَوَّلَهُ ، يَعني دونَ تَثَبُّتٍ ولا رَوِيَّةٍ .
فَضْلٍ	زيادةٍ في الشَّرَفِ والغِنى وغيرِها .
عُمِّيَتْ عَلَيْكُم	أُخْفِيَتْ عنكُمْ .
أَنُلْزِمُكُموها	أَنُجْبِرُكُمْ عَلَيْها .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ الحديثِ عَنْ مظاهِرِ قُدْرَةِ اللهِ تَعالى وَوَحْدانيَّتِهِ ، وعَنْ إعْجازِ القُرآنِ الكَريمِ ، وعَنْ حُسْنِ عاقبةِ المُؤْمِنينَ وسوءِ عاقبةِ المُكَذِّبينَ ، ساقتِ السّورَةُ الكَريمةُ بِترتيبٍ حَكيمٍ ، قَصَصَ الأنْبياءِ مَعَ أقوامِهِمْ .

وفي ذكرِ هذهِ القَصصِ المُتنوِّعَةِ لِمجموعةٍ كَريمةٍ مِنَ الأنْبياءِ عَلَيْهِمُ السّلامُ فوائدُ مُتعدِّدةٌ منها :

أولاً : التَّنْبيهُ على أنَّ إعْراضَ النّاسِ عَنْ قَبولِ الدَّلائِلِ والبيِّناتِ ليسَ مِنْ خواصِّ قومِ النَّبيِّ مُحمَّدٍ ﷺ ، بلْ هذهِ العادةُ المَذمومَةُ كانتْ حاصِلَةً في جميعِ الأُمَمِ السّالِفَةِ .

ثانياً : أنّهُ تَعالى يُبيِّنُ في هذهِ القَصَصِ عاقبةَ كلٍّ مِنَ المُنْكِرينَ والكافِرينَ والمُصدِّقينَ المُؤْمِنينَ .

ثالثاً : التَّنبيهُ عَلى أنّهُ تَعالى وإنْ كانَ يُمْهِلُ فلا يُهْمِلُ .

رابعاً : بيانُ أنَّ هذهِ القَصصَ دالَّةٌ عَلى صِدْقِ نُبوَّةِ النَّبيِّ ﷺ فمَعَ كَوْنِهِ أُمِّيّاً لمْ يَقرأْ ولـمْ يَكتُبْ وجاءَ بهذهِ القَصصِ عَلى هذا الوَجْهِ مِنْ غيرِ تَحريفٍ ولا خَطَأٍ دلَّ ذلكَ عَلى أنَّهُ إنّما عرَفَها عَنْ طريقِ الوَحْيِ مِنَ اللهِ تَعالى .

وقَدْ بدأتِ السّورَةُ الكَريمةُ بقصّةِ نوحٍ عليهِ السّلامُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾

كَما أرْسَلْناكَ يا محمَّدُ ﷺ إلى قومِكَ لِتُنْذِرَهُمْ وتُبشِّرَهُمْ ، فَقابَلَكَ فريقٌ منهمْ بالعِنادِ والجُحودِ ، فَقدْ أرْسَلْنا نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ إلى قومِهِ ، فقالَ لَهُمْ : إنّي مُحذِّرٌ مِنْ عذابِ اللهِ تَعالى ، مُبيِّنٌ لَكُمْ طريقَ النَّجاةِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى جَوْهَرَ رِسالةِ نَبيِّ اللهِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ القائِمةِ عَلى تَوحيدِ اللهِ وعِبادتِهِ ، والتَّحذيرِ مِنْ عِصيانِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ .

إنّي أُحذِّرُكُمْ مِنْ عبادةِ غيرِ اللهِ تَعالى ، لأنَّ هذهِ العبادَةَ سَتُؤدّي إلى وُقوعِ العَذابِ الأليمِ عَلَيْكُمْ ، وما حَمَلَني عَلى هذا التَّحذيرِ الواضِحِ إلاّ خَوْفي عَلَيْكُمْ وشَفَقتي بِكُمْ . ووَصَفَ اللهُ تَعالى اليومَ بـ « الأليمِ » عَلى سبيلِ المجازِ العقليِّ ، وهو أبلغُ هنا مِنْ أنْ يوصَفَ العذابُ بالأليمِ ، لأنَّ شِدّةَ العذابِ لَمّا بلغتِ الغايةَ والنِّهايةَ في ذلكَ ، جَعَلَ الوقتَ الّذي تقعُ فيه وقتاً أليماً أي مُؤْلماً .

ثُمَّ حَكى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى ما رَدَّ بهِ قومُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ عَلَيْهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴾ .

قالَ الكِبارُ مِنْ قومِهِ ـ في الغِنى والجاهِ والمالِ ـ ما نَرى إلاّ أنّكَ بَشَرٌ مِثْلُنا ، فليسَ فيكَ ما يَجْعَلُ لكَ ميزةً خاصَّةً عَلَيْنا ، وفضْلاً يَحمِلُنا على الإيمانِ بأنّكَ رسولٌ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، وما نَرى الَّذينَ اتَّبعوكَ مِنْ بَيْنِنا إلاّ الطَّبقةَ الدُّنْيا مِنْ غيرِ أنْ يَتثبَّتوا مِنْ حقيقةِ أمْرِكَ ، ولو تَثبَّتوا وتفكَّروا ما اتَّبعوكَ ، ثُمَّ إنّا لا نَرى بِكُمْ عَلينا زيادةً لا في الشَّرَفِ ولا في الغِني ، بل إنّنا نَعتقدُ أنَّكُم كاذِبونَ فيما تَزْعُمونَ .

وهَكَذا يَعتقدُ اليومَ كثيرٌ مِنَ النّاسِ أنَّ الشَّرَفَ والتَّقدُّمَ إنّما هُوَ بحيازةِ الدُّنْيا ، فكانَ الأشْرَفَ عِندَهُمْ مَنْ لهُ جاهٌ ومالٌ ، يَعتقدونَ ذلكَ ويَبنونَ عَلَيْهِ إكْرامَهُمْ وإهانتَهُمْ ، ولقدْ غابَ عَنْ هؤلاءِ أنَّ التَّقدُّمَ في الدُّنْيا معَ تَرْكِ الآخِرَةِ لا يُقرِّبُ أحَداً مِنَ اللهِ تَعالى وإنَّما يُبعِدُهُ ، ولا يَرْفَعُهُ بلْ يَضَعُهُ ، ولِهذا فإنَّ العِلَلَ الثَّلاثَ الّتي تعلَّلَ بها قومُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ تأييداً لِكُفْرِهِمْ هي : أوّلاً : أنّه بَشَرٌ مثلُهُمْ ، ثانياً : أنَّ أتْباعَهُ من فُقَرائِهِمْ ، وثالثاً : أنّهُ لا مزيةَ لهُ ولأتباعِهِ عَلَيْهِمْ . وهيَ كُلُّها عِلَلٌ باطِلَةٌ تَدُلُّ على جَهْلِهِمْ وانْطِماسِ بَصيرَتِهِمْ ، ولِذلكَ ردَّ عَلَيْهِم نَبيُّ اللهِ تَعالى نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ بقولِهِ :

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

قالَ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ : يا قومي وأهْلي وعَشيرَتي الَّذينَ يَسرُّني ما يَسرُّهُمْ ويُؤلِمُني ما يُؤْلِمُهُمْ : أخْبِروني إنْ كنتُ عَلى بصيرةٍ مِنْ أمْري وحُجَّةٍ واضِحَةٍ مِنْ ربّي بها يَتبَيَّنُ الحَقُّ مِنَ الباطِلِ ، ومَنَحني كذلكَ بِفَضْلِهِ وإحْسانِهِ النُّبوَّةَ الّتي هي طريقُ الرَّحمةِ ، واتَّبَعَ مَنْ اختارَهُ لها ، فَأَخْفَيْتُ عَلَيْكُم هذهِ الرَّحمةَ ، وغابَ عنكُمُ الانْتِفاعُ بِهداياتِها ، لأنَّكمْ مِمّنِ اسْتَحبَّ العَمى عَلى الهُدى ، فهلْ أستطيعُ أنا وأتْباعي أنْ نُجبرَكُمْ إجْباراً ، ونَقْسُرَكُمْ قَسْراً عَلى الإيمانِ بي والتَّصديقِ بِنُبُوَّتي ، والحالُ أنَّكمْ كارهونَ لَها نافِرونَ منها ؟ كلاّ لا نَستطيعُ ذلكَ ، لأنَّ الإيمانَ الصّادِقَ يكونُ عَنِ اقتناعٍ واخْتيارٍ لا عَنْ كُرْهٍ وإجْبارٍ .

ثُمَّ وجَّهَ نوحٌ عليهِ السّلامُ نداءً ثانياً إلى قومِهِ زيادةً في التَّلطُّفِ مَعَهُمْ وطَمَعاً في إثارَةِ وُجدانِهِمْ نحوَ الحَقِّ ، فقالَ تَعالى حاكياً ذلِكَ عنهُ :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

يا قَوْم ، لا أطلبُ مِنْكُمْ عَلى تَبليغِ رسالةِ ربّي مالاً ، وإنَّما أطلبُ الأجْرَ والثَّوابَ مِنَ اللهِ تَعالى ، وما أنا بطَارِدِ الَّذينَ آمَنوا بربِّهِمْ عنْ مَجْلِسي ومُعاشَرَتي لِمُجَرَّدِ احْتِقارِكُمْ لَهمْ ، فإنْ فعلتُ ذلِكَ فسوفَ يَشكونَني إلى اللهِ يومَ القيامةِ إنْ طَردْتُهُمْ لِفقرِهِمْ ، وهذا الّذي تَطلبونَ جَهْلٌ منكُمْ . وهلْ يَصِحُّ أنْ يَتفاضَلَ الخَلْقُ عندَ اللهِ تَعالى بِسَبَبِ الغِنى والجاهِ كما تَزْعُمونَ ؟ أمْ باتِّباعِ الحقِّ وعَمَلِ الخَيْرِ ؟

ثُمَّ وجَّهَ نوحٌ عليهِ السّلامُ لَهُمْ نداءً ثالثاً لعلَّهُمْ يَفيئونَ إلى رُشدِهِمْ ، فقالَ تَعالى حكايةً عنهُ :

﴿ وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ .

افْتَرِضوا يا قوم أنّي طَرَدْتُ هؤلاءِ المُؤْمِنينَ الفُقَراءَ مِنْ مَجْلِسي ، فمَنْ ذا الّذي يَحميني ويُجيرُني مِنْ عذابِ اللهِ تَعالى ؟ فاللهُ تَعالى ميزانُهُ في تَقويمِ النّاسِ ليسَ كميزانِكُمْ ، إنَّ أكْرَمَ النّاسِ عندَ اللهِ تَعالى هو أتْقاهُمْ وليسَ أغناهُمْ ، وهؤلاءِ المُؤْمِنونَ الفُقَراءُ هُمْ أكرمُ عِندَهُ سُبْحانَهُ منكُمْ ، فكيفَ أطْرُدُهُمْ ، أفلا تَتذَكَّرونَ هذا الأمْرَ فتؤمِنوا وتُصَدِّقوا ؟

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ رِسالةُ النَّبيِّ ﷺ إلى النّاسِ لَيْسَتْ بِدْعاً ، بلْ قَدْ سَبَقَها رِسالاتٌ كَثيرةٌ لأَنْبياءَ آخَرينَ .

٢ـ ما مِنْ نَبيٍّ إلاّ أَمَرَ قومَهُ بعِبادةِ اللهِ وطاعَتِهِ وحذَّرَهُم مِنَ الكُفْرِ بهِ ومَعصيتِهِ .

٣ـ إنَّ أكثرَ النّاسِ عداءً وصَدّاً عنْ دينِ اللهِ تَعالى هُمْ أصحابُ المالِ والجاهِ .

٤ـ عَلى الدّاعِيَةِ إلى اللهِ تَعالى أنْ لا يَنساقَ إلى رَغَباتِ النّاسِ وشَهَواتِهِمْ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

بادِيَ الرَّأْيِ ، فَضْلٍ ، عُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ، أَنُلْزِمْكُموها .

٢ـ ما الفوائدُ الّتي يُمْكِنُ أنْ نَستفيدَها مِنْ قَصصِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السّلامُ ؟

٣ـ ما جَوْهَرُ رسالةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ ؟

٤ـ ما الفَرْقُ بينَ « عذابِ يومٍ أليمٍ » و« عذابٍ أليمٍ » ؟

٥ـ بيِّنْ دَوْرَ المَلأ في مُواجَهَةِ رِسالاتِ الأنبياءِ عَلَيْهِمُ السّلامُ .

٦ـ يَعْتَقِدُ كَثيرٌ مِنَ النّاسِ أنّ الشّرَفَ والمالَ والجاهَ هِيَ عَناوِينُ التّفاضُلِ بينَ النّاس :

أ ـ هلْ هذا الاعتقادُ صحيحٌ ؟

ب ـ كيفَ تُعالِجهُ مِنْ خلالِ هذهِ الآياتِ الكَريمةِ ؟

٧ـ بيّن العِلَلَ الّتي تَعلَّلُ بها قَوْمُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ لِكُفْرِهِمْ .

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ أَسماءَ الأنْبياءِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ الّذينَ ورَدَ ذِكْرُهُمْ في هذهِ السّورةِ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ الحُجُراتِ الّتي تُبيِّنُ سَبَبَ الكَرامةِ للإنْسانِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّامِنُ والعِشْرونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ السَّادِسُ

وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

خزائنُ اللهِ	:	أنواعُ رِزْقِهِ الّتي يَحتاجُ إليها عِبادُهُ .
تَزْدَري أعيُنُكُمْ	:	تَحتقِرُ وتَنْتَقِصُ .
جادَلْتَنَا	:	خاصَمْتَنا ونازَعْتَنا .
نُصْحي	:	إرْشادي وتَحَري الصّلاحَ لكُمْ .
يُغْوِيَكُمْ	:	يُضِلَّكُمْ .
افتَرَاهُ	:	اخْتَلَقَهُ كَذِباً مُتعمِّداً .
عليَّ إجْرامي	:	عليَّ إثمُ اقْتِرافي الذَّنْبَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ ذكَرَ اللهُ تَعالى حُجَجَ قوم نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، أخَذَ في تَفنيدِ شُبُهاتِهِمْ وفي دَحْضِ مُفْتَرياتِهِمْ وفي تَعريفِهِمْ بِحَقيقةِ أمْرِهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا فِيٓ أَنفُسِهِمۡ إِنِّيٓ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ .

ولا أقولُ لكُمْ : إنَّ عِنْدي خَزائنَ رِزْقِ اللهِ تعالى أتَصرَّفُ فيها كما أشاءُ ، فَأَجْعَلُ مَنْ يَتَّبِعُني غَنياً ، ولا أقولُ إنّي أعلمُ الغَيْبَ فأُخبرُكُمْ بما اخْتصَّ بهِ عِلْمُ اللهُ تعالى الّذي لا يَعلمُهُ أحَدٌ مِنَ العِبادِ ، ولا أقولُ إنّي مَلَكٌ ، بلْ أنا بَشَرٌ مثلُكُمْ ، آكُلُ ممّا تأكلونَ منهُ ، وأشْرَبُ مِمّا تَشربونَ منهُ ، إلاّ أنَّ اللهَ تَعالى قَدِ اخْتَصَّني مِنْ بَينِكُمْ بالنُّبوَّةِ ، ولا تَعارُضَ بينَ كوني بَشَراً وبَيْنَ بَعثي لَكُمْ رسولاً ، كما تَزْعُمونَ حَيْثُ قلتُمْ : ﴿ما نَراكَ إلاّ بَشَراً مِثْلَنا﴾ ولا أقولُ عَنِ الّذينَ تَحتقرونَهُمْ إنَّ اللهَ تَعالى لَنْ يُؤتِيَهُمْ خَيْراً ، إرضاءً لِرَغباتِكُمْ ، لأنَّ اللهَ تَعالى وحْدَهُ هو الّذي يَعلمُ ما في أنفسِهِمْ مِنْ إخْلاصٍ ، إنّي إذا قلتُ لَهُمْ ما تُحبّونَهُ أكونُ مِنْ زُمْرَةِ الظّالِمينَ لأنْفُسِهِمْ ولِغَيرِهِمْ .

ولَمّا شَرَحَ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ لقومِهِ بأُسلوبٍ مُهذَّبٍ حكيمٍ حقيقةَ أمْرِهِ ، وردَّ على شُبُهاتِهِم ، لَجأوا إلى أُسلوبِ التَّحدي ، وقدْ أخذَتْهُمُ العِزّةُ بالإثمِ :

﴿ قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدۡ جَٰدَلۡتَنَا فَأَكۡثَرۡتَ جِدَٰلَنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

قالوا يا نوحُ عَلَيْهِ السّلامُ : قد خاصَمْتَنا ونازَعْتَنا لِنُؤْمِنَ بكَ ، فأكْثَرْتَ في ذلِكَ حتّى لَمْ تَتْرُكْ لنا مَنْفَذاً للرَّدِّ عليكَ ، ولقدْ سَئِمْنا مُجادلَتَكَ لَنا ومَلَلْناها ، فَأْتِنا بالعذابِ الّذي تَتوعَّدُنا بهِ إنْ كنتَ مِنَ الصّادِقينَ في دَعْواكَ النُّبُوَّةَ ، وفي وَعيدِكَ لَنا بعقابِ اللهِ تَعالى ، فإنَّنا مُصِرّونَ على عبادةِ آلِهَتِنا ، وكارِهونَ لِما تَدْعونا إليهِ .

وهكذا شأنُ الجاهِلِ المُعانِدِ ، إنّهُ يُشهِرُ السّيْفَ إذا أعْجزَتْهُ الحُجَّةُ ، ويُعْلِنُ التَّحدّي إذا يَئِسَ عن مُواجهَةِ الحَقِّ .

ولكنَّ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ لمْ يُخرِجْهُ هذا التَّحدّي عَنْ سَمْتِهِ الكَريمِ ، ولَمْ يُقْعِدْهُ عنادُ قَوْمِهِ عنْ مُداوَمَةِ النُّصْحِ لَهُمْ وإرشادِهِمْ إلى الحَقيقةِ الّتي ضَلّوا عنْها ، فقالَ في الرَّدِّ عَلَيْهِمْ ما حَكاهُ اللهُ تَعالى عنهُ بقولِهِ :

﴿ قَالَ إِنَّمَا يَأۡتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

قالَ لهُمْ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ : إنّما يَأْتيكُمْ بهذا العذابِ الّذي تَسْتَعْجلونَهُ اللهُ تَعالى وحْدَهُ إنْ شاءَ ذلِكَ ، لأنّهُ هُوَ الّذي يَمْلِكُهُ ، وما أنتم بِمُسْتَطيعينَ الهُروبَ مِنْ عَذابِهِ تَعالى متى اقْتَضَتْ مَشيئَتُهُ سُبْحانَهُ إنزالَهُ بِكُمْ ، لأنّهُ تَعالى لا يُعْجِزُهُ شيءٌ .

ثُمَّ إنّ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ أضافَ إلى هذا التّعريفِ بِقُدرتِهِ تَعالى تعريفاً آخَرَ بشُمولِ إرادَتِهِ ، فقالَ :

﴿ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِيٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ .

لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحي لِمُجَرَّدِ إرادَتي الخَيْرَ لكُمْ ، إنْ كانَ اللهُ تَعالى يُريدُ أنْ تَضِلّوا ، لِعلْمِهِ وتَقديرِهِ فسادَ قلوبِكُمْ حتّى صارتْ لا تَقبَلُ حقّاً ، وهو سُبْحانَهُ ربُّكُمْ وسَيُرْجِعُكُمْ إليهِ يومَ القيامةِ ، ويُجازيكُمْ عَلى ما كُنتمْ تَعملونَهُ .

وهَكذا نَرى أنّ نَبيَّ اللهِ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ قدْ سَلَكَ في دَعْوتِهِ إلى اللهِ تَعالى أحْكَمَ السُّبُلِ ، واسْتَعْمَلَ أبلغَ الأساليبِ ، وصَبَرَ عَلى سَفاهةِ قومِهِ صَبْراً جَميلاً . وعندَ هذا الحَدِّ مِنْ قصَّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ معَ قومِهِ ، تَنتقِلُ السّورَةُ الكَريمةُ انْتِقالاً سَريعاً إلى الحديثِ عَنْ مُشْرِكي مَكّةَ الَّذينَ أنْكَروا أنْ يكونَ القُرآنُ الكَريمُ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، وَوقَفوا مِنْ نَبيِّهِمْ ﷺ مَوْقِفاً يُشبِهُ مَوْقِفَ قومِ نوحٍ مِنهُ عَلَيْهِ السّلامُ ، قالَ تَعالى :

﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

لقدْ سُقْنا لكَ يا محمّدُ ﷺ مِنْ أخبارِ السّابقينَ ، ما هُوَ الحَقُّ الّذي لا يَجولُ حولَهُ باطلٌ ، ولكنَّ المُشركينَ مِنْ قومِكَ لم يَعتبِروا بذلكَ ، بلْ يَقولونَ إنّكَ قدِ افْتَرَيْتَ هذا القُرآنَ ، قلْ لهُمْ : إنْ كنتُ قدِ افْتَريتُهُ ـ على سبيلِ الفَرَضِ ـ فَعَليَّ وحْدي تقعُ عُقوبَةُ إجْرامي وافْتِرائي الكَذِبَ ، وأنا بريءٌ مِنْ عُقوبةِ إجرامِكُمْ وافْتِرائِكُمُ الكَذِبَ .

وإلى هنا رأينا الآياتِ قدْ حَكَتْ لنا جانباً مِنْ مُجادَلةِ قومِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ لهُ ومِنْ تَطاوُلِهِمْ عَلَيْهِ ، ومِنْ تحدّيهِمْ لِدعْوَتِهِ ، كَما حَكَتْ لنا رَدَّهُ عليْهِمْ بأُسلوبٍ حَكيمٍ جَعَلَهُمْ يَعجَزونَ عَنْ مُجابَهتِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَنبغي للدَّاعيةِ إلى اللهِ تَعالى أنْ لا يَمَلَّ دَعْوَتَهُ ، وعليهِ أنْ يكونَ عالِماً بها .

٢ـ لا يَتوانى الكُفّارُ في احتقارِ المُؤْمنينَ وازْدِرائِهِمْ ، وعلى المُؤْمِنينَ ألاّ يَحْفَلوا بذلكَ وأنْ تكونَ ثِقَتُهُمْ باللهِ كبيرةً .

٣ـ لَمْ يتوانَ أهلُ الكُفْرِ والإلْحادِ مِنْ إلصاقِ أشْنَعِ التُّهَمِ بالنَّبيِّ ﷺ وبالقرآنِ الكَريمِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

خَزائِنُ اللهِ ، تَزْدَري أعيُنُكُمْ ، جادَلْتَنا ، نُصْحي ، يُغْوِيَكُمْ .

٢ـ كيفَ بيَّنَ نبيُّ اللهِ تَعالى نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ حقيقةَ نَفْسِهِ لقومِهِ ؟

٣ـ ماذا كانَ موقِفُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ منهُ بعدَ أنْ بيّنَ لَهُمْ حقيقَةَ نَفْسهِ لقومِهِ ؟

٤ـ بيّنْ موقِفَ مُشْرِكي العَرَبِ مِنَ القُرآنِ الكَريمِ .

* * *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والعِشْرونَ

سورَةُ هودٍ ـ القِسْمُ السّابِعُ

وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

- تَبتئِسْ : تَغْتَمّ .
- الفُلْكَ : السّفينَةَ .
- بأعيُنِنا : بِمُلاحَظَتِنا ومُراقَبَتِنا .
- سَخِروا مِنهُ : اسْتَهزءوا وضَحِكوا .
- فارَ التّنورُ : نَبَعَ الماءُ مِنَ المَكانِ الّذي يُخْبَزُ فيهِ ، وجعلَ ذلكَ علامةً لبدءِ أمْرِ اللهِ تَعالى .
- سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ : مَضى فيهِ قضاءُ اللهِ تَعالى أنّهُ مِنَ الكافِرينَ الهالِكينَ .

التّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ ذكرتْ لنا السّورَةُ الكَريمةُ ما دارَ بينَ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ وقومِهِ ، حدَّثتْنا عمّا أمَرَهُ اللهُ بهِ قَبْلَ صُنْعِهِ السَّفينَةَ .

﴿ وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

بَعْدَ أنِ اسْتمرَّ قومُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ في طُغيانِهِمْ ، وصَمّوا آذانَهُمْ عنْ سَماعِ دَعوتِهِ ، أوْحى اللهُ تَعالى إلى نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، أنّه لنْ يُصدِّقَكَ ويُذْعِنَ للحقِّ مِنْ قومِكَ أحدٌ بَعْدَ الآنِ ، غيرُ مَنْ سبقَ منهُ الإيمانُ قبلَ ذلكَ ، وعليكَ أنْ تكتفيَ بِمَنْ مَعَكَ مِنَ المُؤْمنينَ ، وأنْ لا تَحْزَنَ ولا تَغْتَمَّ بسببِ ما كانَ قومُكَ يَفعلونَهُ مَعَكَ مِنْ تكذيبٍ وإيذاءٍ ، فاللهُ تَعالى سَينتَقِمُ منهُمْ قَريباً .

ثُمَّ يأمُرُ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ أنْ يَبْدأَ بِصُنْعِ السَّفينةِ ، لأنَّ وعْدَ اللهِ تَعالى قادِمٌ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَـٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

واصْنَعِ السّفينةَ يا نوحُ ـ عَلَيْهِ السّلامُ ـ بأمْرِنا ورِعايَتِنا وتَوْجيهِنا وإرْشادِنا عنْ طريقِ وحْينا ، فَلَنْ يُحالَ بَيْنَكَ وبَيْنَ صُنْعِ السّفينةِ ، وسَتَمضي فيها بأمْرِ ربِّكَ ، ولا تُخاطِبْني إذا جاءَ أمْرُ اللهِ تَعالى في شأنِ هؤلاءِ الظّالمينَ بأنْ تَرجوَ اللهَ تَعالى أنْ يَرحَمَهُمْ أو يَدْفَعَ الأذى عنهُمْ ، فقدْ صَدَرَ القضاءُ بإغْراقِهِمْ ولا رادَّ لِقضاءِ اللهِ تَعالى .

ثُمَّ أخْبَرنا تَعالى أنَّ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ قدِ اسْتَجابَ لأمْرِ ربِّهِ ، وبَدَأَ في التَّنفيذِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

امتثَلَ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ لأمْرِ اللهِ تَعالى فَطَفِقَ يَصْنَعُ السَّفينةَ ، فكانَ الكافِرونَ كُلّما مَرّوا عليهِ وهُوَ يَصْنَعُها اسْتَهزَءوا بهِ ، وتَعجّبوا مِنْ حالِهِ كأنْ يقولوا لهُ : أصبحتَ نَجّاراً بعدْ أنْ كُنْتَ نبيّاً! أو يَقولوا تَصنَعُ السَّفينةَ في الصَّحراءِ ؟ فردَّ عَلَيْهِم نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ قائلاً لهُمْ : إنْ تَسْخَروا مِنّي ومِنْ أتْباعي اليومَ لِصُنْعِنا السَّفينةَ فإنّا نَسْخَرُ منكُمْ مِثْلَ سُخْرِيَتِكُمْ هذهِ إذا وقعَ عَلَيْكُمُ الغرَقُ في الدّنيا والخُزْيُ في الآخِرَةِ .

ثُمَّ هدَّدهُمْ نوحٌ عليهِ السّلامُ تَهديداً آخَرَ ، فقالَ اللهُ تَعالى :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

فسوفَ تَعلمونَ قَريباً مَنْ مِنّا الّذي سَينْزِلُ بِهِ عذابٌ يُخزيهِ ويُذِلُّهُ في الدُّنيا ، ومَنْ مِنّا سَيَحِلُّ عَلَيْهِ العذابُ الدّائِمُ الخالِدُ في الآخِرَةِ .

وبعدَ ذلِكَ أخْبَرَنا اللهُ تَعالى عنْ مَجيءِ وعْدِهِ بعلامةٍ جعَلَها لِنوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، وأمَرَهُ تَعالى أن

يَحْمِلَ في هذهِ السَّفينةِ الَّذينَ آمنوا مَعَهُ ، وكذلكَ مِنَ الحيواناتِ الّتي عِنْدَهُ زَوجيْنِ : ذَكَراً وأُنْثى ، فإنَّ الغَرَقَ قادِمٌ ، قالَ تَعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ .

حتّى إذا جاءَ وقتُ أمْرِنا بالإهْلاكِ أمَرَ اللهُ تَعالى نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ أنْ يأخذَ معهُ مِنَ الحيواناتِ الّتي هو بحاجةٍ إليْها مِنْ كلِّ صِنْفٍ ذَكَراً وأُنْثى ، وأنْ يَحْمِلَ معهُ الَّذينَ آمنوا مَعَهُ ، وكانوا قِلّةً ، وكذا يَحْمِلُ أهْلَ بَيتِهِ الَّذينَ آمنوا بِرِسالَتِهِ ويَتْرُكَ الَّذينَ سَبَقَ عَلَيْهِمْ قَضاءُ اللهِ تَعالى مِنْ أهلِ بَيْتِهِ الَّذينَ لم يُؤْمِنوا ، والمُرادُ بهِمِ وَلَدَهُ وامرأتَهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى ساعةَ أمْرِ اللهِ الّتي بدأَ فيها إهْلاكَ الكافِرينَ وإنْجاءَ المُؤْمِنينَ ، وعلامَتُها أنْ يَفورَ الماءُ مِنَ التَّنورِ الّذي يَخْبِزونَ فيهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ ۞وَقَالَ ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

قالَ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ لِمَنْ تَبِعَهُ مِنَ المُؤْمنينَ : ارْكَبوا فيها مُتيمّنينَ بذكرِ اسْمِ اللهِ ، فهي مُسيَّرَةٌ بأمْرِهِ وقُدْرَتِهِ حالَ جَرَيانِها وعندَ رُسُوِّها ، وسَمّوا اللهَ كذلكَ عندَ الرُّكوبِ فيها والنُّزولِ منها ، وارْجوا مِنَ اللهِ المَغفرَةَ على التَّفريطِ والتَّقصيرِ ، فإنَّ اللهَ ربّي غفورٌ رحيمٌ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَنْبَغي للدّاعيةِ أنْ لا يَتوقَّفَ عَنْ دَعوتِهِ مَهْما كانتِ الظُّروفُ ، ومَهما كانتْ سُخْرِيةُ الكافِرينَ .

٢ـ يَنْبَغي للمُؤْمِنِ أنْ لا يَغْتَمَّ لعدمِ إيمانِ النّاسِ ، وما عَلى الدّاعيةِ إلاّ البلاغُ ، واللهُ هو الهادي .

٣ـ إذا جاءَ وعْدُ اللهِ تَعالى نَفَذَ وتَحقّقَ ولا رادَّ لِقَضائِهِ .

التقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

لا تَبْتَئِسْ ، الفُلْكَ ، بِأَعْيُنِنا ، سَخِروا مِنهُ ، فارَ التَّنورُ ، سَبَقَ عَلَيْهِ القَوْلُ .

٢ـ بماذا أَمَرَ اللهُ تَعالى نَبِيَّهُ نوحاً عليهِ السّلامُ بعدَ أنْ أخبرَهُ أنَّ قومَهُ لنْ يُؤْمِنوا مَعَه ؟

٣ـ بيِّنْ مَوقِفَ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ سُخْرِيةِ قَوْمِهِ بهِ .

٤ـ ما العَلاقةُ الّتي جَعَلَها اللهُ تَعالى لِبَدْءِ الإغْراقِ ؟

٥ـ لِذِكْرِ اللهِ تَعالى وتَسبيحِهِ فائدةٌ كبيرةٌ ، كيفَ تستنبطُ ذلكَ مِنَ الآياتِ الكَريمةِ ؟

* * *

الدَّرسُ الثَّلاثونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الثّامِنُ

وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

مَعْزِلٍ : في انفرادٍ .

سَآوي : سَألتَجِىءُ .

يَعْصِمُني مِنَ الماءِ : يُحَصِّنُني مِنَ الماءِ فلا أغْرَقُ .

حالَ بَيْنَهُما المَوْجُ : فَصَلَ الموجُ بينَ الولدِ وأبيهِ .

أقْلِعي : أمْسِكي عنْ إنزالِ الماءِ .

غيضَ الماءُ : نَقَصَ وجَفَّ .

اسْتَوَتْ على الجُودِيِّ : اسْتَقَرَّتِ السَّفينةُ عَلى جَبلِ الجُوديِّ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ جَهَّزَ نوحٌ عليهِ السّلامُ السَّفينةَ وحَمَلَ فيها مَنْ آمَنَ ، تُحدِّثُنا الآياتُ الكَريمةُ في مَشْهَدٍ بَليغٍ وعَجيبٍ عَنِ الّذي جَرى لِقَوْمِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴾ .

هذهِ الآيةُ تصويرٌ بديعٌ لِتلكَ اللّحظةِ الرّهيبةِ الحاسِمَةِ الّتي أبْصَرَ فيها نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ ابنَهُ وقدْ عَزَلَ نفْسَهُ عنهُ وعنِ المُؤْمِنينَ ، وأخذَ يُصارِعُ المَوْجَ ، وهنا تَنْطَلِقُ تلكَ العاطِفَةُ الّتي أودَعَها اللهُ تَعالى في نَفْسِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، إنّها عاطفةُ الأُبُوَّةِ المُجَلجِلَةُ تدوّي وسَطَ الطّوفانِ الرّهيبِ ، تَطْلُبُ الابْنَ لِحِضْنِ أبيهِ ، ولكنَّ قَدَرَ اللهِ المحتومَ غيرُ ما يُريدُهُ الإنسانُ الّذي لا يعلمُ الغَيْبَ .

وبَينما السّفينةُ تَجري بِهِمْ وسَطَ تلكَ الأَمواجِ العاتِيَةِ العاليةِ الّتي هي كالجبالِ ، يَرى نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ ابْنَهُ يُصارِعُ المَوْتَ وحيداً ، فَتهشُّ لهُ عاطِفةُ الأُبوَّةِ ، فَيُناديهِ لَعلّهُ يَجِدُ السّلامةَ والأَمْنَ : يا بُنيَّ لا تَكُنْ معَ الكافِرينَ الّذينَ سَيلُفُّهُمُ الطّوفانُ بأمواجِهِ ويَصيرونَ حديثَ النّاسِ .

ولكنَّ الولدَ العاقَّ الكافِرَ ، يَرى في كُفْرِهِ وعُقوقِهِ تَحقيقاً لأَملِهِ ، فيُجيبُ أباهُ بلسانِ الواثِقِ ، ما أخْبَرَنا اللهُ تَعالى بهِ :

﴿ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴾ .

قالَ الولدُ لأبيهِ بلهجَةِ الواثِقِ سَألْتَجِىءُ إلى جَبَلٍ مِنَ الجبالِ الشّاهِقةِ لكيْ أتَحَصَّنَ بهِ مِنْ وُصولِ الماءِ إليَّ . ولمّا سَمِعَ أبوهُ ذلِكَ الكلامَ منهُ انْتَصرتْ عَقيدَتُهُ وعَلا أمْرُها على أمْرِ البُنوَّةِ ، فأجابَ ابنَهُ الجاهلَ بِلَهْجَةِ الواثقِ باللهِ تعالى ، الّذي يَعلَمُ مِنْ ربّهِ تَعالى ما لمْ يَكُنْ يعلمُهُ ابنُهُ : لا معصومَ اليومَ مِنْ أمرِ اللهِ تَعالى القاضي بإغراقِ الظّالمينَ ، ولا يَنجو مِنْ هذا المَصيرِ إلاّ مَنْ رَحِمَهُ اللهُ تَعالى وهُمُ المؤمنونَ .

وفي زَحْمَةِ الجدالِ بينَ الوالِدِ وابنِهِ يَتعاظَمُ الموْجُ ، فَيلُفُّ الولدَ بينَ جَنَباتِهِ ويَصيرُ المَوْجُ حائِلاً بينَ الولدِ وأبيهِ ، ويَغْرَقُ الولَدُ مَعَ الغارقينَ ، وسبحانَ اللهِ تَعالى مُنقذِ المُؤْمنينَ .

وهَكذا أمْرُ هؤلاءِ الجبابرةِ الّذينَ سَلَكَ معَهُمْ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ أحْسَنَ الوسائِلِ الدّعويّةِ وأنْفَعَها عَلى مدارِ ألفِ سَنَةٍ إلاّ قليلاً ، وفي لَحَظاتٍ رهيبةٍ غَيّبَهُمُ الموتُ بصورةٍ بَشِعَةٍ هائِلةٍ ، تدلُّ عَلى أنَّ اللهَ تعالى إذا أرادَ أمْراً أنفذَهُ ، ولا رادَّ لِقضاءِ اللهِ تَعالى .

ولمّا انْقضى أمْرُ اللهِ تَعالى بشأنِهِمْ وهَلَكوا ، أوْحى اللهُ تَعالى إلى الأرْضِ والسَّماءِ لِتعودَ أُمورُ الكَوْنِ كما كانَتْ قبلَ الطّوفانِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ .

وبَعدَ أنْ هَلَكَ الجاحِدونَ بالإغراقِ ، جاءَ أمْرُ اللهِ تَعالى التّكوينيُّ إلى الأرْضِ أنِ ابْلَعي ماءَكِ

أيَّتُها الأرضُ ، وإلى السّماءِ أنِ امْتَنِعي عنْ إنزالِ الماءِ أيّتُها السّماءُ ، فَذَهَبَ الماءُ ، وانتَهى حُكْمُ اللهِ تَعالى بإهْلاكِ الكافرينَ ، واستقرَّتِ السَّفينةُ على الجَبَلِ المُسمّى الجُوديَّ ، وقَضى اللهُ تَعالى الّذي لا رادَّ لِقضائِهِ بإبعادِ الظّالِمينَ عن رحمتِهِ ، فقيلَ : هلاكاً وبُعْداً وطَرْداً للقومِ الظّالِمينَ ، بِسَبَبِ ما اقْتَرفَتْهُ أيديهِمْ مِنَ الظُّلْمِ والطُّغيانِ والفَسادِ والصَّدِّ عنْ سبيلِ اللهِ تَعالى .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَنبغي للدّاعيةِ أنْ لا يَقْطَعَ الأمَلَ بِنَجاةِ أحَدٍ مَهْما كانَ .

٢ـ رابطةُ العَقيدةِ والدّينِ أعزُّ شيءٍ عَلى الإنْسانِ .

٣ـ لا يَفْلِتُ أحدٌ مِنْ قضاءِ اللهِ تَعالى ، فكلُّ الكَوْنِ وما فيهِ خاضِعٌ لإرادةِ اللهِ .

٤ـ عَلى الإنسانِ أنْ يَعتبرَ بِخُضوعِ الكَوْنِ للهِ تَعالى فيكونُ أعظمَ الخاشِعينَ ، ولا يَنْخَدِعَ بالآمالِ الكاذِبَةِ .

التَّقْويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

مَعْزِلٍ ، سآوي ، يَعْصِمُني مِنَ الماءِ ، حالَ بَيْنَهُما المَوْجُ ، أقْلِعي ، غيضَ الماءُ ، اسْتَوَتْ على الجودِيِّ ، بُعْداً لِلقومِ الظّالِمينَ .

٢ـ لِماذا نادى نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ ابْنَهُ لِيَرْكَبَ معهُ في السّفينةِ ؟

٣ـ بماذا أجابَ الابنُ أباهُ ؟ وما سِرُّ هذا الجواب ؟

٤ـ كيفَ انْتَصَرَتْ رابطةُ العقيدةِ عَلى رابطةِ الأُبُوَّةِ والبُنوَّةِ ؟

٥ـ علامَ يَدلُّ خُضوعُ الأرضِ والسَّماءِ لإرادةِ اللهِ تَعالى ؟

٦ـ ماذا كانَت عاقِبَةُ الظّالِمينَ ؟

* * *

الدَّرسُ الحادي والثَّلاثون

سورَةُ هودٍ ـ القِسْمُ التّاسِعُ

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

أعِظُكَ : أَنْهاكَ .

بَركاتٍ : خَيْراتٍ .

العاقبةَ : النِّهايةَ الحَميدةَ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ اللهُ تَعالى ما حاقَ بالظّالِمينَ خَتَم هذهِ القصّةَ الشّريفةَ بتلكَ الضّراعةِ الّتي تَضرَّعَ بها نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ بشأنِ وَلَدِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ .

تَخلَّفَ ابنُ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ عنِ الرُّكوبِ في السَّفينةِ ، وقَضى اللهُ تَعالى الأمْرَ بِهَلاكِ الكافِرينَ ونَجاةِ المُؤْمنينَ ، وثارَتِ الشَّفَقةُ في قَلْبِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ عَلى ابْنِه ، فَنادى ربَّهُ تَعالى ضارِعاً

مُشْفِقاً قائِلاً : يا خالِقي ومُنْشِئي : إنَّ ابْني مِنْ أهْلي ، وقَدْ وعَدْتَ أنْ تُنَجِّيَ أهْلي إلاّ مَنْ سَبقَ عَلَيْهِ القَوْلُ ، وَوَعْدُكَ حقٌّ ثابتٌ واقعٌ ، ولكنّى أطْمَعُ في هذا المَوْقِفِ العَصيبِ أنْ تعفوَ عَنِ ابْني وتَرحَمَهُ ، وأنتَ سُبْحانَكَ أعْدَلُ الحاكِمينَ . ولنا في هذه الآيةِ وقفتانِ :

الأُولى : أنَّ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ قالَ : ربِّ إنَّ ابْني مِنْ أهْلي وإنَّ وعْدَكَ الحَقُّ ، دونَ أنْ يُصرِّحَ بِمَطْلوبِهِ وهو نجاةُ ابنِهِ ، تأدُّباً معَ اللهِ تَعالى ، واعتقاداً منهُ بأنّهُ سُبْحانَهُ وتَعالى يعلمُ ما يُريدُ .

الثّانيةُ : أنَّ نوحاً عِنْدَما تضرَّعَ بذلكَ لمْ يَكُنْ يَعلمُ بأنَّ تضرُّعَهُ لابنهِ الكافِرِ مَمنوعٌ . ثُمَّ بيَّنَ اللهُ تَعالى رَدَّهُ الحكيمَ عَلى نبيِّهِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ .

قالَ اللهُ تَعالى : يا نوحُ ، إنَّ ابنَكَ هذا ليسَ مِنْ أهْلِكَ ، إذْ إنّهُ بكفْرِهِ وسَيْرِهِ معَ الكافِرينَ انْقطَعَتِ الوِلايةُ بَينَكَ وبَيْنَهُ ، وقدْ عَمِلَ أعمالاً كُلّها لَيْسَتْ صالِحَةً ، وبذلكَ صارَ ليسَ مِنْ أهْلِكَ ، فلا تطلُبْ ما لا تَعْلَمُ أهُوَ صوابٌ أم خطَأ ؟ ولا تَسِرْ وراءَ شَفَقَتِكَ ، وإنّي أُرْشِدُكَ إلى الحَقِّ لِكَيْلا تكونَ مِنَ الجاهلينَ الّذينَ تُنْسيهِمُ الشَّفَقةُ الحقائقَ الثّابتَةَ .

وبعدَ هذا تَنبَّهَ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ إلى ما أرْشَدَهُ إليه ربُّهُ تَعالى ، فبادَرَ بِطَلَبِ العَفْوِ والصَّفْحِ منهُ سُبْحانَهُ ، فقالَ اللهُ عنهُ :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ .

قالَ نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ مُلْتَمِساً الصَّفْحَ مِنْ ربِّهُ تَعالى : ربِّ إني أَستجيرُ بكَ وأحْتَمي بِجَنابِكَ مِنْ أنْ أسألَكَ شَيْئاً بَعْدَ الآنِ ليسَ عندي عِلْمٌ صَحيحٌ بأنّهُ جائِزٌ ولائِقٌ ، وإلاّ تَغفرْ لي يا ربِّ ما فَرَطَ منّي مِنْ قولٍ ، وما صَدَرَ عنّي مِنْ فِعْلٍ ، وتَرْحَمْني بِرَحْمَتِكَ الواسعةِ الّتي وسَعِتْ كلَّ شيءٍ ، كُنْتُ في عَدادِ الخاسِرينَ الّذينَ خَسِروا أنْفُسَهُمْ بالاحْتِجابِ عنْ عِلْمِكَ وحِكْمَتِكَ .

ثُمَّ بَشَّرَ اللهُ تَعالى نبيَّهُ نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ بِقَبولِ تَوْبَتِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قِيلَ يَـٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ .

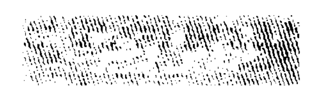
يا نوحُ عَلَيْهِ السّلامُ ؛ انزِلْ على الأرضِ مِنْ سفينةِ النَّجاةِ سالِماً آمِناً ، بسلامٍ مِنَ اللهِ تَعالى وأمْنٍ منهُ ، وبَركاتٍ مِن اللهِ تَعالى عليْكَ وعلى الّذينَ مَعَكَ ، الّذينَ يَكونونَ أُمَماً مُختلِفَةً مِنْ بَعدِكَ ، وسَينالُ بَرَكَةَ الإيمانِ والإذْعانِ بَعْضُهُمْ ، وبَعضُهُمْ سَيكونونَ أُمَماً يَسْتَمْتِعونَ بالدُّنْيا ، ويَنالونَ مُتَعَها

غيرَ مُذْعِنينَ للحقِّ ، ثُمَّ يُصيبُهمْ يومَ القيامةِ عذابٌ مُؤلِمٌ شَديدٌ .

ثُمَّ جاءَ خِتامُ هذهِ القِصَّةِ الشَّريفةِ بما يَدُلُّ على وَحدانيَّةِ اللهِ تَعالى والنَّصْرِ للمُتَّقينَ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

تلكَ القِصَّةُ الّتي قَصَصناها عليْكَ أيُّها النَّبيُّ عَنْ نوحٍ عليْهِ السّلامُ وقَوْمِهِ ، مِنْ أخبارِ الغَيْبِ الّتي لا يَعْلَمُها إلاّ اللهُ ، ما كُنتَ عَلِمْتَها أنْتَ ولا قومَكَ عَلى هذا الوجْهِ مِنَ الدِّقةِ والتَّفصيلِ مِنْ قبلِ هذا الوَحْيِ ، فاصْبرْ عَلى إيذاءِ قَوْمِكَ كما صَبَرَ الأنْبياءُ قبْلَكَ ، فإنَّ عاقِبَتَكَ الفَوْزُ مثلُ عاقِبَتِهِمْ ، والعاقبَةُ الطَّيِّبَةُ دائِماً لِلّذينَ يَتَّقونَ عذابَ اللهِ تَعالى بالإيمانِ وعَمَلِ الصَّالحاتِ .



تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ النَّسَبُ والشَّرَفُ مَهْما عَظُمَ لا يَنفَعُ صاحِبَهُ عندَ اللهِ تَعالى مِنْ دونِ إيمانٍ .

٢ـ الشَّفَقةُ والرَّحْمَةُ يجبُ أنْ لا تَنْفَلِتَ مِنْ قيودِ الدّينِ ، فالرَّابِطَةُ الحَقَّةُ هِيَ رابطةُ الدّينِ .

٣ـ مِنَ الجَهْلِ أنْ يُسألَ اللهُ تَعالى بلا عِلْمٍ .

٤ـ سُرْعَةُ يَقظَةِ المُؤْمِنِ حينَ يُذَكَّرُ باللهِ تَعالى .

٥ـ مَنْ خالَفَ أمْرَ اللهِ تَعالى عرَّضَ نَفْسَهُ لِعقابِ اللهِ تَعالى .



أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَراكيبِ التّاليةِ :

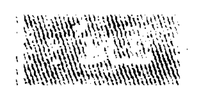
أعِظُكَ ، بَركاتٍ ، العاقِبَةُ .

٢ـ علامَ ارْتَكَزَ نوحٌ عليْهِ السّلامُ في تَضرُّعِهِ للهِ تَعالى بشأنِ ابْنِهِ ؟

٣ـ بماذا ردَّ اللهُ تَعالى عَلى نوحٍ عليْهِ السَّلامُ في شَأْنِ ابْنِهِ ؟ وماذا تَستنبِطُ مِنْ هذا الرَّدِّ ؟

٤ـ بيِّنِ الآيَةَ الّتي تَدلُّ عَلى سُرْعَةِ تُنبُّهِ نوحٍ عليْهِ السَّلامُ لإرشادِ اللهِ تَعالى لهُ .

٥ـ بماذا بَشَّرَ اللهُ تَعالى نوحاً عليْهِ السّلامُ ؟



ـ اكْتُبْ مَوْضوعاً تُلخِّصُ فيهِ قَصَّةَ نوحٍ عَليْهِ السَّلامُ بِلُغَتِكَ كَما ورَدتْ في سورةِ هودٍ ، وضَعْها في مَجلَّةِ المَدرسةِ .

* * *

الدَّرْسُ الثَّاني والثَّلاثونَ

سورَةُ هودٍ ـ القِسْمُ العاشِرُ

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

عادٍ : قبيلةٍ مِنْ قبائلِ العَرَبِ كانتْ تسكنُ منطقةَ الرَّبْعِ الخالي جَنوبَ الجزيرةِ العَربيّةِ .

مُفْتَرونَ : مُتَعمِّدو الكَذِبِ .

فَطَرني : خَلَقَني .

مِدْراراً : مَطَراً غَزيراً .

لا تَتولَّوْا : لا تُعْرِضوا عنّي .

التَّفسيرُ :

بعدَ الأنْتهاءِ مِنْ قصّةِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، جاءَ الحديثُ عنْ قصّةِ هودٍ عليهِ السّلامُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ .

وكَما أرْسَلْنا نوحاً عَلَيْهِ السّلامُ إلى قَوْمِهِ أرْسَلنا إلى عادٍ أخاهُمْ هوداً ، فقالَ لهُمْ مَقالةَ كلِّ نبيٍّ ناصحٍ لقومِهِ : يا قومِ اعْبُدوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غَيْرُهُ . وهذهِ المَقالَةُ كَما نَرى هِيَ أحَدُ القواسِمِ

المُشْتَرَكَةِ في دَعَواتِ الأنْبياءِ جميعاً ، لأنَّها مبدأٌ ثابتٌ بِثُبوتِ الحَقِّ فلا تَقبلُ التَّبديلَ ، مِنْ أجلِ هذا لمّا عَبَدَتْ عادٌ أصْناماً مِنْ دونِ اللهِ تَعالى لَمْ يَتوانَ نَبيُّها عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ قولِهِ لأهلِ قَبيلتِهِ : ﴿إِن أَنتُم إِلاَّ مُفْتَرونَ﴾ لأنّ اتّخاذَ آلِهَةٍ مِنْ دونِ اللهِ تَعالى ليسَ إلاّ مَحضُ كَذِبٍ وافْتراءٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ هودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ أنّهُ لا يُريدُ مِنْ قَوْمِهِ إلاّ أنْ يَرْجِعوا إلى ربِّهِمْ ، فلا يُريدُ مِنهُمْ كَسْباً ولا أجْراً ، قالَ تَعالى :

﴿ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

قالَ لَهُمْ بِلسانِ المُتحبِّبِ الوَدودِ : إنّي لا أطلبُ مِنْكُمْ على هذا النُّصْحِ الّذي نَصَحْتُهُ لكمْ مُكافأةً مِنْ جاهٍ أو مالٍ ، وإنّما أجْري على اللهِ تَعالى الّذي خَلَقني ، فهوَ وحْدَهُ الّذي أطْلُبُ منهُ العَطاءَ ، ولا يَصِحُّ أنْ تَسْتَوْلِيَ عَلَيْكُمُ الغَفلةُ ، فلا تَعقِلونَ ما يَنفعُكُمْ وما يَضرُّكُمْ ، ولعلَّ مَقصِدَهُ عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ هذا دَفْعُ ما يَتوهّمُهُ قومُهُ ، وقَدْ حاكَ في نُفوسِهِمْ مِنْ أنّ الّذي دعاهُ إلى ما دعاهُمْ إليهِ يُريدُ أنْ يكونَ رجُلاً غنيّاً فيهِمْ ، فظنّوا بهِ هذا الظَّنَّ! .

ثُمَّ إنّ هوداً عَلَيْهِ السّلامُ أرشدَ قومَهُ إلى ما فيهِ زيادةُ غِناهُمْ وقُوَّتِهِمْ ، وحذَّرَهُمْ مِنْ سوءِ عاقبةِ البَطَرِ والأَشَرِ فقالَ تَعالى :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴾

إنَّ هوداً عَلَيْهِ السّلامُ قالَ لِقومِهِ : يا قوم اعْبُدوا اللهَ تَعالى واسْتَغفِروهُ وتوبوا إليهِ ، فإنّكمْ إنْ فَعَلْتُمْ ذلكَ أرْسلَ اللهُ تَعالى عَليكُمْ مَطَراً غَزيراً مُتتابعاً في أوقاتِ حاجَتِكُمْ إليهِ ، لِتَشْرَبوا منهُ ، وتَسْقوا بهِ دوابَّكُمْ وزُروعَكُمْ ، وكَذلِكَ يَزيدُكُمُ اللهَ تَعالى عِزّاً إلى عِزَّتِكُمْ ، وشِدَّةً إلى شِدَّتِكُمْ . ثُمَّ إنّ هوداً عَلَيْهِ السّلامُ حذّرهُمْ مِن مُقابلةِ هذهِ النِّعَمِ بالجُحودِ والكُفْرانِ قائِلاً لهُمْ : لا تتولَّوْا عمّا دَعوْتُكُمْ إليهِ ، وأنْتُمْ مُصِرّونَ على ما أنتمْ عَلَيْهِ مِنْ إجْرامٍ وجُحودٍ وعِنادٍ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ نَرى التَّركيزَ عَلى الاسْتِغفارِ والتَّوْبةِ ، وأنَّ لَهُما كبيرَ الأثَرِ في تَغييرِ جوانبَ مُتعدّدةٍ مِنْ حياةِ الأُمَّةِ ، فَمِنْ هذهِ الجوانبِ :

أولاً : زيادةُ بَركاتِ السّماءِ بإنْزالِ الماءِ .

ثانياً : زيادةُ خَيراتِ الأرضِ تَبَعاً لذلكَ بإنْباتِ النَّباتِ .

ثالثاً : زيادةُ قوّةِ الإنْسانِ تَبَعاً لذلكَ .

رابعاً : في الاسْتِغفارِ والتَّوْبَةِ عنوانٌ لِذُلِّ العبادِ إلى ربِّهِمْ ، مِمّا يَعني زيادةَ حُبِّهِ لَهُمْ ، وإذا أحبَّ اللهُ تَعالى عِبادَهُ كانتْ مَعيَّتُهُ مَعَهُمْ ، ومَن كانَ اللهُ تَعالى معَهُ أغناهُ سُبْحانَهُ عنْ كلِّ ما سِواهُ .

ولِهذا كانَ النَّبيُّ ﷺ يحثُّ أصْحابَهُ عَلى الاسْتِغفارِ والتَّوْبَةِ دائِماً ، قالَ : « واللهِ إنّي لأَسْتَغفِرُ اللهَ وأتوبُ إليهِ في اليومِ أكثرَ مِنْ سبعينَ مرَّة »[1] .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ رِسالاتُ الأنْبياءِ جَميعاً تَخرُجُ مِنْ مِشكاةٍ واحِدَةٍ ، وهي دَعوةٌ إلى تَوحيدِ اللهِ عزَّ وجلَّ .

٢ـ عَلى الدّاعيةِ إلى اللهِ تَعالى أنْ يَدْعُوَ الناسَ بِلُطْفٍ وحِكْمَةٍ .

٣ـ للاسْتِغفارِ والتَّوْبةِ إلى اللهِ تَعالى أثرٌ عَظيمٌ في تَغييرِ حياةِ الأُمَّةِ .

٤ـ لابُدَّ لِلْمَرْءِ مِنْ أنْ يُسْلِمَ أمْرَهُ كُلَّهُ للهِ تَعالى ، والخُطورَةُ تَكْمُنُ في البُعْدِ عنْ مَنْهجِ اللهِ تَعالى .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التالِيَةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

عادٍ ، مُفتَرونَ ، فَطَرَني ، مِدْراراً ، لا تَتوَلَّوْا .

٢ـ ماذا نَستَفيدُ مِنْ تَتابُعِ القَصصِ القُرآنيِّ بهذهِ الصّورَةِ المَوجودَةِ في هذهِ السّورَةِ ؟

٣ـ التّوحيدُ مبدأٌ ثابِتٌ ، بيِّنْ ذلِكَ مِنْ خلالِ الآياتِ الكَريمةِ .

٤ـ لِماذا وُصِفَ هودٌ عَلَيْهِ السّلامُ وقَوْمُهُ بـ (مُفْتَرونَ) ؟

٥ـ لماذا أبْلَغَ هودٌ عَلَيْهِ السَّلامُ قومَهُ أنّهُ لا يَطْلُبُ مِنهْم أجْراً ؟

٦ـ لِلتَّوْبةِ والاسْتِغْفارِ أثَرٌ عظيمٌ في تَغييرِ حياةِ الأُمَّةِ ، بيِّنْ جوانِبَ هذا الأثَرِ .

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورةِ نوحٍ الَّتي تَدعو إلى الاسْتِغفارِ .

---

(١) صحيح البخاري : ٥/ ٢٣٢٤ حديث رقم (٥٩٤٨) .

الدَّرْسُ الثَّالِثُ والثَّلاثونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الحادي عشَرَ

قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٥٩﴾ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ﴿٦٠﴾

بيِّنةٍ	: حُجّةٍ ، دليلٍ واضحٍ .	اعْتراكَ	: أصابَكَ .
لا تُنْظِرونَ	: لا تُمهِلونِ .	دابّةٍ	: كلُّ ما يَدُبُّ عَلى الأرضِ .
ناصِيَتِها	: مُقَدَّمِ رأْسِها .	يَسْتَخْلِفُ	: يَسْتَبْدِلُ .

بَعْدَ أنْ بيَّنَتِ الآياتُ السّابقةُ ما جاءَ بِهِ هودٌ عَلَيْهِ السّلامُ لقومِهِ ، جاءتْ هذهِ الآياتُ تُبيِّنُ موقِفَهُمْ مِنْ دَعوتِهِ ومَصيرَهُمْ ، قالَ تَعالى :

﴿ قَالُواْ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ .

قالوا لِنبيِّهِمْ عَلَيْهِ السّلامُ : يا هودُ إنّكَ لم تَأْتِنا بحُجَّةٍ واضِحةٍ تُقنِعُنا بأنَّكَ على الحَقِّ فيما تَدعونا إليهِ ، وتُرْضي نُفوسَنا وطِباعَنا وعاداتِنا ، ونحنُ لنْ نَدَعَ آلِهَتَنا لِنَسيرَ وراءَكَ إلى إلهٍ تَدعونا إليهِ ، فإنَّ قولَكَ قدْ خَلا عنِ الدَّليلِ ، ولَسْنا لكَ بِمُصدّقينَ في كلِّ ما جِئْتَنا بهِ .

وهَكذا هو شَأْنُ الطُّغاةِ في كلِّ زمانٍ ومَكانٍ ، حينَ يَظْهَرُ لهُمُ الحَقُّ واضِحاً أبْلَجَ ، فلا يَجدونَ مِنْ وسائلِ التّخلُّصِ منهُ إلاّ مثلُ هذا الكلامِ العاتي الّذي يَدلُّ عَلى فسادِ نُفوسِهِمْ . ولم يَقِفْ أمرُ قوم هودٍ عَلَيْهِ السّلامُ عندَ هذا الحدِّ ، بلْ زادوا في طُغْيانِهِمْ عَلى نَحوٍ لَمْ يُسْبَقوا إليهِ ، فَزَعموا أنّ آلِهَتَهُمْ قدْ آذَتْ هوداً عليهِ السّلامُ في عَقْلِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ۝ ﴾ .

قالوا لِنَبيِّهِمْ بعدَما سَبَقَ مِنَ القَوْلِ الّذي قالوا : إنَّ عَلَيْكَ أنْ تَيأَسَ يَأْساً تامّاً مِنَ اسْتِجابَتِنا لكَ ولِدَعوتِكَ ، وحالَتُكَ الّتي نَراها بأعيُنِنا تَدلُّ عَلى أنَّ بعضَ آلِهَتِنا ـ لا كُلَّها ـ قد تسلّطَ عليكَ فأصابَكَ بالجُنونِ والهَذَيانِ . وهنا يَظهرُ المَوقفُ الصُّلْبُ الجامِدُ أمامَ هذهِ الأوهامِ ، فيُنادي نَبيُّ اللهِ هودٌ عَلَيْهِ السّلامُ بلسانِ الواثِقِ باللهِ ، المُسْتيقنِ بقدرتِهِ ، المُتحدّي لِخُصومِهِ ، المُصرِّ عَلى إيمانِهِ : إنّي أُشْهِدُ اللهَ تَعالى عَلى ما أقولُ ، واشْهدوا عليَّ أنتمْ أنّني بريءٌ مِنَ الشِّرْكِ الّذي أنتُم فيهِ ، ومِنْ كلِّ عبادةٍ تَعبدونَها لغيرِ اللهِ تَعالى ، وهاأنَذا في مُواجَهتِكُمْ ، فانضمّوا إلى آلهتِكُمْ وحارِبوني بما شِئْتُمْ مِنْ ألوانِ المُحارَبةِ والأذى مِنْ غيرِ تَمهُّلٍ ولا تَريُّثٍ لنْ أكُفَّ عنِ الجَهْرِ بِدَعْوتي ، ولنْ أتراجَعَ عنِ احتقارِ الباطلِ الّذي أنتُمْ عَلَيْهِ .

ثُمَّ انتقلَ نبيُّ اللهِ تَعالى هودٌ عَلَيْهِ السّلامُ إلى بيانِ السَّببِ الّذي دعاهُ إلى البَراءةِ مِنْ شِرْكِهِمْ وإلى عَدَمِ المُبالاةِ بِهِمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ .

إنّني اعْتَمَدتُ عَلى اللهِ تَعالى ، وهو مالِكُ أمْري وأمرِكُمْ ، لا يُعْجِزُهُ شيءٌ عنْ ردِّ كيدِكُمْ ، وهو سُبْحانَهُ القادرُ عَلى كلِّ شيءٍ ، فما مِنْ دابّةٍ إلاّ وهو مالِكٌ أمْرَها ، ومُتصرِّفٌ فيها ، فلا يُعجِزُهُ حِفْظُها من أذاكُمْ ، ولا إهْلاكِكُمْ ، إنّ أفعالَ ربّي تَجري عَلى طريقِ الحَقِّ والعَدْلِ في مُلْكِهِ ، فينصُرُ المُؤْمِنينَ المُصْلِحينَ ، ويَخْذِلُ الكافِرينَ المُفْسِدينَ . ثُمَّ خَتَمَ نبيُّ اللهِ هودٌ عَلَيْهِ السّلامُ ردَّهُ عَلى قومِهِ

بِتَحذيرِهِمْ مِنْ سوءِ عاقبةِ إصْرارِهِمْ عَلى كُفرِهِمْ فقالَ اللهُ تَعالى :

﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ ﴾ .

فإنْ تُعْرِضوا عَنْ دَعوتي لمْ يَضُرَّني إعراضُكُمْ ، والعاقبةُ السَّيئةُ عَلَيْكُمْ ، فقدْ أَبلغتُكُمْ ما أَرْسَلني اللهُ تَعالى بهِ إليكُمْ ، وليسَ عليَّ إلاّ البلاغُ ، واللهُ تعالى يُهلكُكُمْ متى أرادَ ، ويجيءُ بقومٍ آخَرينَ يَخْلُفونكُمْ في ديارِكُمْ وأموالِكُمْ ، وأنتمْ لا تَضرّونَهُ بإعْراضِكُمْ عَنْ عِبادَتِهِ ، إنَّ ربّي تَعالى مُهَيمِنٌ على كلِّ شيءٍ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ ، فما تَخْفَى عَلَيْهِ أعمالُكُمْ ، ولا يَغْفَلُ عَنْ مُؤاخذَتِكُمْ .

ثُمَّ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ فيما بعدُ عاقبةَ هذا الحِوارِ الّذي دارَ بينَ هودٍ عَلَيْهِ السّلامُ وقومِهِ ، فقدْ نَجّى اللهُ تَعالى نَبيَّهُ عَلَيْهِ السّلامُ ومَنْ آمنَ معهُ ، وأهْلَكَ عَدُوَّهُمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ ﴾

ولمّا جاءَ أمْرُنا بإهْلاكِ عادٍ نَجَّينا هوداً عَلَيْهِ السّلامُ ومَنْ آمَنَ مَعَهُ مِنْ عذابِ الرّيحِ العاتيةِ الّتي أهْلَكَتْهُمْ ، ونَجيّنا المُؤْمِنينَ ونَبيَّهُمْ عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ عذابٍ ضَخْمٍ شديدٍ ، وذلكَ بِسَبَبِ رَحْمَتِنا لهُمْ بتوفيقِهِمْ إلى الإيمانِ .

ثُمَّ جاءَ خِتامُ هذهِ الآياتِ بِوَصْفٍ عجيبٍ لقومِ هودٍ عليهِ السّلامُ كيْ يَتَّعِظَ مَنْ خَلْفَهُمْ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ .

تلكَ عادٌ أَنْكَروا الحُجَجَ الواضِحَةَ ، وعَصَوْا رُسُلَ اللهِ تَعالى جَميعاً ، بِعصيانِهِمْ رسولَهُ عَلَيْهِ السلامُ إليهِمْ ، وطاعَتِهِمْ كلَّ طاغيةٍ شديدِ العِنادِ مِنْ رُؤَسائِهِمْ وكُبَرائِهِمْ ، ومَنْ لا خَيْرَ فيهِمْ . ثُمَّ جاءَ الخِتامُ النِّهائيُّ لهذهِ القِصّةِ بقولهِ تَعالى :

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

واسْتَحقّوا مِنَ اللهِ تَعالى والمَلائكةِ والنّاسِ أجمعينَ لَعْنَةً تَلْحَقُهُمْ في الدُّنْيا ، ولَعْنَةً تتبعُهُمْ يومَ القيامةِ ، ألا فليتنَبّهْ كلُّ مَنْ عَلِمَ عِلْمَ خَبرِ عادٍ ، أنَّ عاداً جَحدوا نِعْمَةَ خالِقِهِمْ عَلَيْهِمْ ، ولم يَشكُروهُ بالإيمانِ بهِ وَحْدَهُ ، فأصْبَحوا جَديرينَ بطَرْدِهِمْ مِنْ رَحمةِ اللهِ تَعالى ، وإنْزالِ الهَلاكِ الشّديدِ بِهِمْ ، ألا فَهَلاكاً لهُمْ لِتكذيبِهِمْ هوداً عَلَيْهِ السّلامُ .

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الكافِرُ يُنكِرُ الحُجَجَ الواضِحَةَ عِناداً واسْتِكباراً ، ولا يَنتفِعُ بما يأْتيهِ بهِ نَبيُّهُ مِنَ الحقِّ .

٢ـ قومُ هودٍ عَلَيْهِ السَلامُ بَلَغوا مِنَ السَّفاهةِ حَدّاً لم يُسْبَقوا إليهِ .

٣ـ قُوَّةُ هودٍ عَلَيْهِ السَلامُ في مُواجهةِ لَجاجةِ قَوْمِهِ وعِنادِهِمْ ، وهَكَذا يَجِبُ أنْ يكونَ الدّاعِيةُ قوِيّاً واثِقاً .

٤ـ كلُّ الخَلْقِ مَصيرُهُمْ بيدِ اللهِ تَعالى الّذي أفْعالُهُ كُلُّها حِكْمَةٌ وعدْلٌ .

٥ـ ليسَ على الرَّسولِ إلاّ البلاغُ ، وحِسابُ الكافِرينَ على ربِّهِمْ .

٦ـ نجاةُ المُؤْمِنينَ وحِمايَتُهُمْ إنّما هِيَ رحمةٌ مِنَ اللهِ تَعالى ، وأمّا الكافِرونَ فَمَطْرودونَ مِنْ رحمةِ اللهِ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ التّاليةِ :

بيِّنةٍ ، اعْتَراكَ ، لا تُنْظِرونِ ، دابَّةٍ ، ناصِيَتِها ، يَستخْلِفُ .

٢ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ لَجاجةَ قومِ هودٍ عَلَيْهِ السّلامُ وسَفاهَتَهُمْ في الرَّدِّ عَلَيْهِ ، وقدِ اشْتَمَلَ ردُّهُمْ عَلى أربعِ قضايا ، بَيِّنْ هذهِ القضايا ، وهاتِ الدَّليلَ عَلَيْها .

٣ـ بيّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ شَجاعةَ هودٍ عَلَيْهِ السّلامُ في مُواجَهةِ قَوْمِهِ ، وضِّحْ ذلكَ .

٤ـ بيّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ السَّببَ الّذي دعا هوداً عَلَيْهِ السّلامُ إلى البَراءةِ مِنْ عبادةِ قَوْمِهِ ، وضِّحْ ذلكَ .

٥ـ وصَفَ اللهُ تَعالى عاداً بثلاثةِ أوْصافٍ ، اذْكُرْها واذْكُرِ الدَّليلَ عَلَيْها .

٦ـ ماذا كانتْ عاقِبَةُ قومِ هودٍ عليهِ السّلامُ ؟

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ الحاقّةِ التي تُبيِّنُ عذابَ قومِ هودٍ .

الدَّرْسُ الرَّابعُ والثّلاثونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الثّاني عَشَرَ

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾﴾

معاني المفردات

ثمودَ : اسمُ قبيلةٍ عربيّةٍ كانتْ تَسْكُنُ في مكانٍ اسْمُهُ الحِجْرُ بيْنَ الحجازِ والشّامِ .

أَنْشأَكُمْ : أَوْجدَكُمْ وخلَقَكُمْ .

اسْتَعْمَرَكُمْ : جَعلَكُمْ تَعْمُرونَ الأرْضَ .

مَرْجُوّاً : مَرْغوباً فيهِ لِشدائِدِ الأعْمالِ والمُهمّاتِ .

تخسيرٍ : وُقوعٍ في الخُسْرانِ .

التّفسير

بَعْدَ أنْ قصَّ اللهُ تَعالى علَيْنا قِصّةَ هودٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، يَقُصُّ علينا قصّةَ نَبيِّهِ صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، لِنتعرّفَ نموذجاً إنسانيّاً رائِعاً في الصّبْرِ والثّباتِ وحُسْنِ الدّعوةِ ، قالَ تَعالى :

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ .

ولقدْ أرْسَلْنا إلى ثمودَ واحداً منهمْ تَربِطُهُ بهمْ صِلَةُ النَّسَبِ والمَوَدّةِ ، وهو صالحٌ عَلَيْهِ السّلامُ ،

فقالَ لِقومِهِ : يا قومِ اعبدوا اللهَ تَعالى وحْدَهُ ، ليسَ لكُمْ مَنْ يَستحقُّ العِبادَةَ غيرُهُ ، هُوَ خَلَقَكُمْ مِنَ الأرضِ ، ومَكَّنَكُمْ مِنْ عِمارَتِها ، واسْتِثْمارِ ما فيها والانْتِفاعِ بِخيْرِها ، فادْعوهُ أنْ يَغفِرَ لكُمْ ما سلفَ مِنْ ذُنوبِكُمْ ، ثُمَّ ارْجِعوا إليهِ بالنَّدمِ على مَعصيَتِهِ والإقْبالِ على طاعَتِهِ ، كُلَّما وَقَعتُمْ في ذنبٍ ، هذا الإلهُ هُوَ اللهُ تَعالى قريبُ الرَّحمةِ مُجيبُ الدّعاءِ لِمنَ يَستغفِرُهُ ويَدعوهُ .

وقدْ جاءتْ قبيلةُ ثمودٍ خَلَفاً لعادٍ ، وكانوا يَعبدونَ الأصْنامَ ، فَأَرْسَلَ اللهُ تَعالى لَهُمْ صالِحاً ، لِيأمُرَهُمْ بعبادةِ اللهِ تَعالى وحْدَهُ ، فكانَ منهُ عليهِ السّلامُ ومنهُمْ ما قصَّهُ عَلَيْنا القرآنُ .

وبعدَ أنْ ذكَّرَ صالحٌ عَلَيْهِ السّلامُ قومَهُ بقُدرةِ اللهِ تَعالى وبِنِعَمِهِ عَلَيْهِمْ لكيْ يَستميلَهُمْ إلى التَّفكيرِ والتَّدبُّرِ ، ويُصدّقوهُ فيما يقولُ ، حَكى لنا القرآنُ الكريمُ بَعْدَ هذا كُلِّهِ ما رَدَّ بِهِ قومُهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ .

قالَ قومُ صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ لهُ بعدَ أنْ دَعاهُمْ لِما يُسْعِدُهُمْ : يا صالحُ عَلَيْهِ السّلامُ ، لقدْ كنتَ فينا رجُلاً صالِحاً فاضِلاً نَرجوكَ لِمُهِمّاتِ الأُمورِ لِعلْمِكَ وعَقلِكَ وصِدْقِكَ قبلَ أنْ تقولَ ما قُلتَهُ ، أمّا الآنَ وبعدَ أنْ جِئتَنا بهذا الدّينِ الجديدِ ، فقدْ خابَ رجاؤُنا فيكَ ، وصِرْتَ في أعْيُنِنا رجلاً مُخْتَلَّ التَّفكيرِ ، ثُمَّ قالوا أيْضاً : أجِئتَنا بهذِهِ الدَّعوةِ الجديدةِ لِتَنْهانا عنْ عِبادةِ الآلِهَةِ الّتي كانَ يَعبُدُها آباؤُنا مِنْ قبلُ ؟ لا ، إنّنا لنْ نَستجيبَ لكَ ، فقدْ وجدْنا آباءَنا على دينٍ ، وإنَّنا على آثارِهِمْ نَسيرُ ، ثُمَّ زادوا في هذا الجَوابِ قائِلينَ : لنْ نَترُكَ عبادةَ الأصنامِ الّتي كانَ يَعبُدُها آباؤُنا ، وإنَّنا لَفي شكٍّ كبيرٍ مِنْ صِحَّةِ ما تَدعونا إليهِ .

وهَكذا شَأْنُ السُّفهاءِ في كلِّ زمانٍ ، يُقابِلونَ الدّعوةَ الحَقّةَ بالتَّصميمِ عَلى الباطِلِ الّذي هُمْ فيهِ .
ولكنَّ صالِحاً عَلَيْهِ السّلامُ لمْ يَيْأَسْ ، بلْ رَدَّ عَلَيْهِم بأُسلوبٍ رقيقٍ حكيمٍ ، فقالَ تَعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ .

قالَ صالحٌ عَلَيْهِ السّلامُ : يا قومِ ، خَبِّروني إنْ كنتُ عَلى بَصيرةٍ نَيِّرَةٍ وَبيِّنَةٍ ممّا أدْعوكُمْ إليهِ مؤيَّداً بِحُجَّةٍ وبُرْهانٍ مِنْ ربِّي ، وأعطاني ربّي تَعالى رحمةً لي ولكُمْ ، وهي النُّبوَّةُ والرِّسالةُ ، فكيفَ أُخالِفُ أمْرَهُ وأعصيهِ بعدمِ تَبليغِ رسالَتِهِ ، اسْتِجابةً لكُمْ ؟ ومَنْ ذا الّذي يَنْصُرُني ويُعينُني عَلى دَفْعِ عذابِهِ إنْ عَصَيْتُهُ ؟ إنّكُمْ لا تَستطيعونَ نُصْرَتي ، وَدَفعَ عذابِهِ عنّي ، فما تَزيدونَني غيرَ الضَّياعِ ، والوُقوعِ في الخُسْرانِ إنْ أطعتُكُمْ وعَصَيْتُ ربّي وربَّكُمْ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ تَصويرٌ بليغٌ وواضِحٌ لِما كانَ عَلَيْهِ صالحٌ عَلَيْهِ السّلامُ مِنْ إيمانٍ عميقٍ باللهِ

تَعالى ، ومِنْ ثَباتٍ عَلى دَعوتِهِ ، ومِنْ حِرْصٍ عَلى طاعَتِهِ سُبْحانَهُ ، وهَكَذا يَنبغي أنْ يكونَ المُؤْمِنُ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ تَتابُعُ الرُّسُلِ إلى أقوامِهِمْ سُنَّةٌ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى الّتي لَمْ تَتَخلَّفْ ، كَيْلا تَخْلو الأَزْمِنَةُ ولا الأَمْكِنَةُ مِنَ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السَّلامُ .

٢ـ مِنْ مُهمّاتِ الدّاعيةِ إلى اللهِ تَعالى ، تَذكيرُ النّاسِ بِنِعَمِ اللهِ تَعالى عَلَيْهِمْ .

٣ـ مَنهجُ الأُمَمِ في تَكذيبِ الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ السّلامُ يكادُ يكونُ واحِداً .

٤ـ الدّاعيةُ إلى اللهِ تَعالى يَنبغي أنْ يكونَ عَلى ثِقَةٍ كَبيرةٍ بِربِّهِ تَبارَكَ وتَعالى .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

ثَمودَ ، أَنْشَأَكُمْ ، اسْتَعْمَرَكُمْ ، مَرْجُوّاً ، تَخْسيرٍ .

٢ـ ما الفائدةُ المَرْجُوَّةُ مِنْ تتابُعِ قَصصِ الأنْبياءِ في القُرآنِ الكريمِ ؟

٣ـ بماذا ردَّ قومُ صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ؟

٤ـ ماذا نَستفيدُ مِنْ رَدِّ قوم صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ؟

٥ـ ذَكَرتِ الآياتُ الكَريمةُ ما يُبيِّنُ ثِقةَ نَبيِّ اللهِ تَعالى صالحٍ عَلَيْهِ السَلامُ ، بيِّنْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ ما كانَ يَصِفُ أهلُ مكَّةَ بهِ رسولَ ﷺ قبلَ البِعْثَةِ ، وما أَصْبَحوا يَصِفونَهُ بهِ بَعْدَها .

* * *

الدَّرْسُ الخامِسُ والثَّلاثونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الثّالِثَ عَشَرَ

وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

معاني المفردات :

ذَروها تأَكُلْ : اترُكوها تأْكُلْ وترْعى .

عَقَروها : ذَبَحوها .

الصَّيْحَةُ : صَوْتُ العَذابِ الشّديدِ .

جاثِمينَ : هَلْكى ساقِطينَ عَلى الأرضِ .

لَمْ يَغْنَوْا فيها : كأنَّهُمْ لَمْ يُقيموا في دارِهِمْ في رَخاءٍ وطيبِ عَيْشٍ .

بُعْداً : هَلاكاً .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنتْ لنا الآياتُ السّابقةُ ما دارَ بينَ صالحٍ عليهِ السّلامُ وقومِهِ ، بيَّنتْ لنا هذهِ الآياتُ التّاليةُ أنَّ صالِحاً عليهِ السّلامُ قدْ أرشَدَ قَوْمَهُ إلى المُعجِزَةِ الدّالَّةِ عَلى صِدْقِهِ فيما يُبلِّغُهُ عَنْ ربّهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾

يا قوم هذهِ ناقةُ اللهِ تَعالى جَعَلها لكُم آيةً وَبَيِّنَةً ومُعجزَةً دالَّةً عَلى صِدْقِ ما أقولُ ، وهذهِ النّاقةُ ناقةٌ مَخصوصةٌ مُتميِّزَةٌ ليستْ كَغيرِها مِنَ النُّوقِ ، وقدْ أمَرَهُم أنْ يتركوا هذهِ النّاقةَ حُرَّةً طليقةً تَأْكُلُ في أرضِ اللهِ تَعالى الواسِعَةِ ، ومِنْ رِزْقِهِ الّذي تكفَّلَ بهِ لكلِّ دابّةٍ ، وحذَّرَهُمْ مِنْ أنْ يَمسّوها بشيءٍ مِنَ السّوءِ مَهْما كانَ قليلاً . فإنْ فعلتُمْ ذلِكَ عرَّضْتُمْ أنفُسَكُمْ لِعذابِ اللهِ تَعالى العاجِلِ القريبِ .

ولكنّ قومَ صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ لَمْ يَستمِعوا إلى تَحذيرِهِ ، ولَمْ يَسْتَجيبوا لِندائِهِ ، بلْ قابَلوهُ بالطُّغيانِ والعِصْيانِ ، فَقَتلوا النّاقةَ ، وبذلكَ اسْتَحقّوا عذابَ اللهِ تَعالى .

﴿ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾

لَمْ يَسمعِ القومُ نُصْحَ نبيِّهِمْ صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ولَمْ يَسْتَجيبوا لهُ ، وبَلغَ بِهِمُ الكِبرياءُ والاسْتِهانةُ بِتَهديدِهِ أنْ قَتلوا النّاقَةَ ، فقالَ لهُمْ نَبيُّهُمْ عَلَيْهِ السّلامُ بعدَ نَحْرِهِمُ النّاقةَ : إنّ لكُمْ ثلاثةَ أيامٍ تَعيشونَ وتَستْمتِعونَ فيها في دِيارِكُمْ ، هِيَ آخِرُ ما بَقِيَ لكُمْ مِنْ متاعِ هذهِ الدُّنْيا ومِنْ أيامِ حياتِكُمْ فيها ، وبعدَ ذلكَ يَأْتيكُمْ عذابُ اللهِ تَعالى ، ذلِكَ وعْدُهُ الحَقُّ الّذي لا يتخلَّفُ ، ولا يقعُ عليهِ تَكذيبٌ .

ولقدْ تحقَّقَ فيهم وَعْدُ اللهِ تَعالى ، فقدْ حلَّ بِهِمُ العذابُ في الوقتِ المُحدَّدِ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴾

فلمّا جاءَ عذابُنا نَجّيْنا صالِحاً عَلَيْهِ السّلامُ والّذينَ معهُ مِنَ الهَلاكِ بِرَحْمةٍ خاصّةٍ مِنّا ، ونَجّيناهُمْ كذلكَ مِنْ مَهانةٍ وفَضيحةٍ في ذلِكَ اليومِ الّذي أهْلَكَ اللهُ فيهِ ثمودَ ، إنَّ ربّكَ أيُّها النّبيُّ محمّدٍ ﷺ هو القويُّ الغالِبُ ، فاطْمَئِنَّ إلى قُوَّتِهِ وعِزَّتِهِ وعَوْنِهِ ونَصْرِهِ ، ولا تَبتئِسْ ممّا أصابَكَ مِنْ قَوْمِكَ ، فربُّكَ سُبْحانَهُ قادرٌ على أنْ يَفعلَ بِهِمْ ما فَعَلَهُ بالظّالِمينَ السّابِقينَ مِنْ أمثالِهِمْ .

ثُمَّ صوَّرَ القرآنُ الكريمُ حالَ هؤلاءِ الظّالِمينَ الّذينَ حَلَّ بهمْ عذابُ اللهِ تَعالى تَصويراً يَدعو إلى الاتِّعاظِ والاعْتبارِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾

وأخذتِ الصّيْحةُ بِعُنْفِها ورَجْفَتِها وصاعِقَتِها الظّالِمينَ ، لأنّهُمْ ظَلَموا أنْفُسَهُمْ بالكُفْرِ والعُدْوانِ ، فأصْبَحوا في دارِهِمْ هامِدينَ ، راقِدينَ عَلى وُجوهِهِمْ ، مَيّتينَ ، لا حَراكَ بهمْ . ثُمَّ بَيّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ أنَّ ثمودَ بما حلَّ بِها كأنّها لم تَنْعَمْ يوماً ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

وانتهى أمرُهُمْ ، وزالتْ آثارُهُمْ مِنْ ديارِهِمْ ، كأنَّهُمْ لَمْ يُقيموا فيها ، ونَطَقَ حالُهُمْ بما يَجبُ أنْ يَتنَبَّهَ لهُ ويَعتبرَ بهِ كلُّ عاقلٍ ، ويعلمَ أنَّ ثمودَ جحدوا بآياتِ ربِّهِمُ الّذي خَلَقَهُمْ ، وبسببِ ذلِكَ كانَ الهلاكُ والبُعْدُ والسُّحْقُ لِهؤلاءِ المُجْرِمينَ مِنْ قبيلةِ ثمودَ .

وهَكَذا كلُّ ظالِمٍ مَهْما طالَ أمَدُهُ ، فإنَّ مَصيرَهُ مَصيرُ هؤلاءِ الهَلْكى الظّالِمينَ ، فَلْيَعْتَبِرْ كلُّ إنسانٍ بهذهِ الأحْوالِ ، وليَتَجنَّبْ ما يُمكِنُ أنْ يُؤدّي بهِ إلى المَصيرِ نَفْسِهِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ أرسَلَ اللهُ معَ الأنبياءِ مُعجزاتٍ تُؤيِّدُهُمْ ، وهي تَختلِفُ باخْتلافِ الأنْبياءِ عَلَيْهِمُ السّلامُ .

٢ـ سُنَّةُ اللهِ تَعالى في إهْلاكِ الظّالِمينَ وإنجاءِ المُؤْمِنينَ لا تتحوَّلُ ولا تَتبَدَّلُ .

٣ـ المصائِبُ الّتي تَحِلُّ بالإنْسانِ تُنْسيهِ النِّعَمِ الّتي مَرَّ بها قبلَ المُصيبةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

ذَروها تَأْكُلْ ، عَقَروها ، الصَّيْحَةُ ، جاثِمينَ ، لَمْ يَغْنَوْا فيها ، بُعْداً .

٢ـ ما مُعجِزَةُ نَبيِّ اللهِ تَعالى صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ؟ وماذا كانَ يَطْلُبُ مِنْ قَوْمِهِ ؟

٣ـ ماذا فَعَلَ القومُ بِمُعْجِزَةِ نَبيِّهِمْ صالحٍ عَلَيْهِ السّلامُ ؟

٤ـ في هذهِ الآياتِ بيانٌ لِسُنّةٍ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى ، وضِّحْ ذلِكَ معَ ذِكْرِ الدّليلِ .

٥ـ بماذا عاقبَ اللهُ تَعالى ثَمودَ ؟

٦ـ بيِّنْ صورَتَهُمْ بعدَ العِقابِ الإلهيِّ الأليمِ .

٧ـ املأ الفَراغَ في كلٍّ مِمّا يلي بما يُناسِبُه :

أـ أرْسَلَ اللهُ تعالى نَبيَّهُ صالِحاً عَليْهِ السّلامُ إلى قبيلةِ (   ) .

ب ـ كانتْ قبيلةُ ثمودَ تَسْكُنُ في مكانٍ اسْمُهُ (   ) بينَ الحجازِ والشّامِ .

ج ـ المُعْجِزةُ الّتي أيّدَ اللهُ تَعالى بها نبيَّهُ صالِحاً هي (   ) .

د ـ عذَّبَ اللهُ تَعالى ثمودَ بِأَنْ أرْسَلَ عَلَيْهِم (   ) فأَصْبَحوا خامِدينَ .

* * *

الدرس السادس والثلاثون

سورة هود - القسم الرابع عشر

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۚ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۖ إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

معاني المفردات :

البُشْرى : البِشارةُ بالخَبَرِ السّارِ .

عِجْلٍ حنيذٍ : عِجْلٍ مَشْوِيٍّ .

نكِرَهُمْ : اسْتَغْرَبَ أمْرَهُم .

أوْجَسَ منهمْ خيفَةً : أحسَّ بالخَوْفِ .

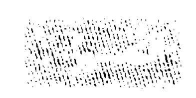
بَعْلي : زَوْجي .

الرَّوْعُ : الخَوْفُ والفَزَعُ .

حليمٌ : صَبورٌ على الأذى .

أوّاهٌ : كثيرُ التأوُّهِ مِنْ خَشيةِ اللهِ تَعالى .

مُنيبٌ : سَريعُ الرّجوعِ إلى اللهِ تَعالى .



بَعْدَ أنْ ذكرتِ السّورَةُ الكَريمةُ قصّةَ ثَمودَ ، ساقَتْ لنا جانِباً مِنْ قصّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ معَ الملائِكةِ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (٦٩) ﴾

ولقدْ أرْسَلْنا الملائِكةَ عَلَيْهِمُ السّلامُ إلى إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ لِبشارَتِهِ هو وزَوجَتِهِ بمولودٍ ، فلمّا جاءوهُ سلّموا عَلَيْهِ سلاماً ، فردَّ تَحيّتَهُمْ بالسّلامِ ، وأسْرَعَ ولمْ يُبْطِئْ ، فأحْضَرَ إليْهِمْ عِجْلاً سميناً مَشويّاً ليأكُلوا منهُ ، تكريماً لَهُمْ .

ثُمَّ بَيّنَ اللهُ تَعالى حالَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ عندَما رأى ضُيوفَهُ لا يأكلونَ طعامَهُ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ (٧٠) ﴾

فلمّا رأى إبراهيمُ عَلَيْهِ السّلامُ ضُيوفَهُ لا تَمتدُّ أيْديهِمْ إلى الطّعامِ الّذي قدّمَهُ لهُمْ ، نَفَرَ مِنْهُمْ ، وأحسَّ في نفسهِ مِنْ جِهَتِهِمْ خَوْفاً ، لأنَّ امْتِناعَ الضّيْفِ عنِ الأكْلِ مِنْ طَعامِ مُضيفِهِ ـ من دونِ سببٍ ـ يُشْعِرُ بأنَّ هذا الضّيْفَ يَنوي شرّاً بهِ ، وما يزالُ هذا الأمرُ إلى اليومِ في كثيرٍ مِنَ البُلْدانِ .

ولِهذا قالَ الملائِكةُ عَلَيْهِمُ السّلامُ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ عندَما لاحظوا ما يَعتورُ نَفْسَهُ مِنَ الخَوْفِ : لا تَخَفْ يا إبراهيمُ ـ عليهِ السّلامُ ـ فإنّا لَسْنا ضُيوفاً مِنَ البَشَرِ ، وإنّما نحنُ رُسُلُ اللهِ تَعالى أرْسَلَنا إلى قوم لوطٍ لإهْلاكِهِمْ .

ثُمَّ بَيّنَ اللهُ تَعالى ما بَشَّروا بهِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾

ولاشكَّ في أنَّ المرأةَ عندما تكونُ قدْ بلغتْ سِنّاً كبيرةً لا تُنْجِبُ معَها ، ولمْ يكُنْ لها ولَدٌ ، ثُمَّ تَأْتيها مثلُ هذهِ البِشارةِ فإنَّ كِيانَها يَهتزُّ وتَزْدادُ عُجْباً ، قال تَعالى :

﴿ قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) ﴾

صاحَتْ مُتعجِّبةً ضاحِكةً ، وقالتْ : يا عَجَباً ، أألِدُ وأنا عجوزٌ تقدّمتْ بي السِّنُّ ، وهذا زَوْجي

كذلكَ شيخٌ كبيرٌ ولا يُولَدُ لِمثلِهِ ؟ إنَّ هذا الّذي أسْمَعُهُ واللهِ شيءٌ عجيبٌ ، إذْ كيفَ يُولَدُ لِهَرِمَيْنِ مِثْلي ومِثْلَ زَوْجي ؟

ولمّا سَمِعَ الملائِكةُ منها هذا الكَلامَ اسْتَغْرَبوهُ ، قال تَعالى :

﴿ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾ .

قالتِ المَلائكةُ لَها : أتَعْجَبينَ أنْ يُولَدَ لكُما ولدٌ على كِبَرِكُما ، وهذا مِنْ أمْرِ اللهِ تَعالى الّذي لا يُعجِزُهُ شيءٌ ، تلكَ رحمةُ اللهِ ونِعَمُهُ الكَثيرةُ عَلَيْكُم يا أهلَ بيْتِ النّبوّةِ ، فليسَ بِعَجَبٍ أنْ يَهَبَ لكَمْ ما لمْ يَهَبْ لِغيرِكُمْ ، إنّهُ سُبْحانَهُ فاعِلٌ ما يَستوجِبُ الحَمْدَ ، عظيمٌ كثيرُ الإحسانِ والعَطاءِ .

وإنّما أنْكَرتِ المَلائكةُ على امرأةِ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ تَعجُّبَها ، لأنّها كانتْ في بَيْتِ النُّبوّةِ ومَهْبَطِ المُعْجِزاتِ ، والأُمورِ الخارِقةِ للعاداتِ ، فكانَ علَيْها أنْ لا يَظْهَرَ منها مثلُ ذلِكَ ، وأنْ تُسبِّحَ اللهَ تَعالى وتَحْمَدَهُ وتُمجِّدَهُ بَدَلاً من هذا التَّعجُّبِ .

ثُمَّ حكى اللهُ تَعالى لنا ما كانَ مِنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ حينَ سكَنَتْ نفسُهُ وهدأَ رَوْعُهُ واطْمَأنَّ إلى ضُـيوفِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

فلمّا ذهَبَ عنْ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ الخَوْفُ ، وسَمِعَ البِشارَةَ السّارّةَ بالوَلَدِ ، أخَذَهُ الإشْفاقُ ، وأخَذَ يُجادِلُ رُسُلَنا في هلاكِ قوم لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ . والمُجادَلَةُ هنا هي المُحاوَرَةُ عن طريقِ السّؤالِ والجَوابِ . ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مِنْ صفاتِ سيِّدنا إبراهيمَ بَعْضَها ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴾ .

إنّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ لَكثيرُ الحِلْمِ ، لا يُحِبُّ تَعجيلَ العِقابِ ، كثيرُ التأوُّهِ والتَّوجُّعِ مِنَ السّوءِ الّذي يُصيبُ غَيْرَهُ ، ومِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعالى ، تائِبٌ راجِعٌ إلى اللهِ بما يُحبُّهُ ويَرْضاهُ ، فَرِقَّتُهُ ورَحْمتُه ورأفَتُهُ ، حَمَلَتْهُ عَلى المُجادَلَةِ رجاءَ أنْ يَرفَعَ اللهُ تَعالى عذابَهُ عَنْ قوم لوطٍ لعلَّهُمْ يَتوبونَ ويُنِيبونَ .

ولكنَّ حِلْمَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ وإنابَتَهُ ، لم يَرُدَّ قضاءَ اللهِ تَعالى العادلَ في شأنِ قوم لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، ولِذا طَلَبَتَ منهُ الملائِكةُ عَلَيْهِمُ السّلامُ الإعْراضَ عَنْ هذا الجِدالِ ، والانْصِرافَ إلى شيءٍ آخَرَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾ .

قالتِ الملائكةُ لإبراهيمَ عَلَيْهِ وعليهِمُ السّلامُ : يا إبراهيمُ ، أعْرِضْ عن هذا الجِدالِ والْتماسِ الرَّحمةِ لهؤلاءِ القَوْمِ ، إنّهُ قدْ جاءَ أمْرُ ربِّكَ تَعالى بِهلاكِهِمْ وإنّهُمْ لابُدَّ آتيهِمْ عذابٌ نافِذٌ غيرُ مَردودٍ بجدَلٍ أو غيرِ جَدَلٍ ، فإنَّ قضاءَ اللهِ تَعالى لا يُرَدُّ عنِ القَوْمِ المُجْرِمينَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ اسْتِحْبابُ أنْ يقومَ المُبشَّرُ بِشُكْرِ اللهِ تَعالى عَلى البِشارةِ الّتي جاءَتْهُ .

٢ـ السّلامُ مشروعٌ ومُسْتَحبٌّ وهو تَحيَّةُ المُسْلِمينَ .

٣ـ مَشْروعيةُ الضّيافةِ والمُبادَرةِ إليْها ، وتَكْريمِ الضَّيْفِ بما يَسْتَحِقُّ ، وخِدْمَتِهِ بما يَليقُ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

البُشرى ، عِجْلٍ حَنيذٍ ، نَكِرَهُمْ ، أوْجَسَ مِنْهُمْ خيفةً ، بَعْلي ، الرَّوْعُ ، حليمٌ ، أوّاهٌ ، مُنيبٌ .

٢ـ هَلِ العِبْرَةُ مِنْ قِصَّةِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ هي العِبْرَةُ نَفْسُها مِنْ قَصصِ مَنْ سَبَقَ مِنَ الأنْبياءِ ؟ وضِّحْ ذلكَ .

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ كانَ عَلى خُلُقٍ عظيمٍ ، وضِّحْ ذلكَ .

٤ـ لِماذا تَعجَّبتِ امرأةُ إبْراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ مِنَ البِشارةِ ؟

٥ـ لِماذا أنْكَرتِ المَلائكةُ عَلَيْهِمُ السّلامُ تَعجُّبَ زوْجِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ ؟

٦ـ لِماذا كانتِ المُجادَلَةُ بَيْنَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ ، والملائكةِ عَلَيْهِمُ السّلامُ في شأنِ قومِ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ ؟

٧ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ قضاءَ اللهِ تَعالى نافِذٌ لا يُرَدُّ وضِّحْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ بِلُغَتِكَ الحِوارَ الّذي دارَ بينَ إبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ وزَوْجِهِ والملائكةِ ، مُبيِّناً دَوْرَ كلٍّ مِنهُمْ .

* * *

الدَّرْسُ السَّابِعُ والثَّلاثونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الخامِسَ عَشَرَ

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

[illegible]

سِيءَ بهِمْ	: حَصلَتْ لهُ المَساءَةُ بِقُدومِهِمْ .
ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً	: أصابَهُ الضّيقُ فما عادَ يَسعُهُ اسْتِقْبالُهُمْ .
يومٌ عصيبٌ	: شديدُ الهَوْلِ والكَرْبِ .
آوي	: أَلتجِئُ وأحْتَمي .
بِقِطْعٍ مِنَ اللَيلِ	: بِجُزْءٍ منهُ .
سِجّيلٍ	: حَجَرٍ وطينٍ مُختلِطٍ قدْ تَصلَّبَ .
مَنضودٍ	: مُتَتابِعٍ دونَ انقطاعٍ .
مُسوّمَةً	: مُعَلّمَةً بِعَلاماتٍ خاصَّةٍ .



بَعْدَ أنْ بيَّنتِ السّورةُ الكَريمةُ ما حَصَلَ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ مِنَ الفَضْلِ والتّكريم ، انْتَقَلتْ لِتُحدِّثَنا عَنْ قصّةِ لوطٍ وقومِهِ ، وهُمْ نَمَطٌ جديدٌ مِنَ البَشَرِ الّذينَ انْحَرفوا عنِ الجادّةِ والأخْلاقِ ، وفَسَدتْ طِباعُهُمْ ، وأظْلَمَتْ قلوبُهُم ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾

وحينَ جاءتِ الملائِكةُ عَلَيْهِمُ السّلامُ إلى لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ بَعْدَ مُفارَقَتِهمْ لإبراهيمَ عَلَيْهِ السّلامُ ، وكانوا ذوي وُجوهٍ حِسانٍ ، حَزِنَ لوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ ، وساءَهُ مَجيئُهُمْ ، لأنّه كانَ لا يَعرِفُهُمْ ، ويَعْرِفُ أنَّ قومَهُ قومُ سوءٍ ، فخَشِيَ أنْ يَعتديَ قومُهُ عَلَيْهِم ، بعادَتِهِمُ الشّنيعةِ ، وهو عَلَيْهِ السّلامُ عاجزٌ عنِ الدّفاعِ عنْهُمْ . وقدْ صوَّرَ القرآنُ الكَريمُ حالَتَهُ النفسيَّةَ بقولهِ تَعالى : ﴿وَضَاقَ بِهِم ذَرعاً﴾ أيْ أنَّ حيلتَهُ نَفِدَتَ ونَفْسَهُ اغْتَمَّتْ ، وعَجِزَ عَنْ إيجادِ حيلةٍ لِحمايَتِهِمْ ، وللخُروجِ مِنَ المَكروهِ الّذي يوشِكُ أنْ يُلِمَّ بِهِمْ ، ثُمَّ قالَ مُتضجِّرا قَلِقاً : هذا اليومُ الّذي جاءَ فيهِ هؤلاءِ الضّيوفُ يومٌ شديدُ الهَوْلِ والكَرْبِ ! !

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى ما كانَ مِنْ قومِ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ عِندَما عَلِموا بِوُجودِ هؤلاءِ الضُّيوفِ عندَهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ۚ قَالَ يَا قَوْمِ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾

وبَعْدَ أنْ عَلِمَ قومُ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ بوجودِ هؤلاءِ الأضْيافِ عندَ نَبيِّهِمْ عَلَيْهِ السّلامُ ، جاءوا إليهِ مُسْرِعينَ يَسوقُ بعضُهُمْ بعضاً إلى بَيْتِهِ مِنْ شدَّةِ الفَرَحِ ، ومِنْ قبلِ هذا المَجيءِ كانَ هؤلاءِ القَومُ الفَسَقَةُ الفَجَرَةُ يَرْتَكِبونَ السّيئاتِ الكَثيرةِ ، الّتي مِنْ أقْبَحِها إتْيانُهُمُ الرِّجالَ شَهْوةً مِنْ دونِ النّساءِ : « فاحشةُ اللِّواطِ » .

وقد طوى القرآنُ الكَريمُ الغَرَضَ الّذي جاءوا مِنْ أجْلِهِ وأشارَ إليهِ بقولِهِ تَعالى :

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ لبيانِ أنَّ هذهِ الفاحِشَةَ صارتْ عادةً مِنْ عاداتِهِمُ المُتأصِّلَةِ في نُفوسِهِمُ الشّاذّةِ ، فلا يَسْعَوْنَ إلاّ مِنْ أجْلِ قَضائِها . غيرَ أنَّ لوطاً عَلَيْهِ السّلامُ لَمّا هَجَمَ عَلَيْهِ قومُهُ بادرَهُمْ بأمْرِهِمْ بالعَوْدِ إلى نسائِهِمْ قائلاً لَهُمْ : هؤلاءِ بَناتي هُنَّ أطْهَرُ لكُمْ - إذْ كلُّ نبيٍّ أبٌ لأمّتِهِ مِنْ حَيْثُ الشَّفقةُ والرَّحمةُ وحُسْنُ التَّربيةِ والتّوجيهِ - ولا يَنبغي أنْ يَتوهَّمَ أحدٌ أنّهُ يَدعوهُمْ إلى بَناتِهِ حقّاً -

فارْجِعوا إليهنَّ ، واقْضوا شَهَواتِكُمْ مَعهُنَّ ، فهنَّ أطهرُ لكُمْ نَفسيّاً وحِسّياً مِنَ التلوُّثِ بفاحشةِ اللّواطِ . وبعدَ أنْ أرْشَدَهُمْ إلى نِسائِهِمْ ، أمَرَهُمْ بتقوى اللهِ تَعالى ، ومُراقَبتِهِ ، وقالَ لهُمْ : اتّقوا اللهَ تَعالى ، ولا تَجْعَلوني مَخزيّاً مَفضوحاً أمامَ ضُيوفي بسببِ اعْتِدائِكُمْ عَلَيْهِمْ . وهذا الكلامُ مِن لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ لاسْتثارةِ نَخوتِهِمْ ، مِمّا حَمَلَهُ عَلى أنْ يقولَ لهُمْ مُسْتَفْهِماً مُسْتَنْكِراً : أليسَ منكُمْ رجلٌ رشيدٌ يَهدي إلى الرُّشدِ ، ويَنْهى عنِ الباطِلِ والرَّذيلةِ ، فيقفُ إلى جانِبي ، ويَصْرِفُكُمْ عنْ ضُيوفي ؟

ولكنَّ هذا النُّصْحَ واسْتثارةَ النَّخوةِ لم يَنفعْ معَ أصْحابِ القُلوبِ الميتةِ والفِطَرِ الشّاذَّةِ ، فردّوا عَلى نَبيِّهِمْ رَدّاً قبيحاً ، قالَ تَعالى :

﴿ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

قالوا يا لوطُ ـ عَلَيْهِ السّلامُ ـ لقدْ عَلِمْتَ عِلْماً لا شكَّ فيهِ أنّنا ليسَ عِنْدَنا رغبةٌ في النِّساءِ ، وليسَ لنا مَيْلٌ إليْهِنَّ ، وإنّكَ لَتعْلَمُ ما نُريدُ! وهذه إشارةٌ خبيثةٌ مِنْهُمْ إلى العَمَلِ الخَبيثِ الّذي أَلِفوهُ ، وهو إتيانُ الذّكورِ دونَ الإناثِ .

ولمّا سَمِعَ لوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ مَقالتَهُمْ رَدَّ عَلَيْهِمْ ردَّ اليائِسِ مِنْ تَراجُعِهِمْ عنْ غَيِّهِمْ ، مُتمنِّياً وُجودَ قُوّةٍ إلى جانبِهِ تَردَعُهُمْ وتَكُفُّ فجورَهُمْ ، قال تَعالى :

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

قالَ لوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ : لو أنّ لي قوّةً ، أو رُكْناً قوياً أعْتَمِدُ عَلَيْهِ لكانَ مَوقِفي منكُمْ غيرَ هذا المَوْقِفِ ، ولَدفعتُكُمْ عَنْ ضُيوفي ومَنَعْتُكمْ مِنْ إلحاقِ الأذى وفِعْلِ السّوءِ بِهِمْ .

وبَعْدَ أنْ بَلَغَ الضّيقُ بلوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ مَبْلَغاً عظيماً ، جاءَهُ الفَرَجُ مِنْ ربّهِ تَعالى ، فكشَفَ لهُ الملائكةُ عَنْ حَقيقتِهِمْ ، وَبشرّوهُ بما يُدْخِلُ السّرورَ عَلى قلبهِ ، قالَ تَعالى :

﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ ﴾

قالتِ الملائكةُ عَلَيْهِمُ السّلامُ ، وقد أظْهَروا حَقيقَتَهُمْ : يا لوطُ ـ عَلَيْهِ السّلامُ ـ لا تَخفْ ولا تَحْزَنْ ، إنا رُسُلُ ربّكَ ، ولَسْنا بَشَراً كَما بَدا لكَ ، ولِقَوْمِكَ ، ولنْ يَصِلَ هؤُلاءِ إليكَ بشرٍّ يَسوؤُكَ ، أو ضُرٍّ يُصيبُكَ ، فَسِرْ أنتَ وأهْلُكَ في بعضِ أوقاتٍ مِنَ الليلِ ، إذا دخلَ جزءٌ كبيرٌ منهُ ، واخْرُجْ بهِمْ مِنْ هذهِ القريةِ ، ولا يَلتفِتْ منكُمْ أحدٌ خَلْفَهُ ، لِكَيْلا يَرى هَوْلَ العذابِ فيُصابَ بِشَرٍّ منهُ ، لكنّ امرأتَكَ الّتي كَفَرتْ مِنَ الخارجينَ معكَ ، إنّه لابُدَّ مُصيبُها ما قُدِّرَ أنْ يُصيبَ هؤُلاءِ المُتَفحِّشينَ ، إنَّ موعدَ هلاكِهِمُ الصُّبْحَ ، وهو موعدٌ قريبٌ فلا تَخَفْ .

ثُمَّ حكى سُبْحانَهُ وتَعالى في نهايةِ هذهِ القِصَّةِ ما حلَّ بأُولئكَ المُجْرِمينَ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

فلمّا جاءَ وقتُ العذابِ الّذي قَدَّرناهُ ، وحدّدنا مَوْعِدَهُ ، جَعَلْنا عاليَ القريةِ الّتي كانَ يَعيشُ فيها هؤلاءِ سافِلَها ، فَقلَبْناها ـ لأنّهم قَلَبوا فِطْرَتَهُمْ ـ وأمْطَرْنا عَلَيْهِم في أثناءِ ذلِكَ حجارةً مِنْ طينٍ حُمِيَ بالنّارِ حتّى تحجَّرَ ، أرْسَلناها قويَّةً مُتَتاليةً كَيْلا يَنجو منهُمْ أحدٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ لنا أنَّ هذهِ الحِجارَةَ كانتْ مُميَّزةً مَخصوصةً ، قالَ تَعالى :

﴿ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾ .

وكانتْ هذه الحجارةُ مُعَلَّمَةً عندَ ربِّكَ تَنزِلُ عَلَيْهِم مُتَتابِعَةً مُنتَظِمَةً مُعْلِنَةً العذابَ عَلَيْهِمْ ، وليْسَتْ هذهِ الحجارةُ أيُّها النَّبيُّ ﷺ بعيدةً عنِ الظّالِمينَ ، بلْ هِيَ حاضِرَةٌ قريبةٌ تَنتَظِرُ أمْرَ اللهِ تَعالى بالنُّزولِ المُتَتابِعِ عَلى رُؤوسِ الظّالِمينَ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ قومُ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ قَدْ فَعَلوا ما لَمْ يَسبِقْهُمْ إليهِ أحَدٌ ، فقدْ غيَّروا ما فَطَرَهُمُ اللهُ عليهِ فاسْتَحقّوا العذابَ .

٢ـ حِرْصُ نبيِّ اللهِ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ عَلى ضُيوفِهِ كَحِرْصِهِ عَلى نَفْسِهِ ، وهذا مِنْ مكارِمِ الأخْلاقِ .

٣ـ لَمْ يتوانَ لوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ عَنْ نَصيحةِ قوْمِهِ بالرَّغْمِ ممّا هُمْ فيهِ مِنْ فاسِدِ الفاحِشَةِ وهكذا يكونُ الدّاعيةُ .

٤ـ عِنْدَما تَشْتَدُّ الأُمورُ يَأْتي الفَرَجُ مِنَ اللهِ تَعالى ﴿فإنَّ معَ العُسْرِ يُسْراً إنّ مَعَ العُسْرِ يُسرا﴾ .

٥ـ القَرابةُ هي قَرابَةُ الدّينِ ، ولا تَنفعُ قَرابةُ النَّسَبِ مَعَ الكُفْرِ .

٦ـ عَلى الظّالِمِ أنْ يَعتبِرَ بما حلَّ بالأُمَمِ الماضيةِ ، وإلاّ أصابَهُ مِثلَما أصابَهُمْ .

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

سيءَ بِهِمْ ، ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ، يومٌ عَصيبٌ ، يُهْرَعونَ إليهِ ، آوي ، بِقِطْعٍ مِنَ اللّيلِ ، سِجّيلٍ مَنضودٍ ، مُسَوَّمةً .

٢ـ بماذا اختلفَ قومُ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ عنِ الأقوامِ الّذينَ سَبقَتْهُمْ .

٣ـ وضِّحِ الحالةَ الّتي كانَ عليها لوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ حينَ جاءَتْهُ الملائكةُ عَلَيْهِمُ السّلامُ .

٤ـ كيفَ تَعاملَ لوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ معَ قومِهِ حينَ تَدافعوا إليهِ يُريدونَ ضُيوفَهُ ؟

٥ـ بماذا تُفَسِّرُ قولَ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ : ﴿يا قومِ هؤلاءِ بَناتي هُنَّ أطْهَرُ لَكُمْ﴾ ؟

٦ـ لماذا لمْ تَنفَعْ نَصيحةُ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ معَ هؤلاءِ القومِ ؟

٧ـ كيفَ يُمْكِنُ أنْ تَتخَيَّلَ لوطاً عَلَيْهِ السّلامُ وقدْ كشَفَ لهُ الملائِكةُ عَنْ حقَيقَتِهِمْ ؟

٨ـ ما الّذي حلَّ بقومِ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ ؟ ولِماذا كانَ عذابُهُمْ عَلى تِلْكَ الصِّفَةِ ؟

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ التّحريمِ الّتي تُبيِّن كُفْرَ امرأةِ لوطٍ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ الفيلِ الّتي تُبيِّنُ ما أصابَ أصْحابَ الفيلِ مِنَ العَذابِ .

٣ـ اكْتُبْ بِلُغتِكَ الحِوارَ الّذي دارَ بينَ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ وقومِهِ والمَلائِكةِ مُبيِّناً دَوْرَ كلٍّ مِنهُمْ .

* * *

الدّرسُ الثّامنُ والثّلاثون

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ السّادسَ عَشَرَ

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ (٨٤) وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٨٥) بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (٨٦) قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (٨٧)﴾

مَدينَ	: اسمُ قبيلةٍ عربيةٍ أرسَلَ اللهُ تَعالى لَها نَبيَّهُ شُعَيْباً عَلَيْهِ السّلامُ .
إنّي أراكُمْ بِخَيرٍ	: أحوالُكُمْ تُغنيكُمْ عنِ الفِعْلِ الخَسيسِ ، لأنّكُمْ أصحابُ مالٍ وغِنىً .
لا تَبْخَسوا النّاسَ	: لا تُنْقِصوهُمْ شيئاً مِنْ حُقوقِهِمْ .
ولا تَعْثَوْا في الأرضِ مُفْسِدينَ	: لا تَسْعَوْا في الأرضِ بالفَسادِ .
بَقيّتُ اللهِ	: ما يُبقيهِ اللهُ تَعالى لَكُمْ .

بعدَ أنْ حَدَّثَتْنا السّورةُ الكَريمةُ عنْ صورةٍ مِنَ الانْحِرافِ البَشِعِ الّذي ابْتَدَعَهُ قوْمُ لوطٍ عليهِ السّلامُ ، انتَقلتِ السّورَةُ لِتُحدِّثَنا عَنْ صورةٍ جديدةٍ من صُوَرِ الانْحرافِ الاجْتماعيِّ الخاصِّ بالجانبِ الاقْتصاديِّ ، وذلكَ ما كانَ يفعُلهُ قومُ شُعَيْبٍ عليهِ السّلام ، قالَ تعالى :

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ .

وكَما أرْسَلْنا إلى ثمودَ أخاهُمْ صالِحاً عليهِ السّلامُ ،أرْسَلْنا إلى مَدْينَ أخاهُمْ شُعَيْباً عليهِ السّلامُ ،فقالَ لهمْ مَقالةَ كلِّ نبيٍّ لقومِهِ : يا قوم اعْبُدوا اللهَ وحْدَهُ ، فإنَّه لا إلهَ لكُمْ يَستَحِقُّ العِبادَةَ سِواهُ ، فَهُوَ الّذي خَلَقَكُمْ ، وهو الّذي رَزَقَكُمْ ، وهو الّذي إليهِ تُرْجَعونَ ، وبعدَ هذا الأمرِ بالتّوحيدِ وإخْلاصِ العبادةِ للهِ تَعالى ، نَهاهُمْ عَلَيْهِ السّلامُ عنِ التَّطفيفِ في الكَيْلِ والميزانِ .

وتطفيفُ الكَيْلِ والميزانِ جريمةٌ اجْتِماعِيَّةٌ ، تُؤدّي إلى شُيوعِ الاضْطرابِ في المُجتمعِ وتَحوُّلِهِ إلى كواسِرَ ضاريةٍ ، يَسعى كلٌّ منها إلى اغْتِنامِ حاجاتِهِ على حسابِ الآخَرينَ . ثمّ إنَّ شُعيباً عَلَيْهِ السّلامُ بيَّنَ لهُمْ ما دعاهُ إلى نَهْيِهِمْ عنْ هذا الأمرِ الّذي هُمْ فيهِ ، قائلاً لهُمْ : إنّي أراكُمْ تَمْلِكونَ الوَفيرَ مِنْ المالِ ، وتَعيشونَ في رَغَدِ العيشِ وفي بسطةٍ مِنَ الرِّزقِ ، ومَنْ كانَ كذلكَ كانَ عَلَيْهِ أنْ يُقابِلَ هذهِ النِّعَمَ بالشُّكْرِ لِواهِبِها وهو اللهُ تَعالى ، وأنْ يَسْتَعمِلَها اسْتِعمالاً يُرضيهِ ، وأنْ يُعْطِيَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّهُ . ثُمَّ حذَّرَهُمْ خَوْفَهُ مِنْ عقابِ اللهِ تَعالى ، قائلاً لهُم : إنّي أخافُ عَلَيْكُم إذا ما تَماديتُمْ في مُخالَفةِ ما آمُرُكُمْ بهِ وما أنْهاكُمْ عنهُ ، عذابَ يومٍ أهوالُهُ وآلامُهُ شامِلَةٌ لكلِّ ظالِمٍ بحيثُ لا يَفلِتُ منهُ أحدٌ .

ثُمَّ استمرَّ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلامُ ناصِحاً قَوْمَهُ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ .

ويا قوم أدّوا المَكيلَ والمَوْزونَ مِمّا تَبيعونَهُ وافِياً عَلى وجْهِ العَدْلِ والتَّسويةِ ، ولا تُنْقِصوا النّاسَ حقَّهُم في أَشيائِهِمْ ، ولا تَجوروا وتُفْسِدوا في الأرضِ بِسَرِقَةِ أمْوالِهِمْ ، أوِ الإغارةِ عليْهِمْ ، أو قَطْعِ الطَّريقِ عَلى العابِرينَ منهُمْ ، تَتَّخِذونَ الفَسادَ في الأرضِ وسيلةً لِلْكَسْبِ الحَرامِ .

ثُمَّ واصَلَ عَلَيْهِ السّلامُ نُصْحَهُ وإرشادَهُ لقومِهِ دونَ توقُّفٍ ، قالَ تَعالى :

﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴾ .

ما يَبقى لَكُمْ مِنَ المالِ الحلالِ الّذي تَفضَّلَ اللهُ تَعالى بهِ عَلَيْكُم ، خيرٌ لَكُمْ مِنَ المالِ الّذي تَجمعونَهُ مِنْ حرامٍ ، إنْ كُنتُم تُؤمِنونَ باللهِ ، وتَجْتَنِبونَ ما حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ فحاسِبوا أنْفُسَكُمْ ، وراقِبوا ربَّكُمْ ، ولستُ عليْكُمْ رقيباً أُحْصي أعمالَكُمْ ، وأُحاسِبَكُمْ عَلَيْها .

وعلى هذا نَجِدُ شُعيْباً عَلَيْهِ السَّلامُ قدْ أرشَدَ قَوْمَهُ إلى ما يُصْلِحُهُمْ في عَقائِدِهِمْ ، وفي مُعامَلاتِهِمْ ، وفي صِلاتِهِم بعضِهِمْ ببعضٍ ، وفي سُلوكِهِمُ الشّخصيِّ ، بأُسلوبٍ حكيمٍ جامعٍ لكلِّ

ما يُسْعِدُ ويَهدي للّتي هيَ أَقْوَمُ ، ولقدْ كانَ ردُّ قوْمِهِ عليهِ ، كما حَكاهُ لنا القرآنُ الكريمُ طافِحاً بالاسْتِهزاءِ بهِ والسُّخريةِ منهُ ، قالَ تَعالى :

﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ .

قالوا ساخِرينَ مُستهزئينَ : يا شعيبُ ، أصلاتُكَ الّتي تَزْعُمُ أنَّ ربَّكَ قد كلَّفَكَ بها وأنتَ تُكْثِرُ منها ، تأمُرُكَ أنْ نترُكَ عِبادَةَ الأصْنامِ الّتي وَجَدْنا عليْها آباءَنا ، وتَأمُرُكَ على أنْ تَحْمِلَنا على أنْ نَمْتَنِعَ عنِ التّصرُّفِ في أموالِنا كما نريدُ ، ممّا نَرى فيهِ مَصلحتَنا ؟ إنّ ذلكَ في غايةِ السَّفَهِ والطَّيْشِ ، ولا يَتَّفِقُ معَ ما نعرِفهُ عنكَ مِنَ العَقْلِ وسَدادِ الرّأيِ ، فأنتَ المَعروفُ بكثْرَةِ الحِلْمِ والرُّشْدِ . ﴿ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريْمَةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ وِحدةُ الهَدَفِ مِنْ رِسالاتِ الأنْبياءِ عَلَيْهِمُ السّلامُ ، وهيَ الدّعوةُ إلى تَوحيدِ اللهِ جلَّ وعَلا .

٢ـ الوفاءُ بالكَيْلِ والوَزْنِ مبادىءُ أخلاقيّةٌ سامِيَةٌ ، ونَقْصُها جريمةٌ اجْتِماعيةٌ تؤدّي إلى فسادِ المُجْتَمَعِ .

٣ـ رِزْقُ اللهِ تَعالى للإنْسانِ خيرٌ مِنَ اكْتِسابِه المالَ الحرامَ .

٤ـ تَصرُّفُ الإنسانِ فيما يَمْلِكُهُ يجبُ أنْ يكونَ مَحْكوماً بالضّوابِطِ الشَّرعيَّةِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

مَدْينَ ، إنّي أراكُم بِخَيْرٍ ، لا تَبْخَسوا النَّاسَ ، لا تَعْثَوْا في الأرضِ ، بَقيَّتُ اللهِ .

٢ـ ما الجَريمةُ الّتي كانَ يُمارِسُها قومُ شُعيبٍ عَلَيْهِ السّلامُ ؟

٣ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ شُعيباً عَلَيْهِ السّلامُ طلَبَ مِنْ قومِهِ أشياءَ ونَهاهُمْ عَنْ أشياءَ ، وضِّحْ ذلِكَ مَعَ ذِكْرِ الدّليلِ .

٤ـ كانَ ردُّ قومِ شُعيبٍ عَلَيْهِ السّلامُ مُنْطَوياً عَلى السُّخريةِ بهِ والاسْتِهزاءِ منهُ ، وضِّحْ ذلِكَ .

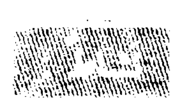
٥ـ أجبِ بـ(نعم) أو بـ (لا) عنْ كلٍّ مِمّا يلي :

أـ أرْسَلَ اللهُ تَعالى نَبيَّهُ شُعَيْباً عَلَيْهِ السّلامُ إلى ثمودَ (   ) .

ب ـ قبيلةُ مَدينَ قَبيلةٌ عَربيّةٌ (   ) .

ج ـ كانتْ جَريمةُ قومِ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السّلامُ التّلاعُبُ بالكَيْلِ والميزانِ (   ) .

د ـ مِنْ عاداتِ قومِ شُعيْبٍ عَلَيْهِ السّلامُ أنّهمْ كانوا يَمْنَعونَ الفَسادَ في الأرْضِ (   ) .



١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ كَيْفَ يكونُ التَّطْفيفُ في الكَيْلِ والميزانِ ، كَما جاءَ في سورةِ المُطَفِّفينَ .

٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ آيةَ سورةِ الإسْراءِ الّتي تَدْعو إلى إيْفاءِ حقِّ المِكْيالِ والميزانِ .

*   *   *

الدَّرْسُ التَّاسِعُ والثَّلاثونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ السّابعَ عشَر

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴿٩١﴾

معاني المفردات :

وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أنْهاكُمْ عنهُ	لا آمُرُكُمْ بشيءٍ وأفْعلُ خِلافَهُ .
لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقي	لا تَحْمِلَنَّكُمْ عَداوتي .
رَهْطُكَ	عَشيرَتُكَ .

التفسير :

بَعْدَ أنْ بَيَّنَ لنا القرآنُ الكَريمُ ردَّ قوم شُعيبٍ عَلَيْهِ السّلامُ عَلَيْهِ ، وسُخْرِيَتَهُمْ منهُ ، تُبَيِّنُ هذِهِ الآياتُ أنَّ شُعيباً عَلَيْهِ السّلامُ يَتغاضى عنْ سَفاهاتِهِمْ ، لأنَّهُ يَحُسُّ بِقُصورِهِمْ وجَهْلِهِمْ ، كما يَحُسُّ بقوَّةِ الحَقِّ الّذي أتاهُمْ بهِ مِنْ عندِ ربِّهِ تَبارَكَ وتَعالى ، قالَ تَعالى :

﴿ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

قالَ شُعيبٌ عَلَيْهِ السّلامُ يُخاطبُ قومَهُ : يا قومِ أخْبِروني إنْ كنتُ على حُجَّةٍ واضِحَةٍ ، وإيمانٍ

ثابتٍ ، ورزَقني اللهُ رِزْقاً حَسَناً تفضُّلاً منهُ ، أيَصِحُّ لي أنْ أكْتُمَ ما أمَرَني بِتَبليغِهِ لكُمْ مِنْ تَرْكِ عبادةِ الأصْنامِ ، وطلبِ إيفاءِ الكَيْلِ والميزانِ ، وتَرْكِ الفَسادِ في الأرضِ ؟ وأفْعَلُ ذلِكَ مُخالِفاً بذلكَ ربّي ، ومُتناقِضاً معَ دَعوتي ؟ وما أُريد بدعْوَتي ونَصيحَتي وأمْري ونَهْيي إلاّ الإصلاحَ قَدْرَ طاقَتي وجُهْدي واسْتِطاعَتي ، وما كنتُ مُوَفَّقاً لإصابةِ الحَقِّ إلاّ بِمَعونةِ اللهِ تَعالى وتَأْييدِهِ وتَسْديدِهِ ، وعليهِ وحْدَهُ أَعتَمِدُ ، وإليهِ وحْدَهُ أرْجِعُ .

ثُمَّ يُواصِلُ شُعيبٌ عَلَيْهِ السّلامُ نُصْحَهُ لقومِهِ ، فَينتقِلُ إلى تَذْكيرِهِمْ بِمَصارِعِ السّابِقينَ ، مُحذِّراً إيّاهُمْ مِنْ أنْ يكونَ مَصيرُهُمْ كَمصيرِ الظّالِمينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، قالَ تعالى :

﴿ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ .

ويا قومِ لا تَحْمِلَنَّكُمْ عداوَتُكُمْ لي عَلى افْتراءِ الكَذِبِ عليَّ ، وعلى التَّمادي في عِصْياني ومُحارَبتي ، فإنَّ ذلِكَ سَيؤدّي بكُمْ إلى أنْ يُصيبَكُمُ العَذابُ الّذي أصابَ قومَ نوحٍ ، أو قومَ هودٍ ، أو قومَ صالحٍ عَلَيْهِمُ السّلامُ ، وإذا كُنتمْ لَمْ تَتَّعظوا بِمَصارِعِ هؤلاءِ المُهْلَكينَ وما أصابَهُمْ مِنَ العَذابِ ، فاتَّعِظوا بما أصابَ قومَ لوطٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، فهُمْ ليسوا بعيدينَ عنكُمْ لا في الزَّمانِ ولا في المَكانِ .

ثُمَّ إنَّ شُعيباً عَلَيْهِ السّلامُ فَتَحَ لهمْ بابَ الأمَلِ في رَحمةِ اللهِ تَعالى إنْ هُمْ تابوا إليهِ وأنابوا ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ .

واطْلُبوا مِنَ اللهِ تعالى أنْ يَغفِرَ لكُمْ ذُنوبَكُمْ ، ثُمَّ ارْجِعوا إليهِ نادِمينَ مُسْتَغفِرينَ كُلَّما وقَعَ الذَّنْبُ مِنْكُمْ ، إنَّ ربّي كثيرُ الرَّحمةِ ، مُحبٌّ ، كثيرُ الوُدِّ لِمَنْ أطاعَه ، فَيَغفِرُ للتّائبينَ ، ويُحبُّ الأوّابينَ .

ولكنَّ قومَ شُعيبٍ عَلَيْهِ السّلامُ كانوا قدْ بَلَغوا مِنَ الفَسادِ نِهايَتَهُ ، ومِنَ الجَهْلِ أقصاهُ ، فَقدْ رَدّوا عَلى هذهِ النَّصائحِ الغالِيةِ بما يَدُلُّ عَلى سَفاهَتِهِمْ وحَماقَتِهِم ، قالَ تَعالى :

﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ .

قالوا : يا شُعيبُ ما نَعقِلُ كثيراً مِمّا تقولُهُ لنا ، ونؤكِّدُ لكَ أنّنا نَراكَ بَيْنَنا ضَعيفاً ، لا قُدْرَةَ لكَ عَلى الدِّفاعِ ولا عَلى الإقْناعِ ، إنْ أرَدْنا بكَ ما تَكْرَهُ ، ولَوْلا احْتِرامُنا لِعشيرَتِكَ الّتي عَلى دينِنا ومِلَّتِنا ، لَقَتَلْناكَ رَجْماً بالحِجارةِ ولَسْتَ عَلينا بِمُكَرَّمٍ أو مَحبوبٍ أو قَوِيٍّ حتّى نُجِلَّكَ ونَحترِمَكَ ، ونُكْرِمَكَ ، ونَصونَكَ عنِ القَتْلِ بالرَّجْمِ ، لكنّنا لَمْ نَفعلْ ذلِكَ الرَّجْمَ بسببِ وُدِّنا واحْتِرامِنا لِعَشيرَتِكَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ يَنبغي للدَّاعيةِ أنْ لا يأمُرَ بالشيءِ ولا يَفْعَلَهُ ، أو يَنْهي عَنِ الشّيءِ ويَفعلُهُ .

٢ـ عَمَلُ الدّاعي وَوظيفَتُهُ إصْلاحُ النّاسِ وإرْشادُهُمْ إلى الخَيْرِ حسَبَ جُهْدِهِ وطاقَتِهِ .

٣ـ لا يُوَفِّقُ لِعَملِ الخَيْرِ إلاّ اللهُ تَعالى .

٤ـ عَلى الإنْسانِ أنْ يَعتبرَ بِمصارِعِ المُهْلَكينَ قَبْلَهُ .

٥ـ الاسْتِغْفارُ إلى اللهِ تَعالى والتَّوْبَةُ والإنابةُ إليهِ هيَ طريقُ مَحبَّتِهِ سُبْحانَهُ .

٦ـ الكافِرُ يعتزُّ بقومِهِ دونَ ربِّهِ ، ويَخافُ القُوَّةَ الأرضيَّةَ ، وينَسى القُوَّةَ الإلهيَّةَ .

التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

وما أُريدُ أنْ أُخالِفَكُمْ إلى ما أنْهاكُمْ عَنهُ ، لا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقاقي ، رَهْطُكَ .

٢ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ حِلْمَ شُعيْبٍ عَلَيْهِ السّلامُ على قَوْمِهِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٣ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمةُ سَفاهةَ قومِ شُعيْبٍ عَلَيْهِ السّلامُ وجَهْلَهُمْ ، وضِّحْ ذلكَ .

٤ـ بيِّنْ قيمةَ العَشيرةِ عندَ الكافِرينَ .

٥ـ الاسْتِغفارُ والتّوْبَةُ بابُ الأَمَلِ إلى رَحمةِ اللهِ تَعالى ، وضِّحْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ العَذابَ الّذي أصابَ كلاًّ مِنْ : قومِ هودٍ ، وقومِ لوطٍ ، بالتَّرتيبِ .

* * *

الدَّرسُ الأربعونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الثّامِنَ عَشَرَ

قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا شُعَيۡبٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّمَدۡيَنَ كَمَا بَعِدَتۡ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

مَعاني المُفْرَداتِ :

ظِهْرِيّا : وراءَ ظُهورِكُمْ مِمّا لا يُتَلَفَّتُ إليهِ .

اعْمَلوا على مَكانَتِكُمْ : ابْذُلوا ما في وُسْعِكُمْ

ارْتَقِبوا : انتَظِروا .

جاثِمينَ : هامِدينَ ، مَيِّتينَ .

بَعِدَتْ : هَلَكَتْ .

التَّفسيرُ :

بَعْدَ ذلِكَ التلطُّفِ الّذي كانَ مِنْ شُعيبٍ عَلَيْهِ السّلامُ وهو يَرُدُّ على سَفاهةِ قومِهِ ، نَجدُهُ قد انْتَقلَ في نِهايةِ القِصّةِ مِنَ اللّينِ إلى الشِّدّةِ ، ومِنَ التَّلَطُّفِ إلى الإنْكارِ دِفاعاً عَنْ جلالِ اللهِ تَعالى ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ .

قالَ شعيبٌ عَلَيْهِ السّلامُ لقومِهِ مُنْكِراً عَلَيْهِم ما جاءوا بِهِ : يا قوم ، أرْهْطي وعَشيرَتي الأقْرَبونَ ، الّذينَ مِنْ أجلِهِمْ لمْ ترجُموني ، أعزُّ وأكرمُ عِنْدَكُمْ مِنَ اللهِ تَعالى ، الّذي هو خالِقُكُمْ ورازِقُكُمْ ومُحْييكُمْ ومُميتُكُمْ ؟ ومعَ هذا جَعلْتُمْ أوامِرَهَ ونَواهيهِ الّتي جِئتُكُمْ بها مِن لَدُنْهُ سُبْحانَهُ كالشّيءِ المَنبوذِ المُهْمَلِ المُلْقى مِنْ وراءِ الظّهْرِ بسببِ كُفرِكُمْ ، وطُغيانِكُمْ ، إنّ ربّي تَعالى قدْ أحاطَ عِلْمُهُ بأقوالِكُمْ وأعْمالِكُمُ السيّئةِ ، وسُيجازيكُمْ عليْها بِما تَستحقّونَهُ مِنْ عذابٍ مُهينٍ .

ثُمَّ زادَ شعيبٌ عَلَيْهِ السّلامُ في تَوْبيخِهِمْ وتَهديدِهِمْ فقالَ تعالى :

﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ .

قالَ لهمْ شعيبٌ عَلَيْهِ السّلامُ أيضاً : ويا قوم ، اعْمَلوا ما أنتُمْ قادِرونَ عليهِ ، وما تَستطيعونَ عَمَلَهُ إنْ لمْ تَسْمَعوا نُصْحي ، وإنّي مُثابِرٌ عَلى العَمَلِ بما يُخالِفُ عَمَلَكُمْ ، وسوفَ تَعلَمون مَنْ مِنّا الّذي يأتيهِ عَذابٌ يَفضَحُهُ ويُذِلُّهُ ، ومَنْ مِنّا الّذي هُوَ كاذِبٌ ، أأنا الّذي أُنذرُكُمْ بالعذابِ ، أمْ أنتُمُ الّذينَ أنْذَرتُموني بالإخْراجِ مِنَ القَريةِ . وانتَظِروا ماذا سَيحْصُلُ ، إنّي مَعكُمْ مَنتَظِرٌ . ولمْ يَطُلِ انْتِظارُ شعيبِ عليهِ السّلامُ ومُراقَبَتُهُ لِما يَحدُثُ لِقومِهِ ، بلْ جاءَ عِقابُ اللهِ تَعالى لهُمْ بِسُرْعَةٍ وحَسْمٍ ، بَعْدَ أنْ لجّوا في طُغيانِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴾ .

ولمّا وقَعَ أمْرُنا بِهلاكِهِمْ وعَذابِهِمْ ، نَجّينا شُعيباً عَلَيْهِ السّلامُ والّذينَ مَعهُ مِنَ العَذابِ والهَلاكِ ، وكانتْ نَجاتُهُمْ بِسَببِ رَحمةٍ مِنَ اللهِ تَعالى لهُمْ ، وأخَذَتِ الظّالِمينَ مِنْ أهلِ مَدْينَ الصَّيْحةُ والرَّجْفَةُ المُهْلِكَةُ ، فأصْبَحوا في دِيارِهِمْ هامِدينَ راقِدينَ عَلى وُجوهِهِمْ لا حَراكَ بِهِمْ ، قالَ تَعالى :

﴿ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ .

وانتُهى أمْرُهُمْ ، وزالت آثارُهُمْ ، كأنَّهُمْ لم يُقيموا في ديارِهِمْ ، ونَطَقَ حالُهُمْ بما يَجبُ أنْ يَتَنبَّهَ لهُ ويعتبرَ بِهِ كلُّ عاقِلٍ ، ألا هَلاكاً لِمَدْينَ ، وبُعْداً لها مِنْ رحمةِ اللهِ تَعالى كما بَعِدَتْ ثمودُ مِنْ قَبْلِهِمْ .

وهكذا طُوِيَتْ صَفْحَةٌ أُخْرى مِنْ صَفَحاتِ الظُّلْمِ والظّالِمينَ ، وهُمْ قومُ شعيبٍ عَلَيْهِ السّلامُ ، كما طُوِيَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ صَفحاتُ قومِ نوحٍ وهودٍ وصالِحٍ ولوطٍ ، عَلَيْهِم جَميعاً سلامُ اللهِ تَعالى وصَلاتُهُ .

دروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ إذا أرادَ الدّاعي أنْ يَنْجَحَ في دَعوتِهِ ، فَعَليهِ أنْ يُنَوِّعَ خِطابَهُ لِلمَدْعوّينَ ، ويكونَ غَيوراً عَلى دينِ اللهِ تَعالى .

٢ـ ثِقَةُ الدّاعيةِ بربِّهِ تُحَتِّمُ عليهِ تَحذيرَ النّاسِ عذابَ اللهِ تَعالى ، وتُحَتِّمُ عَلَيْهِ الاسْتِمْرارَ في دَعوتِهِ .

٣ـ وَعْدُ اللهِ تَعالى نافِذٌ بِنَجاةِ المُؤْمِنينَ ، وإهْلاكِ الكَافِرينَ كيْ يُصبِحوا حديثاً لِمَنْ خَلْفَهُمْ .

التَّقويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

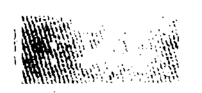
ظِهْرِيّا ، اعْمَلوا عَلى مَكانَتِكُمْ ، ارْتَقِبوا ، جاثِمينَ ، بَعِدَتْ .

٢ـ دلَّتِ الآياتُ الكَريمةُ عَلى أنَّ شُعيباً عَلَيْهِ السّلامُ كانَ يُنَوِّعُ في أُسلوبِ دَعوتِهِ ، بيِّنْ ذلكَ .

٣ـ بَيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ سُنّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى الّتي لا تَتخلَّفُ ، وضِّحْها .

٤ـ بيِّنْ نوْعَ العذابِ الّذي هَلَكَ بهِ قومُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السّلامُ .

٥ـ ما مَوقعُ شُعَيْبٍ عَلَيْهِ السّلامُ في الأُمَمِ الماضِيَةِ ؟



ـ املأ الجَدْولَ التّالي بما يُناسِبُ مِمّا جاءَ في آياتِ السُّورةِ ، وعلِّقْهُ على مجلّةِ الحائطِ في مَدرسَتِكَ .

الرقم	اسمُ النبيِّ	اسمُ القومِ الَّذينَ أُرْسِلَ إليْهِمْ	الفِعْلُ الّذي كانوا يَفعلونَهُ	نوعُ العذابَ الّذي حلَّ بِهِمْ .
١	نوحٌ عَلَيْهِ السّلامُ			
٢	هودٌ عَلَيْهِ السّلامُ			
٣	صالحٌ عَلَيْهِ السّلامُ			
٤	لوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ			
٥	شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلامُ			

* * *

الدَّرسُ الحادي والأربعون

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ التّاسعَ عشَرَ

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾

معاني المفردات :

سلطانٍ مُبينٍ	: حُجّةٍ واضحةٍ .
يَقْدُمُ قومَهُ	: يَتقدَّمُهُمْ إلى جهنَّم .
فأوْرَدَهُمُ النارَ	: دَخلَها وأدْخَلَهُمْ معهُ .
بِئْسَ الوِرْدُ المَورودُ	: بِئْسَ ما حلَّ بهمْ مِنْ عذابٍ في النّارِ ، بِئْسَ المَدْخَلُ الّذي دَخلوهُ يومَ القيامةِ .
بِئْسَ الرِّفْدُ المَرفودُ	: بِئْسَ العطاءُ المُعْطَى لَهُمْ ، وهيَ اللَّعنةُ والطَّرْدُ مِنْ رَحْمةِ اللهِ .
قائمٌ	: ما زالَ باقياً .
حصيدٌ	: انتُهى وصارَ عِبْرَةً في التّاريخِ وليسَ لهُ أثَرٌ .
تَتْبيبٍ	: خُسْرانٍ وهَلاكٍ .

التفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْضاً مِنْ قَصصِ الأنْبياءِ مَعَ أقْوامِهِمْ ، ذَكَرَ لنا نَموذَجاً جديداً مِنْ أنماطِ

النّاسِ وسُلوكيّاتِهِمْ مَعَ أنْبيائِهِمْ ، ولكنَّهُ نَموذجُ مَنْ عَطَّلَ عَقْلَهُ ومَشى مَعَ هوى غيرِهِ ، إنَّهم قومُ فرعونَ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾

ولقدْ أرْسَلْنا موسى عليهِ السّلامُ مؤيَّداً بِمُعجزاتِنا الدّالّةِ عَلى صِدْقِهِ ، وبالبُرْهانِ المُبينِ ذي السُّلْطانِ القاهِرِ عَلى النُّفوسِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى جِهَةَ إرْسالِ موسى عَلَيْهِ السَّلامُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾

أرْسَلْنا موسى عَلَيْهِ السّلامُ إلى فِرعونَ وكبارِ رِجالِهِ الّذينَ اتَّبَعوا أمْرَهُ في كلِّ ما قرَّرَهُ مِنْ كُفْرٍ ، وفي كلِّ ما أشارَ إليْهِمْ بِهِ مِنْ فسادٍ ، وما شأْنُ فرعونَ وأمْرُهُ بذَي رُشْدٍ وهُدىً ، بلْ هُوَ مَحْضُ الغَيِّ والضَّلالِ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمَةِ تَجهيلٌ لَهُمْ ، حيثُ شايَعوهُ على أمْرِهِ ، وهو ضَلالٌ مُبينٌ ، لا يَخْفى على مَنْ فيهِ أدْنى مِسْكَةٍ مِنَ العَقْلِ ، وذلكَ أنَّهُ ادَّعى الأُلوهِيَّةَ وهو بَشَرٌ مِثْلُهُمْ ، وجاهَرَ بالظُّلْمِ والشَّرِّ ، الّذي لا يأْتي إلاّ مِنْ شَيطانٍ ماردٍ ، فاتّبعوهُ ، وسَلَّموا لهُ دَعْواهُ ، وتَتابَعوا على طاعَتِهِ ، وكانَ الواجبُ عَلَيْهِم أنْ يَنبُذوهُ ويُهْمِلوهُ ، بَدَلَ أنْ يُطيعوهُ ويتّبعوهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى بَعْدَ ذلِكَ سوءَ مَصير فِرْعَوْنَ ومَصيرَ أتْباعِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾

يَتقدَّمُ فرعونُ قومَهُ يومَ القيامةِ إلى جهنَّمَ ، فيقودُهُمْ إليْها ، كما كانَ يَتقدَّمُهُمْ ويَقودُهُمْ في الدُّنْيا بالكُفْرِ والطُّغيانِ ، وهُمْ جَميعاً سَيَصْلَوْنَ جهنَّمَ ، ويَتجرَّعونَ غُصَصَ عَذابِها وأهْوالِهِ ، وما أقْبَحَ هذا المَدْخَلَ الّذي يَدْخلونَهُ وهذا المَوْرِدَ الّذي يَشْربونَ منهُ ماءً حَميماً ليُطْفِيءَ ظَمأَهُمْ فيُقَطِّعَ أمْعاءَهُمْ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنّهم مَلعونونَ في الدّاريْنِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴾ .

وهُمْ في هذهِ الدُّنْيا قَدْ لَحِقَتْ بهمُ اللّعنةُ والفَضيحةُ ، وكذلكَ تَتبعُهُمْ يومَ القيامةِ لأنَّها عطاؤُهُمْ ، وإنّهُ لَعطاءٌ قبيحٌ يُثيرُ الشُّعورَ بالذَّنْبِ ، ويُقالَ فيهِ : بِئْسَ العَطاءُ المُعْطَى لِهؤلاءِ الأشْرارِ .

ثُمَّ يَجيءُ بَعْدَ هذهِ النّهايةِ هذا التَّعقيبُ ، وهوُ الأوّلُ على هذِهِ القَصصِ كلِّها ، فقالَ تَعالى :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴾ .

ذلكَ الّذي قَصَصناهُ عليكَ أيُّها الرَّسولُ ﷺ في هذهِ السّورةِ الكَريمةِ هو جزءٌ مِنْ أنباءِ القُرى

المُهْلَكةِ ، ونحنُ نَقصُّهُ عليكَ في هذا القُرآنِ عنْ طريقِ وَحْينا الصّادِقِ لِيَعْتَبرَ بهِ النّاسُ ، ويَعلَموا أنَّ هذا القُرآنَ المُشتَمِلَ عَلى هذا القَصصِ الّذي لا عِلْمَ لَهُمْ بِهِ ، إنّما هُوَ مِنْ عندِ اللهِ تَعالى ، وهذهِ القُرى المَقْصوصُ عليكَ خبَرُها أيُّها الرّسولُ ﷺ ، منها ما آثارُها ما زالتْ قائمةً يَراها النّاظرُ إليْها ؛ منها آثارُ قومِ ثمودَ والفَراعنةِ وغيرِهِمْ ، ومنها ما آثارُها عَفَتْ واندَرَسَتْ وزالتْ ، وصارتْ كالزَّرْعِ المَحصودِ الّذي اسْتؤْصِلَ بقَطْعِهِ ، فلم تَبْقَ منهُ باقيةٌ كديارِ قومِ نوحٍ عَلَيْهِ السّلامُ وقومِ هودٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنّهُ ما أهْلَكَ هذِهِ القُرى ولا أخَذَها بِظُلْمٍ منهُ ، ولكنْ بِظُلمٍ مِنَ النّاسِ أنْفُسِهِمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ .

وما ظَلمناهُمْ بإهلاكِهِمْ ، ولكنْ ظَلَموا أنْفُسَهُمْ بالكُفْرِ وعبادةِ غَيْرِ اللهِ تَعالى والفَسادِ في الأرْضِ ، فما اسْتَطاعتْ أنْ تَرُدَّ عنهُمُ الهَلاكَ آلِهتُهُمُ الّتي كانوا يَعبدونَها مِنْ دونِ اللهِ تعالى ، ولا نَفعَتْهُمْ بشيءٍ لَمّا جاءَ أمْرُ ربِّكَ أيُّها النَّبيُّ ﷺ ، وما زادَهُمْ إصْرارُهُمْ عَلى عبادةِ الأوثانِ إلاّ الهَلاكَ والضَّياعَ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ كلُّ رسولٍ أُرْسِلَ مَعَهُ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ .

٢ـ إنّ مِنْ جَهْلِ النّاسِ أنْ يَتّبعوا سادَتَهُمُ الظّالِمينَ دونَ تدبُّرٍ أو تَفكيرٍ .

٣ـ ضرورةُ أخْذِ العِبرةِ مِنْ أحوالِ الأُممِ الماضِيَةِ ، فإنَّ مَنْ يَظلِمُ تَعودُ عاقبةُ ظُلْمِهِ عَلى نَفْسِهِ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

سلطانٍ مُبينٍ ، يَقْدُمُ قَوْمَهُ ، أوْرَدَهُمُ النّارَ ، بِئْسَ الوِرْدُ المَوْرودُ ، بِئْسَ الرِّفْدُ المَرْفودُ ، قائِمٌ ، حَصيدٌ ، تَتْبيبٍ .

٢ـ ماذا كانَ مِنْ أمْرِ مَلأ فِرْعَونَ عِنْدَما جاءَهُم موسى عَلَيْهِ السّلامُ ؟
٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ عاقِبَةَ الظُّلْمِ عَلى أهْلِهِ ، وضِّحْ ذلِكَ .
٤ـ ما قيمةُ الآلِهةِ المَزْعومةِ وأثَرُها عِنْدما يَجيءُ أمْرُ اللهِ تَعالى ؟

نَشاطٌ :

١ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيتيْنِ اللّتيْنِ أيَّدَ اللهُ بِهما موسى عَلَيْهِ السّلامُ .
٢ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ العَذابَ الّذي أهْلَكَ اللهُ تَعالى بِهِ فِرْعونَ وقومَهُ في الدُّنْيا .

* * *

الدَّرسُ الثّاني والأربعونَ

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ العِشْرونَ

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾

معاني المفردات :

أخْذُ ربِّكَ : عِقابُهُ السَّريعُ الّذي لا يُرَدُّ .

زفيرٌ : إخْراجُ النَّفَسِ مِنَ الصَّدْرِ مَعَ المَشقَّةِ النّاشئَةِ مِنَ العَذابِ .

شَهيقٌ : إدْخالُ النَّفَسِ إلى الصَّدْرِ مَعَ المَشقَّةِ النّاشئَةِ مِنَ العَذابِ .

سُعِدوا : حلَّتْ علَيْهِمُ السَّعادةُ .

غيرَ مَجذوذٍ : غيرَ مَقطوعٍ .

التّفسيرُ :

بَعْدَ أنْ بيَّنَ اللهُ تَعالى لَنا ما جَرى لِفرعونَ وَملَئِهِ ، وأنَّهُ سُبْحانَهُ جَعَلَهُ هو ومَنْ هَلَكَ مِنَ الأُمَمِ عبْرَةً يَعْتَبرُ بها أصحابُ العُقولِ ، بيَّنَ اللهُ تَعالى سُنَّتَهُ في أخْذِ الظّالِمينَ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾

ومِثْلُ هذا الأَخْذِ الشّديدِ ، الّذي أخَذَ ربُّكَ أيُّها النّبيُّ ﷺ قومَ نوحٍ وعادٍ وثمودَ وغَيْرَهُمْ ، يأخذُ اللهُ إذا شاءَ أَهْلَ القُرى الّذينَ ظَلَموا بالكُفْرِ والفَسادِ ، إنَّ أخْذَ اللهِ تَعالى وعقابَهُ قويٌّ وشديدٌ وُمؤلِمٌ عَلى الظّالِمينَ .

روى البُخاريُّ أنَّ رسولَ ﷺ قالَ : « إنّ اللهَ لَيُمْلي للظّالِمِ حتّى إذا أخَذَه لَمْ يُفْلِتْهُ » .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنّ ما ساقَهُ في هذا القرآنِ الكَريمِ عنْ أحوالِ السّابِقينَ المُهْلَكينَ ، فيهِ العِبْرَةُ لِمَنِ اعْتَبَرَ ، وفيهِ العِظَةُ لِمنْ خافَ عذابَ الآخِرَةِ ، ذلكَ اليومِ الّذي يَنقسِمُ الناسُ فيهِ إلى شَقيٍّ وسَعيدٍ ، فَقال سُبْحانَهُ :

﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

إنّ في ذلكَ القَصصِ الّذي قَصصناهُ عليكَ يا مُحمّدُ ﷺ والمُشْتملِ عَلى بيانِ سُنّةِ اللهِ تَعالى الّتي لا تَتخلّفُ في إهْلاكِ الظّالِمينَ ، لَعبرةً وعِظَةً بليغةً وحُجّةً واضِحةً ، لِمَنْ خافَ عذابَ الآخِرَةِ . وهذا العذابُ يكونُ في يوم تَجتمِعُ فيهِ الخَلائِقُ بينَ يدي اللهِ تَعالى ، وهو يومٌ يَشْهَدُهُ المَلائِكةُ والنّاسُ أجْمَعونَ ، وهو لا شكَّ أشدُّ عذاباً وأكثرُ خِزْياً لِمَنْ كفَرَ باللهِ ولم يَتّبِعْ رُسُلَهُ ، والعاقِلُ هوَ المُنتفِعُ بالعِبَرِ والعِظاتِ ، لِصِدْقِ إيمانِهِ وصفاءِ نَفْسهِ ، وإيقانِهِ بأنَّ هناكَ في الآخِرَةِ ثواباً وعِقاباً ، وحِساباً عَلى الأعمالِ الدُّنيويّةِ ، أمّا الّذي يُنْكِرُ الآخِرَةَ وما فيها مِنْ ثوابٍ وعِقابٍ ، فإنّهُ لا يَعتبرُ بما أصابَ الظّالِمينَ مِنْ عذابٍ دُنيويٍّ دَمَّرَهُمْ تَدميراً ، بل يَنْسبُ ذلِكَ إلى أسبابٍ طبيعيّةٍ أو فَلَكيّةٍ ، لا علاقةَ لها بكُفْرِهِمْ وظُلْمِهِمْ وطُغيانِهِمْ ، ولأنَّ الخائِفَ مِنْ عذابِ الآخِرَةِ عندما يَرى ما حلَّ بالمُجْرمينَ في الدُّنْيا مِنْ عِقابٍ يَزدادُ إيماناً مَعَ إيمانِهِ وتَصديقاً عَلى تَصْديقهِ ، بأنَّ اللهَ تَعالى قادِرٌ عَلى أنْ يُعذِّبَهُمْ في الآخِرَةِ عذاباً أشدَّ وأبْقى مِنْ عذابِ الدُّنْيا .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ عذابَ الآخِرَةِ آتٍ لا رَيْبَ فيهِ ، ذلِكَ اليومَ ؛ يَوْمَ يُجْمَعُ النّاسُ لأجْلِ مُحاسَبَتِهِمْ ، ومُجازاتِهِمْ عَلى أعمالِهِمْ ، ويَشْهَدُهُ جميعُ الخَلائِقِ الّذينَ يُؤْمَرونَ بِشُهودِهِ دونَ أنْ يَغيبَ منهمْ أحَدٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ تَأْخيرَ هذا اليومِ إنّما هُوَ لأمَدٍ مَحدودٍ لا يَتجاوَزُهُ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ .

إنّنا لا نُؤَخِّرُ هذا اليومَ إلاّ لوقتٍ مَحدودٍ مَعلوم لنا ، فإذا ما جاءَ مَوْعِدُ هذا الوَقتِ حَلّ هذا اليومُ الهائِلُ الشّديدُ ، وهو يومُ القيامةِ ، الّذي اقْتَضَتْ حِكْمَتُنا عَدَمَ إطلاعِ أحَدٍ عَلى مَوْعِدِهِ .

ثُمَّ ذَكَرَ اللهُ تَعالى جانِباً مِنْ أهوالِ يَوْمِ القِيامةِ ومِنْ أحوالِ النّاسِ فيه ، قالَ تَعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ ﴾ .

حينَ يَأْتي هذا اليومُ وهو يومُ القيامةِ بما فيهِ مِنْ أهوالٍ ، لا يَستطيعُ أحَدٌ أنْ يَتكلَّمَ إلاّ بإذنِ اللهِ تَعالى ، فَمِنَ النّاسِ شَقيٌّ بما يُعاني مِنْ ألوانِ الشّدَّةِ وهو الكافِرُ ، ومِنهُمْ سعيدٌ بما يَنتظرُهُ مِنْ نعيمِ الآخِرَةِ ، وهو المُؤْمِنُ .

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾ .

فأمّا الَّذينَ كانَ نَصيبُهُمُ الشقاءَ في الآخِرَةِ بسببِ كُفْرِهِمْ واقْتِرافِهِمُ المَعاصي في الدُّنْيا ، فَمَصيرُهُمُ الاستقرارُ في النّارِ ، لهمْ فيها شَهيقُ الأنْفاسِ وَحَرَجُ الصُّدورِ وشِدَّةُ الكُروبِ ، ما يَجعلُهُمْ يُفضِّلونَ المَوْتَ عَلى ما هُمْ فيهِ ولكنْ لا موتَ ، إنّهُ العذابُ خالدينَ فيهِ ، قالَ تَعالى :

﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ .

هؤلاءِ الأشقياءُ سَيبقوْنَ خالدينَ في النّارِ ، ما دامتِ السّمواتُ والأرْضُ ، لا يَخْرُجونَ مِنها إلاّ في الوَقْتِ الّذي يشاءُ اللهُ تَعالى إخراجَهُمْ فيهِ ، لِيُعذِّبَهُمْ بنوعٍ آخَرَ مِنَ العَذابِ ، وإنَّ ربَّكَ أيُّها النَّبيُّ ﷺ فعّالٌ لِما يريدُ فِعْلَهُ لا يَمنعُهُ أحدٌ عنهُ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى حُسْنَ عاقبةِ السُّعداءِ ، قالَ سُبْحانَهُ :

﴿ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾ .

وأمّا الَّذينَ رَزَقَهُمُ اللهُ تَعالى السَّعادةَ فآمَنوا باللهِ واتَّبَعوا رُسُلَهُ فَسوفَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ، خالِدينَ فيها مِنْ أوّلِ لَحظةٍ ، بَعْدَ انتهاءِ مَوْقِفِ الحِساب إلى ما لا نِهايةَ ، إلاّ الفَريقُ الّذي يَشاءُ اللهُ تَعالى تأخيرَهُ عَنْ دُخولِ الجَنّةِ مَعَ السّابِقينَ ، وهُمْ عُصاةُ المُؤْمِنينَ الَّذينَ يَتأخَّرونَ في النّارِ بمقدارِ تَوقيعِ الجَزاءِ عَلَيْهِمْ ، ثُمَّ يَخرجونَ مِنها إلى الجَنّةِ ، ويُعطي ربُّكَ هؤلاءِ السُّعداءَ في الجَنّةِ عطاءً عظيماً مُسْتَديماً غيرَ مَنقوصٍ ولا مَقطوعٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لَنْ يَفلِتَ الظّالِمُ مِنْ عقابِ اللهِ تَعالى ، فما وَقَعَ عَلى القُرى الظّالِمَةِ مِنْ عذابٍ شَديدٍ كانَ بِسَببِ ظُلْمِهِمْ وكُفْرِهِمْ .

٢ـ المُؤْمِنونَ باللهِ واليومِ الآخِرِ هُمُ الَّذينَ يَعتبِرونَ ويَتَّعِظونَ بِمَنْ كانَ قَبْلَهُمْ .

٣ـ يومُ القيامةِ آتٍ لا مَحالةَ مَهما طالَ الزَّمنُ .

٤ـ الشَّقيُّ مَنْ شَقِيَ في آخِرَتِهِ ، والسَّعيدُ مَنْ سَعِدَ فيها .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتَّراكيبِ التّاليةِ :

أخْذُ ربِّكَ ، زفيرٌ ، شَهيقٌ ، سُعِدوا ، غَيرَ مَجْذوذٍ .

٢ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ المُنْتَفِعينَ بالعِبَرِ والآياتِ هُمْ فريقٌ مِنَ النّاسِ ، بيِّنْ هذا الفَريقَ .

٣ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ سُنّةً مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى . وضِّحْ هذهِ السُّنَّةَ .

٤ـ بيَّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أقْسامَ النّاسِ يومَ القيامةِ . وضِّحْ ذلكَ مُبيِّناً ما أُعِدَّ لِكُلِّ قِسْمٍ .

نَشاطٌ :

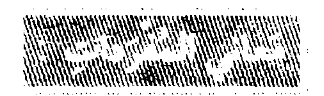
ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيةَ مِنْ سورةِ البَيِّنةِ الّتي تُؤكِّدُ المَعْنى الوارِدَ في الآيةِ (١٠٧) مِنْ هذهِ السّورةِ .

* * *

الدرس الثالث والأربعون

سورةُ هودٍ ـ القِسْمُ الحادي والعِشْرونَ

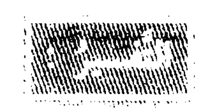
فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾



مِرْيَةٍ : شَكٍّ .

ولا تَرْكَنوا إلى الَّذينَ ظَلَموا : لا تَميلوا إليْهِمْ وتَعتمِدوا عَلَيْهِمْ .

زُلَفاً مِنَ اللَّيلِ : طائفةً مِنْ أوَّلِهِ .



بَعْدَ أنْ فَصّلتِ الآياتُ السّابِقةُ أحْوالَ السُّعداءِ وأحْوالَ الأشْقياءِ تَفصيلاً يَدْعو العُقَلاءَ إلى أنْ يَسْلُكوا طريقَ السُّعداءِ ، وأنْ يَتجَنَّبوا طريقَ الأشْقياءِ ، بَعْدَ ذلِكَ ساقتِ الآياتُ الكَريمَةُ ما فيهِ تَسليةٌ للنَّبيِّ ﷺ عمّا أصابَهُ مِنْ أذى قَوْمِهِ ، وما فيهِ تَثبيتٌ لِقلوبِ المُؤْمِنينَ ، وما فيهِ إرْشادٌ لهمْ إلى ما يُقرِّبُهُمْ مِنَ الخَيْرِ ويُبعدُهُمْ عنِ الشَّرِّ ، قالَ تَعالى :

﴿ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُم مِّن قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴾

لقدْ قَصَصنا عَلَيْكَ أيُّها الرَّسولُ الكَريمُ ﷺ الكثيرَ مِنْ أخبارِ السّابِقينَ ، وبيَّنّا لكَ مَصيرَ السُّعداءِ والأشْقياءِ ، وما دامَ الأمْرُ كذلك ، فلا تَكُ في شَكٍّ واضْطِرابٍ مِنْ أنَّ عبادةَ هؤلاءِ المُشركينَ لأصْنامِهِمْ إنّما هِيَ تَقليدٌ لِما كانَ يَعبدُهُ آباؤُهُمْ مِنْ قبلُ ، وهذهِ العِبادةُ لِغيرِ اللهِ تَعالى سَتؤدّي بالجَميعِ إلى سوءِ العَاقِبَةِ ، وإلى العذابِ الأليمِ ، وليسَ ذلِكَ العذابُ بناقصٍ شيئاً فكلٌّ سيأخذُ حقَّهُ مِنَ العَذابِ كامِلاً ، فاللهُ تَعالى سَيوفِّيهِمْ نَصيبَهُمْ دونَ نَقْصٍ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ اخْتِلافَ النّاسِ في الحَقِّ مَوجودٌ قبلَ بِعثةِ النَّبيِّ ﷺ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾

ونُؤكِّدُ لكَ أيُّها الرَّسولُ أنّنا أعْطَيْنا موسى عليهِ السّلامُ التَّوراةَ ، فاخْتَلَفَ قومُهُ في تَفْسيرِها ومَعناها ، حَسَبَ أهوائِهِمْ وشَهَواتِهِم ، كلٌّ يُريدُ إخْضاعَها لِشَهواتِهِ ، فَتفرَّقوا شِيَعاً وأحْزاباً ، وابْتَعَدَ كثيرٌ مِنْهُمْ عنِ الحَقِّ الّذي جاءَهُم بهِ رسولُهُمْ ، ولولا وعْدُ اللهِ تَعالى سابقٌ بتأخيرِ عَذابِهِمْ إلى يوم القيامةِ ، لحلَّ بِهِمْ في دُنياهُمْ قضاءُ اللهِ تَعالى وحُكْمُهُ بإهْلاكِ المُبْطِلينَ ونَجاةِ المُحقِّينَ ، كما حلَّ بغيرِهِمْ مِنَ الأُمَمِ الَّذينَ اخْتَلفوا في كُتبِهِمْ مِمّا حَمَلَهُمْ عَلى تَحريفِها وتَبْديلِها ، فأصْبَحوا بَعْدَ ذلِكَ في شَكٍّ وحَيْرةٍ واضْطِرابٍ وبُعْدٍ عَنِ الحَقِّ ، وكذلكَ مِنْ كُفّارِ قَوْمِكَ لا يَدْرونَ أحقٌّ هذا القرآنُ أم باطِلٌ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى مَصيرَ هؤلاءِ الشّاكّينَ المُكَذِّبينَ ، قال تَعالى :

﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

إنَّ كُلَّ فريقٍ مِنْ هَؤلاءِ سَيُوفِّيهِمْ ربُّكَ تَعالى حتْماً جزاءَ أعمالِهِمْ ، إنَّهُ سُبْحانَهُ خَبيرٌ بِهِمْ مُحيطٌ بدقائِقِ ما يَعملونَ مِنْ خيْرٍ أو شَرٍّ ، ويُجازي كلاًّ مِنْهُم حَسَبَ عَمَلِهِ .

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ تَعالى رَسولَهُ ﷺ وأتْباعَهُ بالتِزامِ الصِّراطِ المُستقيمِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وإذا كانَ هذا هُوَ حالُ الأُمَمِ الّتي جاءَها كتابٌ مِنَ اللهِ تَعالى فاخْتلفَتْ فيهِ ، وخَرَجتْ عَلَيْهِ ، فداوِمْ أنتَ ومَنْ مَعَكَ مِنَ المُؤْمِنينَ على التزامِ الطّريقِ المُستقيمِ ، كما أَمَرَكَ اللهُ تَعالى ، ولا تَجاوَزوا حُدودَ الاعْتِدالِ بتقصيرٍ أوْ إهْمالٍ أوْ مُغالاةٍ في تكليفِ أنْفُسِكُمْ ما لا تُطيقونَ ، إنَّهُ

سُبْحانَهُ مُحيطٌ عِلْمُهُ بكلِّ ما تَعملونَ ، ومُطَّلِعٌ عَلَيْكُمْ ثُمَّ يُجازيكُمْ بما تَستحقّونَ .

ثُمَّ نَهى اللهُ سُبْحانَهُ وتَعالى بَعْدَ ذلِكَ عَنِ المَيْلِ إلى الظّالِمينَ ، قالَ تَعالى :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ .

ولا تَميلوا أدْنى مَيْلٍ إلى أعداءِ اللهِ تَعالى وأعدائِكُمُ الَّذينَ ظَلَموا أَنْفُسَهُمْ وتَجاوزوا حُدودَ اللهِ تَعالى ، واعْتَدَوْا عَلى الآخَرينَ مِنْ عِبادِهِ سُبْحانَهُ ، ولا تُعوِّلوا عَلَيْهِم أو تَستحسنوا طَريقَهُمْ ، فَتَستحقّوا بِسَببِ هذا المَيْلِ عذابَ النّارِ ، ثُمَّ لا تَجِدوا أحداً يَدْفَعُهُ عنكُمْ ، ثُمَّ تكونُ عاقِبَتُكُم أنَّكُمْ لا تُنْصَرونَ عَلى أعْدائِكُمْ بِخُذْلانِ اللهِ تَعالى لكُمْ ، ولِرُكونِكُمْ إلى عَدوِّهِ .

﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ .

وأدِّ الصَّلاةَ أَيُّها النَّبيُّ ﷺ على أكْمَلِ وَجْهٍ في طَرفي النَّهارِ ، وفي أوقاتٍ مُتفرِّقَةٍ مِنَ الليلِ ، فإنَّها تُطهِّرُ النّفوسَ ، فَتَتغلَّبُ عَلى نَزْعَةِ الشّرِ ، وتَمحو آثارَ السَّيئاتِ الّتي قَلَّما يَخْلو مِنْها بَشَرٌ ، ذلِكَ الّذي أُمِرْتَ بهِ أَيُّها النَّبيُّ ﷺ مِنَ الإرْشادِ إلى الخَيْرِ عِظَةٌ يَنتَفعُ بِها المُستعدّونَ لِقَبولِها ، الَّذينَ يَذكُرونَ ربَّهم تَعالى ولا يَنْسَوْنَهُ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذهِ التَّوجيهاتِ الحَكيمةَ بقولِهِ سُبْحانَهُ :

﴿ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ .

واصْبِرْ أيُّها النَّبيُّ ﷺ أنتَ ومَنْ مَعَكَ مِنَ المُؤْمِنينَ على مشاقِّ التَّكاليفِ الّتي كَلَّفكُمُ اللهُ تَعالى بِها ، فإنَّهُ سُبْحانَهُ لا يُضيعُ أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عَمَلاً ، بلْ إنَّهُ سُبحانَهُ مُوَفّي الصّابِرينَ أجْرَهُمْ بِغيرِ حسابٍ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ الصِّراعُ بينَ الحَقِّ والباطِلِ مُسْتَمِرٌّ ما دامَ عَلى وجْهِ الأرْضِ إنْسانٌ .

٢ـ مِنْ قَضاءِ اللهِ تَعالى إمْهالُ الظّالِمينَ والكافِرينَ إلى يوم القِيامةِ .

٣ـ كلُّ مَنْ عَمِلَ شيئاً اسْتَوْفى عليهِ ما يَسْتَحِقُّهُ ، ولا يَظْلُمُ ربُّكَ أحداً .

٤ـ عَلى المُسْلِمِ الاسْتِقامةُ عَلى أمْرِ اللهِ تَعالى ، وتَرْكُ الطُّغيانِ .

٥ـ الصَّلاةُ سَبَبٌ في تَهذيبِ النّفوسِ ، والصَّبْرُ طريقٌ إلى رِضوانِ اللهِ تَعالى .

التَّقويمُ :

أَجبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ هاتِ مَعانِيَ المُفْرَداتِ والتّراكيبِ التّاليةِ :

مِرْيَةٍ ، ولا تَرْكَنو إلى الَّذينَ ظَلَموا ، زُلَفاً مِنَ الَّليلِ .

٢ـ بيَّنَت الآياتُ الكَريمَةُ أنَّ الكافِرَ لا يُنْقَصُ مِنْ عذابِهِ شيءٌ . وضِّحْ ذلِكَ .

٣ـ حَثَّتِ الآياتُ الكَريمَةُ عَلى الاسْتقامةِ ، هاتِ الآيَةَ الدّالَّةَ عَلى ذلِكَ .

٤ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ حُرْمَةَ الرُّكونِ إلى الَّذينَ ظَلَموا وبيَّنَتْ عاقِبَتَهُ ، وضِّحْ ذلِكَ .

٥ـ بيَّنَتِ الآياتُ الكَريمَةُ أثَرَ الصّلاةِ في تَهذيبِ النّفوسِ ، وضِّحْ ذلِكَ .

نَشاطٌ :

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيَةَ مِنْ سورةِ البَقَرةِ الّتي تَدعو المُؤْمِنينَ إلى الاسْتعانةِ بالصَّبْرِ والصّلاةِ .

* * *

الدَّرْسُ الرَّابِعُ والأرْبَعونَ

سورَةُ هودٍ ـ القِسْمُ الثّاني والعِشْرونَ

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

أُولوا بَقيَّةٍ : أصحابُ مَناقِبَ حَميدةٍ ، وخِصالٍ كَريمةٍ .

أُتْرِفوا فيهِ : نَعِموا بهِ مِنَ المَلذّاتِ والشَّهَواتِ .

بَعْدَ أنْ سلّى اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ عمّا أصابَهُ مِنْ قومِهِ ، وحثَّهُ وأتْباعَهُ على الاسْتِعانةِ بالصَّبْرِ والصّلاةِ ، خَتَمَ اللهُ تَعالى هذهِ السّورَةَ الكَريمةَ بآياتٍ دالّةٍ على سُنَنِ اللهِ تَعالى في خَلْقِهِ ، وعلى الحِكَمِ الّتي مِنْ أجْلِها ساقَ اللهُ تَعالى تلكَ القَصصِ في كتابِهِ العزيزِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴾ .

كانَ يَجبُ أنْ يكونَ مِنْ تِلكَ الأُممِ السّابقةِ ، الّذينَ أهْلَكناهُمْ بِذُنوبِهِمْ ، جماعةٌ منهمْ لهمُ كلمةٌ مَسْموعةٌ ، وفضلٌ مِنْ دينٍ وعَقْلٍ ، يَنْهَوْنَ غيرَهُمْ عنِ الفسادِ في الأرضِ ، فيَحفظونَهُمْ مِنَ العذابِ الّذي حلَّ بِهِمْ ، لكنَّ الّذي حَدَثَ أنَّهُ كانَ فيهِمْ قليلٌ مِنَ المُؤْمِنينَ لم يُسْمَعْ لَهُمْ رأيٌ ولا تَوجيهٌ ، فأَنْجاهُمُ اللهُ تَعالى مَعَ رُسُلِهِمْ في الوقتِ الّذي أصرَّ فيه الظّالِمونَ المُعانِدونَ عَلى ما تَعوَّدوهُ مِنْ قبلُ مِنْ حياةِ التَّرَفِ والفَسادِ ، فحالَ ذلِكَ بَيْنَهُمْ وبيْنَ الانْتِفاعِ بِدعوةِ الحَقِّ والخَيْرِ ، وكانوا في إيثارِهِمْ لِهذهِ الطَّريقِ غارِقينَ في الذُّنوبِ والسَّيئاتِ ، فأَهْلَكَهُمُ اللهُ تَعالى تَنفيذاً لِسُنَّتِهِ في خَلْقِهِ .

وفي هذهِ الآيةِ الكَريمةِ تَوبيخٌ لأهْلِ مَكَّةَ ، وكلِّ مَنْ تَقاعسَ عنِ الأمْرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عنِ المُنْكَرِ ، لأنَّ اللهَ تَعالى بَيَّنَ أنَّ عذابَ الاسْتِئصالِ الّذي حَلَّ بالظّالِمينَ السّابقينَ كانَ مِنْ أسبابِهِ عدمُ نَهْيِهِمْ عنِ الفَسادِ في الأرْضِ ، وقدْ وَرَدَ في الحديثِ الشّريفِ : « إنَّ النّاسَ إذا رأوْا المُنْكَرَ فلمْ يُغيِّروهُ ، أَوْشَكَ أنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بعقابِهِ »[1] . ولِهذا أمرَ اللهُ تَعالى هذِهِ الأُمَّةَ المُحمَّديَّةَ المُبارَكَةَ أنْ يكونَ فيها مَنْ يأمرُ بالمَعروفِ ، وينَهى عنِ المُنْكَرِ .

ثُمَّ بَيَّنَ اللهُ تَعالى أنَّ رَحمتَهُ بِعِبادِهِ تَقْتَضي عدمَ ظُلْمِهِ لَهُمْ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾

وما كانَ مِنْ سنَّةِ اللهِ تَعالى ، ولا مِنْ عَدْلِهِ في خَلْقِهِ ، أنْ يَظلِمَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ فَيُهْلِكَها وهي مُتمسِّكَةٌ بالحَقِّ ، مُلتَزِمَةٌ بفضائِلِهِ ، عاملةٌ عَلى ما يُصلِحُ أمْرَها وأمْرَ غَيرِها .

ثُمَّ أخبرَ سُبْحانَهُ وتَعالى أنَّ قُدرَتَهُ لا يُعْجِزُها شيءٌ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾

ولوْ شاءَ اللهُ تَعالى أيُّها النَّبيُّ ﷺ لَجعَلَ النّاسَ عَلى دينٍ واحِدٍ ، مُطيعينَ للهِ بطبيعةِ خِلْقَتِهِمْ ، كالمَلائِكَةِ ، ولَكانَ العالَمُ غيرَ هذا العالَمِ ، ولكنّهُ سُبْحانَهُ لم يَشأْ ذلِكَ ، بلْ تركَهُمْ مُختارينَ ، فلا يَزالونَ مُختلِفينَ في كلِّ شيءٍ ، حتّى في أُصولِ العَقائِدِ ، كالإيمانِ باللهِ تَعالى ، ومَلائِكَتِهِ ، ورُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السّلامُ ، واليومِ الآخِرِ ، ممّا لا يَجوزُ الخِلافُ فيهِ تَبَعاً لِمُيولِهِمْ وشَهَواتِهِمْ وتَفْكيرِهِمْ ، يَتعصَّبُ كلُّ فَريقٍ لِرَأيِهِ ، وما وُجِدَ عليهِ آباؤُهُ .

---

(١) مسند الإمام أحمد : ٢/١ حديث رقم (١) .

ثُمَّ بَيَّنَ سُبْحانَهُ أنَّ رحْمَتَهُ اقْتَضَتْ وُجودَ مَنِ اتَّفقوا عَلى الإيمانِ ، وسَلِموا مِنَ الخِلافِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ .

لكنَّ الَّذينَ رَحِمَهُمُ اللهُ تَعالى لِسلامةِ فِطَرِهِمْ ، فإنَّهُمُ اتّفقوا عَلى حُكْمِ اللهِ تَعالى فيهِمْ فآمَنوا بجميعِ رُسُلِهِ ، وكُتُبِهِ ، واليومِ الآخِرِ ، ولهذهِ المَشيئةِ الّتي اقْتَضَتْها حِكْمَتُهُ تَعالى في نِظامِ هذا العالَمِ ، خَلَقَهُمُ اللهُ سُبْحانَهُ مُستَعدّينَ لهذا الثّوابِ والعقابِ ، وبِهذا يَتحقَّقُ وعْدُ ربِّكَ تَعالى ، بأنّهُ لا بُدَّ مِنْ أنْ يملأَ جهنَّمَ مِنْ أتباعِ إبليسَ مِنَ الجِنِّ والنّاسِ السّابقينَ مَعَ أقوامِهِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

ونَقصُّ عليْكَ أيُّها النَّبيُّ ﷺ مِنْ كلِّ نَوْعٍ مِنْ أخبارِ الرُّسُلِ عليهمُ السَّلامُ مَعَ أُممِهِمْ ، ما نقوّي بِهِ فُؤادَكَ عَلى القيامِ بمشاقِّ الرِّسالةِ ، وقدْ جاءَكَ في هذهِ الأخْبارِ بيانُ الحَقِّ الّذي تَدعو إليهِ ، مِثْلَما دَعا السّابِقونَ مِنَ الرُّسُلِ مِنْ تَوْحيدِ اللهِ تَعالى ، والبُعْدِ عمّا يُغضِبُهُ ، كما جاءَكَ فيها ما فيهِ عِظَةٌ وعِبْرَةٌ ينتفعُ بها المُؤْمِنونَ ، فيَزْدادونَ إيماناً ، ويَنتفِعُ بها المُؤْمِنونَ ، فيُسارِعونَ إلى الخَيْرِ والصّلاحِ .

ثُمَّ أمَرَ اللهُ تَعالى نبيَّهُ ﷺ بالسَّيْرِ في طريقِ الحَقِّ دونَ مُبالاةٍ بتهديدِ أعدائِهِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴾ .

وقلْ أيُّها الرّسولُ ﷺ لِهؤلاءِ المُشْركينَ الّذينَ يَضَعونَ العَقَباتِ في طريقِ دَعْوَتِكَ ، ويُصِرّونَ عَلى الكُفْرِ والعِنادِ ، قلْ لَهُمْ : ابْذُلوا أقْصى ما في قُدْرَتِكُمْ من مُحارَبَةِ الإسْلامِ ، وإيذاءِ المُؤْمِنينَ ، فإنّنا ماضونَ في طَريقِنا ثابِتونَ عَلى عَمَلِنا الّذي هَدانا اللهُ تَعالى إليهِ منْ دونِ الْتِفاتٍ إلى كُفْرِكُمْ وأذاكُمْ .

ثُمَّ أمَرَهُمُ اللهُ تَعالى عَلى لِسانِ نبيِّهِ ﷺ بالانْتِظارِ ، فقالَ تَعالى :

﴿ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ .

وانْتَظِروا ما تَترقَّبونَهُ لَنا ، إنَّنا كَذلِكَ منتظِرونَ وعْدَ اللهِ تَعالى لَنا بِنَجاحِ الدَّعوةِ والانْتِصارِ عَلَيْكُمْ .

ثُمَّ خَتَمَ اللهُ تَعالى هذهِ السّورةَ الكَريمَةَ بالآيةِ الجامِعَةِ ، فقالَ سُبْحانَهُ :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

ولله تَعالى وحْدَهُ عِلْمُ كلِّ غَيْبٍ في السّمواتِ والأرْضِ ، فَيَعْلَمُ ما سَيحِلُّ بكمْ ، وما يكونُ لَنا ، وإليهِ وحْدَهُ يَرْجِعُ تَصريفُ كلِّ أمْرٍ مِنَ الأُمورِ ، وإذا كانَ الأمْرُ كذلكَ فاعْبُدْ ربَّكَ وحْدَهُ ، وتوكَّلْ عليهِ ، ولا تَخْشَ أحداً سِواهُ ، وما ربُّكَ بغافِلٍ عمّا تَعملونهُ جَمعياً أيُّها المُؤْمِنونَ والكافِرونَ ، وسَيُجازي كلاًّ بما يَستَحقُّهُ في الدُّنْيا والآخِرَةِ .

دُروسٌ وعِبَرٌ :

تُرشِدُ الآياتُ الكَريمةُ إلى دُروسٍ وعِبَرٍ كثيرةٍ ، مِنْها :

١ـ لا تَستقيمُ الحياةُ إلاّ أنْ يُوجَدَ مِنْ أهلِ الأخْلاقِ والدّينِ مَنْ يَنهى عَنِ الفسادِ .

٢ـ في الأمْرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ حياةٌ للأُمَّةِ وحِمايةٌ لها مِنَ الهَلاكِ .

٣ـ صَلاحُ النّاسِ الدّينيُّ والدُّنيويُّ مانِعٌ مِنْ أخْذِ اللهِ تَعالى لَهُمْ بالعذابِ .

٤ـ الاخْتِلافُ بَيْنَ النّاسِ مِنْ سُنَنِ اللهِ تَعالى .

٥ـ في قَصصِ الأنْبياءِ تَثبيتٌ لِفؤادِ النَّبيِّ ﷺ والمُؤْمِنينَ .

التَّقْويمُ :

أَجِبْ عَنِ الأسئلةِ التّاليةِ :

١ـ ما معنى : أُولو بَقيَّةٍ ؟

٢ـ هاتِ الدّليلَ مِنْ آياتِ الدرّس عَلى ما يلي :

أـ الّذينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ في الدُّنْيا قِلَّةٌ .

ب ـ الصّالِحونَ المُصْلِحونَ آمِنونَ مِنْ إهْلاكِ اللهِ تَعالى لَهُمْ .

ج ـ الاخْتِلافُ سُنَّةٌ إلهيَّةٌ في البَشَرِ .

د ـ قَصصُ الأنْبياءِ لِتَثْبتِ فُؤادِ النَّبيِّ ﷺ .

٣ـ بيّنتِ الآياتُ الكَريمةُ أنَّ عَدَمَ الأمْرِ بالمَعروفِ والنَّهْي عَنِ المُنْكَرِ مَدعاةٌ لِعذابِ اللهِ تَعالى ، وضِّحْ ذلكَ .

٤ـ في الآياتِ الكَريمةِ تَوبيخٌ لأهْلِ مَكَّةَ ولِكُلِّ المُفْسِدينَ ، وضِّحْ ذلِكَ .

نشاط

ـ اكْتُبْ في دَفْتَرِكَ الآيةَ الّتي تُبيِّنُ خَيْرِيّةَ هذهِ الأُمّةِ الّتي تَنهى عَنِ الفَحشاءِ والمُنْكَرِ .

* * *

المراجعُ

١ـ القرآن الكريم .

٢ـ تفسير التحرير والتنوير ، لمحمد الطّاهر بن عاشور .

٣ـ تفسير القرآن كلمات وبيان ، لمحمد حسنين مخلوف .

٤ـ تفسيرُ المنار ، لمحمد رشيد رضا .

٥ـ التفسير الوسيط ، لمحمد سيد طنطاوي .

٦ـ التفسير الوسيط ، للجنة من علماء الأزهر .

٧ـ في ظلال القرآن ، لسيّد قطب .

٨ـ تفسير الطَّبريِّ .

٩ـ سنن أبي داود .

١٠ـ سنن ابن ماجة .

١١ـ سنن التِّرمذيّ .

١٢ـ صحيح البخاريِّ .

١٣ـ المعجم الصغير ، للطبرانيِّ .

* * *